الأعمال الكاملة

خيري شلبي



الشطار

اهداء

الى المرحوم عبد الجواد أبو سليمه .. الذى تنبأ لى ـ وأنا طفل ـ بأن اكون كاتبا ..

الى ابنه عبد الصمد أبو سليمه .. أنشط قرائى .

كلمة وفاء من

خيرى شلبى

الشطار

باب الشارع

● كيف انتميت الى بنى الأزرق :

ها أنذا قد عدت كما كنت كلبا شريدا بلا مأوى ، بعد أن كان قد صار لى اسم أنادى به وصاحب يسأل عنى وأنبح لحسابه ويطعمنى ويمرر كفه على جلدى ، وبعد أن كنت أطيح فى شارع بأكمله من كلاب العاصمة فلا يوقفنى أحد • حتى لقد أعجب بى كل من رآنى وعرفنى فصاروا يقدمون لى الطعام بأنفسهم اذا عجز صاحبى « كحكوح » عن اطعامى وما أكثر ما كان يعجز أو ينسى وما أكثر ما كنت أقوم بجولات استطلاعية فى الحارة والحوارى المتاخمة أتشمم رائحة من أعرفهم ويعرفوننى •

جبلت وأبناء جنسى على مطاردة الذئاب والثعالب وأشباهها ، لكننى تعلمت فى هذه المدينة وفى صحبة صاحبى أن أقوى الذئاب وأخطر الثعالب هم من بنى البشر • الا أننى لا أتنازل ولا أملك التنازل عن جبلتى . فما أن يجلس صاحبى فى مكان حتى أتركه وأجلس بعيدا ثم أعود فأجرى نحو الجالسين معه فأتشمم رائحتهم واحدا وراء الآخر ، أنفر فى بعضهم وأنجذب الى البعض الآخر ، أجرى الى الخلاء المحيط فأحدده بقفزات فى كل اتجاه ، أبول هنا قطرات وهناك قطرات وأكمل البول فى المنافذ المفتوحة ، لأكون بذلك قد أعلنت عن وجودى فى المنطقة لأى حيوان تسول له نفسه اقتحامها ، فمن أى اتجاه يجىء سوف يشم رائحة بولى فيتردد كثيرا قبل اقتحام المكان •

في البداية كنت دائم النباح اذ أن النباح هو الصوت الوحيد الدال على الانتماء • لكنني بمضى الزمن وجدت ألا داعي للنباح باستمرار فليس من غريب ، فزبائن صاحبي معروفون ، هم ، هم يزيد عليهم أفراد في صحبة الزبائن الأصليين ، كنت أنبح في وجوههم أول الأمر ، ولكن سرعان ما تبينت ان هؤلاء مثل أولئك زبائن كرماء قصدوا الى محلة صاحبي كحكوح طلبا لمزاجهم •

لله ما أغرب هذا المزاج • يجلسون جماعات أو فرادى ، أمام كل منهم « ورقته » • أعرف ان الورق هو ذلك الذى تكتبون عليه وتطبعون ما يسمى بالجرائد تغطون بها جثث القتلى فى الطرقات • أعرف هـذا فعشرات الصفحات قرئت على فى تكعيبة صاحبى كحكوح على أنغام كركرة الجوزة • كانوا يغرقون فى الضجيج وأنا وحدى الذى أتفرج وأتثاءب من فرط الملل والقرف ، حتى لقد صرت كلبـا عبقريا وبعضهم يلقبنى بالفيلسوف كلما رآنى غير مندفع نحو المهاجمة أو غير مرحب بالدخول فى حملة تمزيق لحم وهلهلة ثياب ، فان هم تطاولوا كشرت لهم عن أنيابى وزأرت زأرة واحدة أشم على أثرها رائحة الخوف تتصاعد من جوفهم • انهم عندى بكل ثرثرتهم وثقافاتهم وقلحسانهم كالورق الذى يتصفحونه أو يحبرونه أو يشربونه فى غرزة صاحبى كحكوح ، اتصفحهم فأشـعر بالملل والقرف •• لهذا ولغيره فأنا مثلهم فى النهاية كلب مثقف ولكن رغم ثقافتى لا أعرف ان كنت مثقفا لأننى كلب من بنى الأزرق أم اننى كلب لأننى مثقف من بنى الأزرق ؟ ••

أما الورقة عند صاحبى كحكوح فهى قطعة من الخشب المستطيلة مدقوق فوقهـا عشر مسـامير بارزة الرأس فى صفين متقابلين فى كل مسمار يلبس حجر • والحجر ــ وأنتم سيد العارفين ــ هو حجر الجوزة • فوق الحجر دخان معسل ، وفوقه ذلك الذى تشربونه ليل نهار وتخافون من ذكر اسمه ، مثل عشرات الآلاف من الأشياء التى تقومون بفعلهـا وتستنكرون اسمها وفعلها ••

ليس الميلاد ان يهبط الكائن من بطن أمه الى الأرض ، انما الميلاد الحق هو ابتداء لحظات الوعى بالمكان فى المكان • وهكذا فاننى مولود الى غرزة صاحبى كحكوح ومنطقتها • وهكذا فاننى أحببت هذه المنطقة برمتها فصرت أعظم مواطن على متنها ، وأظن أن الكلب هو أعظم مثل على المواطنة الحقة • أما طفولتى الحقيقية الأولى فلست أذكر منها سوى ذلك المشهد الكامن دوما فى ذاكرتى ، أتذكره الآن ربما لأنه حدث فى مكان كهذا ، وربما لأننى أشم الآن رائحته ، وربما لأننى عدت شريدا كما كنت من زمن طفولتى البائسـة ، ان بؤس الطفولة لا يقـاس بعدد سنوات الشقاء ، بل ان الطفولة كالثوب أبيض ربما أفسدته بقعة سوداء واحـدة وان كانت صغيرة •

فوق مرتفع جبلى كهذا كنت ، بكل السعادة ، أصارع أمى صراعا حارا ـ كده وكده ـ هى تفتعل انها عدو يهاجمنى ، أنا أرد الهجوم ، لا يعجبهـا ردى ، تفعل أمامى ما يجب أن أفعله ، وحدهـا ، ثم تعود فتنقض على حتى لأتصور انها ستفقأ عينى بأصبع قدمها أو تمزق أنفى بأنيابها ، وهى فى الواقع تقدم لى طريقة الهجوم والتصدى بالذروة التى أحس عندها بالوقوع فى الخطر الحقيقى فيصبح الفعل المضـاد بعض سلوكى كنت فى لحظة نشاط وزأطته لم أعهدها فى طفولتى من قبل ، وكنت قد اكتشفت اننى أستطيع فعل أشياء كثيرة يهتز منها بدن العدو أيا كانت قوته ، كما اكتشفت اننى أستطيع ـ وهذه حكمة أمى بنوع خاص ـ أن أستخدم النباح والزمجرة بدقة محسوبة يضاعف من قوتى - يومها رحت أترك أمى متعبة من مزاحى الثقيل ، فأتبختر بعيدا عنها منتصب الذيل مرفوع الأذنين ، أتقافز فى الهواء ثم أهبط عليها من عل ، أو أصعد اليها من أسفل ، فاذا بى أسمع صراخا تمزقت منه أحشائى • كانت أمى لحظتها مضروبة بنبوت فوق دماغها المحندق الجميل ، وشلال من الدم يلفع رقبتها ودماغها • كانت هى قد اشتمت رائحة العدوان وكنت أنا أيضا قد شممتها • أجزم اننى رأيت فزعه أمى لبرهة وجيزة لكن الضربة فاجأتها قبل أن تتحرك ، فأخذت هى تجرى فوق المرتفع الموحش

صارخة عاوية وبسرعة جنونية ، تقع فتتدحرج قليلا ثم تتماسك فتنهض مستأنفة الجرى كالهواء · صرت أجرى خلفها فوق شريط من دمها ممتد كحبات عقد منثور ، لحظة أوشكت على اللحاق بها كانت هى قد صعدت فوق قمة عالية ثم اختفت فى الحال من فوق القمة تماما كأنهـا ذابت فيها · جذبنى شريط الدم المرتبط بأنفى حتى أوصلنى الى نفس القمة فاذا بى أرى فى القاع مستنقعا مترامى الأطراف يمتلىء بأعشاب وحلفاء ، وأمى تنحدر اليه متدحرجة ثم تغيب فى القاع ·

ستر ربنا اننى أوقفت اندفاعى مرة واحدة ثم ارتددت الى الخلف بقفزة عالية · كان شريط الدم قمينا يجذبنى الى القاع لولا ان رائحة المستنقع كانت أقوى من كل رائحة ، فاستدرت عائدا أتابع شريط الدم حتى انقطع ، فأخذت أعوى وأصرخ وأنشال وأنحط فوق الأرض الى ان هدنى التعب وكرهت أولئك الذين يتميزون عن جنسنا بكونهم يمشون على قدمين اثنتين ، كرهت بياض بشرتهم وسمرتها على السواء بل كرهت رائحتهم ، وقررت من فرط الغضب والخوف ان أمزق لحم أول من أشم رائحته منهم · ثم اذا بى أشم الرائحة بالفعل فأتأهب للانقضاض وأكتشف أن بداخلى قـدرة كبيرة على الزمجرة · لكننى لأمر ما لست أدريه على التحديد لم أنقض بل لم أتحرك ، انما ركبنى الرعب فجأة ثم انكمشت على نفسى أواصل العواء الواهن من دماغ يكاد يختفى فى الجسد ··

خيرا ما فعلت · فذلك الذى يمشى على قدمين كان وياللعجب تفوح منه رائحة الود · نحيف القوام كالمسلة ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، أستطيع الالمام بوجهه كله فيما أنا مقع فى مكانى لا أريم · وجهه ملىء بالأخاديد الباسمة يعانى من جفاف مزمن · أسمر البشرة أصفر الأسنان يرتدى سروالا فوقه جلباب بالطو كالح عرفت فيما بعد أنه كان يرتديه كولونيل المانى فى الحرب العالمية الثانية قبل أن ينتقل الى هذا الجسد عبر عدد من تجار الروبابيكيا · لم يكن يحمل نبوتا ولا شىء يضربنى به ، بل كان بيده أرغفة ساخنة تعطر الهواء برائحتها · كان يمشى فى حالة فلما حاذانى نظر فى مبتسما كأنه يحيينى ··

تسللت وراءه لأرد التحية بأحسن منها · أتراقص حواليه أتشمم ثيابه ولحمه ، يهوشنى تارة ويزجرنى · أخيرا امتدت يده فاقتطعت لقمة كبيرة من الرغيف الساخن ورمت بها تجاهى فسقطت اللقمة بين فكى مباشرة · من شدة فرحى بها لم أشأ زلطها فى الحال دفعـة واحدة ، ظللت محتفظا بها بين فكى فيما أنا منساق وراء الرجل ، حتى دخل منطقة بها بيوت وناس كثار وضجيج وزلزلة · صرت أرسم الطريق فى عينى قطعة قطعة · دخل حارة ضيقة مليئة بالدكاكين والصناديق وأبناء جلدته ذوى القوام المسنون والوجه الأسمر الطحينى ·· دخل بابا خيل الى أنه باب بيته فتوقفت برهة كأنما أنتظر أن يأذن لى بالدخول ، فلما رأيته يواصل السير مضيت وراءه من جديد فاذا بنا فى حارة جديدة أضيق من السابقة وفيها هدوء ، وكنت أتراقص من البهجة وأطوح ذيلى ، فما أدرى الا وقطعة الخبز قد انسحبت من بين فكى بكل بساطة ، سحبها كلب عتل ؛

سقط ذيلى فالتصق ببطنى وتسللت جريا وراء ذلك الرجل وخيبة الرجاء تذلنى حتى رأيته يصعد سلما ضيقا عجوزا مبنيا من الأسمنت لكنه متآكل الدرجات · صعدت وراءه مسرعا وأنا أظنه قد دخل داره ، لكننى عند الدرجـة الأخيرة رأيت تلة منبسطة عليها عديد من البيوت والدكاكين والممرات القصيرة الضيقة · توقفت برهة والدموع تفح الصهد فى عينى فابتلعها · فى الباب المواجه دخل الرجل ثم اختفى · أخذت أتشمم الأرض ، لوقت طويل ثم اننى استرطبت بقعة هامة انطرحت فوقها ورحت أرقب الطريق مستعدا للهب والانقضاض · كان الملل والجـوع يفقدانى كل حماس ويقعدان بى ، الا ان الحماس كان يدب فى كلما لمحت ظلا يخرج من أى باب ، الى أن فوجئت بذلك الرجل يخرج الى ثانية ويقبل نحوى فى ود حاملا وعاء به طعام أمامى ، فأخذت أرقص حوله مثيرا ضجيجا هائلا فضربنى الرجل ببوز حذائه فى فمى ضربة آلمتنى · لكن هذه البقعة – مع ذلك – أصبحت مرقدى ومربطى ·

وبذلك صرت واحدا من بنى الأزرق بل صرت أزرقيا أكثر من بنى الأزرق ، وقرأت كل تاريخهم واستمعت الى آدابهم وأساطيرهم ، حتى ذلك الكتاب الفخم المشهور بين المثقفين منهم ويتحدثون عنه دائما دون أن يقرأوه ، قدر لى أن أقرأه ، اسمه (الزرقانه) وهو عبارة عن سجل فنى يحفل بكل صغيرة وكبيرة عن بنى الأزرق وان كان على هيئة قصص وحكايات مؤلفة ، ان أردتم له شبيها فى دول أخرى فيكون من اشباهه (ألف ليلة وليلة) فى الديار المصرية المجاورة و (الشهنامة) فى بلاد الفرس و (الالياذة) فى بلاد اليونان حسبما أذكر • فان شئتم تعريفا جيدا جامعا شاملا لبنى الأزرق فاننى أحيلكم على مقدمة (الزرقانة) حيث يقول مؤلفها المجهول :

(بسم الله الرحمن الرحيم)• أما بعد فيقول الراوى أنه لما كانت القصص والنوادر موضوعة لافادة الناس وتسلية الخواطر لا سيما قصة بنى هلال وما جرى لهم فى سالف الأجيال من الوقائع والأهوال التى يشيب لها الأطفال •• فقد رأينا أنه من الأوفق لنا ولبنى جلدنا ان نتتبع أمر أولئك الأطفال الذى شيبتهم الأهوال من كثرة الترحال فى الخيال •• فاذا بهم قد صار لهم شأن غريب فى أحوالهم ، حيث تكونت عندهم حصانة ضد الأهوال امتدت الى ما لحقهم من أجيال فصار الشيب يولد مع الأطفال ، وصار الطفل يأتى ليكافح الأهوال فلا ينتصر عليها بحال ، ورغم ذلك لا ينشغل له بال ولا يصيبه بلبال ، ولربما أطال للأمور الحبال ، فقد علموه فى النوادر والأمثال ان احتضان الأهوال من شيم الرجال ••

« ثم انه تكونت من هؤلاء الأطفال قرية كبيرة كبيرة ، لها فى كل شىء تعويذة وشـــعيرة ، يقال لهم بنو الأزرق الملاعين • شـــعارهم : ولا الضالين أمين • يجرى بين ظهرانيهم نهر خصيب ، لكنه عجيب غريب ، حيث أصبح ـ وهو العملاق ـ رخوا فى يد الحسيب والنسيب • ويقولون ان واحدا من قدامى الفراعين ، حلاله أن يفعل الأفانين ، حول ماءه الى موج سجين ، فصار النهر الى عنين •

« ولما كان بنو الأزرق قد دربوا على الأهوال من قبل أن يولدوا ، فانهم الى الأمان والهدوء أخلدوا • فجاءت سيرتهم سيرة ظريفة مشتملة على نوادر وأخبار ظريفة تتلذذ بسماعها النفوس والأذان والله المستعان •

« وهؤلاء القوم يعشقون النوم وتخلو حياتهم من اللوم • غير اننا نحب أن نوجه ملحوظة غير ملموزة • فبعد ان انتهينا من كتابة هـذه التغريبة الغريبـة ، فوجئنا بظاهرة عجيبة ، وهى ان بعض المدن فى المناطق والدول القريبة لها أسماء تتشابه مع أسماء مدن هذه التغريبة •• فقد ســمعنا ان الديار المصرية مثلا ـ وهى دولة على حـدودنا الأمامية والخلفية ـ فيها هى الأخرى مدينة تسمى القاهرة •• فنحن اذن غير مسئولين عن هذه الظاهرة ، فالله يخلق من الشبه أربعين ، وكل مدينة لها قرين •• والدليل على ذلك ان هناك مدنا كثيرة على خريطة العالم تسمى الاسكندرية ، ومع ذلك فلكل مدينة تاريخ وشخصية وهوية •

•

« فان اكتشف القارىء الجليل انه يعرف مدنا بنفس الاسم الذى يطلق على بعض مدن حكايانا ، أو ظروفا تتشابه مع نفس الظروف فليس ذلك ضمن نوايانا ، وليس هو هدفنا وليس مرمانا • فندعوا الله العلى العظيم أن يكون من الشر ومن خسيس النوايا ـ قد وقانا » •

ولست أحب الاسترسال فى قراءة (الزرقانة) فهى طويلة وليست فى ذاكرتى كلها • انما أحب القول بأننى أحببت بنى الأزرق منذ اتضح لى اننى فى الأصل منهم غير انى من فصيلة الكلاب ، أى أولئك الذين انحصرت مهمتهم فى الهوهوة على الآخرين بأمر الأسياد من شاكلة صاحبى •

الباب الكبير

● ما كان من أمر صاحبى كحكوح :

- ١ -

كنت أرافق صاحبى كحكوح ، حيث نغرق فى شوارع المدينة وحواريها الضيقة ، لنعود بعد وقت يقصر أو يطول • الغريب أن صاحبى لم يكن يشعر بوجودى الا وهو عائد ، اذ أراه يتلفت حواليه وخلفه كثيرا فأعرف انه فى قمة الخوف وعدم الاحساس بالأمان فأطلق هوهوة صغيرة أطمئن بها فؤاده • وكان يبدو منبسط الأسارير ضاحك السن ، أفلم يأخذ هو الآخر مزاجه كما ينبغى ؟ لقد ظل طول النهار يبيع الحجارة للزبائن ويقبض منهم جنيهات • وفى مقتبل الليل يدخل بيوتا غلبانة الغلب كله ••

أدخل وراءه ، فنمر على أسر بكاملها تطل من غرف متجاورة ومتقابلة لنتوقف عند احدى الغرف وندخل دون استئذان أو نحنحه • نرى سريرا ملفقا ، يجلس عليه رجل وحوله مجموعة من رجال محترمين جدا يلبسون

الجلابيب الصوف والبلاطى الجوخ رغم منهم يدفع عشر عشرات من جنيهات ويأخذ ثلاث برشامات صغيرات واحدة اسمها رتيالين واثنتان اسمهما ماكس فورت ، ولـوح زجاج وقطعة حـديد ، بهذه القطعة فوق اللوح يطحن البرشامات حتى تصير مسحوقا ناعما يملأ علبة كبريت ، يفرغ منها على اللوح الزجاجى ويبرم ورقة سميكة يجعلها اسطوانة ، يضع طرفيها فى طاقة انفه والطرف الآخر فوق البرشـام المطحون ، يشفط بأنفه جاعلا طرف الورقة الاسطوانة يزحف على الزجاج ليلتقط أى شعره سارحة • يحمر وجهه وينتفخ بالصحة والعافية وتجحظ العينان فى بهجة باهاء •

- ٢ -

يفعل صاحبى هكذا مرة كل يوم ويدفع ثلاث ورقات بثلاثين جنيها أخذا معه تموين بقية الليل • واذ نعود الى محلنا آراه طول الطريق يبرطم بكلام أعرف منه ان فلانا وعلانا من بائعى البرشام كانوا صبيانا لديه يضربهم على أقفيتهم قبل ان يصبحوا مليونيرات تسكن فى كهوف ، ذلك ان قرص البرشام الذى يباع له ولغيره بعشرة جنيهات ثمنه فى الصيدلية داخل علبته قرش تعريفه أى خمس مليمات ولكن الصيدلية لا تبيعه أبدا بل ينظر لك الصيدلى فى استنكار اذا سألته عن هذا الدواء ببراءة ويقول من بين أسنانه : « حطوه فى جدول المخدرات » ، ومعنى هذه العبارة فى الواقع انهم وضعوا هذا الدواء فى جدول المخدرات التى لا يبيعها سوى التجار سرا فى الشوارع الخلفية وفى الحوارى • أما كيف يصل البرشام الى هذه الكهوف وأمثال هؤلاء الناس فذلك أمر – كما يقول صاحبى – شرحه يطول •

كل الأمور فى نظر صاحبى شرحها يطول • لذا فهو قد أخذ على عاتقه أن يظل العمر يشرح حتى دون أن يطلب منه ذلك ، يشرح أى شىء لأى ناس فى أى مكان فى أى لحظة • لكن لحظات الشرح تكون مجلوة ومبهجة فى مطرحه ، حيث يجىء له الولد بزجاجة البيرة ليكرعها فى

ثلاث جرعات فيما هو واقف على درجة عظيمة من التحفز والجدية ، بقامته القصيرة وعوده الرفيع وعمامته المصرية المملوكية الكبيرة والبالطو ٠

ينثال حديثه الخطابى مصحوبا بتعبيرات من وجهه ويديه فتحس كأنه متحف شخصيات فى شخصية واحدة : على الكسار ٠٠ واعظ من قدامى وعاظ المساجد ٠٠ محام فى الأرياف ٠٠ شيخ طريقه ٠٠ ابن بطوطة ٠٠ رمسيس يخطب فى امبراطوريته ٠٠ دجال طى الحديث يبيع شربة الدود أو تذكرة داوود ٠٠ هو كل ذلك حين ينخرط فى الحديث أمام جمهوره الغفير ٠ جمهوره ليس سوى زبائنه من أهل المزاج الذين يتابعونه بجدية ودقة عجيبتين ، يرسلون الضحكات الصاعقة من منطقة المتداخل وعباراته الفصحى لابسه ثوب العامية أو التطجين العامى لابسه ثوب الفصحى ، حذلقة وضبط مخارج ألفاظ ليست تنطق هكذا ٠٠ وعلى كل حال فصاحبى قارىء نهم للصحف كأنها تصدر له وحده ٠

– ٣ –

أول شىء يفعله عند خروجه من البيت ظهرا شراء الصحف والمجلات كافة ، يصعد بها الى ربوته ، يفرش الجوال على الأرض الرطبة واضعا فوقه مخدة مصنوعة من القش ثم يضطجع ويفلى الجرائد والمجلات فى صبر خرافى ٠ عند منتصف النهار يجىء الصنايعية واحدا وراء الآخر أو قد لا يجىء منهم أحد ٠ فان جاء رأيته دبلان الجسد والوجه يجر ساقيه ضائقا بحمل رأسه ٠ يبدأ من فوره فى تنظيف الحجارة وتحصيتها وتعسيلها ٠ وان لم يجىء فلابد انه تعب من الفرح الذى استأنفوا فيه سهرتهم بالأمس حتى الصباح ، أو لابد انه قد أمسكته الشرطة للتحرى ، أو لابد انه سلم نفسه للجيش هربا من جريمة ، أو لابد ضبطوه متلبسا فى قضية سرقة ٠٠ حتى الزبائن هم الآخرون لا يتخيرون عنهم ، من يجىء من الزبائن يجىء ومن لم يجىء « ٠٠٠ » انهم جميعا أحذية فى قدمى ألبسها وأخلعها وقتما أشاء ٠٠

منه ، فاخذت أعوى من ألم وهو لا ينى يناولنى بالقبضة فوق دماغى بغل شديد فيما أواصل الصراغ والفزع ٠ لحظتها انفتح الباب ثانية وخرجت صاحبتى مندفعة نحوه صارخة : « ما تضربوش ٠٠ دا أنضف منك وارجل منك » ، ثم احتضنتنى وسحبتنى الى الداخل فضاع كل ألم ، فلما اغلقت الباب أقعيت أمامه وجاءت صاحبتى تستحثنى على تناول الطعام ٠

– ١٩ –

استشعرت خطرا يحدق بسيدتى فصرت أنبح حتى ضاقت بى فانفتحت الباب فاندفعت أجرى وهى تشيعنى متحسرة : « تحن اليه يا كلب » فاستدرت عائدا اليها ورحت أتمسح فى أقدامها ثم اندفعت من جديد أجرى الى غرزة صاحبى ٠

– ٢٠ –

أخذت السلم الى الربوة فى قفزتين سريعتين وكانت المياه مرشوشة على الأرض تصنع زلقا حلوا ، وصفرة العصارى مرشوشة على الجدران والوجوه ٠ ثمة ثلاث أو أربع مجموعات من الحشاشين يجلسون فى تقارب وصوت الراديو يلعلع بنبرات أم كلثوم فيطغى على كافة الأصوات ويضفى على المشهد سحرا ٠ سحب الدخان الأزرق تسبح فى تهويمات التيه كأنها قدر مجهول يمضى الى مجهول ٠ وكان صاحبى متربعا فى نهاية الممر شاحب الوجه ممصوص الدم ٠ تبسم أول ما رآنى وسال على شدقيه تفاخرا جوف كأنه يقول : « كان لابد أن ترجع لى » ٠

ثمة رجل أعرفه كان يجلس على كرسى بجواره واضعا ساقا على ساق ويجرع البيرة من زجاجة يضعها تحت الكرسى وبجوار صاحبى مثلها ٠ فعرفت أن فى الأمر صيدا ثمينا يستحق أن يطرح عليه صاحبى

هذه الشباك ، فان يأتى بزجاجة بيرة على حسابه لرجل ويجلسه بجواره هكذا أمر لا يفعله صاحبى الا اذا كان سيجنى من ورائه مكسبا كبيرا .

جاء الولد بالدخان فوضع الخشبة وانصرف . قال صـــاحبى : « رص يا أبو شافيه » . نزع الرجل من خاتمة قطعة حشيش تزن قرشا أو أكثر من النوع الفاخر الذى يسمونه « الهبو » تمييزا له عن نوع « الزيت » ونوع « البودرة » ، وصار يقتطع منها ويضع فوق الحجارة . الزيت فقطعة مبططة فى حجم زرار القميص لأنه أسرع فى الاحتراق ونفسه تصنع نفسا كثيفا جـدا من الدخان الأبيض كالجير . أما تعميرة حجر رص الهبو يختلف عن رص الزيت يختلف عن رص البودرة . تعميره حجر الهبو تكونت صغيرة جدا كحبة السمسم لأنه بطىء الاحتراق والتعميرة يحتاج الى شد قوى ليتكشف . أما تعميرة حجر البودرة فقطعة فى حجم زرار البالطو لأنه أو لأنهـا ـ تحترق برائحة النـار مثل أقمشـة البتروكيماويات ونفسهـا فج مهلهل يتعثر فى الخروج من طاقتى الأنف ويثير الكحة ويدوش الدماغ بتهاويل كثيرة لا أساس لها من الصحة .. هكذا تعلمت من البيئة كلها ..

أبو شافيه يرص بسخاء وصـــاحبى يسرب النظر الى كل تعميرة تستقر فوق الحجر مع ابتسامة صفراء يقول : « نمنم يا أبو شـــافيه داهبو ميحبش الكترة » . فيهز أبو شافيه رأسه فى غير مبالاة . يبرطم صاحبى من بين أسنانه : الله يرحم أيام زمان كنت مش لاقى حجر كبس ودلوقت بتلعب بالهبو لعب » ، ثم يستدرك بلهجة أوضح : « يا أخى طب لما معاك حشيش كتير كده ما تجيب حته ناشفه » . فيشـــوح له أبو شافيه فى استهجان . ثم انه أمسك بالبوصة وشفط نفسا كتمه فى أنفه وقال : « تريد أن أتدخل بينك وبين زوجتك .. ليست تنقصنى المشاكل يا كحكوح .. اخلعنى من هذه الوساطة .. أنت تعرف أنه كان بينى و .. عاجله صاحبى : « أعرف أنه كان بينكما استلطاف قديم ولهذا فقد اخترتك لتصلح فيما بيننا لقد تعبت من النوم هنا وأحس برغبة

شديدة فى الاستحمام » . رد أبو شافيه ضاحكا : « الخوف ان تستحم وتستريح قليلا ثم تفسد العلاقة من جديد .. أعرف طبعك .. تأخذ غايتك من الشىء ثم ترميه بخسه كأنك لم تعرفه من قبل .. من لا يعرف خستك يسألنى أنا » .

صاحبى تلقم حجرا . هو لا يستطيع الرد على أبى شافيه فى هذا الأمر . من هو الآن ليرد على أبى شافيه بندية ؟ هذا حال الدنيا . كان أبو شافيه شيئا وأصبح الآن شيئا آخر . هو الآن معلم كبير يملك محلا على ناصية الشارع فى أهم ميدان سياحى فى وسط المدينة ، ويملك عشرة مخازن على الأقل من بينها واحد فى قلب غرزة كحكوح من الداخل ورجالا يسرحون فى القرى والبلدان يجمعون لحسابه آنية نحاسية وفضية قديمة يبيعهـا المعوزون بتراب الفلوس ، فيقوم هو بتنظيفها وترميمهـا وتلميعها وعرضها فى المحل يشتريها السياح بأموال صعبة . يصرف على دماغه وحده مائة جنيه فى اليوم . علبـة كبريت ملأنه لتمهـا ببودرة الشم ، وأخرى فضية ملأنة بالأفيون الخام لزوم شد الأعصاب ، وثالثة ملأنه بالحشيش الهبو لزوم النفسين . يدفع للصبى خمســـة جنيهات بقشيشا ويستخدمه فى مشاوير لا يقل ثمنها عن ألف جنيه . يتصبر فى الظهيرة بكيلو كباب وأربع حمامات مشويات . كل مشاكله تنحصر فى ان باعة الحشيش والأفيون أصبحوا يغشون ضمائرهم !

ابتلع صاحبى كل مراراته ومال على أبى شـــافيه فى ود مسرحى متقن : « ليس أكثر من كلمتين اثنتين : العشرة والعيش والملح ما يجب ان يكون بيننا أنا وهى » . شـــوح أبو شـــافيه فى غضب مصطنع : « شف لك غيرى يصلح لهذه المهمة » . وانصرف الى توليع الحجر الذى هو فى نظره أنفع من وجود صاحبى برمته . لكنه كان فى أعماقه يتمنى أن يظل صاحبى متشبثا به فى هذا الموقف بالذات .

باب السلاملك

● **كيف قبل أبو شافية مهمة القيام بالوساطة :**

- ١ -

« أبو شافية » محب قديم لصاحبتي فيما سمعت ، كان فتاها الأمثل يوم كان صبي غرزة وصبي كل شيء ·

كان طفلا يوم نسيته أمه في هذا الشارع الحافل منذ أربعين عاما ، ولم يكن متأكدا مما اذا كان قد تاه منها بالفعل أم انها نسيته عامدة متعمدة أم انــه تركها تنساه ؟ كل ما يذكره انه كان يمشي وراءها في الشارع بعد أن ضربته ضربا مبرحا لأنه عجز عن فعل ما أمرته به : أن يكون مسكينا مؤدبا وهو يطلب قرشا لله · ولم يكن يعرف كيف يمكن للانسان أن يرسم نفسه مسكينا وقتما يشاء ، فكان يتصدى للرجل الماشي أو للسائح الجالس على المقهى أو للبائع في متجره قائلا بكل صراحة ووضوح : « هات قرش » فواحد يعجب بصراحته فيعطيه وعشرة ينظرون اليه في استغراب ، وأمه تنزوي به في ركن قصي لتنهال عليه ضربا ··

يومها خفق قلبه خفقة سريعة موجعة وهو يتركها تغيب عنه في الزحام كأنه يجرب الاختفاء ، لم يكن يدري أن التجربة ســوف تنجح فتختفي أمه الى الأبد من حياته مثلما اختفى أبوه ، الذي قيل أنه كان يشتغل في الفاعل فسقطت عليه السقالة ومات ··

- ٢ -

اختفت أمه فظل يبحث عنهـا ســنوات طويلة ، وظل يبحث عن الحجرة التي كانت تنام فيها أمه في حارة سد في حي يركبون له الترام ثم الأتوبيس ثم الترام ثم الأقدام · أبدا لم يعرف كيف يصل ، فظل يرتع في هذا الشارع ، يجمع في اليوم قروشا كثيرة يختزنها في جوفه أكلا وشربا · وكان قد سجل في دفتر السوابق ما دمغ ملفه في وزارة الداخلية بأنه « خطر على الأمن » ، وذلك من كثرة الامساك به والحكم عليه ثم الهرب ثم الايقاع به ثم الهرب · على كثرة ما لف ودار عاشر أقسام البوليس وجرب نوم الحمامات والخرابات وظل السيارات الراكنة والأرصفة لم يجد أحن من هذه الربوة العجيبة ربوة كحكوح العجيب أيحدثك عن جمال الممر وكيف انه شبكة للايقاع بالهواء المتجدد العليل على الدوام ؟ أم يحدثك عن أكبر مئذنتين في المدينة أقامهما اثنان من بناة السلاطين المماليك في زمن مضى كورق النتيجة أو حركة الساعة ليس غير ؟ الممر كما رسمه أحد رواده برزخ ينحدر من أول دور في المئذنة هابطا الى الربوة في اتصال سلس ، من يجلس في هذا الممر ذات عصرية لابد وأن يعود للربوة مرة أخرى وثالثة ورابعة والى ما لا نهاية ·

- ٣ -

لم يكن مقدرا لأبي شافية ــ أو الشحات فيما سبق ــ أن يصعد الى ربوة كحكوح فليس يعرف طريقها الا من بيده الجنيهات الخضراء وهو لم يعرف بعد ملمسهـــا · لم يكن يعرف الا ظل التخشيبة والتشرد · للتخشيبة فوائد جمة على أي حال ، أقربها انه تعرف فيها على بلديات صاحبي كحكوح ومعروف لديه أبا عن جد ، قاده الى الربوة ليعمل صبيا في الغرزة · كان ولدا حلو التقاطيع شحنته الليالي السود بأحلام ودودة دافئة ، وملأته الرياح الشريدة حبا في دفء الأوراق الخضراء · الدرس

الأعظم الذى تعلمه فى حياته ان القرش سيد الأخلاق حاكم بأمره وعلى الانسان أن يستحوذ عليه كيفما استطاع فالشطارة أن تكون معك النقود والخيبة أن تحرم منها · شىء من اثنين لا ثالث لهما فى هذه البلاد : القرش أو العدم ··

ـ ٤ ـ

كان الشحات ودودا ، يضحك فى وجوه الزبائن ولا يدخر وسعا فى خدمتهم على الوجه الأمثل · يعرف خلة « الكييف » ويعزف له عليها بمهارة : النار القليلة المتوهجة والحجر المضغوط فى مكانه بتخشينة ثابتة والماء فى الجوزة يضرب فى نغم محسوب · أبخل الناس أكثرهم كرما فى هذه اللحظة خاصة عند دفع البقشيش · كحكوح مبسوط منه ومما يثيره فى الغرزة من جو نشط · كالنحلة لا يهدأ : يمروح على النار ، يرش الأرض ، ينظف الجوز ، يسيخها ، يكرس الدخان فى الحجارة ، يخف لاستقبال كواكب الزبائن العتاة ، فليس غيره يصحو لهم ويملأ دمغاهم ·

روح يا شحات تعال يا شحات هات يا شحات من فضلك يا شحات بات الشحات نجما لامعا فى ربوة كحكوح العجيبة · تكشف عنده قدرات هائلة ، خاصة قدرته على فض المنازعات بالحسنى مهما كبر حجم المشكلة أو كبر أصحابها ، هو أحسن من يصالح اثنين ـ موهبة تعلمها من التخشيبات والأرصفة ، حيث يتعين عليك أن تعيش فى غير أرضك وتعاشر غير أهلك وتنام فى حضن شر مجهول الهوية ··

ـ ٥ ـ

لا مشكلة أفظع من المشكلة القائمة دوما بين صاحبى كحكوح وزوجته السمراء · دائما أبدا فى مشاحنات وخصام مجهول السبب لهما

فى الظاهر على الأقل · هى طبعا مشكلة تقوم على عشرات الآلاف من الأسباب · كل يوم والثانى يبقى الشحات حتى آخر الليل اذ هو معزوم على العشاء مع المعلم ، فى الحال يعرف الشحات ان المعلمة متوعكة المزاج وانها لهذا خاصمت المعلم ولوت بوزها شبران تقصد ان تذهب به الى السراية · يبدأ الشحات فى الحال يدبر لدخلة مناسبة على المعلمة · انه يعرف وساخة المعلم وما عليه هو الا أن يقوم بتغطية هذه الوساخة ببعض الزواق على حساب المعلم نفسه : يستدرج المعلم فى الطريق شيئا فشيئا ، فما يدرى المعلم الا وقد اشترى لحما وفاكهة وخبزا طريا ·· دخلة تبش لها المعلمة لابد ، ومن ثم تنشط لها · فهيا نريد أن نتعشى يا أم فلان من يدك الكريمة الطيبة ··

تختلط رائحة المعلمة برائحة الطعام فتملأ البيت أنسا وبهجة · لا بأس أن يتحرك الشحات الى المطبخ ليشعل الفحم ويعد الجوزة لحبسة المساء بعد العشاء · لا بأس فالدار داره وهو صبى المعلم مهما كان · حركة الشحات مثل صوته مسموعة فى هذا الحيز الضيق ، يعرف الشحات هذا جيدا فيجعل لكل حركة صوتا يجسدها به ، حتى الغمزة بالعين يصوتها قائلا : هه باقول أيه ·· أثناء تغيير الجوزة واعداد النار فى المطبخ يحكى لها قصصا وحكايات من تأليفه الفورى مؤداها كيف انشغل المعلم بأمرها طول النهار وكيف أنه يشقى ويجعل خده مداسا للذى يسوى والذى لا يسوى كل ذلك فى سبيلها وحق جلال الله ولو أنها تدرى مكانتها عنده لساقت الدلال أكثر وأكثر ··

حينئذ تضحك المعلمة مجلجلة قائلة : « أما صحيح زى اللى بصحيح مزة الواد الشحات انه بيقول بشكل يخلينى عايزه أصدقه » · مهما يكن من أمر فان الشحات حين ينصرف يبقى المعلم والمعلمة فى لحظة صفو تطول أو تقصر لا حديث لهما الا عن الشحات ، المعلم يحاول اقناعها بصدق قول الشحات والمعلمة تحاول اقناعه بأنها موافقة على اللعبة ما دامت هى هكذا ·

- ٦ -

لكن الشحات اذا كان قد صار نجما فى الغرزة وفى الربوة بل وفى الشارع الحافل اذا مشى لا يكف عن القاء السلام ورد الفل والقشدة والتماسى على الوجوه المحيية .. فانه لا يصح أن يصير نجما فى بيت كحكوح أيضا . هذه كارثة . فلقد صاحبى ذات يوم فاكتشف ان الشحات ينام بينه وبين زوجته فى الفراش حتى وهو متمدد على الأريكة فى أى خرابة ..

الشحات الشحات ما الحكاية يا امرأة ؟ أتحبينه على ما يبدو ؟ نعم أحبه لا شك .. تحبينه يا امرأة ؟ .. وما العيب فى هذا ؟ .. أقصد هل تحبينه كما تحبيننى ؟ .. نعم بل و .. قولها بل وأكثر . حاولت المسكينة أن تشرح له أن حبها للشحات يخلو من الدنس العالق بدماغه لكنه لم يعطها الفرصة أبدا .

من صبيحتها خرج الشحات من الغرزة فلم يعد اليها لسنوات طويلة . ولما جاء البوليس فى العصارى ليهاجم الغرزة ويقبض على الشحات الهارب من كذا وكيت لم يجده فضرب كحكوح علقة ساخنة وتركه ومضى . وحتى هذه اللحظة لم يعرف أن صاحبتى المعلمة أرسلت للشحات طفلة صغيرة نادت عليه خلسة فذهب الى المعلمة فأوصته بالفرار لأن زوجها جبلته الغدر ..

- ٧ -

لم يحزن الشحات فى حياته قدر حزنه على مغادرة المعشوقة السمراء . لم يحزن على فراق أمه رغم حبه لها قدر حزنه على فراق « وديعة » زوجة معلمه كحكوح . ظل وقتا طويلا لا يعرف سر هذا الحزن ، ومرت عليه خواطر كثيرة ظن مع كل خاطر منها انه سر حزنه على فراق « وديعة » . قال لنفسه انه لما هرب من أمه كان يهرب من الفقر والتشرد ومن ألم

الفرص ووجع الكلام . أبدا لم يكن حزينا على أمه مثلما هو حزين على انه لن يرى وديعة بعد الآن الا صدفه وبين محاذير ..

لم يكن قد عرف فى أمه مثل هذا النبع الفياض بالحنان . صحيح ان امه مسكينة وكانت تنتقم فى شخصه الضعيف من نذالة الموت وخسة البشر فى المدينة . لكنه لم يعرف من قبل أبدا مثل هذه المشاعر الطازجة الحلوة التى شعر بها منذ أول يوم زار فيه بيت المعلم . أحس لأول وهلة انه ادمى ، انه أمام أنثى بكل معنى الكلمة كل وظيفتها فى الحياة ان اريك ما لم تكن تراه فى نفسك من قبل ، أول شىء تريكه انك بالفعل رجل وأى رجل ، لا تسىء فهم كلامه من فضلك ، فليس يصور لك عاهرة داعرة تخون زوجها فى سياحة بين أحضان الرجال ، لا والله ، لا . ان وديعة سيدة لا يمكن وصفها بكلام ولا التعبير عن وقعها فى النفس ، فمجرد ظهورها أمامك للنظرة العابرة يوقظ فيك الأشياء الحلوة الطيبة ويشعرك فجأة انك قادر على مواجهة الدنيا كلها بمفردك طالما هى معك ، فما بالك لو نظرت اليك ، فكأن العينين الكحيلتين لم يسبق لهما النظر الى أحد سواك نظرة كأنها الدنيا قد جاءتك مثلما تحكى الحواديت ، السسوا يصورون لنا الدنيا امرأة تقبل على الموعود لتسقيه النعيم بالهناء والشفاء ؟ فمن تكون امرأة الحواديت سوى هذه ؟ ولئن كانت الحواديت تعود فتتصم هذه المرأة بالغدر وادارة الظهر للانسان بعد طول عز فما ذلك الا دليل مضحك على هيافة البشر اذ هم يتصورون ان الدنيا يمكن ان تظل تعطيهم وجهها الصبوح على الدوام حتى ولو كانوا هم ملوثين غارقين فى الوحل والنذالة والسفه ، الدنيا ـ هكذا تقول نظرة وديعة ان طالتك ـ كالمرآة لابد ان تريك القبح الذى على وجهك ..

يقول الشحات لزملائه فى الغرزة حواديت يزعم ان أمه كانت تحكيها له فى المساء لا لشىء الا ليدلل على انه كانت أمه تحكى له الحواديت . وكلها حواديت تدور حول أميرة سمراء وقعت فى قبضة صعلوك لا وزن له فانقلبت الآية وأصبح الخسيس يتحكم فى الأصيل ويحبس حريته ، ولربما تكون أمه قد حكت له اطار هذه الحواديت

فعلا ولكن كل أميرة فيها تمثلت مجسدة فى زوجة معلمة وديعة ، وكل صعلوك شرير وكل سفاح وكل مسيطر متجبر تمثل مجسدا فى معلمه كحكوح ٠

- ٨ -

أبدا لم يكن الشحات يعرف انه واقع لشـوشته فى حب وديعة وأن لوثة توشك أن تلطش دماغه ٠ كان يقضى الساعات الطويلة شاردا مع أغانى أم كلثوم ويذوب حرقة فيها ويضبط لها الراديو على الشعرة ٠ لاحظ عليه الولد صديقه قريب المعلم انه قد تخلص من الهزل ومن أشياء كثيرة كانت فيه ، لاحظ عليه أيضا انه استقام بدرجة لا يصدقها الدماغ ٠ ففجأة بعد ان كان الشحات ولدا مخربشا يزور تخشيبة القسم كل بضع ليال ويقف مكلبشا أمام النيابة كل بضعة أشهر ومخفورا بالقفص الحديدى أمام القضاء كل سنة أو أكثر ، صار رجلا بمعنى الكلمة ملء هدومه يعتمد عليه المعلم فى أخطر المسائل بل ان زبائن الغرزة يحترمونه أكثر مما يحترمون المعلم ولا يصدقون الا كلمته ولا يأتمنون أحـدا غيره على أسرارهم ، الا فظع من هذا ان بعضهم ـ وهم ذوى مراكز كبيرة وجاه أكبر ـ يشركونه فى همومهم ويتحدثون اليه بها أثناء قيامه بسقياهم ، الأغرب من الأفظع أن الولد بالفعل ماء من تحت تبن كما يقولون فى المثل ، لا يفشى سرا ولو قطعت رقبته فان سألته عما كان يدور بينه وبين الزبائن من حديث وحلفته بالأمانة أن يصدق لف ودار وحكى لك أشياء يحلف انها ما حدث ولكنها أبدا لا تكون ما حدث ، فكيف أوتى بكل هذه الكياسة والرجولة والحكمة وهما اخوة فى التشرد من الطفولة ٠٠

كان صـــديقه لا ينى يردد هذه الملاحظات على مرأى ومسمع من الجميع وفى مشهد مسرحى ضاحك والشحات لا ينفعل ولا يزعل بل يكتفى بأن يحصى عليه أمورا تثبت هيافته ٠

- ٩ -

الواقع ان الشحات نفسه لم يكن يعرف سر هذه النقلة الخطيرة التى طرأت على شخصيته فكأنه ارتكز على الأرض حقا بعد طول سباحة فى الفراغ ٠ يقول لصديقه وقد لعب الحشيش برأسه ان فى نفس كل واحد خرابة عبارة عن هديم متراكم ، منا من اذا فحت فى داخله وجدت تلا من الطوب والتراب فوق حجرات كاملة ومفروشة بالتمام ٠ ومن اذا فحت فيه وجدت ماء مالحا ، ومن اذا فحت فيه وجدت الهديم بلا نهاية ، ومن اذا فحت فيه وجدت بوادر كنز وحينئذ تصبر عليه حتى تصل الى الكنز ، والحريف من يفحت بعنـاية وفن ٠ الشحات أيضـــا يعرف « الفلسفة » التى يتشدق بها صاحبه مقلدا عواجيز السجن ولكنه لا يجب كثرة الكلام ووجع الدماغ ، ويعرف أيضا أن نفسه ان لم يكن تحت هديمها كنز فعلى الأقل لن يحوى الهديم ثعابين أو عقارب أو صراصير أو عفن الرائحة ، فما الذى يريد أن يقوله صاحبه من وراء هذه التريقات المتواصلة عليه أمام الناس ؟ ٠

هناك صديقه المخربش رد السجون : « أنت تحبها ، وكل ما تغير فيك بسبب حبك لها ٠٠ أنت ولد نمس ٠٠ قررت بينك وبين نفسك ان تجعلها تحترمك وتثق فيك ٠٠ أتعرف ؟ هى الآن تضع ظفر قدمك فى كفة ورقبة المعلم فى كفة » ٠

الاشراقة التى سطعت بداخله لحظتذاك كانت ســاحرة ولم تفقد بريقها أبدا ٠

- ١٠ -

حين هرب الشحات من غدر صاحبى كان قد تعلم من غرزته درسا ما فتىء على مر الأيام يزداد غموضا كلما ازداد تواجدا فى دماغه ، فغرزة صاحبى كما تعلمون يؤمها تشكيلات عجيبة من مثقفين وسوقه وتجار وعلى

كل لون · وقد فتح مخه وأذنيه لكل ما يصدر فى الجلسة من أحاديث تتنوع من مجموعة لأخرى وهو صامت حتى ليكاد يبارينى فى الصمت الشغوف يختطف-هنا ورقة وها هنا ورقة · من مجموعة تجار الشنطة يخرج محملا بكافة المشاكل التى يصادفونها ويعيشون نيرها فينسى النير ويتذكر ما فى أيديهم من أموال طائلة ·· الى مجموعة من المثقفين يحمل معهم همومهم وبالفهلوة مثلهم يفهم قضاياهم حق الفهم لولا انه لم يؤت قدرتهم على التعبير والكلام والمنطق ·· الى مجموعة من الصياع والمتشردين يقف معهم على آخر ما ابتكر فى أساليب النشل والغش والنصب والاحتيال ·· الخ ·

علما انه كان يتلكأ عند كلام المثقفين فيتعلم منه الكثير ، وأبلغ درس تعلمه وصار يكتشف على مر الأيام جلاءه هو أن أربح تجارة فى البلاد هى المخدرات والسياسة ، فبعد ان كان فى البلاد عسكر وجند وخفراء صار فيها ما لا حصر له من أنواع العسكر والحكام ، أما السياسة فليس له فيها وأما تجار المخدرات فانهم يرتعون فى البلاد ويقيمون العمائر ويغنى النجوم فى أفراح أبنائهم ، انهم باشوات هذا العصر دون منازع ، يتمركزون فى حارات وأحياء مغلقة ويدخلون مع العسكر فى حروب ومناورات ومخططات ، يحاربهم العسكر لا باعتبارهم أفراد يسهل القبض عليهم بل باعتبارهم مؤسسات تقوم على عائلات متشابكة متعددة المصادر والمنابع والشخصيات ، لكل شخصية عدة أسماء يشتهر بها للتضليل على سجلات الحكومة ، مهاجمتهم أمر تهرع له الصحف بمصوريها حتى لتنشر الصحف ذات يوم ان الهجوم على احدى هذه الحارات كان عبورا ثانيا ·

– ١١ –

يوم الهرب قصد الشحات من فوره الى مقهى مرخص فى الحى المتاخم · صاحب المقهى يتجاوز الحدود قليلا اذ ان ابن أخيه يعمل مخبرا

سريا ويبلغه أولا بأول مواعيد الحملات ، فيسمح لذلك بشرب الحشيش فى مقهاه ولكن على « البورى » هربا من مظهر الجوزة ، فالبورى – أو الشيشة فى الأصل – قد يوهم المشاهد أن الشرب دخان معسل فحسب ·

جلس الشحات وطلب شايا ثم انه قام وفعل عدة حركات على النصبة وحوض المياه أفهم بها المعلم انه صنايعى وابن كار ، وبهذا قدم نفسه لصاحب المقهى فتركه يتمادى فى خدمة الزبائن · وفيما هو يخدم زبونا همس فى أذنه سائلا عن أحد يبيع الحشيش فأومأ الشحات برأسه هامسا : « أنا أجيب لك عايز أيه ؟ » · منظر الولد يغرى بالثقة ، فشكله اقرب الى نظافة الزبون منه الى غبار الصنايعى · نفحه الزبون ثلاث جنيهات وطلب قطعة من الهبو المعتبر ··

اختفى الشحات فى احدى الحارات · ولو تابعناه لوجدناه قد دخل آخر بيت فى الحارة وصعد سلم الدور الأرضى ثم طرق على باب الشقة الأولى على اليمين ثم تمر برهة تظلم خلالها العين السحرية فى الباب ثم ما يلبث الباب أن ينفتح ·· فيسلم الشحات كأى ضيف ثم يدخل الى حجرة صالون مجاورة للباب مباشرة وقبل أن يدلف اليها تكون همسته قد دلفت هى الأخرى الى أذن من فتح الباب : « ربع » ، فبعد برهة طويلة جدا يدخل عليه الشخص بما طلب ، من حسن الحظ – كما تمنى – فتحت له « البتعة » بنفسها ·

جلست بجواره قائلة : « خير يا شحات ؟ » قال : « خير ·· عايز ربع » قالت بابتسامتها العريضة : « لك ولا حتشربه ؟ » قال باسما « لى » · قالت وقد ظهرت أسنانها اللولى : « يعنى حتاكل فيه عيش » · قال ببسمة مرتعشة : « عليكى نور » · برمت كفها حول رأسها : « انت سبت كحكوح » · حكى لها الشحات ما حدث بالتفصيل ، حتى أسراره وحبه لوديعة كاد يندب ويحكيه أيضا كجزء من المشكلة · هى الأخرى تابعته بكل انفعال وهدوء ، فلما انتهى من كلامه قامت وغابت فى الداخل برهة عادت على أثرها وغمزته فى كفه بقطعة حشيش كبيرة

طيبة الملمس ، حجمها لا يقل عن ربع أوقية ، أى ما يباع بأكثر من عشرين جنيه هذا الصنف بالذات ٠٠ فهل يمكن أن تكون الغازية أو الراقصة أو احدى عوالم الفرح رقيقة وانسانة بهذا الشكل ؟ الغريب انها ردت اليه الجنيهات الثلاث ، وقالت له : « ربما وجدت لك لقمة عيش بجوارى »٠

- ١٢ -

موهبة من الله ان تكون قادرا على فض المنازعات بين البشر ٠ بهذه الموهبة وحدها كبر الشحات فوق عمره الحقيقى أضعاف أضعاف ، وأصبح يمشى بين رجال من علية القوم كأنه مثلهم بل المفضل عليهم ، وقد تعود الناس فى الحى كله الا ينظروا الى ملبسه أبدا ، بل يتعلق بصرهم بوجوده لأن وجوده سوف يحل كثيرا جدا من المنازعات صحيح أنه يفضها بطريقة تبدو لك بعدها غاية فى البساطة ويستطيعها كل انسان ، لكنك لا تستطيع أن تقول هذا على سبيل الاستنكار لأنك لن تكون فى مثل شجاعته عند النطق بقول يحسم المسألة ٠

من ثم لم يعد بحاجة الى العمل كصبى فى مقهى ، لكنه بحاجة الى مقهى يجلس عليها وتكون مركز مملكته الخاصة ٠ وقد وجدها ، ظلت ملكا لصاحبها لكنه قام بترميمها وتجديدها على حسابه وجلس يستقبل فيها عملاءه وزبائنه ، ومن وراء ظهره طائفة من صبيانه يبيعون بالقطاعى ، ولد يمسك شكارة يستقبل فيها النقود ، ولد آخر يمسك ميزانا صغيرا ، ولد ثالث بيده الحشيش يقضم ويزن ويقبض ليدفع الى الشكارة ، حتى اذا ما امتلأت الشكارة استدار الولد فى عتبة الدار التى يقفون أمامها ثم صعد الى حجرة قريبة حيث يفرغ الشكارة فى صندوق وينزل مسرعا ٠ كوكبة الصبيان هذه تبيع فى اليوم الواحد بعشرة آلاف جنيه على الأقل ٠

- ١٣ -

فوجىء أهل الناحية كلهم ان « البتعة » لم تعد تستقبل أحدا من الزبائن أو الزوار فى صالونها العتيق الأنيق الثمين ٠ لم تكن تستقبل سوى الشحات ٠ واذ بدأت الأفواه تلوك سيرتهما فوجىء الجميع بأنهما قد تزوجا ٠ واذ بدأ الطامعون فيهـا من قديم يرفعون رءوسهم كان الشحات قد أصبح قادرا على شراء الأمن بأغلى ثمن ، كما أصبح أحد كبار الاعلام فى المنطقة برمتها ٠

- ١٤ -

الخنزيرة - أى العربة المرسيدس ٢٠٠ - تفاجئك وأنت تدخل الحارة ، واقفة فى رحبة على قدها كأنها فصلت لها ، صفراء فى لون الكناريا ، تدهش كيف لمثل هذه السيارة ان تتواجد فى مثل هذه الحارة السابحة فى الوسخ والقذارة ٠ لو ان عرق السكان وحده يسيل بكثافة السكان لأغرقهـا الى شوشتها ، فما بالك بميـاه الغسيل والاستحمام والمجارى ؟ كل ذلك متروك نشأته فى الحارة الطويلة المتعرجة ٠

- ١٥ -

كنت أقول لنفسى كلما دلفت الى هذه الحارة : من ذا الذى يهتم بتنظيفها وكل من فيها من السكان لايشعر انها له ٠ ساكنو البيوت من موظفى الدرجة الثامنة أو حتى الثالثة أو الأولى ، أولادهم يتقاسمون المرتب بالقسطاس ويذهبون الى المدارس والكليات شبه حفارة يسخر منهم بقية السكان من الحرفيين والصناع ٠

يسيطر على الحارة عدد مهول من تجار المخدرات يملكون فى المنطقة دورا ودكاكين ومقاه-وعائلات كالفل أفرادها · نصف الحرفيين تركوا حرفهم البطيئة الكسب وانضموا الى الصياع وأصبحوا صبيانا وناضورجية لدى تجار المخدرات · من كان منهم قوى البنية ينتمى الى عائلة كبيرة من الناس أو عائلة كبيرة من السوابق افترش لنفسه بقعة واحتلها بكرسى وترابيزة ترتص فوقها أصناف الحشيش والأفيون وأكوام الفلوس الفكة · أما ان كنت من أهل البلاد فانك بقدر قادر تتحول فى هذه المنطقة الى شىء من اثنين : اما سائح وأما قطعة عاديات تمشى على قدمين يتفرج عليها السياح الأصليين وربما وساومهم على بيعها أحد كبار النصابين وما أكثرهم فى الحارة ·

تستطيع أن تدلف من سوق الخيط الى سوق الخيم الى سوق النحاس الى سوق الخضار الى سوق الحشيش ، حيث تتراص الترابيزات فى الشارع وتلمع فى الجو أسلحة المطاوى الشهيرة · كل واحد من هؤلاء يقيم لنفسه احتياطات أمن مشددة ، أليس يحمل أموالا ؟ كل من يسيرها هنا يحمل لفة أو حقيبة أو جوالا فهو على الارجع يحمل بداخلها نقودا أو مخدرات ، حتى هذا الرجل الغلبان صاحب الغرزة المتنقلة مشكوك فى أمره من قبل الرواد المشترين لمزاجهم · حرفوش هو يلبس الجلباب المشمر من فتحة جانبية ، فى يمينه صينية كبيرة ، وفى يسراه أخرى ، الأولى عليها الوابور مشتعلا وفوقه البراض بحامل يحميه وحوله عدد من الكنكات مختلفة الأحجام وعدد كبير من الأكواب النظيفة وأبريق كبير مملوء بالماء النظيف كل ذلك معد فى ربطة واحدة ·· الصينية الثانية عليها جوزة وبرطمان وكومة حجارة ووجاف نار وطبق دخان معسل ، يمر فى الشارع دونما هدف بعينه ، يناديه صاحب دكان أو فاكهى أو خضرى سريع أو زبون خرمان اشترى الحشيش لتوه ، فيستوقفه كما تستوقف ماسح الاحذية ليمسح لك الحذاء واقفا فى الطريق العام ، فصاحبنا يضع على الفور عدته على الأرض ويفاجئك بأن معه حجارة مرصوصة أربعة وعشرين

قيراطا وما عليك الا أن توقع عليها بامضاء الحشيش من يدك الكريمة فيما يكون هو قد انتهى من صحن النار فى المصفاة واعداد الجوزة ثم ·· قل بالصلاة على النبى ·

تشرب لك العشرة أو العشرين فيما لا يزيد عن عشر دقائق · فان داهمكم البوليس فان ألف ناضورجى يكونون قد أرسلوا الاشارات فحدثت موجة من الذعر تختلط فيها الأشياء ببعضها وتنقلب ، يجرى ناس وتغلق أبواب ويزوغ المخربشون ويقع في القبضة الأبرياء والضعفاء وأبناء السبيل · كم من أصحاب غرز متنقلة اتضح انهم من البوليس فماتوا من الضرب ولم يعد أهل الحارة يسمحون لاحد بممارسة أى عمل فى الحارة ما لم يكن معروفا لديهم أو من طرف أحد المعلمين الكبار · أعرف صاحب غرزة متنقلة من هؤلاء تعب من الغرزة المتنقلة على كثرة ما اكتسبه ، فافتتح لنفسه بنكا فى الحالة أسماه بنك الفكة ، عبارة عن نصف دكان هو فى الأصل جزء من مدخل عطفة صغيرة حوطوا عليه بالبناء ثم ملأوه بثلاث بنوك صغيرة من الخشب الحبيبى المغلف بالفورمايكا الانيقة ، وليس هو جبة وقفطانا وجلس على كرسى خاص فى المدخل ، ولديه ستة من أولاده فى عين العدو أربع صبية وبنتين ، هما والوالد الصغير وراء البنوك الثلاث ، والثلاث أولاد الكبار يتجولون بالدراجات فى أسواق البلد وحاراتها ليل نهار يبيعون الفكة لمن يحتاجها نظير عمولة صغيرة ، فى حين يجلس الأب طول النهار والليل يستقبل الفكة من تجار المخدرات ليجمدها لهم فى أوراق كبيرة نظير عمولة قدرها واحد فى لمائة ، حيث يجىء صبى التاجر بالشكارة البلاستيك الكبيرة فيفرطها على البنك معلنا قدر ما فيها ، وتتوالى البنت بهدوئها العظيم تصنيفها ثلا عدها لتتولى البنت الأخرى صرف المتجمد ويتولى الولد توزيع الفكة وربطها وتغليفها في وحدات وتدوين الحسابات هنا وهنا وهنا · هذا الرجل ــ على فكرة ــ أحد زملاء صاحبى فى جلسات الشم رغم انه حج سبع مرات ويذبح فى مولد الحسين بن على وحدة ثلاث أو أربع عجول يوزعها على أهل الله ، وان أبديت عجبك من

تضيعه لخمسين أو ستين جنيها فى جلسة شم واحدة ، رد عليك أمثال صاحبى فى استنكار بأنه يملك نهرا من الفلوس فلينزه نفسه ، وربما أضاف بان الله يحب هذاويحض عليه : ان الله يحب عبده النزيه ، وويل للذين يكنزون الذهب والفضة ·· الخ ·

— ١٦ —

بقدر ما فى هذه الحارة من فقر مدقع وعوز يوجد فيها من الأموال ما يفوق الحصر لو انك عدت الى الجرائد التى قرئت على فى غرزة صاحبى كحكوح عن الايقاع بصفقات مخدرات وبكبار تجار ووجدت أن أخبار عالم المخدرات نشرة يومية حافلة فسوف تقول فى نفسك : أى خيال هذا · فماذا أقول أنا الذى درجت فى الحارة متهدل الاذنين منكس الذيل من كثرة ما رأيت من ظلم وابهة ، أبهة عالية ، بقدر علوها تخفى فى أحشائها فاقة وكدرا ·

على ناصية الحارة دكان أنيق مصروف عليه ثقله ذهبا ، تحار فى ماهيته بالضبط ماذا يبيع أو ماذا يشترى أو ماذا يفعل لا أحد يدلك على الاطلاق ، لكن ألفا وألفان يتطوعون قائلين لك اذا ما سألت وفى استنكار : « انه محل الحاج عثمان كزبرة » · فمن هو الحاج عثمان كزبرة ، هكذا تسأل انت فى سلامة نية · حينئذ ربنا يستر ، قد تنال صفعتين على قفاك أو بوكسين فى بطنك أو زغدتين فى جنبك ·· فمن انت حتى تسأل عن الحاج عثمان كزبره كأنك لا تعرفه ؟ لابد انك مرشد بوليس أو مباحث ، لابد انك مبعوث غشيم يستحق الأدب والدرس القاسى ، أو لابد انك غريب عن الحى لا تعرف لمن الخضوع والخشوع ها هنا ، فها الاجابة ··

ان جذب شكلك احترامهم وهذا ما ندر عندهم عدم المؤاخذة — فسوف يصيح بك جالس على المقهى المواجه : « اتكل على الله ياستاذ ربنا يهدينا ويهديك » · فان تنحت قليلا واردت الثأر لكرامتك عن هذه الاهانة صاح

بك آخر فى هدوء ينذر بالعاصفة « نهارك أبيض يا أستاذ ·· نهارك أبيض بالصلى على النبى » · ستأخذك الدهشة البالغة لابد ، اذ لم تكن تتوقع ان هذه الثياب الفاخرة التى سبق ان لأيتها على أجساد نجوم السينما العالمية محشوة بهذه الاجساد الشرسة الممسكة بالمطاوى قرن الغزال ·

غير أن الأرض لابد أن تنشق عن رجل طيب أو سيدة طيبة تغمرك فى جنبك وهى تمشى هامسة لك : « امشى يا ابنى ربنا يكفيك شرهم » · ولابد أن تمشى فى النهاية وأنت صاغر · سوف تعرف بعد طويل بحث وتردد على هذه الحارة ان الحاج عثمان كزبرة مهرب كبير وان دكانه فى الظاهر دكان مقاولات · صحيح ان شكل الدكان لا ينبىء عن هوية معينة ولكن هكذا يقولون ، ثم هو يملك ثلاث عتبات فى غرب المدينة كل منها عمارة فارهة ولكل ولد من أولاده سيارة بيجو خاصة وعمارة خاصة ورصيد خاص ومشروع استثمارى خاص ·

— ١٧ —

تحار فى هذه الحارة أيهم فيها هو الاكبر · فكلهم كبار وكلهم فل · اقام أحدهم فرحا لابنته نظمه له الحاج « سالم زغاليل » وهو من زبائن صاحبى الاصلاء · فى هذا الفرح رقصت وغنى كل نجوم التليفزيون والاذاعة والسينما · حتى ليقول من شاهد الفرح أن صاحبه أكثر رأس فى البلاد ، حيث سد شارع الأزرق من العتبة الى القرافة ، وامتنع تدفق السيارات على الميدان الا سيارات المهنئين والمشاركين حيث تمرق مسرعة فى زوبعة من الصياح المرح وقد زينت السيارة بالورود ، وكانت أصوات الكلاكسات هى الايقاع الأعلى ، فلما أقبل موكب العروس يزحف على مهل تزفه أكبر راقصة فى البلاد وتتابعه كاميرات السينما والتليفزيون خيل لبعض المثقفين المشاهدين انهم يشهدون فرح قطر الندى على صورة عصرية ، وها هو ذا الموكب يسرى الى مستقر له ولكننا نتعطف يمينا على مدخل الحارة الملاصقة للازرق الشريف حيث انتصب الفرح سرادقا يمتد على مساحة نصف فدان ،

على الجانبين مجموعات تبدأ بكبار تجار المخدرات فى المنطقة كل منهم يمتشق سلاحه الذى يبدأ بالمسدس وينتهى بالمدفع الرشاش ولكل منهم تابع يحمل الذخيرة ، ثم تمتد صفوف المجموعات على الجانبين فترى كافة نجوم السينما والتليفزيون منهمكين فى غوغاء المزاج يشربون ويكحون ويتمخطون ويدمعون ، فى الوسط بقية المدعوين وصاحب الفرح بجلبابه البلدى وطاقيته وبلغته البيضاء ممسك بالخيزرانة وينهال ضربا على المتطفلين لابعادهم وينحشر فى جولات رائحا جائيا يلقى على كل ترابيزة بقطعة حشيش كبيرة يحيى بها المدعوين .

الذى لا يعرف يقول عدسا ، والمشاهد الغشيم يقول لدى رؤية كل هذه الأبهة ان الحاج كزبرة هو أكبر شخص فى عالم المخدرات . ولو تماشى مع الأيام لكشفت له أن هذا بكل ضخامته مجرد صبى يموله فلان . أنت حشاش أليس كذلك ؟ اذن فأى تعميرة تدفع فيها دم قلبك مهما علت أنفاسها اذا قلت متفاخرا انها من فلان فلابد ان يفاجئك أحدهم بأن الأعلى عند فلان . فمن هو فلان هذا الذى لم أسمع به من قبل رغم اننى لفاف وأعرف كل باعة المخدرات فى كل الأحياء ؟ .. هكذا تقول أنت لنفسك ، فاذا بفلان هذا أشهر من نار على علم واذا به اسطورة جديدة عليك قديمة على الأقدم منك .

شارب الحشيش يعرف كل يوم الجديد والجديد عن غفلته . لكن آخر ما سيعلمه ـ رغم انه معلوم وبديهى من الأصل ـ انه مثلما لكل محافظة ولكل بلد حاكم ، فلكل حى في المدائن تاجرة الأسطورة أو تجارة الأساطير، الذين يتضح انهم بدورهم أكبر من ناس وأصغر من ناس آخرين .. ناهيك عن قرى بأكملها وعزب وكفول تعتبر مجرد مخازن لرءوس فى عالم المخدرات لا يفوقها حصر ولا تقاومها ابادة .

-١٨-

ربما لم يكن الشحات أكبر اسطورة فى الحارة لكنه بالتأكيد أشهرهم واذكاهم . فلعله أول من أقام للبيع طابورا كطابور الجمعية الاستهلاكية أو أشد كثافة . يشجع أحد الناديين الكبيرين ويرسل الهدايا للاعبين ويهمق على شرفهم بشكل جنونى حتى لقد أصبحت شهرته توازى شهرة النادى نفسه وأصبح كبار المشجعين يتجاهلون مهنته اذا ما وردت فى الحديث قائلين مع هزة يدهم نحو رءوسهم : « معلهش مالناش دعوة » يصادق نجوم الفن ويجاملهم بالهبو الفاخر ليبيع لهم الجلة الناشفة بثمن فاخر .

الشحات لا يقبل المنافسة ولا يقبل اللعب فى السهل الرخيص . أمسك عن البيع وأعلن توبته عن الاتجار فى الصنف نهائيا ، والدليل على ذلك هذا المحل الذى اشتراه فى أكبر ميدان فى وسط العاصمة الكبرى . لا لم يكن دكانا واحدا وانما هو براح بعرض ثلاث عمارات كبيرة ملتصقات لمالك واحد تطل على نواص أربع . كان صاحب العمارات الأصلى قد أعده فى الزمان الأول لمبيت سيارات السكان باعتبارهم جميعا من أصحاب السيارات أيام كان القرش غاليا تدفع فيه عرقك ومعاناتك ، لكن الزمن جار فجأة على السكان واعتبرهم ـ دون منطق مفهوم ـ من درجات دنيا من البشر لا يستحقون رأفة ولا شفقة ، فى حين رفع شأن الرعاع واللصوص وتجار المخدرات والسموم والآلام فأصيب علية القوم من السكان بأحقر الملاك . ولما كان سكان هذه العمارات كلهم من ذوى الشأن فان مالكها أوقف به قدرته على الانتقام عند حرمانهم من الاسانسيرات وامتناعه عن ترميم أى تلف وحرمانهم من أى امتياز ، ولهذا أيضا فان تاجر المخدرات حين وافق على شراء العمارات برمتها كان الثمن الذى طلب منه لا يوازى فى نظره ثمن الدور الأرضى وحده وهو ما يريده منها .

الناس فى الشارع تفتح أفواهها دهشة وذهولا عندما تسمع الرقم الموفوع فى حظيرة السيارات · ماذا بها لو سمعت الرقم الذى صرف على الحظيرة لتصبح هكذا مدينة تتلألأ بالأضواء والجدران الرخامية والاسقف والمرايا · المؤكد انهم يقعون من طولهم اذا تخيلوا الرقم الذى سيمتلىء به هذا المحل على هيئة بضائع ، هى على التحديد سيارات المرسيدس ، ذلك أن الشحات الشهير بأبى شافية استصدر لنفسه توكيلا من مصنع سيارات المرسيدس ليصبح ممثلا لها فى وسط المدينة ·

— ١٩ —

لأبى شافية — الشحات سابقا — دكان آخر بحذاء أشهر مسجد فى المدينة يبيع العاديات والآثار · رغم ما فى محل السيارات من أبهة وجلسة مخصوصة صممها لسيادته مهندس أجنبى ، ورغم ما فى محل العاديات من جلسة عتيقة فى الأبهة والزخرفة والراحة الا أنه لا يحب هذه ولا ينجذب الى تلك · انما ظلت جلسته المفضلة ذلك الكرسى القش يضعه على الرصيف وحوله طقطوقة عليها براد الشاى والأكواب وأمامه وبيده مبسم الشيشة ·
كل الصفقات وأخطر اللقاءات عقدها على الرصيف على الناصية يأمر وينهى وينادى ويبعث ويشخط وينطر ويكح ويبصق أطنانا من البلغم الأزرق المتكتل · لكنه · لكنه بعد أن كان صبيانه ورجاله فى معية المخدرات يلبسون الجلابيب البلدى ويربون شواربهم ولا يعرفون الرحمة أو الرقة فضلا عن استعدادهم المطلق لتلقى الشلاليت والزغد بسن المطواة والبصق فى الوجه ، أصبح صبيانه ورجاله فى معية السيارات والعاديات والآثار أفندية متعلمة يحملون البكالوريوسات والليسانسات والدكتوراه ، بل فيهم البكوات من ركاب سـيارات أفخر مما يباع فى محله ، محاسبون ومهندسون واداريون وخبراء وخفراء وعمال نظافة وحراس لسيادته ·

لم يعد لديه — اذن — من يتلقى شتائمه وبصقاته وهو أمر جوهرى وضرورى لاستمرار المعلمة · كيف هذا ؟ لكن هكذا الدنيا تتغير ، فخير له

أن يعترف وأن يتزن قليلا · « البتعة » قادرة على امتصاص غضبه وامتاعه رغم بلوغها الخمسين أو أكثر ورغم سياحته المتواصلة بين النساء اللاتى هن — كما يقول — أكثر من الهم على القلب أى انه مسكين يحمل قلبه هموم كثيرة لا يباريها فى كثرتها سوى كثرة النساء اللاتى يرتمين على قدميه كل لحظة ··

ربما كان أبا شافية صادقا فى المقطع الأخير من جملته ، فهو جدير حقا بأن ترتمى على أقدامه النساء · القوام الرجولى الفارع ، مع الاناقة والرشاقة ، الوجه المستدير كالقمر ، يبك الدم ، الشارب خنفسة جميلة كالنفاس بيضاء متجمعة تحت طاقتى أنه المستقيم الممتد الى حاجبين كثيفين يزخرفهما نفس البياض حتى ليزداد سواد عينيه الواسعتين الشهوانيتين ·

من حيث المظهر والمسلك يدين بأخلاق فرسان النساء كما يدونها قاموس العامة فى بلادنا ويستنكرها الخاصة وان دانوا بها فى الخفاء : شام حشاش أفيونجى مسنود بالغذاء الدسم والتمرينات الرياضية التى دأب على ممارستها حتى يحتمل جسده قدرة عن النفس فى كافة المعارك · مهما يكن من أمر فان سمعة أبى شافية فى هذه المسألة لا تحدها حدود · يقولون أنه رافق على أعلى مستوى · يقولون ان البتعة تعرف كل شىء وتتجاهل كل شىء طالما انه يأوى اليها فى نهاية المساء · يقولون — فى المقابل — ان نقطة الضعف فيها عدم أهليتها للانجاب ، كما قال أطباء العالم الذين عرضت عليهم ·

يحلو لأبى شافية دائما ان يحكى لجلاسه كيف عرضها على الأطباء الأجانب ومتى · الامارة عنده ان فنانا كبيرا أو لعله سياسى قديم فيما يذكر أو فيما لم يعد يذكر ظلت الجرائد تستنزل له الرحمات وتستنهض عواطف المسئولين كيما تتاح له فرصة العلاج فى الخارج ، وانه بجلالة قدره وصل الى نفس المستشفى التى نزلت فيها « البتعة » فخاف أن تنصرف جهود الأطباء الى هذه الشخصية الخطيرة القادمة من الدولة الازرقية تحفها زفة

قومية كبيرة ، ففوجىء بأن الأطباء لا يعرفون شيئا عن هذه الشخصية ولا يهتزون لاسمها ، بل لا يعرفون سوى « البتعة » التى تعيش المستشفى فى خيرها .

يقول وهو يضحك فى سخرية ممزوجة بالمرارة : « ما خلصنيش قلت لهم دا برضه راجل بلدياتى وكان فى يوم من الأيام له شنة ورنة .. شوفوا اللى هو عايزة وعلى حسابى أى وحق رسول الله » . حتى هذه الأحاديث لم يعد يجد من يستمع اليها بشغف . الواقع انه لم يعد يجد أحلى من القعدة على المقهى بحذاء المسجد الشهير وكل بضع ساعات يدلف الى حارة الشمامين فيتدون ، أو الى صاحبى كحكوح ليتزود بحجرين .

— ٢٠ —

تطول الجلسة فى غرزة صاحبى كحكوح وتتعدد وتتشابه حتى لاعجز عن التحديد فى أى جلسة حدث الشىء الفلانى أو قيل الكلام الفلانى . هى على الأصح جلسة واحدة تتخللها فترات غياب منه أو منى ، لكننى كلما أضاءت نور الذاكرة وجدته فى نفس هذه الجلسة ويدور بينه وبين صاحبى نفس الكم . أما الكلام عن صاحبتى فقد كان لايزال حديثا . ولقد انشغلت عنهما قليلا فلما انتبهت وجدت صاحبى يقول لأبى شافية فى ضراعة : « شوف بقى مفيش حد غيرك حيحل المشكل ده .. أنا تعبت خليك ذوق بقى . كفاية .. أنا لسة ممكن انفع برضة .. ولا الصبيان اما بيكبروا بينسوا ؟ » شوح أبو شافية : « يا عم سيبنا فى حالنا » . ثم يبدو أنه أشفق عليه اذ انبسطت ملامحه فجأة وقال له كالمعتذر : « على العموم ربنا يسهل يا كحكوح » فصاح صاحبى : « امتى ؟ » قال ابو شافية : « فى أقرب فرصة .. سيبها بظروفها .. حامر عليها وأكملها وأصالحك عليها .. اطمئن وسيبنى بقى أشرب الحجرين فى أمان الله » . فرد صاحبى من بين أسنانه : « أشرب شا الله تشرب آخر زادك » . فزغده أبو شافية زغدة قوية عوى لها صاحبى ثم اتضح انه يمزح .

رغم أن الراحة هبطت على جسد صاحبى كحكوك وأحاطت بكل أطرافه الا أن بريقا مخيفا لمع فى عينيه الضيقتين ، قال : « تشكر يا عم آخر خيرك » . أنا وحدى الذى فهم سر هذه النظرة فى عينيه . نظرت فى عينى أبى شافية فوجدت ان النية عنده قد صدقت فى القيام بمهمة الصلح بين صاحبى وصاحبتى بل قرأت فى صفحتى عينيه ما ســوف يقوله يقوله لصاحبتى : كلمتين حلوتين عن الشرة والعيش والملح الذى لا ينبغى أن يهون الا على الاخساء .. فوجدتنى ازأر بشدة مركزا النظر فى عينى أبى شافية مكشرا عن انيابى كأننى انذره وأحذره من أشياء لا أعرف كنهها .

راح كلاهما يشخط فى بعنف ويهوشنى ويقذفنى بالطوب . رغم أن طوبة أبى شافية كانت أقوى وأصابت بالصدفة دماغى الا أن طوبة صاحبى على صغرها وخفة وقعها المتنى ، فانقضضت على صاحبى ـ ربما لأول مرة فى حياتنا ـ وهوشته حتى بال من الرعب على نفسه وكانت أسنانى على وشك أن تقبض على منطقة البول برمتها ، لكنه عاجلنى بضربة خوف حادة فى بطنى فابتعدت عنه وانطلقت أجرى بلا توقف حتى وجدتنى أمام صاحبتى جالسا استكن من الألم .

باب الحرملك

● هل أتاك حديث البتعة ؟

ـ ١ ـ

قريتها البعيدة التى نسيت شكلها والطريق اليها ، صغيرة متاخمة لمدينة اقليمية كبيرة تقع على ضفاف النيل الأزرقى · مدينة يعرفها كحكوح وصـــاع فيها سنوات كما يقول دائما · أهلها ـ يقول ـ كلهم مراكبية وصيادين ومع ذلك ترى فيها شوارع للنحاسين والفرانين والقماشين ، ومع ذلك فهى مشهورة أيضا بأن كل نسائها يشتغلن فى نفش صوف الأغنام ولذا فطعامهن مشوب دائما بخيوط الصوف ·

تضحك « البتعة هانم » من هذه المزحة الثقيلة وتهز كتفيها فى لامبالاة حيث تتذكر قريتها البعيدة · كانت أجمل بنت فى القرية لايعيبيها سوى فقر والديها · الكل من كبير لصغير ومن محترم لهزأة كان ينحنى بل ينذهل لجمالها مسبحا بحمد الخالق العظيم ، مصليا على النبى بجميع الانغام والمشاعر ، لكنهم يا ألف حسرة لا يحترمون جمالها ، هم يعترفون به فحسب ولكن لا يحترمونه لانه غير محترم ، يلبس ثيابا لا تستر عريا ، يهان فى عمل وضيع · كانت ـ كما تحكى لمن لا يستحق أن يكون محل بث للشجون ـ تندهش وينعقد لسانها من الدهشة حين ترى النظرات الدنيئة الشرسة فى عيون العمد والمشايخ وتجار المواشى والفلاحين والبقالين

والطلبة بل وبالاخص الطلبة وكل من قابلتهم من الذكور منذ تكور التفاح على صدرها وأحمر على خدودها ـ بدأت تكتشف انها دون بنات القرية ونسائها مباحة لكافة النظرات · فى الخطوة الواحدة أو اللحظة الواحدة تتسابقها النظرات وتعريها وتنتهك كافة استارها · النظرات النهمة الشرسة القاسية تطاردها فى كل مكان · ليتها كانت نظرات أعجاب واشتهاء فحسب اذن لتاهت بها بين الأهل والخلان ، لكنها نظرات اتهام شديدة القسوة · ال عين تنفرد بها تثقب نفسها بسنان حداد ولا تريد أن تتنازل مطلقا عن يقينها واعتقادها بأنها عاهرة ·· مجرد عاهرة ··

حتى امها ، هى الأخرى قذفتها بنفس الاتهام عشرات الآلاف من المرات بسبب وبلا سبب · كانت دائما تصرخ فيها : « انتى ايه اللى فيكى يا بت ·· انتى مش طبيعية أبدا يا بت ·· بتتقصعى كده ليه يا بت ·· بت ·· لما حاقتلك وأشرب من دمك يا بت » هى نفسها لم تكن تعرف انها اكتسبت حركات جديدة لم تكن فيها وهى طفلة ، فمن كثرة ما صدت وزاغت من هجوم نذلى مفاجىء ومن فرط ما استرحمت للعفو عنها ومن طول ما راوغت وتهربت من حوارات لا ترغب فيها يجرها اليها ناس ممن اقاباهم اصبحت بالفعل « مش على بعضها » ، عصبية ومتوترة على الدوام ·

ـ ٢ ـ

كان ابوها ـ كما تقول أمها وأهلها ـ قد مات فى حرب الحاج محمد هدار الذى قيل انه أسلم ووجب على مسلمى مصر أن يحاربوا فى صفه · لا هى ولا امها ولا أحد من أقاربها ولا حتى عمدة بلدها يعرف لماذا ولا كيف مات ابوها وهل لموته صلة بالحاج محمد بن عبد الله ، لكن أباها كان فى الجهادية مجندا أثناء ما كانت هى طفلة غريرة تصحو فى المساء من ليالى متباعدة شاحبة على صوت يقبلها وأذرع تحتضنها وتقول لها : « بوسة

لبابا قبل ما يسافر » . وكانت تسر غاية السرور من ذلك اللباس الأصفر الذى يرتديه وهو مسافر – آخر ما تذكره فى طفولتها عن أبيها أن أمها كانت تبكى بين جمع من أهل القرية وهم يقولون لها فى انشغال بال : « هتلر نفسه اختفى من على ظهر الأرض » ، وهكذا أعفت أمها نفسها من وقع الصدمة حين أدركت بينها وبين نفسها ان زوجها ليس أحسن من هتلر حتى تفجع لموته . .

– ٣ –

بموت أبيها عادت البضاعة – أمها – الى أهلها ، أى الى خالها المتيسر ، لتصير هى وأمها خادمتين لأهل الدار . يوكل اليهما تلصيق الجلة وحلب الماشية وغسل الثياب وغسل القمح فى الترعة وحمله الى ماكينة الطحين ، ناهيك عن الخبز والعليق وتوصيل الغذاء للأنفار فى الحقل وملء المياه من الترعة بالبلاص كل يوم فى العصارى . .

على قدر ما أهينت فى كل هذه الأعال والمشاغل التى وصلت الى حد السخرة تألقت وسطع جمالها وخلب الألباب . زهقت وزهق خالها وأمها من تجريب الثياب المحتشمة دون جدوى ، لم يستطع أى ثوب من الدنيا كما لم تستطع أى قوة منها أو من غيرها فى أن توقف صدرها عن الاهتزاز النافر المواج أو تخفى حركة عجيزتها التى تنحت لنفسها ظلا حاسما تحت أى ثياب . ولقد تركت وجهها بلا غسيل وأهملت شعرها وتركت القشف يتراكم على كعبيها ، ومن فرط الفجيعة المستقرة فى عيون أهلها تجاهها كرهت أى نظافة وأى ثياب وكرهت أن تكون جميلة فتركت نفسها جربوعة وقذرة ، لكنها لم تعد تعرف ان كان الخطر كامنا فى عينيها هى أم فى عيون الآخرين ؟ انه شىء نارى كالقذيفة كاندلاع الضوء كاندفاع السهم يدهمها بمجرد ما تقع عيناها على عين أى ذكر حتى لو كان طفلا . جربت أن تكسر

عينها فلا تنظر الى أحد ، ولكن كل ذلك لم يعفها من حكم أصدرته ضدها محكمة مجهولة وأبلغت به جميع البشر يفيد بأن هذه البنت عاهرة ولا يمكن ان تكون الا عاهرة .

– ٤ –

كانت أمها لاتزال فى عز شبابها وكانت تتعشم فى عريس يجىء به المستقبل ولكنها لم تكن تحسب أن أمامها أكبر وأقوى منافس فى الوجود ، وهكذا كرهتها أمها وكرهت هى أمها ومع ذلك لا جاءها العريس ولا جاء لامها . ثم ان الجحيم بدأ يرتفع أواره فى الدار بسببهما معا كلبؤتين شرستين ، والخال قد أصبح من فرط ذلك فى عار مقيم ، وصار يتمنى زوالهما من الوجود بل صار يعمل على الأقل لزوالهما من وجهه هو .

سعى لتزويج البنت بفارغ البنت وصياحها فى ساعات معينة من ليل أو نهار فلما يدركها أحدهم على مضض يكون واثقا انها ستتهم أحد اولاد خالها أو ضيوفهم بالتهجم عليها أو قرصها فى فخذها أو القبض على ثدييها . وكانت هى من كثرة ما صاحت وصرخت واتهمت قد أصبحت مهيأة لهجوم حقيقى غادر يجهز عليها اعتمادا على كثرة ادعاءاتها ، فكثرة الادعاء تورث البطلان التام كما قال فقيه الكتاب ذات مرة . أما هى فقد بذلت مجهودا عنيفا فى الدفاع عن نفسها ، عن ذلك الشىء الذى أن نجح أحدهم فى خرقه واسالة دمه فقدت هى شرفها ومستقبلها .

مع ذلك ظلت تحس رغم حمايتها لذلك الغشاء الحقير الذى يغلف البكارة انها لم تستطيع أن تحمى شرفها من الانهيار اذ أن ثمة اعتقادا بين الجميع بما فيهم أمها بأنها غير شريفة .

حتى ذلك الذى تزوجها لم يستطع أن يخترق غشاء بكارتها لهزال أوصاله هى غير مسئولة عنه · للها كانت حملا ثقيلا جدا يثقل نفسه · لعله انهزم قبل أن يصبح قيد خطوة من التهامها وحده · لكنها ظلت شهورا لا تستطيع رفع عينها الى أحد من أهل الدار أو من الضيوف ··

هو كذلك ـ زوجها ـ لم يستطع · أهلها المجبلون فسروا انكسار عينيه بالحياء لا من العجز ، وفسرا انكسار عينيها من الشعور بالاثم · كان العريس ولدا وكان طيبا جدا وكانت تحبه كل الحب لولا ضعف شخصيته الى حد الانعدام · كان وحيدا لأبوين فقيرين ، أولاد سوق ، يبيعون الخضار أحيانا · لكن مهنتهم الأساسية هى لم البيض ، فكان عليها من الشهر التالى للزواج أن تحمل السلة فى ذراعها مثل أمه وأبيه ومثله تجوب حوارى البلدة صائحة : « ياللى حداها بيـ ·· ! · بيض » فتخرج اليها النساء بما حوشته من بيض دجاجهن لتشتريه منهن بالعد الخمس بيضات بتعريفة خمس مليمات تدفعها من صرة معقودة فى كفها ثم ترصه فى السلة ، حتى اذا ما تجمع منه الكثير عبأوه فى أقفاص كبيرة وسرحوا به فى الأسواق يوردونه لتاجر كبير ولمتعهدى مزارع الدواجن ··

مهنة لم تحبها أبدا اذ عرضتها للمضايقات وهزأت كرامتها على نواصى الطرقات والحوارى وأمام الدكاكين · اكتسبت خلالها لغات جديدة وقدرة على الشتم بقواميس البلطجية والسوق ، جرت على لسانها ألفاظ لا تعرف الحياء أو الأدب ، صـــارت تشخر وتفعل من بذىء الحركات ما لا يخطر على البال دفاعا عن نفسها ضد المضايقات التى باتت تتجسد لها فى كل شىء وفى كل خطوة ، وبجرأة منقطعة النظير كأنها صيد ثمين مســتباح ··

شىء واحد أحبته فى هذه الحياة اذا كان قادرا على تسليتها وجذبها حيث لم يكن اختراع الراديو قد وصل بعد الى دار زوجها « هريدى » ذلك هو الرباب الذى وجدته ملفوفا فى ثوب قديم ومعلق على مسمار فى الحائط فى القاعة بجوار السرير الحديد ذى العمدان والعســـاكر النحاسية . تعرف ان السرير والدولاب اللذان تجهزت بهما سبق أن تجهزت بهما أمه وتنازلت عنهما له كما تنازلت عن الحلة النحاس والطشت الكبير وبقية الأوانى ·· أما هذا الرباب فلا تعرف لمن هو فى الأصل ، ومن أوائل أيام الفرح لم يكن قد امتد بينهما حبل سوى حبل الحديث عن هذا الرباب ··

ابوه كان يسرح به فى شبابه بين القرى والعزب فيضرب عليه سيرة الهلالية وعنترة وحمزة البهلوان · فلما أصبح ذا تجارة تغنيه عن كثير من اللف احتفظ بالرباب لم يفرط فيه أبدا ، فكل شىء فى نظره قد يزول وينقرض الا نغم الرباب ، نعم هكذا يعتقد أبوه ويقول مرارا وتكرارا أن التجارة ورأسمالها قد يزول فجأة لسبب من الأسباب فلا ينقذه سوى الرباب . يستأنف حمله ويتكل على الله ومطرح ما يضرب الوتر يجىء الرزق مدرارا بلا شك ، أنه ـ والقول لأبيه ـ لا يذكر أن انكسر خاطر النغم أبدا ، لم يحدث أن ارتد اليه النغم كسف البال دون مقابل ·

لما كان الابن يرث فى العادة بعض مواهب أبيه فان « هريدى » لم يرث من أبيه ذكورة ولا فحولة ولا صلابة يكافح بهــا الزمن ، انمـــا ورث عنه شيئا واحدا هو حبه للرباب وحب الضرب عليه فى الليـــالى القمرة فى وسط الدار ·

الشىء الجميل الوحيد فى حياتنا خلال زيجة الأشهر القليلة كان يتم لحظة أن ينغلق باب الدار بالسقاطة وتجىء القمرة عبر السطح والسلم الطوبى لتفترش وسط الدار والحصير والمساند الصلبــة ، حيث يكون

أبوه وأمه قد أويا الى الفراش فى الغرفة المطلة على الحارة ، ويبدأ « هريدى » فى الضرب على أوتار الرباب وأبـوه يحيه من داخل القاعة صـائحا :
« يا حلاوة يا حلاوة ·· بس آه لو تقوم تنام بقى » · لكن « هريدى » ابدا لا يحب أن ينام ، ولا يحب أن يفعل شيئا سوى السير فى دروب اوتار الرباب التى توصله الى كل الغايات ··

انها وقد حرمت من تمام الدفء فى حضنه تحس كأن الربـاب حضن آخر يحتويها ويبعث فيها كل دفء وكل راحة · كان « هريدى » يحدثها عن حلم غريب يحبه ومع ذلك لا يجرؤ على تنفيذه : أن يكون له فرقة وبطانة تسنده وهو يغنى فى الموالد والأفراح والليالى الملاح ، أن يكون صييتا مثل أولئك الذين يستقدمونهم من بلاد أخرى يلبسون القفاطين الشاهى ويمدحون النبى بنغم وصوت أعذبين ، كى يحلم بذلك لولا أن أباه قد سعى بالفعل لدى بعض المسئولين لكى ينزله خفيرا نظاميا يقبض راتبا شـهريا وقد لا تقبل الحكومة أن يشتغل خفيرها صيتيا وقد لا تقبله خفيرا أصلا ·

فى المرات القليلة التى استمعت فيها الى صوته يؤذن أو يستغيث للفجر أو لصلاة الجمعة استطاعت ان تعطيه الحق فى هذا الحلم ·

لكنها أبدا لم تكن تشاركه نفس الحـلم · لقد انسلخ كل منهما فى فلك وحده من أول لحظة · لم تشعر انها تشـاركه أى حلم · هى صحيح تحبـه ، أى لا تكرهه وانما تشعر تجاهه بحنق شديد يشعل الغضب نارا فى عروقهـا كلما تذكرته ، فبضعفه وفقدانه الرجـولة حجب دم بكارتها عن الظهور فباتت فضيحتها مؤكدة وباتت الالسـن تلوك سيرتها متسائلة كيف تأخـر ظهور الدم البكر ، ثم تقادم الأمـر فايقن الكافة انه لم يكن فى الأمر بكارة أصـلا · منذ الشـهر الأول وهى لم تستطع الاندماج فى البيت ، لم تذب فى محتوياته ، لم تتوزع أشياؤها على دولاب وأدراج وأماكن فى الغرفة · انما كان لهـا دائما صرتها الخاصة التى تحتوى على أشياء تخصها : خلخـال فضى تمردت

قدماها عليه ، مكحلة ، زجاجة ريحة اهديت لها من ولد تلميذ ، قسيمة الزواج الذى لم تحبه ، فرع من الكهرمان الأصفر تنازلت عنه أمها لها ، خاتم فضى رخيص اشترته من المدينة المجاورة فى أحد موالدها ، قميص نوم شفتشى يكشف عن أسرار الجسد اشترته لها حماتهـا فلما لبسته ليلة الدخلة شعرت بالفضيحة الهائلة وتحملت الشعور بالعرى ومع ذلك لم يحدث شىء يستكن له البدن فنبذته ولكن لا تعـرف لماذا ادخـرته بين أشيائها ··

هذه وأشـياء أخرى تافهة وغريبة هى كل متاعهـا · أما الصرة فكانت فى الأصل نصف زنبيل يستخدمه حموها فى سرحاته بالرباب وكانت لا تزال نظيفة متينة فيهـا خروم مبطنة المدن وحبال متينة لقد وضعتها بكل هذه الأشياء فى قاع الدولاب ·

— ٧ —

لم تكن تحس انها تنوى أمرا ، بل لم يكن يخطر على بالهـا · لكنها كانت سباقة دائما الى مشاوير الأسواق · يوم السوق تصحوا له قبل الفجر ويدب فيها نشاط وتتفتح كل منافذ خيالها وتضحك فى تودد واضطراب ولهاث ·

ينفتح السوق أمامها عالما واسـعا يؤكد لهـا أن الدنيا واسعة والبشر أكثر بكثير مما تصورت · وكانت دائمـا تكتشف أن صرتها الخصوصية جاءت معها صدفة مخفاة فى الأقفاص ، وهى التى تخفيهـا جيدا كأنما تخشى عليها من أهل الدار · أجمل سوق هو سوق المدينة المجاورة · وجوه لا تعرفها لا تعبأ بها لا تنظر اليها لا تعريهـا لا تتهمها بالعهر ظلما وعدوانا ، كل فى حاله ان انتبه اليها أحدهم ونظر فى عينيها صدفة انبثق فى عينيه الشعور بالفرح والابتهاج ، وما أكثر ما شعرت فى النظرات من شبق ورغبة ، وما أكثر ما شعرت فيهـا من حب ومن

اشفاق ومن حسد ومن براءة لكنها لا تحس فيها أبدا بالاتهام . نادرة هى نظرات الاتهام التى صادفتها فى عيون المدينة وان حدثت فهى نظرة شك أو جرأة عابرة لاذعة لطيفة حلوة .

الى أن دهمتها نظرة الاتهام ذات يوم فى المدينة ، فلما استبدت بها الدهشة والصدمة أفاقت على أن تلك النظرة لم تكن من المدينة بل من قريتها هى . كان ولدا تلميذا يصرف عليه أهله فى مدارس المدينة . تعرفه جيدا كما تعرف أباه . هو ابن أحد الأعيان الموسرين وولد تملأه العجرفة والكبر بشكل فاق كل أفراد عائلته المشهورة بالكبر والعجرفة والقسوة . تجار حبوب وماشية وبذور من سنوات بعيدة . ابنهم هذا يقولون انه واصل الى التعليم العالى وسيصبح لا تدرى ماذا ؟ وأهل البلدة يتملقونه كلما رأوه يعطونه لقب البيك والأستاذ والباشمهندس ويدعون له بمزيد من النجاح وهو يتقمط بالبدلة والطربوش ويكاد ينفجر من النفخة والكبر . هذا الولد بالذات كثيرا ما عاكسها وهى تملأ البلاص من الترعة أو تغسل القمح على الموردة ، بل كان يتعقبها ويتلفظ فى أعقابها بألفاظ جارحة سمجة ويعرض عليها الغرام الفاسق مقابل فلوس وعطايا يعدها بها ، فكان يشعل النار فى جوفها ، ولولا خوفها من أهله ومن مركزه لضربته بالصرمة وبصقت فى وجهه ..

زوجها الأهبل يوافق دائما على ارسالها الى دار هذا الولد لتعطيهم بيضا أو تشترى منهم حبوبا . هى تخشى دائما أن تقول : لا : اذ هم سيقولون لها : لماذا ؟ فان قالت : لأن ابنهم يعاكسنى ويضايقنى ، سيقولون لها : كدابة . انه ولد مؤدب وعلى خلق ومصروف عليه فى المدارس فهل ينزل بمستواه اليك أنت ياجربوعة ؟ ابن المدارس يعاكسك أنت أم يعاكس الهوانم من زميلاته ؟ انت أصبحت مريضة بالمعاكسة » . وهكذا تضطر الى الذهاب وأمرها الى الله ولكنها لن تتركه يتمادى فى قلة حيائه . هو فعلا والحق يقال طيب الأخلاق لايرفع وجهه فى السماء ولا يعلو صوته على من هو أكبر منه ، ويصلى الفرض بفرضه ، ودون أبناء

الأغنياء يمشى فى اتزان واستقامة وأدب . وينجح على الدوام والجميع يحلفون بأدبه وأخلاقه . لكنه هكذا فى الظاهر فحسب . أما فى السر فهو ابليس ، مخيف ، لم تصادف جرأته فى أحد ، يفعل أفعالا يخجل من فعلها أكبر قليل أدب فى الدنيا ، مرة لم يكن فى الدار سواه وقال انه سوف يكيل لها القمح أو الذرة الذى تريد ، دخل بها المخزن يرفل فى أدب جم ، فما أن انفرد بها فى المخزن حتى شمر ثوبه وأمسك يدها ووضعها فوق عضوه ، فشدت نفسها مذعورة وخرجت صائحة ، فلما خرجت أمه من داخل الدار وجدتها تنتفض أمام المخزن باكية فى حين كان ابنها بكل أدب يكيل الذرة كأن شيئا لم يكن ، فسلقتها الأم بنظرة ونبهت عليها بعدم المجىء ثانية .

غير أنها دائما كانت تضطر الى المجىء . فاذا كان المجىء يعرضها للفضيحة فعدم المجىء يعرضها للفضيحة أكثر . مرة ثانية مشىء وراءها ينظر حواليه كلص ، كانت سارحة بالغذاء للأنفار وظل يلاحقها حتى اذا ما وجد الفضاء خال من كل ظلال حاذاها وتحسس مؤخرتها ، فاهتز جسدها كله وكادت تقع بالغذاء فانبرى لسانها يشيع الشتائم الخائفة والبكاء الحارق المر ..

— ٨ —

هذا الولد المؤدب الأخلاق المعدوم الحياء فى نفس الوقت ، يسكن فى المدينة حيث يتعلم . يكترى له أبوه شقة فى الدور الأرضى بشبابيك على الشارع ليتسنى له مراقبته من بعيد بمفاجأة . تقيم معه لتخدمه وترعاه أم أمه وهى عجوز مشدودة الحيل . كثيرون من أهل القرية يتفاخرون حين يتقابلون فى سوق المدينة بأنهم يعرفون سكن الأستاذ مختار أو مختار بيه . هل كان اسمه مختار حقا ؟ الواقع انها لا تذكر ، ولكن لماذا مختار بالذات هو الاسم الذى يقفز الى ذهنها كلما تذكرت هذا الولد ؟ حتى ملامحه لم تعد تذكرها بل انها لم تعد تتذكرها فى يوم من

الأيام ربما لأنها كانت دائما تخشى النظر فيهـا ولا تحب رؤيتها . كل ما تذكره منها ومن شقصه أنف مسحوب وعينين فيهما نظـرة ميتة لا تعبر عن شيء . حتى أبوه عمرها ما عرفت اسمه الحقيقى على التحديد أكثر من أنه الحاج .

عائلته هى الأخرى كانت أعزب عائلة . لها أسماء عديدة . رجال كثيرون لهم دور وغيطان فى الباوة ومن حبهم فى « المهيصة » ينسبون أنفسهم الى كثير من العائلات .

— ٩ —

لا تدرى ان كان ذلك من تدبير أحد أم أنه قدرها الأسـود على الدوام . يقام فى المدينة واحد من أكبر الموالد فى البلاد . يؤمه أشكال وألوان من الناس والطرق الصوفية والملاهى . شهر بأكمله تقريبا تتحول المدينة فيه الى نهر يتدفق بالبشر والتجارة والملاهى ، يصل كل شيء الى ذروته فى أسبوع الليلة الكبيرة .

حين أخبرها زوجهـا « هريدى » انهما سيذهبان هذا العـام الى مولد سيدى « اسماعيل البسيقى » كادت تطير من الفرح ، وكانت تعرف أنها لو لم تكن عروسا جديدة لما اصطحبها معه فى هذا المشوار ..

أعدت العدة من عيش وقرص وجبن قديم يكفيهما لبضعة أيام . فى قعر القفه وضعت — كالعـادة — صرتهـا التى تحوى أشـياءها الخصوصية . عند ركوبهما القطار وسط رهط كبير من أبنـاء بلدتهم تفاخر زوجها « هريدى » قائلا أن الباشمهندس قد نبه عليـه بضرورة أن يزوره اذا نزل المدينـة فى المولد لكى يبيت عنده بدلا من المبيت فى صحن الجامع . ارتجف صدرها وقالت لنفسها انها سوف لن تمكن هذا الولد الأفندى منها ، انها لاتزال بكرا ، ومادام وزجها قد عاف بكارتها

فهى لا يصح أن تقدمها لأحد لاتحبه ، نعـم لن تسلمهـا لمغتصب . لا ولا لواحد ممن يتهمونها ويعتبرونها عاهرة .. حتى لو أصبحت عاهرة فهى لا تطيق العهر مع واحد من هؤلاء ..

كيف لم تنتبه الى أن « هريدى » قد أحضر معه الرباب ؟ كيف غاب عن بالها ذلك رغمأنها كانت تحملهـا معها فى القفة طوال الطريق .. ما ان نزلا شقة الباشمهندس — الذى رحب بهما ترحيبا هائلا دهشت له جدته أيما دهشة — حتى فرطوا برام الأرز وتعشوا معـا ثم نهض « هريدى » ساحبا الرباب وقفزت هى فى أثره لا تلوى على شيء .

ابتلعهما الزحام الكثيف الدافىء الساذج الجميل . بعـد زنقات لا حصر لها وعشرات عرف جسدها خلالها عينـات من الأحضان فيهـا الحياة الحقة لمجرد اللمس فما بالها بالارتماء فيها ، ونادت عليه ونادى عليها عدة مرات . ثم أن حائطا من الكتل البشرية زحفت بينهما وظلت دوامات الحركة تطيح بكل منهما فى اتجـاه حتى اختفى كل منهما عن الآخر تماما . غير أن نفس الدوامات عادت بعـد جهود مضنية فجمعت بينهما فى ميـدان الجامع حيث تصطف على جميع الجهـات سرادقات مزخرفة بالأضواء الملونة على واجهاتها ميكروفونات ولوحات تحمل صورا لنساء جميلات بل حوريات يبتسمن فى سعادة نصف عاريات ، صنوف من صورهن ومثلها لرجـال حليقى الذقون مصففى الشعور فى أناقة تطفح البراءة من وجوههم ، أسماؤهم — هذه الكتابة لا شك — تسطع حولها كوكبة من الأضواء ، الميكروفونات لاتنى تردد أسـماءهم وتعد المتفرجين بالخير والنعيم كله مع الراقصة اللولبية محاسن فؤاد ومطربة كل الاقطار سلمى البرانية والمونولوجست العالمية فسفوسـة ونجم الحفلات شـاكر الطنطاوى وابن النكتة خفيف الدم والروح عشماوى والفنانى الصعيدى صفوان وبخيتة وأشياء وأشياء ودنيا أخرى لم تكن تعرف انها موجودة فوق هذه الأرض من قبل .

يزحف بهـا صف الصـور من سرادق الى سرادق وتستعيدها الميكرفونات الى حيث كانت ، ترى الناس من فرح ومن بهجة يقطعون تذاكر من شخصّ واقف بالباب ثم يدخلون الى حيث توجد صفوف من الدكك متجاورة ، وفى الصدارة مسرح خشبى كبير · أحست بأن أبوابا حديدية قد انفتحت أمامها على الدنيا · ظلت حائرة فى دوامة الأضـواء فى ميدان المسجد حتى رأت جمعا كبيرا يأخذ فى التزايد وتتصاعد منه صيحات الابتهاج زاعقة مدوية · زحفت نحوه مستثارة · دفنت نفسها بين الزحام ، وقبل أن تنجح فى اختراقه تناهى الى سمعها صوت الربابة ، حزينا ناطقا بأصوات يقشعر منها البدن ويقف شعر الرأس ، فى أعقابه صوت « هريدى » ·· يقطعك يا هريدى هل أنت موهوب الى هذا الحد ؟ هل أنت فى صنعتك فاجر كل هذا الفجر ؟ ··

اخترقت بقية الزحـام فى عنف شديد بعد أن اعتقلتها دوائـر كثيرة عامدة · كادت ترتمى عليه صائحة فى مرح : « يقطعك ياهريدى دانت بمب خالص ياوله » · لكن جسورا متطوعة من الزحـام حالت بينها وبينه فى جد وصرامة حيث وسعت له دائرة صغيرة تألق هو فى وسطها فلم تجد مفرا من الوقوف والانصات مثلهم · حاولت ارسـال عينيها الى عينى هريدى ، وخبطت الأرض بقدميها صائحة كما يصيحون فى اعجاب وتأثر : « ياسلام ·· ياسيدى ياسيدى كمان والنبى كمان » ، وهو ينبرى بصوت بربرى رائق شجى لاذع : الله الله يا بدوى · فيردون جميعا وفى نفس واحد ملتئم ساخن : « جاب اليسرا » · لحظتها لم تكن تعرف هل هى فى مولد البدوى أم الدسـوقى أم القناوى أم المرسى · انما هى تحاول رفع صوتها فوق صوت المجموع لكى يتميزه فيرفع عينيه الى عينيها · وهو منفصل عن الوجود كله ، مسبل العينين ذابت ملامحه فى صوته فى حركة ذراعيه فى يديه فى أصابعـه فى صوت الرباب ، والقوس فرس يتقافز راقصا فوق الرباب ··

من أين جئت بكل هذه الموهبـة بكل هذه الأدوار ياهـريدى ؟ آه كم تحبـك ياهريدى · هل كنت ياهريدى فاقد الرجـولة أم ان رجولتك عافت جمالها المبتذل ؟ · كانت هذه هى الشوكة هى السكين المغروسـة فى قلبها لحظتذاك · فجأة توقف هريدى والعرق يتدفق منه فيما هو يبتسم فى سعادة لا حد لهـا · ثم ان الدائـرة تكسرت باقتراب ناس وجهـاء يصيحون : « لابد له من الراحة ·· ولابد من العشاء ليسند قلبه ·· اننا بشر ·· قم بنا ياشيخ العرب لتأكل لقمة وتستريح وتشبعنا قولا وانشـادا » ثم ارتفعت أصـوات عاليـة : « عندى ·· بل عنـدى أنا ·· لا عنـدك ولا عنده ·· عند فلان ·· لا والله » · وهكذا تبارزت الأصوات والأيمـان المغلظة حتى تقـدم الأقوى فحوط كتف هريدى واختطفه اختطافا كريمـا مهذبا سـلم به الجميع فى أريحيـة وتبعوه وهريدى يبتعد عن ناظريهـا فى تواضـع وقد كبر حجمه كثيرا جدا · لم تفق الا وهى تصيح من فزع ومن لوعة : « استنى ياهريدى » ، ولكنها تعثرت فى أقدام وجموع غاشمة ·

— ١١ —

هل سمعها هريدى وتجاهل صوتهـا ؟ هل كانت راغبـة فى أن يتجاهل وجودها ؟ أن يلقى بها فى بئر العدم ؟ ما هى واثقة منه انهـا لم تفكر فى الهرب أبدا · انمـا ظلت تبكى لساعات طويلة فيما هى تذرع الشوارع والساحات والميادين باحثة بين كل مجموع عن هريدى ، فلم تسمع للرباب صوتا · قادتهـا قدماها الى السرادقات من جديد وراحت تعاود الفرجة عليها الى أن فوجئت بمفاجأة مذهلة ، حيث كانت واقفة أمام برواز بجوار باب السرادق تتأمل فى وجه شاب حلو التقاطيع غزير الشارب ملفوف الشعر من الجنب الأيمن أحمر الخدود كابن ناس أصيل ، يطل من عينيه ومن ملامحه ذكاء وخفة دم · وكانت قد أطالت التأمل فى صورة وما أن رفعت وجهها عنها واستأنفت السير حتى فوجئت

بنفس الصورة واقفة بجوارها بلحمها ودمها • فارتعدت وظلت تقارن بين الوجه والصورة لتتأكد فى كل لحظة أن الأصل أحلى من الصورة بكثير ••

سألته فى انبهار : « أنت •• أنت ؟ » • ضحك فى صفاء قائلا : « نعم • أنا وأشار الى البرواز ـ أنا ـ وأشار الى نفسه » • قالت « تغنى ؟ » • ولحظتها أيقنت أنه قد وقع غريقا فى عينيها الى الأبد • قال وهو يذوب رقة : باغنى حلو قوى •• غنا شعبى يعجبك » • وكان يرتعش كأنه يخاطب أحد الحكام • قال : « لازم تتفرجى على » قالت « ممعيش فلوس » أضاء وجهه وصاح : « على حسابى •• تعالى » وبرفق شديد سحبها من يدها بقبضة واهية مرتعشة • عند قاطع التذاكر وقف وقال له : « ادخل الآنسة على حسابى » • أعجبتها كلمة الآنسة ••

عالم جديد جميل ساحر • « النمر » تتوالى والبهجة تعم الجميع والاعجاب يستبد بهم فيصفقون ويصيحون صيحات فرح • كل من غنى أطربها ونبش بين مشاعرها بأعواد رقيقة لذيذة • الراقصات أخذن بلبها • طول عمرها لم تر راقصة • تذكر أنها رأت « الغازية » تجوب القرى فوق حمار هزيل وتحتها خرج ومعها طبلجى وزمار وحارب رق ، فى العادة تكون عجوزا تلبس فستانا مهلهلا من جوانبه ، لتتمايل فى رقاعة تكشف عن سيقان خشبية تحتاج لسنفرة ، وبطن ضامرة ، وصدر أعجف ، ترتمى على أى رجال يجلسون ، ما أن ترى جمعا أمام دكان أو على مصطبة حتى توقف حمارها وتنزل وينبرى الزمار والطبال والرقاق عزفا ، فيفيق الجميع على نفسه وقد اندمج فجأة فى ايقاع راقص بهيج بصرف النظر عن الحرباء التى تتلوى وسطهم ، لديهم حاسة التقاط الرجل عامر الجيب بين الجالسين لتركز عليه وحده فى ضرب جسده بصدرها أو عجيزتها ، فينبعج هو ويلصق على جبهتها أو على بطنها ورقة مالية صغيرة أما بقية الجالسين فمن مليم وطالع وقد تجمع بدل النقود كيزان الذرة ، حفنة القمح والأرز ، والبصل ، ثم تشرع

ى الانصراف مستحثة حمارها بخيرزانة صغيرة قائلة بعهر عجوز سمج : « حا » ، ولهذا يسخرون فى بلدتها من الرجال الخرعين حين يضربون ابناءهم برقة فيقولون : « فلان هذا لا يربى ابنه جيدا •• بل يضربه ضرب الغازية لحمارها » الغازية أيضا كانت فى العادة بلا حياء لكنه عدم حياء يقبل عادة من العجائز المتبرجات ، تهتز وتتملق الجلوس مغنية بصوت اعجف قبيح : « ومحفظته قد كده » وتشير بيديها محددة حجم المحفظة ، او : و « ••• ـ وتذكر عضوا من أعضائه الواجب سترها ـ قد كده ـ وتشير بذراعها محددة حجم هذا العضو المحترم • أما هذه التى تراها الآن تتشخلع على المنصة العالية فهى شىء جميل كل الجمال ، جسد حلو التقاطيع تنثال عليه صفوف الترتر اللامعة كأنها ترتدى جلد ثعبان بديع ، الرعشة والدفقة والحركة شىء يطير منه اللب ، أنهار من الفرح تتدفق فى صدرها وفى كل كيانها ، لكأنها هى التى تقوم بكل هذه الحركات البديعة وكل هذه الجماهير تتفرج عليها هى وتعجب كل هذا الاعجاب ، تلعب هكذا بالصاجات ، كأن كل هذه الأنغام والايقاعات تنبعث من حركات جسدها وحده . يالها وهى تنهال راقصة رقصة الختام اذ تصير كالبطة تنفض جناحيها بعد هبوط ذكر البط عنها ، ان لرقصتها هذه لرائحة تنعشها وتؤكد لها انها قبل هذه اللحظة لم تكن تحيا ولم تكن تعرف بشرا ولا ناسا ••

ثم ان الصدور هبطت باختفاء الراقصة وأعلن الميكرفون أن النمرة القادمة يؤديها مطرب الراديو والاسطوانات ونجم الأفراح لدى الأسر الكريمة « عنتر كبايه » ضحكة مسرسعة بسبب طرافة الاسم ، على ضحك الجميع لضحكتها ، فأعجبها ذلك فاستطردت معلقة : « كباية ولا كوز » فانفجرت عواصف الضحك من صدور صافية وقلوب رائقة • أحست بنشوة خارقة كالنشوة التى أحست بها لحظة تصورت نفسها مكان الراقصة البديعة • انفرج الستار عن فرقة موسيقية أكثر الزانا وبها عدد كبير من أفندية محترمين يمسكون آلات ذات شبه كبير

بالربابة · ثم ان الأنغام تناثرت شاردة ثم تجمعت والتأمت ثم دخلت الطبلة ومن خلفها الرق فى ضرب ساحر خلفه أنغاما تستقيم وتتداخل وتصعد الى ذرى الانفعال وتهبط الى مهاد النشوة البالغة · ثم ان بصرها الملتاث توقف عند شاب يقف فى خجل جميل وأناقة فاذا به الشاب الذى عزمها على الفرجة وأحبته ·

رأته عند الباب يبعث البصر فى كل اتجاه باحثا عنها ، لكنها أغرقت نفسها فى الزحام خوف الوقوع فى الفتنة · لكن الزحام نفسه كان الفتنة بعينها ومع ذلك تحبه ، لقد صارت تحب الغزل الجماعى بنوع خاص ، فهو عادة غزل مهذب يحتمع على كلمة ذات أوجه متعددة ، غزل الجماهير وسع من ادراكها لجمالها ، بفضل الغزل الجماعى عرفت عبقرية جمالها وعرفت فى المقابل أن الخشية كلها من الغزل الانفرادى اذ هو ينضح بوساخة النفس وسوء نيتها ··

غير انها فى نهاية المساء أو مع تباشير الصباح واجهتها حيرة فادحة اذ أحست بضرورة أن تعود الى مكان تريح فيه جسدها وتتأكد من جديد أن لها أهلا وناسا · وجدت نفسها سائرة الى شقة ·· فليكن اسمه مختار بيك طالما أن هذا الاسم هو العالق بذهنها ··

– ١٢ –

كان واقفا فى الشباك يتلصص فعرفت انه فى نتظارها وأحست أن هريدى لم يعد · مع ذلك طرقت باب الشقة فانفتح فى الحال قبل انتهاء الطرقة · قالت : « تصبح بالخير ·· هريدى وصل ؟ » · قال وعلى شفتيه ابتسامة لزجة : « وصل – اتفضلى » · دخلت فأغلق الباب فى هدوء ·· تحركت فى الشقة وجلة حيرى · أشار لها الى الحجرة الداخلية نحوها وهو خلفها · قال : « ادخلى » ، فدخلت فلم تجد سوى الفراغ فارتدت مستديرة فاذا به يسد الباب فى وجهها ويدفعها الى

الداخل ، ثم ارتمى على صدرها كالخرقة كممسحة البلاط تشر ماءا قذرا : « عشان خاطرى أنا فى عرضك اعملى معروف أبوس رجلك » ولا فائدة · اهاله يفيض بريالة وعرق ذى رائحة كريهة ، وهى بكل قوتها تدفعه كل دفعة ودفعه كأنها تقذف بكرة من المطاط ، يرتد عائدا اليها مهيض الجناح بحركات أكثر جرأة ونذالة كأنه يرحب بالمهانة مقابل أن يمسك لديها بقبضة عنيفة لبرهة أو يتحسس مؤخرتها · شعرت بغاية القرف كأنه حشرة البق تصر على السرحان داخل الجسد · أصرت على الا تستسلم له · ضربته بالكف على وجهه · هددته بالصراخ وطلب الحكومة · لشدة عجبها لم ينفعل بل نظر اليها قائلا فى قوة زائفة : « طب امشى بره مع ألف داهيه » ، ثم أشار لها الى الباب فتقدمت تفتحه بحذر فاذا به يطوقها من الخلف بقوة شديدة كالجنازير الحديدية كالقبر ، وكان قد استقر تماما فى قناة ظهرها فصارت بكل تقزز تنتفض صالحة وهو يرتفع وينخفض معها كجرادة علقت بها لا تبغى انفصالا ، ثم اذا به يذوب ينشال فوق الأرض تاركا فوقها لزوجته القذرة ·· فاستدارت اليه كلبؤة شرسة فصارت تبصق فى وجهه وتضربه بقدميها وبيديها وهو يدافع عن نفسه كحيوان أليف · هبت الجدة مذعورة تجرى واخذت تحاول ابعادها عنه بكل قوتها الواهنة ، فضربتها هى الأخرى ودفعتها بغيظ حاقد فوقعت فو: ابن بنتها · فما أن اعتدلت وتماسكت حتى بصقت فى وجهه ورفسته بقدمها فى اشمئزاز ، ثم دفعت بها الى الخلاء لاعنة أباها والذين خلفوها ·

– ١٣ –

عادت من جديد الى ساحة السرادقات وموطن الاحتفال بالمولد فلما وجدت سوى جموع الفلاحين تمشى كالبهائم مبهورة مذهولة تصيح الى لهو غير مفهوم ، يختلسون اليها نظرات فيها شتائم واتهامات وقلة حياء · وكانت تحس أنها تكرههم ولا تطيقهم · لكنها كانت تبحث بينهم

عن هريدى . سألت عنه فى مطرح الأمس : الجدع بتاع الربابة ده ـ اللى كان بيغنى هنا ليلة امبارح .. تعرفوش راح فين مع مين ؟ ..

على ان كل الذين سألتهم شـــيوخا كانــوا أو شبانا تركوا مهمة الاجابة عن سؤالها وراحوا يتفرسون جمالهــا وينبهــرون ويكشفون عن نواياهم السيئة . قابلها ناس من أهل قريتها تعرف بعضهم ويعرفونها وتعرف بعضهم ولا يعرفونها والجمع عاكسوها كأنها غريبة عنهم وتآمروا على اصطيادها كفريسة شاردة وحدها ..

تفتقت مشاعرها عن حيلة ذكية ماكرة نفذتها فى الحال ، دخلت الجامع واندست بين النساء العجائز واســتغرقت فى نوم هنىء رغم الضجيج الهائل . فلما استيقظت التف حولها بعض العجائز الطيبات وسألنها عما بها فقالت لا شىء فقلن لا فقالت ماذا رأيتن ؟ فقلن فتـــاة مسكينة منطرحة تهذى طوال يومين بليلتين فهبت مذعورة فأمسكنها وقلن اسمعى تعقلى فأين تذهبين ؟ . قالت أنها تذهب لزوجها هريدى . قالوا هو زوجك اذن ؟ ولكن ماذا فعله بك ذلك المدعو بالباشمهندس وما دخل البوليس وحضرة الضابط عنتر كبايه ؟ ..

ضربت صـــدرها بكفهــا : « ياخرابى .. بوليس .. عنتر .. دى خطرفة جامدة قوى » . قلن نعم هى خطرفة لا شك ولكن فى الأمر ضابط اسمه عنتر كبايه تريدينـــه أن ينتشلك من قبضة نذل يدعى الباشـــمهندس البيك .. قالت فما كنت أقول عن هريدى ؟ قلن كنت تنادين عليه فحسب والظاهر انه لم يكن يسمع . لم تجد مفرا من أن تحكى لهن ما قد حدث على وجه الدقة والتفصيل ، فمصمصن شفاههن فى اشفاق شديد فيه الأمومة الحقة . الا أن ما هز قلبها بقرصة جادة هو أن بعض هذه العجائز كن رغم أمومتهن وحبهن الشديد لها يخفين خلف نظراتهن خبثا عميقا يتهمنها بأنها لابد هى السبب فيما حدث ولابد

انهـــا تمشى بالاغواء بين البشر ، فعادت وكرهتهن بعـــد أن كانت قد أحببتهن .

عندما نهضت واقفة لتسأل عن هريدى أوقفنها ثانيـــة وقلن لها اذا لم تجديه فعودى الينـــا لتحرسك عناية الله وعنايتنا . فقالت لهن انها طبعا ســـــوف تجىء .. لكنها كانت قد قررت ألا تعود اليهن مهما كان الأمر .

– ١٤ –

عند خروجها من الجامع واشرافها على ساحة السرادقات خيل اليها انها تخرج من جب عميق وأنها كانت قد ماتت سنوات طويلة ، الصور تستيقظ فى دماغها شيئا فشيئا وببطء شديد . كل شىء تراه كأنهـــا تراه على حق هذه المرة اذ تراه فى صفاء .

كان الليل لا يزال وليدا فخطفت الطريق الى بيت الشؤم تســـأل عن هريدى هل جاء أم لم يجىء أصلا . كانت الشقة لا تزال مضاءة كلها والشبابيك مفتوحة وأصوات قريبتها كلها تخرج منها . بصوتها الناعم الذى يزجرونها بسببه دائما ويقولون انه عورة ، نادت : يا جمـــاعة اللى هنا . فأطل لها هذه المرة رأس غليظ تعرفه هو رأس الحاج والد الباشمهندس . ما ان وقع بصره على وجهها حتى اكفهر واربدت ملامحه وصاح فى قسوة مريرة : « هو انتى ؟ . عايزه ايه يابت .. جايه هنا ليه يابنت الفرطوس .. انتى حطيتى عينيك م الولد ولا أيه ؟ .. لا .. والا اسجنك وأخلى سنة أبوكى سودة وزى القطران » .

بصوتها ذاك وقد بكت بحرقة خرجت الكلمات منـــه بصعوبة : انا جايه أسأل على جوزى هريدى » . فرد بجعيره الذى تشتهر به أسرته : « جوزك حيجى هنا ليه يا صايعه يا بنت الكلب .. امشى انجرى ..

اياك أشوف وشك هنا تانى ·· وأنت يا ابن الكلب تعالى هنا ـ ثم جر ابنه ـ تعرف البنت الصايعه دى ؟ أيه اللى خلا جوزها بيجى هنـــا ، ثم انهال عليه ضربا بالأكف والشلاليت حتى أوشك أن يقتله · الطريف انها صوتت ونسيت ما لحقها ، فلما التم قالت باكية : « حوشوا الراجل حيقتل ابنه ـ المجنون » ··

فنظروا اليها ساخرين وأغلقوا الأبواب · وارتدت هى الى ساحة المولد تدفن فى زحامها دموعها وأحزانها التى بلا نهاية ·

ـ ١٥ ـ

ظلت تسير فى الساحة رائحة غادية ووجوه النـــاس والشوارع والليل كل ذلك يزداد شحوبا · أبدا لايريد هريدى ان يخرج من مآقيها فهو فى دماغها وقلبها وهو الضوء والظل وهو البـــاب والحائط ، لقد خلصها على الأقل من شراسة أعدى أعدائها ـ أمها ، كذلك خلصها من وجه خالها المكفهر على الدوام ، ومن صفاقة أبناء خالها صبيانا وبنات ·

فى السرادق سألت عن « عنتـر كبـاية » الذى هش لهـا وفتح ذراعيه فى سعادة كبيرة حانيه · وكأن شـــيئا فى ذراعيه المفتوحتين أرغمها على الارتماء فى صـــدره فطوقها وربت على كتفها فكأنها تحس بدبيب الحياة فى أوصالها لأول مرة ، ووجدت نفسها تبكى ، ووجدت فى قربه راحة كبيرة · اذ وجدت فى نهاية الأمر من يقول لها بصدق : « مالك » · أخيرا وجدت من اذا نظرت فى عينيه لا تجد طمعا ، لا تجد تلك النظرة الحيوانية المتنكرة ، فلما شرعت تحكى قال لها : «مش وقته»، ثم أجلسها فى مكان جميل ·

تفرجت وابتهجت وفرحت كأنهـــا نسيت كل ما كان من أمرها ، احست كأن ماضيها كله قد سقط فى بئر مظلم وكأنها بنت اللحظة أى رجولة تلك التى أظهرها عنتر كباية فى تلك الليلة ؟ لم يفعل شيئا

مما خطر على بالها ، كل ما لم تكن تتوقعه فعله ، فى جدية شديدة سلم على زملائه واصطحبها وانصرف خلسة · جرى بها الى محطة القطـــار وركب بها سيارة أجرة الى العاصمة فى الطريق حكت له كل شىء عن قصتها مع خالها وأهل قرينها ، لكنها ـ المكاره ـ لم تقـــل له انهـــا اتزوجت ، بل لم تقل له اسمها الحقيقى ، أما عن الزواج فانها بالفعل لم تتزوج وان شئت فاكشف على وقد صدقت فى ذلك بشكل ما ، ولكن بأى جرأة قالت له ان اسمها : « البتعه ·· البتعه محمود الخليلى » · تضحك فى شعور بالرهبة كلما تذكرت ذلك ، كلما تذكرت نفسها وهى تجاهد لتنسى اسمها الحقيقى ، لتنسى : « بسيمه أحمد ربيع » ، تشعر بالرهبة كلما تذكرت عنتر كباية وهو يجرى من مكتب الى مكتب ومن قسم الى قسم يقابل ويبرطل بسخاء من أجل تسنينها وعمـــل بطـاقة شخصية لها على أساس انهم ناس يقضون عمرهم فى سفر بعيد لاحياء الحفلات والأفراح وهم أحوج الناس الى البطاقة الشخصية · حتى الآن لا تدرى كيف تمكنت من نسيان اسمها الأصلى والتعلق باسمها الجديد كأنها ولدت به ، غير أنها لا تنسى مطلقا لحظة جلوســـها أمام المأذون للمرة الثانية حيث ناداها باسمها الجـــديد ودونه فى القسيمة ودون بجواره أنها قد وهبت نفسها لعنتر كباية على سنة الله ورسوله ·

ـ ١٦ ـ

شقة جميلة واسعة يسكنها فوق جبـل الحواوشى وبحذاء مقابر القرافة · كانت جثث الموتى تدفن فى البيوت المجاورة باعتبارها أحواش معدة للدفن · كان ذلك يصيبها بكثير من الانقباض فى أول الأمر ، لكنها بين جثث الموتى تعلمت كيف تدب الحياة فى جســـدها كأنشط وأنقى ما تكون ، كيف تتخاطب كل عضلة فى جسدها مع الرائى · أكثر من هذا تعرت على كبار المهربين والأشقياء والعظماء والوجهاء ··

كان عنتر كباية يعرض عليهـــا جرائد ومجلات كثيرة كل يـــوم ويقولها لها : « أترين هذا ؟ » ويشير الى صورة شـخص مهيب مفرود على الصفحة . تتأمله لبرهة صـــائحة : « انه فلان .. يوه يقطعه .. الذى فعل كذا » ، وتحكى كيف كانت تقوم بالأعداد لسهرة مخـــدرات كبيرة كان من بينها هذا الزبون وانه تقيأ وخطرف وشخ على روحه .. الخ . فيذعر عنتر كبـــاية ويصيح واضـــعا كفه على فمها : « ش ش ش .. يخرب بيتك .. انه كذا وكذا » . ويصدع رأســـها بالقـــاب وأشياء لم تسمع بها من قبل ولا تفهم لها معنى ولكنهـــا تلخصها فى ذهنها بأن تلك شخصية كبيرة فى البلاد ، وان هذه شخصية أكبر ، وأن شقتها فى الواقع ليست شقتها بل هى وكر لاجتماع هذه المجموعة الهائلة من شخصيات تراهم فى الصحف وتسمع أسماءهم فى الراديو .

ـ ١٧ ـ

حارت فى أمر « عنتر كباية » ولكنها كانت تحبه ولا تتوقع منه العيب أبدا . يوم دخلتها عليه اكتشفت لماذا هى جميلة ولماذا يحب الناس الجميلات ، كما اكتشفت أشياء كثيرة جميلة لم تكن تعرف عنها شيئا . فمنذ أن وقفت أمام مرآة التسريحة رأت أمامها سيدة أخرى لا صلة لها ببســـيمة بنت الحقول وتلصيق الجلة والتشرد بين دروب المهـــانة ليل نهـــار ..

رأت نفسها سيدة كالسنيورة التى تراها فى المجلات والتصاوير المعلقة . أمام عينيها دفع « عنتر كباية » فى الفستان الواحـــد جنيهات تصلح مهرا لأبنة العمدة ، وقال ضاحكا ان ثمن الفســـتان الواحـــد يقبضه من صاحب السيرك طوال أسبوع المولد ، فلما سألته من أين تجئ بالباقى يا عنتر يا حبى ؟ قال ان ربنا يرزق الدود فى بطن الحجر فقالت نعم . ولم تعد تسأله بعد ذلك عن شىء من هذا أبدا ، لكنهـــا من فرط

الشعور نحوه بالشـــكر والحب وطنت النفس على الا ترفض طلبـــا له مهما كان الأمر ..

لكنها فوجئت ان الشقة ليست مجرد شقة بل مدينة ، ولم تكن لها وحدها بل لعشرات من الأفندية والبكوات والسيدات اللائى كن يغرن منها ويحببنها فى نفس الآن اذ يتطوعن بتعديل ثيابها وتلقينها أصول اللبس والا عيبه ومغزاه . لم تقلق من هذا الزحام بل أنست اليـــه فأدخل على قلبها الونس ، ولم تشعر بثقله لأن عنتر كباية كان يملك الزمام ويستطيع اخلاء الشقة من كل زوارها فى لمح البصر وتهيأتهـــا لزوار جدد أو لها هى وحدها لأيام طويلة . فى الواقع لم تكن تفهم من ذلك شيئا ولم تكن فى الحق تريد أن تفهم طالما انها ترتع فى نعيم مقيم وتستحم بالكولونيـــا .

ـ ١٨ ـ

الانســـان لا يستطيع ان يغلق عقله بارادته ، ولم يكن قد بقى فى ذهنها من ماضيها سوى كلمة قالتها حماتها السابقـة أم هريدى : بنت الأصول تعيش مستورة ولا ترى الفقر أبدا لأنها تستر على زوجهـــا وعيشها فلا تفتش وراء الرزق من أين جـــاء ولا كيف .. والبتعة . أو الست بتعه هانم ترى وفودا تلعب القمار فى شـــــقتها حتى مطلع الفجر . رجال كبار ذوى مهابة ينحنى لهم حتى أولئك الذين يغلبونهـم ويسحبون نقودهم .

المجنون أوراها صورا فى الجرائد لرجـــال يلبسون اللبـــاس العسكرى والجماهير تهتف لهم وتلتف حولهم . أشار لها على صور أخرى تبدو فى منتهى الجدية والقوة مع انها تراهم فى الشقة بلا جدية وبلا أى قوة على الاطـلاق بل تراهم فى ضعف شـــديد يهزءون بعضهم بعضـــا بشتائم قبيحة مخجلة . قال عنتر كباية لقد أصـــبح هذا مديـرا لمكتب

هذا ، وأصبح ذاك مديرا للجهاز الفلانى وما أخطره من جهاز ، وأصبح ذاك مسئولا عن كذا فى البلاد ... الخ .

ثم قال أيضا انه يعرفهم منذ سنوات بعيدة حيث كان كل منهم زميلا له فى شىء ، فى الكتاب أو المدرسة أو الحارة أو النادى أو هواية الفن أو الصعلكة أو حب النساء أو المقامرة . قال لها كذلك انهم سوف ينسحبون عن عالمه شيئا فشيئا وسوف لن يرفعوه الى مصافهم أبدا ، انما سيظل فى نظرهم دائما « صبى العوالم » الفاسد الذى لا يحتاجونه الا فى مسائل لا يجيدون الاتصال بها ، فالواحد منهم مهما كبر أو عظم فان أشياء فيه تظل كما هى لا يمكن ان تتغير أبدا وان تغير شكلها فالمصاب بداء الحشيش كالمصاب بداء النساء كالمصاب بداء الأفيون كالمصاب بداء الرشوة كالمصاب بداء السرقة كالمصاب بداء الكذب كالمصاب بداء التملق .. محسوبك عنتر كباية تربية الدرب الأزرق وحارة الجوانية وجبل الحواوش كنت أصادق وأزامل أولادا من كل مكان .. حكم البلاد يا بتعة لابد من ملك يرث العرش أبا عن جد . ولكن ما دام لم يعد هناك ملك يتسلم ارثه ، ومادام عرش الحكم فى البلاد قد أصبح مباحا لعامة الشعب فان الأمر يجب ان يتاح لمن كان أجدع وأعدل ، عنتر كباية مثلا ، خيره على الجميع وخدماته تغرق الجميع وشهامته مشهورة ولكن هل يجىء له عرش البلاد ؟ لا طبعا ، فللدنيا أحوال غريبة . تزحزح عرش البلاد حركة فيقع فى أيدى بعض من كانوا يشربون ويتصعلكون ويتصيدون النساء معه .

تضحك البتعة من كلامه وتنحاز الى صفه على اعتبار ان الأمر برمته من قبيل الأساطير ، فهى تصدق أن يجور الزمن على كل الناس الا على الملك ، وأن ينهزم كل الناس الا الملك ، وأن يتسامح كل الناس ويتنازلوا عن حقوقهم تجاه الآخرين الا الملك لا يتسامح فى ملكه أبدا ولا يتنازل عن عرشه الا اذا كان والعياذ بالله قد أصابته جنة . صحيح انها رأت صورا وكلاما منشورا فى الصحف ولكن أليست هذه

الصحف يطبعها ناس ؟ ربما لم يعلم الملك بها أو بهم والا فانه لابد ان يعاقبهم على نشر هذه الأكاذيب عنه ..

لقد ظلت « البتعة » تنتظر زمنا طويلا ان يصل خبرهم الى جلالة الملك وتسمع ان العساكر الهجانة قد جمعتهم ـ كما يحدث فى قريتها ـ وضربتهم بالكرابيج على مؤخراتهم تأديبا لهم . لكنها فوجئت بأن الشعب كله يتحدث عنهم والراديو يذيع أصواتهم تتكلم فى حماس وانفعال غريبين لا تدرى ما المبرر لهما ، والجميع يهتف .

ـ ١٩ ـ

ثم انها بدأت تلاحظ ان الشقة فرغت فجأة الا من ناس بلا شأن . كان عنتر كباية يجلس أمامهم متباكيا يذيع أخبارا غريبة يزعم انها حدثت على يديه فى هذه الشقه وبين هذه الجدران التى لو نطقت لأيدته بلا جدال ، من قبيل انهم ضحكوا عليه وأكلوا الكوسة فوق دماغه . ألم يحتفظ لهم فى هذه الشقة بأسلحة ومنشورات ؟ ألم يختبىء فيها ناس منهم أياما بلياليها . ولا يقولون له عن السبب ؟ ألم يستخدموه فى نقل رسائل شفهية وكتابية لناس غريبى الأطوار لا يعرف كيف كان من الممكن أن تنشأ بينهم وبينه صلات ؟ .. هو حمار وابن كلب من الاساس ، كان يجب أن يدس أنفه فى كل شىء ويعرف حقيقة هذا الذى يشارك فيه ، لكنهم طول عمرهم هكذا يعرفونه « ليستكردونه » وهو من طيبة قلبه يطاوعهم ويفعل ما يطلبون منه دون مناقشة حتى لا يبخلون عليه بصداقتهم ، كان يخشى ان يناقش أو يثير وجع الدماغ فينصرفوا عنه وهو فى الحق يتشرف بصداقتهم ويستفيد من وراء معرفتهم ..

مرة أخرى تضحك « البتعة » من طيبة قلبه وتشفق عليه ، خاصة حين كان المستمعون اليه يفزعون من كلامه ويصيحون : « ما توديناش فى داهيه يا مجنون » . العجيب انهم جميعا راحوا فى داهية بعدها بأيام قليلة .

- ٢٠ -

كانت أياما سوداء . جـــاء رجـال عند مطلع الفجـر واقتادوا عنتر كباية بثياب نومه الى حيث لا تعرف . ظلت تنتظره أياما وأسابيع وتسأل عنه فى الأقسام والمستشفيات دون جدوى . كل من قابلتهـم فى تلك الرحلة المضنية ظهروا كأنهم يعرفون حقيقة الأمر وكأن بامكانهم احضار زوجها من تحت طقاطيق الأرض . تحصل على مواعيد بشـأنه لتجد نفسها محاصرة فى شقة أو فى كازينو أو فى أى ورطة سـوداء تلجأ فيهـا الى الصراخ والفضيحة فى طلب الخلاص . كان بعضـهم من معارف زوجها الذين انقطعوا عن زيارتها يلتقون بها صدفة فيهمسـون لها بوصايا غريبة : « أتعرفين فلان الفلانى الشهير بكذا : » فتقول نعم كثيرا ما ناولته الحذاء بيدى . فيقولون لها : فى يده الخلاص » . لكن آخرين همسوا لها محذرين : « بل فلان هو الأهم » ..

ولقد تذكـــرت هذا الأهم . كانت تظن انه ولد تلميذ يشبط فى ذيل أقاربه الكبار حين يذهبون الى مشوار . كان بكل نشـاط وحيويه يتطوع عند احتدام السهرة بالقيام والذهاب الى المطبخ ومشاركتها فى شغله . كما يقوم بتوضيب الجلسة . ان كئوسا فينظفها ويهيىء الثلج فيها وان حجارة فينظفها ويكرسها ويرصها نارا .. أفيكون هذا الجدع قد أصبح فى هذه الأملة التى يحكون عنها ؟ . والله لتذهبن اليه وتضع عينيها فى عينيه » ان نسيها فما مداعبات المطبخ ببعيـدة ، وتحككه فيها وتماديه فى ذلك تشهد بهما صيحتهـا المدوية التلقائيـــة التى أسكتته وأضحكت عليه من انتبهوا لنواياه الخبيثة وراء تطوعه بالخدمة ..

ومنذ تذكرته تذكرت ما كان يسطع فى عينيـه من نظرات حاقدة ضاغطة . نظرات لم تكن تستريح لها مطلقا . لهذا ترددت فى الذهاب اليه . شجعها على مزيد من التردد همسات الشعب فى أذنيها واذن غيرها ممن فقدن أزواجهن بأن تريح نفسها بدلا من الجرى وراء السراب فقد

وقع زوجها فى قبضة الطاغوت والحلم بعودته سراب . لكن انذارا من صاحب البيت وصلها يأمرها بمغادرة الشقة فى أيام قليلة . وكانت قد اصبحت وحيدة تماما حتى جدران الشقة التى أيقنت من أن لها بالفعل آذانا أصبحت شاهدة على اغترابهـــا . لكن أين تذهب وهى على الأقل جدران تسترها ..

- ٢١ -

لبست هدومها الأنيقة الثمينه وأغلقت الشقة وركبت عربة أجرة وأعطت للســائق ورقة فيهـــا العنوان . اضمحل الشبق فى عينى السائق وآب غزله البهيج الى شعور فادح بالخوف كأنمـــا انطفأ فيهـا البريق الحلو الى الأبد . ظل يمشى بها فى تؤده ، ولا يدير رأسه نحوها حتى وصل الى العنوان فنزل وفتح لها الباب قائلا : « اتفضلى يا أفندم » . وأعطتـه الحساب وهى تكتم ضحكة جـذلة من رفضه للحساب . ثم أنها كافأته بترك بقية الفكة .

كأنما فى عينيها ووجهها وكيانهـــا سرا يقول للرجـــل : قف ، قف . ان تكن قد رأت بسبب تشردها كثيرا من الأنواع فانها قد رأت بسبب جمالها كثيرا من الأسرار والأخبار . طلبت من البوابة المحاطة بالعسكر والشارات الحمراء مقابلة الاسم المدون فى البطاقة ، فاقتيدت فى الحال اليه ، ولا بد ان هيبة جمالها قد صادرت فيهم كل الأسئلة . اذا به حقا كما يقولون مهم الى حد كبير جدا . العشرات يحرسونه والمئات يطلبون مقابلته ، وهو من فرط ذلك فى عز وبغددة كأنه ملك الملوك .

كانت فى طريقها اليه قد عرفت ان كل ملك يظهر لهـــا يتضح انه مجرد بواب لملك آخر ينضم هو أيضا الى جموع الواقعين فى عرضه .

ما ان رآها حتى هب فى إستقبالها كأن الدنيا نفسها قد أقبلت عليــه بالسعد وان ظهر خلف نظراته الولهى شعور غامض بالخوف والتوجس . أجلسها أمامه على كرسى وثير فى حجـــرة وثيرة فشعرت بالأبهة وبدا فى نظريها رجلا سامقا من علية القوم ليس فوقه حاكم آخر . غير انه صغر فى ناظريها بعد برهة حين انتفض وقفا كأى خادم مذعور حين رن له جرس فوق دماغه مباشرة ، ثم اندفع يجرى تجاه باب خفى ودخل مهرولا ثم ما لبث ان خرج مهرولا يتعثر ، وصار يبحث عن أوراق يأخذها ملهوفا عاد بها الى الداخل فغاب قليلا ثم خرج يمسـح عرقه . ثم تلعثم فى أذنيها والمهانة واضحة عليه محاولا افهامها بأنها ارتكبت خطأ لا يغتفر بحضورها اليه وأن عليها بالانصراف حالا ولسوف يلقاها فى الخلاء ويعرف ماذا تريد ، وعلى العموم فان كانت تريده فى أمر عاجل فانه سوف ينتظرها الليلة فى هذا العنوان ، وسحب بطاقة دسها فى يدها خلســـة .

لم يزعجها من ذلك شىء سوى ورود كلمة « الليلة » فى الحديث ، فلقد باتت تكره هذه الكلمة لأنها تكشف لها دائما عن نوايا سيئة .

ـ ٢٣ ـ

لكنها ذهبت اليه . فى المساء استقلت عـربة الى منطقة سكنه وصعدت عمارة عالية وطرقت باب شقة انفتح لها عن أضـــواء كابية وأثاث عريق . كان فى استقبالها وحده وبثيابه المنزلية ولا أحد فى الشقة غيرهما والشيطان ثالثهما .

اقتادها مباشرة الى طرقة مستديرة تشرف على بـار أنيق . فاذا بالمأكولات مرصـــوصة جاهزة للأكل واذا الكئوس مهيأة للشراب . صعد الى كرسى وأشار لها على المواجه فصعدت هى الأخـــرى بقليل من

الارتجاف . تناولت كأسا وعلقه فى الهواء قبالتها صائحا : « كأسك » فتناولت هى الأخرى واحدا رفعته مثله فلطمت كأسه فأحست بسعادة هائلة رغم محنتها الفائقة .

كان القلق واضحا فى محياها فقال لها : « اشربى » . فلما ترددت هبط عن كرسيه وجذب التليفون وأدار قرصه ثم صاح فى عشم قليل الأدب : « أيه ياد يا .. انتوا دايرين تمسكوا الناس عاطل مع باطل ولا أيه . فيه أيه بالضبط .. هيه .. هيه .. هيه .. طب المسكين عنتر كباية ده .. ماسكينه ليه ؟ بالزمه مش مكسوفين ؟ .. يا راجل بلاش عبط امال .. تقارير أيه وبتاع أيه ؟ تقارير خايبة زى اللى عاملينها واللى مصدقينها اسمع .. الراجل ده أنا سـمعت انه على علاقة بفلان وفلان .. يا ترى ده صحيح ؟ .. مانا ما أعرفش بصراحه طب ما تقوللى يمكن أنا مغشوش .. أيه علاقته بيهم بالضبط ؟ .. آه .. آه .. آه .. آه .. أنا معلوماتى انه واد ارتيست على باب الله . نمره فى شـــارع الهرم فى مولد فى كازينو فى فرح .. آه هو لسانه طويل شويه .. طب .. أوكى .. أوكى .. سلام » ..

ثم وضع السماعة وصعد اليها وكانت تتابعه فى انبهار شديد . فلما واجهها ركز فى عينيها نظرة تنم عن رجولة مبهرة ثم قال بثقة : « كان من المفروض ألا يخرج عنتر كبابه من المعتقل مدى الحياة .. ولكن .. اكراما لخاطر عينيك العظيمتين .. فسوف أفرج لك عنه .. ولكن ـ ما الأمر بالضبط ؟ ماذا كان بينه وبين فلان ؟ . اشربى من فضلك .. هل فلان هو الذى عرفه بفلان ؟ .. اشربى يابطـــة .. وهل لاحظت شيئا ؟ من الذى كان يخسر فى القمار لمن ؟ هل كان يخسر عن جدارة أم يخسر عن عمد ؟ .. عنتر كباية منذ متى تعرفينه ؟ هل كان واسطة بين فلان وبين أقاربه فى الصعيد ؟ هل تكلموا أمامك عن أسـلحة ؟ هل جاء بسيرة فلان ؟ ـ ذعرت حين نطق فلان هذه المرة دون ألقـــاب كأنهما صديقان ـ وهل ؟ وهل ؟ وهل ؟ .. » ..

وهكذا شعرت بالهلهلة ، ثم بالخناق يضيق حول رقبتها وبأنها يجب أن تتصرف فورا . فلما شرعت تهيء نفسها للانصراف جـاءها احساس بأنها هي الأخرى قد دخلت السجن المؤبد . أرادت أن تجرب امكانية الخروج فنهضت واتجهت الى البـاب مستأذنه لمشاغل وراءها كثيرة . لكنه سـد الطريق بنظرة من عينيه أفهمتها ان ذلك مستحيل الا اذا أذن لها في لحظة صفر معينة ..

« لسه بدري يا هانم .. الحديث لسه ما انتهاش » ، ثم شرب جرعة أقشعر لها وجهه . رغم احساسها بالفجيعة جلست اجلالا لكلمة يا هانم وحدها . وضعت ساقا على ساق لتليق جلستها بهانم حقيقة . ضـحك هو اذ اكتشف في جلستها هذه شخصيات كثيرات من هوانم السهرة في شقة عنتر كباية . أشار لها الى البار فاعتذرت بأن الخمر بجميع أنواعه يجلب لها المرض وانها جاملته بكأس دليل معزته عندها . وكان هو قد أتى على نصف الزجاجة فقام اليهـا في الأنتريه وجلس بجوارها فنفذت الى خياشيمها رائحة الخسـة . بنظرات خوف تأملت وجهه ورقبته ، كل ملامحه ، فتأكد لها انه من أصل غير مموكي ؟ بل انه من غير أصل ، انه لا يختلف عن ذلك الذي رسـخ في ذهنها باسم « مختار بك » وهو ليس بمختار ، في عينيه نفس الضعف الذليل ونفس الخسة ونفس الرغبة في المساومة والتنـازل الى أبعد الحدود مع فارق بسيط هو أن هذا أكثر سيطرة على نفسه من ذلك المدعو مختار ، صبي هو في ثيـاب رجـل ، خسيس في موقع كرم ، نذل في اهـاب سلطان : الضعفاء والأخساء أعداء من يكتشف حقيقتهم ، وهكذا لانت ملامحها قليلا وأظهرت مدى سعاتها بمعرفة سيادته ..

راح يلقى على سمعها كلاما أغرب من الخيـال ، منه أنهـا هانم محترمة وابنة ناس كما يبدو فكيف قدر لهـا أن تقع في قبضة متشرد مثل « عنتر كباية » ؟ ومنه ان « عنتر كباية » قواد تزوجها ليبيع جسدها بأغلى ثمن . ومنه ان « عنتر كباية » ، كما تقول التقارير الرسمية يعمل

جاسوسا لصالح العدو الاسرائيلي ؟ هبت واقفة من فرط الذعر وقالت له بكل انفعال ان عنتر كباية لم يبع جسدها لأي أحد . فقال لها انه يبيعه دون أن تدري هي ، اذن أن عمل « القوادة » قد تقدم هو الآخـر وصار اللحم البشري يباع بالجملة ، أي أن القواد نفسه قد يعمل قوادا دون أن يدري لأن هناك قوادا أذكى منه وأوسع خبرة وحيلة واتصالات يسيطر عليه من خلال موضوع آخر . كذلك اللحم الذي يباع ، الأجسام الحلوة الطرية مثل جسم سعادتك تنطرح بكل براءة على أسرة الفسق موهومة بحب أو بمصلحة أو قضية ، وواقع الأمر أن هناك من قبض الثمن لتدور هذه الدائرة حول هذا المركز ..

لم يستطع عقلها الصغير أيامهـا ان يستوعب معنى كلامه وان فطنته جيدا . خبطت الأرض بقدمها صائحة بأن عنتر كباية لا يمكن ان يكون جاسوسا لأحد ، هي لا تعرف ما هو العـدو الاسرائيلي ذاك ، ولا تعرف ما الذي بيننا وبينه أو بينه وبيننا ، وكذلك لا تعرف ان كانت محل اقامة العدو الاسرائيلي ذاك في القـاهرة أم الشام أم لبنـان أم فلسطين من هذه البلاد التي تسمع عنها كثيرا ، هي لا تعرف أي شيء عنه ولكنها تسمع الراديو وتـرى في ذلك المسمى بالتليفزيون الموجود لدينا عند الجيران ، فلا تفهم من قول المذيعين شيئا ، لكنها قد لخصت لنفسها المسألة بدون وجع دماغ في أن ثمة شخص اسمه العدو الاسرائيلي يناصبنا العداء لله في لله ويتربص بأمة محمد ويلقي لها الرعب والفزع في الشوارع والحارات وقد يجد الانسان قطعة ذهب أو جواهر ملقاة في الأرض فلا يقربها خشية أن تفصح عن قنبلة تنفجر في وجهه .. فان يتضح أخيرا أن عنتر كباية جاسوس لهذا العدو معناه انها كانت متزوجة من هرم الجيزة الأكبر ..

ضحك ذلك الذي أسمته بمختار الثـاني وهو ليس بمختـار ، ووقف متقدما نحوها في مرح طفولي ووصفها بالطيبة الشديدة فيما يضع يده على ظهرها فأحست بقشعريرة كأن لزوجـة علقت بهـا ، ثم عاد

فاستغرق فى ضـحكة مفتعلة ثم تصنع انه داخ لكى يريح رأسـه على كتفها . ظلت واقفة مسمرة فى مكانها لتكتشف نواياه الحقيقية . كانت أنفاسه الساخنة ذات الفحيح النتن تكاد تصنع قرحة فى رقبتها ، ثم اذا بقطعتين من النار تلسعانها فى رقبتها فتشد نفسها مذعورة وشفتاه كبوز خنزير يلاحق جيفه . أبدا لن تكون جيفة لتدع هذا الخنزير يلتهمها . هى واثقة من انه نصاب كبير . لقد حكى لها عن عالم القوادة المتقدم وكيف يكون . وهى مستعدة الآن لتحكى له عن عالم النصابين وكيف يكون ، لتبين له كيف انه نصاب ومنصوب عليه دون أن يدرى ..

دفعتـه برفـق فتمايل مترنحا فأسـندته فركبتـه عظمـة مفاجئة ، حتى انها انفجرت رغما عنها ضاحكة من لغد العظمة الثابت تحت ذقنه أدوارا تحت بعضها ، ومن تكشيرة ملكية لا أسـاس لهـا من الصحة تعتلى حاجبيه ، ومن نظرات احتقار تحتقن منه الجفون تكاد تنفجر . ضاحكة أجلسته على الكنبة المريحة وفكت له زرار المنامة . ثم سحبت حقيبة يدها وتأبطتها كالهوانم ، ثم رتبت على ذقنه فى مداعبة مشفوعة بابتسامة تأمن بها شره ، ثم أنها مسته بالخير واتجهت الى الباب متلكأة غير واثقة من أحقيتها فى الخروج . فلما وصلت الى الباب ووضعت يدها على المقبض استدارت ناظرة اليه فوجدته مسمرا فى مكانه يشيعها بنظرة احتقار بالغة الحقد ، فالقت بالمداعبة الأخيرة : « العظمة لله وحـده » ، فتحت الباب واغلقته فى الحال وراءها . ثم وجدت نفسها فى الشارع منطلقة بكل حرية تتقافز كغزال يريد أن ينفض عن نفسه ثياب المدينة . وكانت قد قررت أن تختفى عن هذه الوجوه الى الأبد ، ليذهب الجميع الى الجحيم بما فيهم عنتر كباية ، ولو لم يكن يستحق الجحيم ما ذهب اليه بقدميه ، لكل انسان عمله ، ومعرفته بهؤلاء الناس الشياطين هى عمله غير الصالح .

- ٢٣ -

جمعت عزالها سلمت مفتاح الشقة لصاحبها الجديد الذى تكفل بدفع قيمة الايجار المتخلف ومبلغا كبيرا لها ومثله لمالكها الأصلى . كان واحدا من المترددين على الشقة فى حضور زوجها ، وأغلب الظن أنه واحد من المهمين أو خدمهم أو المنتمين اليهم بأى سبب . هى الأخرى لم تقل له أين ستذهب رغم الحاحه فى السؤال واصطناعه البراءة . الواقع انها لا تدرى ان كان امتناعها عن ذكر عنوانها الجديد له خشية منه لاتصاله بالناس اياهم أم لشعورها بالخجل من سوء المستوى الذى آل اليـه مآلهـا ؟ » .

مهما يكن من أمر فقد خدمتها الظروف بولد حليوه فى عينيه غلب جديد وحب للحياة أشد . كانت تعرف أنه بعض نفاية ماضى عنتر كباية ، حيث كان يتردد عليه باعتباره نجما فى عالم الغناء وذا صلات واسعة يمكن أن يأخذ بيده ويعرفه بأحد المسئولين . وكانت تلاحظ ان « عنتر كباية » يعامله بقسوة ولا يطيق رؤيته الا لفترة محدودة . لم تكن توافق « عنتر كباية » على هذا بل على العكس ترى انه ولد منكسر يستحق الشفقة والاحسان ، ثم انه نظيف المظهـر لا يجلب المعرة . الا ان عنتر كباية كان يغلق باب الحديث عنه دائما . ثم ظهر كأن قلبها قد صدق حين اختفى عنتر كباية وراء حجب الغيب فلم يسأل عنها أحد سوى هذا الولد الحليوة هاوى الغناء ، الذى هو من نفس حـارة عنتر ويعرف أهله كلهم ويعرف الكثير عن ماضى عنتر كما يعرف كل الذين يعرفهم ويعرفونه .

انفض الكل عنها بالخوف أو بالنذالة لا تدرى ولكن الولد الحليوة « سعد القيم » هو الذى بادر بالاتصال بها . كان هو الوحيد الذى اعتمدت عليه فى أشياء كثيرة ومشاوير طويلة ومهام شاقة . كان يخدمها بكل تواضع وحب ولا ينصرف الا حين تأمره وتغلق خلفه الباب والنور لتنام .

فما ان علم بموضوع الشقة حتى انطلق يجرى وبعد أيام قليلة جاءها بخبر العثور على حجرة بمنافعها فوق سطح عمارة كبيرة فى كفر العوالم بحى الخواوشى ·

برغم استقلال الحجرة وانعزال كل شقة عن الأخرى فانها أحست بالعرى · فحيث تصبح العمائر العجوزة والبيوت الكالحة مجرد جدران متهالكة تفصل بين كتل من اللحم البشرى يصبح لابد لكل امرأة مثلها من غطاء تستتر به جسدها الفتى وترد به غائلة الفتنة والأعين المتلصصة والألسن المتبرأة من نفسها · بحثت فى محيط حياتها وفيما حولها من شقاء ، فلم تجد أصلح من « سعد القيم » ، فما ان فاتحها فى الزواج على استحياء حتى وافقت ·· ورزقه ورزقها على الله ·

— ٢٤ —

لم يكن الا نصابا عريقا يختفى عمره الحقيقى خلف وجه لا ينبىء عن عمق زمنى · اتضح لها انه متعهد حفلات على قد حاله · يقاولك على فرح لك فيجىء بفرقة قوامها ثلاث كمنجات وعود وناى ورق وطبلة وراقصة كل ذلك كوم وهو ، وحده كوم آخر ، انه مهرج الحفل الذى يتلقى «النقوط» ويردد أسماء أصحابها زاعقا بطلب السلام الى مالا نهاية ، أو زاعقا بموال أحمر ينساب منه الى أغنية يا حاسدين الناس ينساب منها الى أغنية يا امة القمر ع الباب ، كل أغنية قد تتعاشق فى الأخرى وتكملها كله ماشى طالما انه يثير ضجيجا ويصنع جوا ويجيد ترديد الأسماء فى الميكرفون بالطبل والبروزة ، دائرة معارف هو يعرف أسماء نجوم الاحياء ومعلميها الكبار ··

— ٢٥ —

صبى العوالم العجوز البسها فاخر الثياب ليضمن ولاءها ، وعلمها الكفت · كانت راغبة فى أن تتعلم الرقص حتى النخاع ، كأن ثمة جبال من الآلام فوق صدرها لن يذيبها سوى أن تظل ترقص الى آخر لحظة فى عمرها ·· ترقص للرقص وحده وليس لشىء آخر ·

مع ذلك فقد كان صعبا أن تصبح راقصة لولبية ، وكان يائسا يقول لها انها لو نسيت حياء الفلاحة وكسوفها فسوف تكون أعظم راقصة · ثم انه اضطر الى الامساك بالكرباج واظهار العين الحمراء ، بهذا وحده أتقنت تحريك كل عضلة فى جسدها كما أتقنت توظيف كل حركة فى مدلول جنسى واضح يشيب له المحتفلون فيتصايحون ، يصعدون الى خشبة المسرح ليلصقوا ورق البنكنون الأحمر والأخضر على جبهتها وعلى بطنها ·

— ٢٦ —

جمع صبى العوالم ثروة هائلة لكنه صرفها على زوجاته السابقات وعلى الشم والتحشيش واكتشاف الفتيات الضالات · كان يعرف « الحكوح » ويتردد عليه دائما اذ يستخدمه فى توصيل بعض الطلبيات الى القرى والمحافظات المجاورة · يضع البضاعة فى علبة الكمان أو علبة الأوكورديون أو فى أحشاء الطبلة · وفيما هو متوجه لاحياء الفرح بفرقته يكون التاجر قد حضر كمدعو فى الفرح ويصعد بنفسه لعمل الواجب القديم « النقوط » لأهل الفرح ثم ينزل وقد حشر البضاعة فى عبه وجيوبه أو رماها لأحد صبيانه قائلا : « سخنوا الطبلة دى على النار شوية » أو : « شوف نجار يفتح علبة الكرديون المزرجنة دى » ·

بدورها قامت البتعة فى توصيل الطلبيات خير قيام . كانت هى التى تحتضن آلة البضاعة وتبقيها فى حوزتها طول الطريق بل وتقوم هى بتسليم الحمولة فى لمح البصر .. أما صبى العوالم فجبان خواف ما عليه الا أن يقبض من جميع الأطراف ويضع فى جيوبه وما عليها حين يداعب خيالها فستان جميل الا أن تنكد عليـــه عيشـــته أياما طويلة وتصطحبه عنوة لشراء ما تهوى .

آخر ما زهقت منه عاكسته فعاكسها فتنكر لهـــا ظانا انه بذلك يكسر كيدها مؤقتا . لكنه من سوء حظه وقعت فى يد كحكوح الذى دخل ليصلح بينهما من طرفه فأجاد كحكوح المهمة وقام باصلاح الوضع من أساسه اذ دبر لها شقة صغيرة فى منطقة أنظف قليلا . وكانت تجيد ملاعبته ، ترخى له حبل الأمر فيها ثم تشده وترخيه بدراية فائقة حتى استفادت منه قدر الامكان . قدمها لأحد كبار المهربين على مأدبة العشاء فى ليـــلة بارقة . كان المهرب شرقاويا قوى الشخصيـــية لديه رعب وحساسية من النساء خاصة الحلويات منهن ، وقد تعلم ان النساء فى جانب والشغل فى جانب آخـــر ، وأى نساء فى حياته لابد أن يكن من خارج اطار العمل ، مهما كان جمالها عظيما ، اذ هو كما يقول دائما يلعب بالنار والنساء دائما هن مصدر الاشتعال .

ليلتها لم تفكر فى تسليم نفسها له ، ولكنه والليلة لما تكد تنتهى وثق من نقاء سريرتها ومن أنها ليس من طبعها الغدر . فى اليوم التالى بعث بها فى مهمة ادتها بنجاح . كان عليها أن تذهب فى عربة أجرة الى حى المعدية وتقابل رجلا فى العنوان الفلانى الذى سيعطيها ثلاث أطقم « بسنتم » ، قالت له ما هو البسنتم ؟ قال لها أنه طاقم يركب فى موتور السيارة ، ثم أمرها أن تحضر بالأطقم الثلاث اليه فى موعد غايته منتصف الليلة التالية فى مقهى بميدان المشهد الأزرقى .

- ٢٧ -

ما أن انفتح باب شقة المعدية أمامها حتى تسمرت فى مكانها ذاهلة ، لقد امتلأ الباب بشخص تعرفه جيدا ، رأته فى شقة عنتر كبايه أكثر من مرة . كان على ما يبدو شخصا غاية فى الأهمية ولذا فهو لا يعرفها الا هو لم يجلس فى شقتها طويلا ومن ثم لم يرهـــا الا للحظات خاطفة عابرة . قال لها : « أهلا وسهلا .. تفضلى » ، ولم يبد عليه أنه عرفها . فدخلت تتعثر فى الخجل والاضطراب جلست حيث أشار لها قرب مدخل الباب ثم اختفى داخل الشقة ، وقالت هى لنفسها ان هذا الشخص — على ما تذكر — هو مدير مكتب أحد رجـــال الثورة الأزرقية وهو على الارجح ذلك المسئول عن الجيش أو المعسكر والله أعلم ، انها لا تحبهم ولا تحب اسماءهم ولا تحب تشغل نفسها بالتمييز بين هذا وذاك لأنهم [illegible] واحدة : جوف صلب ووجه مشدود العضلات يهدد وينذر بالوعيد وسلام خشن وضحك أفضل منه البكاء ..

عاد من الداخل يبتسم وفى يده كوب شاى يرشف منه ، قال لها : « تفضل هنا » ، فتبعته حتى الحجرة الداخلية فمرت على الحمام والمطبخ والانتريه وتأكد لها ان الشقة خالية تماما الا منهما وتأكدت كذلك ان الشقة لا تعيش فيها امرأة . الحجرة الداخلية عبارة عن قعدة شرقية ، [illegible] والبفات واللوحات الزيتية على الحائط . جلس فوق حمـــار خشبى مسروج وجلست هى على آخر فى مواجهته فصـــار منظرهما [illegible] مضحكا الى حد كبير . نهض ثانية وعاد اليهـــا بكوب شاى ثم جلس تاملته وتأملها ، تأكدت انه هو نفسه الشخص الذى سبق ان رآها فى شقة عنتر كباية وتاكد هو انها أبدا لا يمكن أن تكون صبية مهرب ، انها ليست أقل من سيدة مجتمعات محترمة جدا تلبس فاخر الثياب وتترك شعرها العظيم كشلالات النهر ، ومع لهجتها الفلاحيـــة وما فيها من براءة يستطيع هو أن يعتبرها ابنة ناس طيبين ذوى أملاك فى القـــرية ..

بعد آخر رشفة من الشاى قالت انها من طرف فلان الفلانى فقال انه يعرف وان الأمانة هى هذه الصناديق الكرتونية الثلاث المتراصة بجوار الباب ؟ وهى مغلقة بشمع بلادها ، ثم انه قال لها فور ذلك : « ولكن ما هى مهنتك » • تلعثمت ، قال : « ليس معقولا أن تكونى من أتباع صاحبنا فحسب •• هل أنت متزوجة » • قالت بسرعة : « مطلقة » • قال : « أليست لك مهنة معينة ؟ •• ألا تحملين شهادة ؟ خجلت ان تقول انها راقصة ، فقالت : » أنا •• مغنية » صاح : « مطربة ؟ » • ردت فى خجل شديد : « نعم •• ولكن على قدى » قال : « هل تغنين فى الاذاعة ؟ » • ابتسمت ، قالت : « أقول على قدى » • قال بكل بساطة : « ولماذا لا تغنين فى الاذاعة ؟ » قالت : « أهى سهلة هكذا ؟ » • قال بنفس البساطة « اذا كان صوتك جيدا •• يمكنك الغناء فى الاذاعة » • نكست رأسها لبرهة • قال لها : « تاهت ولقيناها •• وسمعينى صوتك •• ان أعجبنى •• سأجعلك مطربة فى الاذاعة » •

رفعت وجهها اليه وتأملته جيدا فلم تجد للهزل مكانا فى وجهه أو عينيه أو صوته • ارتعش بدنها • قال لها : غنى •• هل لك أغنيات خاصة ؟ قالت : « سأغنى أغنية لصباح •• زنوبة » • فتهلل وجهه بالبشر والفرح وصاح : « ما أجملها » ، فصارت تتمتم بشفتيها وتوقع بأصابعها وقدميها ، ثم انطلق صوتها فلاحيا رائقا واضحا كالشمس كجريان المياه فى القنوات ، وانطلق هو معها مرددا فى مرح : « زنوبه •• زنوبة •• حلوه وخفه وحبوبه •• شوبش يا حبايب زنوبة •• زنوبة » ، كان من الواضح ان صوتها قد أعجبه تماما ، ولا تدرى هل لحلاوتها تأثير أم لا ، لكنه ــ صاحبنا ــ هب واقفا واندفع نحوها فاردا ذراعيه وطوقها بسرعة وقبلها فانتفضت بين يديه وانزعجت واصفر لونها من الاضطراب • وركزت فى عينيه نظرة حادة فيها شعور بالقرف والاحتقار ، اعتذر لها قائلا : « آسف •• انتى زعلتى ؟ •• أنا ما اقصدش » ، ثم أخرج حافظته وفتحها فرفعت يدها نحو حافظته فى شعور بالمهانة صائحة • « من فضلك •• أنا خدت حسابى خلاص

مفيش لزوم » • فنظر اليها فى إمتنان وتقدير وحول أصابعه من فتحة النقود الى جيب صغير نزع منه بطاقة وقلما ذهبيا ، وكتب على البطاقة بضع كلمات ثم وضعها فى مظروف صغير بلله بلسانه ولصقه ثم كتب عليه اسما ، ثم قدمه لها قائلا : « من غد تذهبين الى مبنى الاذاعة فى شارع الخسيسين •• تسألين عن هذا الاسم •• تقدمين له البطاقة •• ينتهى كل شىء •• تصبحين بعدها مطربة فى الاذاعة « أشياؤنا تحمل دائما اشعاعنا وبصماتنا ورائحتنا • فى الخطاب كما فى لمس هذا الرجل رائحة طيبة ودودة وغير ثعبانية • مع ذلك لم تثق فى لعبة البطاقة واعتبرتها مجرد شرك ينصب لها ، لكنها ــ احتراما للرجل فقط ــ وضعت البطاقة فى حقيبة يدها ثم نهضت وسلمت عليه فتقدمها نحو الباب ثم فتحه وصاح مناديا : « عبد الودود » • فجاء البواب يجرى فقال له : « وصل الهانم بالصناديق لحد ما تركب تاكس » • فشعرت نحوه بتقدير كبير ، وحمل البواب الصاديق الثلاث فاذا بها ثقيلة حقا ، ونزل أمامها • وفى الشارع أوقف لها تاكسيا ووضع لها الصناديق بجوارها واوصى السائق ان يساعدها فى انزالها عند آخر المشوار • فوعده السائق بذلك وانطلق الى ميدان المشهد الأزرقى •

ــ ٢٨ ــ

مهمة فى أثر مهمة ، استأجرت شقة خطيرة فى رحاب مولاها الأزرقى شخصيا وتجمع فى كيسها ثمن الشقة فى خلال شهور قليلة وفاض ، افتتح لها حسابا فى المنك وكانت قد اعتزلت مهنة الأفراح تماما بل وتنكرت لها • وكانت ذكية الى حد كبير جدا ، اصطفت سيدة عجوزا اسمها « أم جابر » كانت رغم كبر سنها فتية قوية جادة مخلصة القلب أمين مثلنا ، اختارتها رفيقة لها فى الحياة لا تفارقها ليل نهار • أغدقت عليها من الخير والنعيم ما لم تكن تتوقعه فى حياتها ، فبالمقابل

أصبحت « أم جابر » هى وبناتها وأزواج بناتها وأولادهم خدما مخلصين غاية الاخلاص فى معية « البتعة » ، كانوا جميعا يتطوعون بحراستها وحمايتها من أى-طفيلي وكانت تغرقهم بالهدايا النافعة مثــل القمصان والبنطلونات الفاخرة والأحذية فضلا عن الانفاق الدائم · ولو أن عائلة البتعة التى هى من صلبها كانت تعيش معها لما أعطتها الشعور بالأسرية مثلما أعطتها أسرة « أم جابر » العزاء ·

— ٢٩ —

كانت تنقل أشياءها الصغيرة من حقيبة يدها القديمة الى حقيبة جديدة غالية الثمن ، ففتشت كل الجيوب بحثا عن شىء فوقع المظروف فى يدها · فخفق قلبها لبرهة وجيزة وبرق فى عينيها ضوء ساطع · هزت المظروف فى يدها باستطانة وقال صوت فى نفسها : « ما أنتى مبسوطة كده وآخر فل ·· بس ربنا يديمها نعمه ·· سيبك من الناس دول ·· لا بيرحموا ولا يخلوا رحمة ربنا تنزل ·

لكنها مع ذلك وضعت المظروف فى حقيبة يدها الجديدة بعناية ، ثم أصاخت السمع الى صوت آخـر فى نفسها : « ولكن ·· مطربة فى الاذاعة · ذلك شىء عظيم ·· يغنيك عن هذه البهدلة واللعب بالنار ·· ما كل مرة تسلم الجره ·· تقولين ــ مثلهــم جميعا ــ هى ضربة كبرى أو ضربتان كبيرتان أتوب بعدهما عن الكار وأستقر فى عمل مشروع ، ولكن العادة ان من يذوق حلاوة المكسب السهل السريع لا ينساها مطلقا الا اذا كان معتوها أو نبيا ·· جربى يا بتعه فلن تخسرى شيئا ·· خذيها حلوانه فى سلوانه ·· مم تخافين ؟ ·

وهكذا أوجدت نفسها بكامل فاخر ثيابها وأعلى أنواع عطورها ركبت عربة من عربات الأجرة التى تمتلكها ويقودها زوج ابنة أمخالد ، وذهبت الى مبنى الاذاعة فى شارع الخسسين حيث سألت عن الاسم المدون على المظروف ، فلدهشتها اقتادها أفندى محترم الى مكتبه الكبير جدا ·

هب ذلك المسئول الكبير واقفا وخرج من مكتبه ليلتقى بهـــا فى منتصف الطريق والخطاب فى يده · سلم عليها بحرارة ونصف انحناء قائلا : « اهلا يا أفندم ·· أهلا اتفضلى » فجلست على الكرسى الجلدى وجلس أمامها قائلا : « احنا فى الواقع زادنا شرف ·· هو كان المفروض ان نسمعك لجنة معينة لكن ما دام الرضا موجود يبقى احنا تحت الأمر » · كادت تنسحب من لسانها وتسأله عن طبيعة هذه الشخصية التى تحمل البطاقة اسمها ، هل هو حقا من رجال الثورة أم من أتباعهم أم من خدمهم أم من المنتمين اليهم بأى سبب ؟ فالحق انهم ازدادوا كثرة بل يتضاعف عددهم كل يوم فى كل مكان ، فمن شركة الى حى الى بيت الى شـــارع لابد من يريد ارهابك بأنه سيادة الرئيس شخصيا ولكن على صـــورة أخرى · لكنها بدلا من ان تقول هذا قالت : « تحب تسمع صوتى ! » · قال الرجل : « هه ؟ » ثم خلع منظاره السميك ودعك فى عينيه وبدا عليه كأن الاقتراح أعجبه بل أراحه ، قالت « يمكن ما يعجبكش صوتى » ، ثم أضافت بسرعة : « الأحسن أسمعك صوتى » ، اعتدل قائلا : «يا ريت» ، فانطلقت فى الحال مرددة فى صوت مفتوح كأنما تهيأ ليطلع الجبـــال ويتسلق أعالى النخيل ، لولا بحد قابضة على صفائه وخنقه مصدرهـــا الكسوف الفلاحى المتوارث لكان صوتها من الدرجة الأولى ، كانت تغنى : « والنبى يا جمل ودينى ·· على منى وجبل عرفات » · فتح الرجل فمه فى بلاهه وصاح : « ما شاء الله ما شاء الله ·· لا تمام تمام ·· داحنا سعداء خالص بصوتك » ·

هنا انفتح الباب ودخل أفندى وجيه فى الخمسين من عمره طويل السوالف أصلع كأنما اختط فى رأسه طريق طولى لولبى تمتد على جانبيه غابات شعر تتكور فى حلقات بيضاء سمراء متداخلة ، وعلى أنفه الطويل منظار سميك · هب المسئول الكبير واقفا يصيح : « أهلا عبد القوى بك ·· جيت فى وقتك » · قامت هى الأخـــرى وسلمت عليه بالتبعية ثم جلست وهو يعريها بنظراته الذئبية خفيفة الدم ، من كل ثيابها ·· قال لها المسئول الكبير فى هتاف : (هذا هو عبد القوى بك السعداوى

الكاتب والاديب والصحفى والممثل والمخرج والموسيقى .. هو مجموعة مواهب كما لعلك تسمعين به » . هزت رأسها موافقة ، تذكر أنها سمعت أسمه ولكن لا تدرى أين ولا بأى مناسبة . قال المسئول الكبير لعبد القوى بك : « هذه هى .. هى .. مطربتنا الجديدة .. ان شاء الله سوف نقدمها فى حفلاتنا وفى برامجنا .. ليتك تكتب لها أغنية » . وكان عبد القوى بك قد جلس فى رأسى المثلث وتحولت جبهته الى كتلة من التجاعيد تصعد وتهبط فى حركة شهوانية ناعمة . رد بصوت غليظ رصين : « طبعا .. طبعا .. احنا تحت الأمر والاذن .. بس هى تأمر » . ابتسمت فى حياء ودارت وجهها بكفها : « متشكرة .. احنا مش قد المقام » . قال عبد القوى بك : « بالمناسبة اسم حضرتك ايه ؟ » . أسقط فى يدها واضطربت ، اذ بدا لها اسم البتعة بلديا سخيفا وغير مناسب . قال عبد القوى بك مسرعا : « مش مشكلة على أى حال .. اسمك مش مهم .. اذا كان ما هوش فنى .. مافيهوش رنين قابل للشهرة .. نختار لك اسما جديدا » . نظر لها المسئول الكبير منتظرا رأيها بشغف صاحت هى من الفرح : « يا ريت .. أنا اسمى — وضحكت فى خجل عذب البتعة .. لكن لو غيرناه يكون أحسن » . قال عبد القوى بك : « اسم جميل ومثير ولكن نغيره رغم ذلك .. ما رأيك فى اسم .. بسيمة .. بسيمة الخضرى ؟ » ..

شهقت من الفرحة ، ثم عادت فشهقت مرة أخرى من الشعور بالصدمة ، شهقتان فى شهقة واحدة كادت تتصدع لهما رأسها ، لكنها تماسكت قائلة : « بسيمة » ، ثم تأملت بكل دقة وتركيز فى عينى عبد القوى بك فلم تجد فيها أى خلفيات عكرة أو خبيثة فقالت : « بسيمة .. اسم جميل .. ولكن .. اشمعنى الاسم ده .. بسيمة ؟ » قال عبد القوى بك : « لأنه يعبر عن وجهك خير تعبير ، فهو بسيم ، أى فى بسمة دائمة .. والخضرى ، لما فى عينيك من خضرة ساطعة » . ابتهجت وارتعش صوتها : « لكن .. بسيمة .. اسم فلاحى .. أليس هناك اسم جديد ؟ » . قال المسئول الكبير : « ما رأيكم فى اسم رشا ؟ ..

ان رشا معناها انثى الغزال . وأظن طبعا — وأشار نحوها بكفه فى غزل واضح — هنا صاح عبد القوى بك : « ليكن .. رشا الخضرى .. اسم جميل .. وفريد » قال المسئول الكبير : « أول أغنية لرشا الخضرى ستكون من وضعك .. فمتى يتم ذلك ؟ » . قال عبد القوى بك : « أنا جاهز .. لقد تشكلت الأغنية بالفعل فى خاطرى .. وهى من وحى الآنسة رشا .. وأستطيع فى المساء تقديمها » ثم انه نهض واقفا واتجه الى مجموعة التليفونات الموضوعة على ترابيزة ملحقة بالمكتب فامسك احدها وأدار القرص ثم صاح : « هاللو منزل الموسيقار سامى النهرى ؟ انا عبد القوى السعداوى .. معاكى .. مساء الخير يا سمى .. أنت أيه ظروفك اليومين دول ؟ .. عندنا صوت جديد حتقدمه الاذاعة فى حفلتها الجاية دى على طول .. واخترناك تعمل لها أول لحن .. الكلمات حاكتبها أنا .. طيب حافوت عليك بالليل أنا وهى .. شكرا » ، ثم وضع السماعة واستدار نحوهما ، فحياه المسئول الكبير بابتسامة وقال : « خير ما عملت .. وفرت علينا جهود .. ودولوقت بقى .. حضرتك يا آنسة رشا .. فى عهدة عبد القوى بك لحد ما تخلصوا اللحن قبل الحفلة كده بيومين تلاته تكونى جاهزة .. ومكتبى مفتوح لك فى أى وقت » . ثم أحست أنه يريد أن ينهى المقابلة فنهضت ونهض عبد القوى بك معها . قالت : « أنا متشكرة .. أشوف حضرتك بخير » . سلم عليها هازا رأسه : « مع السلامة » . ومضت . صاح عبد القوى بك : « من فضلك يا آنسة رشا .. جاى معاكى » ثم سلم على المسئول الكبير وتبعها خارجا .

— ٣٠ —

أثناء خروجهما من مكتب المسئول الكبير أشار لها خلسة على بعض السيدات المحترمات والسادة المحترمين وهم جلوس يشع منهم السأم ، وقال لها ان هذا الرجل هو المطرب المشهور فلان وهذا هو الملحن الكبير هذا فلان وهذه اللابسة الفرو تعتبر من كبار المطربات فى البلد .

قالت له فى اشفاق : « لماذا يجلسون هكذا كالغلابة المساكين ٠٠ هل هم فى انتظار القطار ؟ » • ضحك عبد القوى فبرطع صوته العريض فى المبنى ، وقال انهم بالفعل ينتظرون القطار الذى يوصلهم الى مقابلة هذا المسئول الكبير ، وهذا القطـــار هو مزاج المسئول الكبير • قالت له : « ولماذا لا يقابلهـــم ؟ » قال عبد القوى بك : « انه مسكين يكاد عقله يختل ، فكل يوم يجد نفسه مطالبا بايقاف التعامل مع فلان والتقليل من حجم العمل لفلانه وهكذا • قالت : « مطالبا من من ؟ » قال ضاحكا : « من أسياده الحكام الذين تعرفينهم لا شك ـ أو لعله مطالب من نفسه فهو أيضا مثل كافة الموظفين المتسلقين الجبناء يدخل رغباته الشخصية فى رغبات أسياده وهكذا » •

أحست بالدوار اذ هى لم تفهم شيئا مما قال ، وخفق قلبها من جديد تلك الخفقة المذعورة ، لكنها هذه المرة كانت خفقة ذات صـــوت عال قال لها : « دبور زن على خراب عشه ٠٠ كنت مستريحة فى البعد عن الحكام والأسياد فما الذى دفعك الى أحضانهم مرة أخرى ؟ » • لكنها وهى تمشى بجوار عبد القوى بك مثل الملكة غير المتوجه عادت فأحست بالابتهاج العظيم •

ـ ٣١ ـ

باصرار لم تملك له دفعا عزمها على الغذاء فى فندق سميراميس • كان السائق فى انتظارها أمام المبنى ، فما ان ركبت بجواره حتى ركب عبد القوى بك فى الكرسى الخلفى صائحا فى غطرسة : « سميراميس يا أسطى » ، فنظر اليه السائق مندهشا • فعاجلته قائلة : « حضرته عبد القوى بك السعداوى ٠٠ الصحفى الكاتب الممثل المخرج الموسيقى » • قال السائق تحية للبتعة فحسب : « أهلا وسهلا سعادة البيه احنا زادنا شرف » • قال عبد القوى بك متوددا : « أهلا يا باشـــــا » • وقالت

البهجة : « وده بقى السواق بتاع العربية دى وقريبى ابن خالتى » • حياه عبد القوى بك بسيجارة ، وبأخرى وهو يهبط عند باب سميراميس قائلا : « تعال اتغذى معانا ٠٠ ولا اســـمع ٠٠ أقعـد فى الاستراحة وأنا حابعت لك سندويتشات » ثم تركه ومضى مقدما البتعة عليه •

حفلت القاعة بهوانم كثيرات وبكوات كبار ، وسفرجية بطرابيش وطراطير ومهرجان جميل • كذلك حفلت المائدة بعشرات الأطباق والأكواب والأطعمة • جىء بزجاجة الكونياك ثم جىء بعدها بالبيرة زجاجات ترتمى بجوار بعضها عند فراغها ثم جىء بعدها بكئوس من الويسكى كل ذلك انصب فى جوف عبد القوى بك وحده أما هى فلم يسقط فى جوفها سوى اللقيمات معدودة لأنها كانت فى الواقع تتفرج على منظر عبد القوى بك الآكل والكاتب والمفكر معا فى لحظة واحدة ، فالأفكار تبرق خلف نظارته وفى تجاعيد جبهته فيما هو منتفخ الشدقين يتلمظ أو يكرع أو يتجشأ، ثم انه خلال ذلك يكتب ، يطوح فردة الحمام فى فمه ليتفرغ لكتـــابة سطرين أو ثلاث بقلم الفحم على منديل ورقى أو ظهر علبة السجائر ، ثم انه غادر المائدة وعاد عدة مرات وفى كل مـرة تـراه متهللا فيجلس ويستأنف من جديد •

ثم أزيل كل ذلك عن المائدة ونظفت واعتلاها المفرش الأنيق وجىء بالقهوة • وكان الملل قد راح يزحف نحو صدرها حين أقبـــل شخص طويل القوام رشيقا أسمر الوجه عرفته فى الحال من صوره فى المجلات• انه الموسيقار « ســـامى النهرى » مقبلا نحوهما من عجب • نهضت لاستقباله وقد زايلها السأم وتجددت عواطفها ، ومشاعرها فانتعشت ـ سلمت عليه بحرارة ـ أما عبد القوى بك فلم يسلم عليه بل لم يهتم به حيث كان منهمكا فى شطب وتعديل وشرود • فلما جلس الموسـيقار قال له : « أظنك عرفت ان دى هى الآنســـــة رشا الخضرى » • قال الموسيقار : « زادنا شرف » قالت هى : « متشكرة » • قال عبد القوى بك: « على فكرة سامى بيه معجب بكلمات الأغنية حيطير من الفرح ٠٠ وزمانه

عمل الكروكى جاع اللحن وهو جاى فى السكة قالت وهى : « وعرفها منين ؟ » • قال : « بالتليفون •• كل كوبليه كنت باروح أقرأه له فى التليفون » • من فرط الدهشة والعجب لم تنطق البتعة • جاء الجوسون وقال لسامى بك مبتسما أن الزجاجة الخاصة به قاربت على الانتهاء • فأعطاه سامى بك عشر جنيهات وطلب منه شراء زجاجة جديدة ، ثم انه طلب عشاءا • فقامت المائدة من جديد ، وانبرى عبد القوى بك يقرأ وسامى بك يأكل ويترنم ويتمايل ويكف عن كل ذلك لبرهة وجيزة يشرد خلالها موقعا فى الهواء نغما صامتا بيديه ورأسه •

لم تشعر بمرور الزمن حقا ، حتى السائق أمضه القلق فأوراها نفسه عدة مرات رائحا غاديا فى قلق ، فكادت تنبه عليه أن ينصرف هو ، غير انها استدركت وطلبت منه باسمة أن ينتظر قليلا • هنا لاحظ « سامى النهرى » وتذكر « عبد القوى بك » • فصاح : « ما تسيبه يروح واحنا نوصلك بعربية سامى بك » ، ورد سامى فى ترحيب : « طبعا طبعا ياريت •• سيبه يروح ان ما كانش ده يدايقك أو يدايقه » • قالت البتعة : « لا ده ابن خالتى والعربية بتاعتنا وهو معايا ونس » • ثم تساءلت : هو •• ياترى •• حتعوزوا منى حاجة دلوقتى ؟ • قال عبد القوى بك : « تسمعى كروكى اللحن على الأقل » • فقال سامى النهرى : لا ما أظنش يا عبد القوى بك •• قدامى شوية شغل •• يوم ولا يومين وأشوف الآنسة رشا •• ياريت بعد بكره نتغدى سوا عندى • صاح عبد القوى : « فى البيت ولا فى المدرسة ؟ » • ابتسم سامى وردد مع دخان السيجارة : « اذا فى المدرسة حنشترى أكل من السوق » • صاح عبد القوى : لا ياعم •• خلينا فى البيت وبعد الغدا ننقل على المدرسة نكمل » • قال سامى : « لا بأس » ثم نظر الى البتعة : « والآنسة رشا ايه رأيها ؟ » • قالت : (لا بأس) ثم كتمت الضحك فى نفسها بشدة حيث انها نطقت الكلمة مثله تماما كأنها مثله فنانة كبيرة وبنت ناس طيبين كبار •

- ٣٢ -

قبل قيام الحفل بأيام قليلة جدا كانت « رشا الخضرى » • بفضل عبد القوى بك — قد أصبحت وجها مألوفا جدا فى أبواب الأخبار الفنية فى كل الصحف والمجلات المصرية والعربية •

بدأ عبد القوى بك بمقال نارى فى يومياته بجريدة (الحرية ، زينه بصورة كبيرة للآنسة « رشا الخضرى » ، وحين قرىء المقال عليها ظنت ان كاتبه يتحدث عن شخصية أخرى غيرها سوف تكون خليفة لأم كلثوم تتربع على عرش الغناء فى السنوات القليلة المقبلة • ورغم صورتها وصورة سامى النهرى واسمها وكلمات الأغنية الموضوعة لها فانها ظلت الى آخر لحظة لا تعرف هل تشكر عبد القوى بك أم لا وان تشكره فماذا تقول • ما أدهشها أكثر وأكثر هو ان كافة الأخبار والتعليقات التى قرئت عليها بعد مقال عبد القوى بك كانت حافلة بنفس العبارات والأوصاف وتتوقع لها نفس ما توقعه عبد القوى بك رغم انهم لم يروها ولم ترهم على الاطلاق ••

- ٣٣ -

ما أعظمها من ليلة وما أعظمه من لحن • أما الكلام فلم يكن له أى معنى ولم تفهم منه شيئا ، انما اللحن كان حصانا جميلا ركبه صوتها وانطلق بدون فروسية سابقة يتراقص ويملأ الحضور بهجة وهياجا ، وكان مقدرا له ربع ساعة فغنته فى ثلاثين دقيقة • شيعها جمهور العاصمة العظيم بعواصف من التصفيق سجلتها على شريط الأذنين •

حتى اذا ما ودعت خشبة المسرح والموسيقيون خلفها مهنئين مادحين رأت سائق التاكسى — زوج ابنة أم جابر — يشير لها على صفوف من الورود وسط دوائر من أقواس النصر ، ومن معها يقرأ لها أسماء مرسليها

على بطاقات صغيرة تتوسط دوائر الورود ، عرفت فيها أسماء المسئول الاذاعى الكبير وعبد القوى بك وسامى النهرى وأسماء بعض المطربين والمطربات والموسيقيين اللامعين على الرغم من انها لا تعرفهم ولم تتشرف من قبل برؤيتهم أو التحدث اليهم • ثم ان السائق نقل لها بكل انبهار ما وصفها به مذيع الحفل من أوصاف يقشعر لها البدن ، وكيف انه بعد ان انتهى من وصف حتى فستانها وحركاتها استدعى الملحن والموسيقيين وأجرى معهم حوارا عن المطربة الصاعدة رشـــا الخضرى وعن خامة صوتهـا ، وكلهم تغزلوا فى صوتها وتوقعوا لهـا مستقبلا باهرا فى عالم الغناء •

— ٣٤ —

ليلتها تلقت أكثر من طلب فى المقابلة على انفراد وكلها من ناس كبار محترمين مثل المسئول الاذاعى الكبير وعبد القوى بـك وأحـد الملحنين الكبار جدا جدا • فلما انفردت بكل منهم فى غرفتها فى كواليس المسرح وساءلته عما يطلب صاح مستنكرا : « لا ليس الآن •• انى أريد أن أتكلم معك على راحتى •• أطمع فى موعد فى أى وقت تحددين •• المسألة هامة جدا وتتعلق بمستقبل البلاد » • نشفت من فرط المفاجآت ، وكل الانتعاش الذى امتلأت به فى الحفل الناجح تبخر تماما أمام ناس يصدعون رأسها بكلام غامض لا تفهمه وكلهـم يتحدثون فى عصبية وانفعال وبألفاظ قاسية وأحيانا نابية ولولا انها واثقة من انهم موظفى حكومة كبار لظنت انهم يطمعون فى حسنة أو مساعدة مالية ، نعم فقد كانت تحس من لهجتهم فى الحديث ورجائهم فى طلب المقابلة كأنهـا شرطى أو صاحب فضل يخطبون وده ••

بقدر حيرتها كانت ذكية ، لم تطلب من أحدهم ــ على كبر مراكزهم ــ أن يزوروها فى منزلها ، بل لقد تحاشت أن تعطى عنوانها لأى منهم حتى سامى النهرى نفسه رغم ما أحاطها به من اهتمام صادق وما بثه

فيها من يقين فى مستقبل جديد هو الآخر لم تشأ أن تعطيه عنوانه • فقد ورثت عن آبائها فى القرية اظهار الولاء للحكومة وأهلها دون اظهار الجفاء ، فهم دائما فى جانب ورجل الشعب فى جانب ، هم دائمـــا مهموم ، لا يعرفون آباها أو خالها أو جدها الا للأخذ منه أو تسـخيره أو تجنيده أو نفيه أو ضربه أو سجنه • هؤلاء مثل أولئك القدامى هم الكفرة الفجرة الذين يقصدهم سبحانه فى قرآنه الكريم ••

لكنها فى نفس الوقت كانت لا بد أن تستجيب لطلباتهم ، ليس لانهم سوف يتحكمون فى مستقبلها الغنائى بل لضعفهم واشـــفاقا على منظرهم وانتظارا لما سوف يقولونه أو يفعلونه اذا هم انفردوا بها كما طلبوا • أعطت لكل منهم ميعادا فى استراحة الفندق الذى اصطحبها اليه عبد القوى بك • فاذا بهم جميعا يستنكرون المكان وينفـرون منه حتى عبد القوى بك نفسه نفر منه بشدة وقال انه ملىء بالواغش ، فلما سألته عما يقصده بالواغش قال انهم الصعاليك الحقراء والمخبرون والجواسيس والمومسات والنصابون وتجار الآثار والعاديات • فتركت لكل منهم أن يختار المكان الذى يراه آمنا وصالحا لمهمة اللقاء • فاختار عبد القوى بك بيمارى سيتى فى منتصف ليلة الأحـد ، واختـــار المسئول الكبير أن يتناول العشاء معه فى منزله يوم الجمعة القادمة لكى تراهـــا زوجته وأولاده وهم بها معجبون ، أما الملحن الكبير جدا جدا فقد اختار مقهى الانفوشى فى ميـــدان المشهد الأزرقى فصرخت فيـه مستنكرة فتعجب وأفهمها ان مقهى الأنفوشى مكان سياحى جميل وفى رحاب مولانا •• فطمأنته موضحة ان أقاربها كلهم يقيمون فى مولانا وســوف يفسدون عليهما صفو اللقـاء ، فاختار أن يعزمهـــا على الغـــداء فى عزبة أحد أصدقائه •

كان هو الوحيد من بينهم جميعا الذى رحبت باقتراحـــه دون مناقشة وفى حب لما شعرت به نحو الملحن الكبير من عاطفة جياشــــة لا تدرى مصـــدرها على التحقيق ، ان شكله الطيب المحمـــل بالمعاناة

وشحوب الآلات المزمنة ؟ أمن صـــوته الأجش الناقل رغـم ذلك كل الأحاسيس بصدق وحساسية كبيرة ؟ أمن شخصيته الغنيه الهادئة التى تحجم عن البدء بالشكوى وان صرخت بهـــا مداعباته ونكاته العميقة الضاحكة المبكية ؟ •

— ٣٥ —

ما قاله عبد القوى بك :

اسمحى لى يا آنسة رشا •• ان حال الصحافة فى البلاد لم يعد يسر عدوا أو حبيبا ، أنا مع سيادة الرئيس والمسئولين ان أهل الثقة يجب أن يسيطروا على كل شىء ، هذا مبدأ أقرهم عليه تماما • ولكن •• قد اختلف معهم حول أهل الثقة أنفسهم ، وأسألهم : من هم أهل الثقة ؟ هل هم الذين كانوا من قبل الثورة يعرفون رجال الثورة معرفة شخصية مثلا ؟ هل هم من أقاربهم ومعارفهم ؟ هل هم أولئك الذين يقدرون على ركوب الموجة والهتاف وطلاء الوجوه ؟ فى رأيى ان أهل الثقة الحقيقيين هم أولئك الذين فهموا رسالة الثورة على حقيقتها ، هم الذين أيدوها بالفعل والقول والتضحية ، هم الذين يحرصـــون على بقاء الثورة واستمرارها ثائرة عملاقة لا لمصلحة شخصية عابرة بل لمصلحة البلاد والأجيال المقبلة • هناك من كان يخرف قائلا أن رجال الثورة يجب أن يعودوا الى ثكناتهم وترك الحكم للمدنيين ويكفيهم فخرا انهـم خلصوا البلاد من الطاغوت المستعمر وأذنابه المحليين • أما أنا فلم يكن هذا رأيى أبدا ولن يكون يا آنسة رشا • صدقينى • فاننى من أشد المؤمنين بأن هذه البلاد يجب أن يحكمها مستبد عادل يقهر الدهماء على احتـرام القانون والنظام ، ان البلاد مستقبلها مرهون باستتباب النظـام ، واستتباب النظام مرهون بقوة النظـام ، وقـوة النظـام مرهونة بتأييد الجماهير له ، وتأييد الجمـاهير مرهون بأقلام شريفـة لم تتملق الملك

أو الاستعمار ولم يعرف عنها سوى الثورة الدائمة • لست أطلب مغنما شخصيا وحق الله يا آنسة • بل على العكس أنا أؤمن ان المسئولية غنم لا غـرم وتكليف لا تشريف ، ولكن ما يشغلنى هو أمن البلاد ومستقبل الرأى وحرية الصحافة وأمن الجميع •• لنأخذ جـريدة (الحرية) مثلا ، لا يحبون الثـورة ، بل ان معظمهم واحد من اثنين ، اما ابن أسرة كبيرة معروفة بأن وجودها ضد مبادىء الثـورة ولكنهم يظهرون التعاون مع الثورة للحفاظ على مصالحهم وأمنهم ، وأما ابن ناس فقراء ما صدق أن صعد الى طبقة جديدة فلم يعد مستعدا للنزول عنها درجة ولذا فهو يظهر التعاون مع الثورة حرصا على وظيفته وما هو فيه من أملة . وكلاهما لا أمان له على الثورة يا آنسة •• صدقينى • انهم فى أعماقهم يتمنون سقوط الثورة وعودة الملكية ونظام الأسر الكبيرة لعلهم يشكلون لأنفسهم أسرا كبيرة ، ان الثورة معناها ضبط المجتمع واخضاعه لنظم محددة فى الكسب والعمل المشروع ، وغدا أبشرك أن من تملكوا هذه المؤسسات سوف تتسرب اليهم عدوى الشعور بأنهم يمتلكوا البلاد وسوف تكون هذه المؤسسات نفسها هى مصدرهم الوحيد للثراء ، سوف ينهبونها كل على طريقته ولن يجدوا فى النهاية المسئول من غير المسئول من فرط التسيب والضـياع • ذلك لأن أهل الثقة الحقيقيين اصـبحوا كالعملة الجيدة التى تمكنت العملة الرديئة من طردها من جنات النعيم • ان الأمر لابد له من تنظيم يا آنسة • لابد معه من غربلة دقيقة • ان الصحافة غدت غابة تتناطح فيها الوحوش والغربان بضراوة •

— ٣٦ —

ما قاله المسئول الاذاعى الكبير شداد النشرتاوى :

بصراحة يا آنســـة ؟ لقد أكلت الحفل كله لحســـابك • هكذا أم لا يا أولاد ؟ •• الواقع يا آنسة اننى أجعل من أولادى هؤلاء مقياسا للحكم بنجاح البرامج والأغانى والألوان التمثيلية • ربما كان فهمى فى

الفنون قليل باعتبارى أحد رجال القــانون ، ولكننى أعتمد على ذوقى وذوق أولادى وذوق الجيران لأنهم يمثلون الجمهور العادى الذى نبث له فى نهاية الأمر . لا تتصورين مدى سعادة الأولاد بك يوم الحفل ومدى سعادة الجيران من أصدقائهم . هذه زوجتى كبيرة وصغيرة كما ترين فى آن واحد ، كبيرة بحكم سنها ووضعها ومركزها فى البيت ، وصغيرة بحكم مشاركتها للشباب فى أذواقهم التى تبدو أحيانا متطرفه . وهذه ابنتى طالبة فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ولكنها قاموس فى الأغانى والألحان وأسماء الفنانين وأخبارهم . وهذا ابنى الأوسط وهو طالب فى كلية الطب لكنه من هواة العزف على الجيتار وله ذوق شعبى أصيل . وهذا ابنى الصغير ، طالب فى الثانوية العامة ، يفهم فى الفن أيضا ولكن لا أحد منهم ينوى الاشتغال بالفن ، هكذا يقولون لى الآن ويعلم الله ماذا سوف يقولونه غدا حين تنمو جرثومة الفن فى نفوسهم ..

يسمع الانسان فى هذه الأيام ما يشبه العجب . تصورى يا آنسة ان هذا الرجل الحشاش الذى يصرف جل وقته وأمواله فى قعدات الحشيش واللهو والمجون يشيع عن نفسه أنه سوف يكون مسئولا عن التليفزيون ؟ نعم نعم يا آنسة هو حشاش لا أكثر . هو صحيح كان يعمل فى الاذاعة من قبل لسنوات طويلة ولكنه لم يبرز فى عمل فنى أو حتى ادارى . لكن يبدو أنه على علاقة طيبة ببعضهم لدرجة أنه فى الأيام الأخيرة بدأ يتردد اسمه وبدأ هو يظهر كثيرا ويتقابل مع العاملين فى الجهازين ويقوم بعمليات مريبة كأنه قد صار مسئولا بالفعل . كم أنا حزين والله يا آنسة واخشى ما اخشاه ان يتسرب الى صفوف الحقل الاعلامى ناس لا أمان لهم على الثورة ، انهم ـ أولئك المشكوك فى أمرهم يرهبوننا بقولهم انهم أهل الخبرة وأهل الشأن فى الأمر ، وواقع الأمر أنهم يريدون تحويل العمل فى كهنوت ..

يقولون عنى اننى وافقت على منع الملحن فلان أو المطربة فلانة ، وسمحت بمرور الممثل فلان والتقليل من عمل الممثلة فلانة ، ورفعت اسم فلان ووضعت فلانة فى مرتبة النجوم ، واننى فعلت كل ذلك بدوافع ذاتية

او لمصلحة شخصية . ولكن تعالوا نسأل : من الذى أثار مثل هذه الأقاويل وهى تبلغنى أولا بأول ؟ أليســوا هم الممثلون والمطربون والملحنــون والموسيقيون ؟ . انهم جيعا عوالم فرح والتعامل معهم يقتضى حنكه ، صحيح ان بعضهم لم يجىء من شارع محمد على مباشرة ، وبعضهم ابن ناس حقيقى ، ولكن أخلاق العوالم تسيطر عليهم جميعا وتدمغهم بطابع واحد . عشت مسئولا قدر ما عشت لم تخب نظرتى فيهم أبدا . ويقولون اننى أغلق باب الفرص على بعضهم واحجب الآخرين عن جمهورهم وما الى ذلك من هذه الترهات ، وواقع الأمر اننى لا أتخذ قرارا الا بعد دراسة دقيقة له ولآثاره من جميع الوجوه . اشربى التمر هندى قبل ان يبرد ، أقصد قبل ان يسخن ، سوف يعجبك . هنيئا وشفاء ...

كنت أقول ان الجهاز الذى أعمل على رأسه يحوى الكثير من الجيوب والمخابئ والدمامل ، لكننى متيقظ له غاية اليقظة . ان الجهاز لابد ان يتم تطهيره من المنحرفين والمنحلين وأعداء الثورة . تعال يا مبروكة ، على مهلك ، هات فنجانى هنا وضعى فنجان الهانم أمامها ولا داعى للصينية ، الباقى التمر هندى يا آنسة رشــا لكى تشربى القهوة ، على فكرة ، « مبروكة » هذه من أشد المعجبين بك ، ليلة الحفل كادت تطير من الفرح والانبساط ، لا تتأملى فيها هكذا يا بنت ، انها مخلوقة مثلنا ، مع السلامة انت ، هى سوف تجىء كثيرا وسوف ترينها بعد ذلك كثيرا ، فى الحفلات طبعا ، وهنا كما تفضلت الآنسة وأعلنت ..

طبعا انت لست فى حاجة الى تنبيه ولكننى فقط ألفت نظرك الى الحذر من بعض المؤلفين الطالعين هذه الأيام . فأنا أخشى ان أرفض لك طلبا ، ولهذا عليك أن تكونى حريصة فى اختيار الكلمات المناســبة والملحن المناسب ، أفضل استشارتى قبل الاقدام على أى خطوة ، فأنت قد التحقت بوسط يشبه الغابة المتوحشة ان لم يكن أكثر توحشا ، ولكننى بكل سرور أقدم نفسى مستشارا فنيا لك ..

— ٣٧ —

ما قاله الملحن الكبير جدا جدا الشيخ يحيى كامل :

هكذا أنا وهذه حياتى كما ترين يا آنستى : سهر فى الليل حتى مطلع الفجر بين هؤلاء الاصدقاء الابرياء ، هنا فى هذه العزبة أو فى منزلى بالعاصمة ، فى هذه العزبة يسكن أحد أقاربى الحاج « محمود صفوان » كان زميلى مجاورا فى الأزرق وكان أحد أفراد بطانة الشيخ « شبكشى أمين » المشهور جدا ، الواقع كنت أنا وهو ضمن البطانة ، سلكت أنا سبيل التلحين ، وسلك هو سبيل الزراعة ولكن صداقتنا بقيت كما هى تنمو بنمو عمرنا المديد ٠

أحب الليل يا آنسة وأعشقه عشقى لعودى وأنغامى وألحانى عشقى لتلاوة القرآن واستجلاء معانيه العظيمة ، ولولاهما معا ـ القرآن والليل ـ لما قدر لى ان اكون ملحنا أو موسيقيا أو أى شىء ، فما أعظم تلاوة القرآن فى الليل حيث تتجاوب مع النفس أصوات الطبيعة ليركب الحوار بينها فى تناسق وتناغم ، ان أصوات الطبيعة نفسها هى التناغم ، هى سيمفونية الأصوات ومعزوفة الخلود المتجدد ، لا يطغى صوت على صوت وليس بينها صوت رئس وآخر مرءوس وان كان هناك أصوات تمجد فى صوت ولكن تمجد نفسها كذلك ، فدورها فى التمجيد هو معزوفتها هو مقولتها فى حركة الوجود المتناغمة ، ليس فى الأرض ما نسميه بالديموقراطية مثل ديموقراطية الأصوات فى مجتمع الأصوات الطبيعية ٠٠

ليس فى المدينة ليل ، انه ليل صناعى كالمسلى الصناعى كالورد الصناعى ككل صناعى لا أصالة فيه ، ربما خيل اليك حسبما تقرأين فى الصحف اننى ضد المجتمعات الصناعية أو اننى عقلية زراعية مضادة للعقلية الصناعية وما الى ذلك من هذا الخرف الذى تمتلىء به صحافتنا ، بل اننى لا أومن بأننا مجتمع زراعى لا يصلح للعصر الصناعى ، فالصناعة تطور يسرى من تلقاء لاات الانسان فى أحشاء كل الناس بصرف النظر عن

طبيعة البيئة ، غير اننى لا أومن باصطناع الأشياء الطبيعية ، انه منتهى السخف والضحك على الذقون وخداع النفس ، ان نصطنع وردا جافا لا رائحة فيه ولا حياة ٠ نفس الشىء ينطبق فى نظرى على الألحان والموسيقى وكافة الفنون القولية والأدائية ، اننا حين نختلق ألحانا وأنغاما نقلد بها الغرب الوافد علينا نصبح كمن ترك ماء نهره العذب ليشرب من ماء الطلمبات لمجرد ان فى الأمر فكرة الطلمبة ، ان الانغام التى تسرى فى احشاء أى عمل فنى لابد ان تكون ترجمانا للاحساس الذى تكون فى بيئة معينة وسط ظروف اجتماعية وكونية معينة ٠

أراك تستنكرين رؤيتنا الآن على هذا المنظر ، لكأنه شىء شاق بالنسبة لرجال مشهورين مثلنا ، ولكن ماذا فى الأمر من غرابة ؟ ألم ترى قبلنا ناسا يحششون ؟ ٠٠ نعم هذا هو الحشيش ٠٠ أره لها يا حاج صفوان فهى بالقطع لم تره فى حياتها ـ خفق قلبها بشدة ـ ٠٠ ها هو ذا يا آنسة رشا ٠٠ أسمه الحشيش مجرد نبات ربما كان للوهم دخل كبير فى عروقه ، لا أعرف كيف أعبر لك بالضبط ولكن ربما كنت أريد أن أقول ان الطبيعة نفسها زرعت الوهم فى أرضها فاكتشفه الانسان واكتشف انه اذ يحرق هذا النبات ويتشرب أنفاسه يصير فى حالة توافق تام مع النفس والمجتمع وهى كما تعلمين لحظة ندر ان تحدث للانسان فى حالة طبيعية خاصة اذا كان هذا الانسان فنانا ، الفنان لايمكن ان يتوافق مع نفسه ولا مع المجتمع والا فان توافق مع أيهما أصبح شخصا عاديا لا يرى ما يراه الفنان ولا يحس بما يحسه الفنان ومن ثم لا ينتج فنا ٠٠ هذا النبات الغريب يهىء لنا هذه اللحظة الكاذبة وهى ضرورية جدا لأن الفنان لابد أن يعيش ولو للحظات بنفس الانسان العادى المتوافق مع نفسه ومع مجتمعه ، فهو فى مثل هذه اللحظات يلتقط بهدوء الخيوط التى توصله فى النهاية لبناء عمل فنى ٠٠

هم يقولون اننا منحرفون ، والذين يقولون هذا يقولونه فيما هم جلوس يحششون مثلنا أو يسكرون ٠ وهذا أمر لا يستأهل مشقة الرد

عليه · لكن ثمة أشياء أحب أن أقولها لمن يهمه الأمر ، اذا كانت الحشيشة هى كل خطيئتنا فما أهونها من خطيئة ، اننا نستعين بها على العناء وننسى خلالها مرارة العصور وأمسياتها الكئيبات ، وليس ذلك هو الهدف واالا فما كان أهونه ، انما الهدف ان نتمكن من فعل شيء طيب يبقى لنا وللبشرية من بعدنا ، ان نترك فنا جادا تستفيد به الأجيال وتلجأ اليه عند القنوط ليملأها بهجة من جديد واصرارا على الحياة · غيرنا يا آنسة ـ ولا داعى لذكر الأسماء أو التفصيل أو التفسير ـ يستهدف السهر للسهر وللسمر ، وفى سبيل ذلك ينفق الآلاف على موائد القمار فى الفنادق وعلى بطون الراقصات فى شارع الهرم وصحارى سيتى ، آخرون ينفقون كل ذلك فى صفقات بعلم الله من الخاسر يعلم الله من المباع ومن البائع ليلومن كل واحد نفسه أولا ··

نعم لقد لمت نفسى وأشبعتها لوما على غير تهمة حقيقية واضحة ، فلما شبعت من اللوم وتعبت نبت السؤال فى داخلى : ما هى تهمتى بالضبط ؟ فما وجدت تهمة · مع ذلك لا أزال أتهم نفسى بالغباء والتخلف اذ هى عاجزة عن استكشاف تهمتها الحقيقية · كيف لا أكون متهما بشيء وأنا قد عوقبت بمحو اسمى تماما من سجلات الاذاعة ؟ لا أحد يكلفنى بتلحين ؟ وكل ملحن حتى أولاد أولادى من الضعفاء والعجزة والمساكين فى عالم الغناء لهم أركان ثابتة على الخريطة يملأونها بأى غثاء فمستبعد من القائمة ، حتى ألحانى الكبيرة التى سجلتها أكبر مطربة فى البلاد ، حين لم يجدوا مفرا من اذاعتها ترين المذيع لا يذكر انها من تلحينى ، هذا بالطبع لا يهمنى لأن الاذان العربية كلها تعرف بصمتى وتقرأ اسمى فى كل نغم ولكن لماذا قلة الذوق والجليطة ، لماذا انكار أبسط حقوقى هكذا بكل صفاقة وفتونة كأننى أعطيت ألحانا لقيطة لا أب لها ؟ أليس يكفيهم انهم ضيقوا على الخناق ومنعوا عنى باب رزق فتحوه لكل من هب ودب ؟ أليس يكفينى اننى مستعد لقبول التلحين لأى حمار نكير الصوت يفرضونه على ؟ ··

هم يزعمون ان التوصية بقطع الطريق على نزلت عليهم « من فوق » ، وقد حرت فى معرفة من المقصود بفوق ولماذا هو حاقد على وحدى ، أم تراه يكون على وجه الدقة واليقين ؟ · الواقع لقد عجزت ، وعادت كل وساطاتى الى كاسفة البال تقول وجوههم لأولادى ان ميدان الفن والشهرة والفلوس بالنسبة لكم ولأبيكم كان مجرد أضغاث أحلام ، وان الأعمال التى تعب ابوكم فى بنائها وتبليغها للناس دون مقابل مادى يذكر قد انسيت تماما وكأنها لم تكن · وأن الانسان ـ وليس أباكم وحده ـ يمكن ان يجتث من جذوره ومن ماضيه ليصبح مجرد فرع لا قيمة له تذروه الرياح · مع العلم بأن هذا الانسان لم يخطىء فى حياته ولم يرتكب اثما · لا يملك العقاب سوف الله عز وجل · ان ولد لبعض البشر ان يملكوا القدرة على العقاب فبأى ذنب يعاقب انسان مثلى ؟ لست سياسيا ولست أنتمى لأى حزب بل انى كنت ولا أزال من أشد المؤمنين بالثورة المؤيدين لها ، وان كانت مخابرات الثورة قد أبلغت عنى شيئا غير الوطنية الصادقة والحب الكبير للشعب وللثورة وللمستقبل فانها تكون مخابرات مهيأة للنجاح فى مسابقات التأليف القصصى والروائى ، واذا رجع المسئولون الى تقارير المخابرات التى وضعته عن المخابرات لوجدت ان المخابرات الفرعية ركزت خيالها على ناس يحششون ويتفننون فى تحريك اعطاف الناس ، ونسيت ناسا يسكرون ويتاجرون فى مصائر البشر ، انما تعالوا ، الأمر ليس هكذا أبدا ، ان الرياح لا تأتى من هذه النافذة فيما أعتقد ··

الرياح تأتى من فوق الجبل الأعظم من « قمر » ، أعنى أكبر مطربة فى البلاد · سبحان من له القوة والسلطان والدوام · قامت على أساس متين من صنعنا · كل هذا المجد الشامخ صنعته ليالى أنا وزملائى وأصدقائى فى جلسات ضائعة كهذه التى تشرفيننا فيها الآن ، لحظات ضاعت على اولادنا واقتطعت من مستقبلهم ، فلو قضيناها فى جوارهم أو فى عمل يدر لهم دخلا ماديا لكان أفضل بكثير بالنسبة لهم ، لكننا وهم قد رضينا واستعذبنا هذه اللحظات التى نعانى منها نحن وهم ، أجل يا آنسة ،

فاولادنا من قبلنا يستعذبون لحظاتنا المشحونة بالعذاب والتوتر والفاقة لانها لحظات تعمل ـ فيها من أجل الجميع لا من أجلنا فحسب ، بل نعمل شيئا للآخرين ولا نعمل لأنفسنا أى شيء سوى النسب الشريف لهذه الأعمال · اكبر مطربة فى البلاد يا آنسة ، أضع النقط فوق الحروف ، هل أخاف ؟ ولماذا أخاف وحتى متى أظل أخاف ؟ ·· بينى وبينها قضايا فى المحاكم والكل يعرف ·

نعم أستطيع أن أقول لك الأسباب ، لقد لحنت لها كل هذه الالحان على مدى سنوات عشر هى أنضج سنوات عمرى وأحلى ما أنتجته من فن ، كل لحن يناطح أخاه وينافسه فى حب الجماهير الكبيرة ، كل لحن أقام حفلا من وراء حفل من وراءه حفل حتى امتلأت خزائن القابضة وفاضت ، لكل لحن من تلك الألحان جذور ممتدة درج حساب يصب فى رصيدها بلا نهاية فكم أخذت أنا من كل ذلك سوى بضع جنيهات قليلة الشأن لا تذكر لدى كل لحن ، يكفى أن أجر اللحن لم يكن يكفى لكساء الأولاد فى صيف أو شتاء ، ثمن اللحن بكامله يكفى بالكاد لعشوتين وغدوتين وسهرتين نعانى القحط بعدها ، فى حين ان اللحن لكى يصير لحنا ويستقيم على صوتها وعلى الأوتار حدث ولا حرج عن معاناتى ، ربما أنفقت ثلاث شهور أو ربما عاما كاملا ، ليالى متواصلة لا أكف خلالها عن مداعبة الأوتار ونكش مدخراتى من الأحاسيس والمشاعر الصاخبة الساخنة ، وأنفق على اعتدال المزاج والانتقالات الموسيقية ما اقتطعه من قوت أولادى ··

صاحبة الصوت الأعظم كبرياؤها أشد عظمة لله وحده ـ كيف أتجرأ وأطالبها باعادة التفاهم حول مسألة الأجر ؟ أراجعها فيما قدرت وتصرفت ؟ كيف ؟ · كان المفروض ان أظل أعمل بنفسية الأقنان والعبيد ، الانضواء فى ترس العمل حتى فقدان الارادة ، ان أظل ألبى الطلبات لمزيد من الأفلام الجديدة والحفلات الجديدة تاركا مسألة الأجر تحددها كيفما تشاء وقتما تحب ، ان افاجأ بلقمة زائدة فوق احدى الموائد فانتفض شاكرا كبرت أو

صغرت ، أن أظل مجرد صفر مجرد ظل ، مجرد ماعود يندق فى الأرض خلفها ليعلقوا عليه مشعلا يلقى الضوء عليها ، هى ، وهى فحسب ·· اننى يا آنسة رشا ـ لا أقبل التعامل بسياسة : جوع كلبك يتبعك ·

كنت أظننى يا آنسة رشا حين اتخذت قرارى بالمواجهة قادرا على ذلك ، وأنا قادر بالفعل وهى لم تضع فى حسابها اننى صخر لم تضع فى حسابها أننى جئت من القرية مجاورا فى الأزرق وعشت قدر ما عشت بين رحاب الشهرة والمجد فلم أغير طبعى أو حياتى ولم تقبل الدنيا على بمادة يستتبعها تغيير فى مستوى حياتنا الاجتماعى ونحن لسعداء بذلك اذ لن نخسر شيئا عند احتدام الصراع ، نسيت هى اننى سأصمد أمام انقطاع الأجور والمقاطعة · وأما أنا فلم أكن بأقل غفلة منها ، اذ لم أضع فى حسابى ان خصمى وهو فرد يمكن ان يصبح دولة كاملة ، ان أخاصم شخصا فاذا بى مستهدف للخصام والمقاطعة من كافة الأجهزة · هل زالت دولتى كما يقـول بعض الصحفيين المأجورين الذين امتلأت بهم صـحافتنا الفنية والسياسية ؟ · لولا ان هؤلاء الذين تجلسين الآن بينهم من أصدقائى الخلص لقاطعونى هم الآخرين خوفا مما قد تجره عليهم معرفتى من مصائب والعياذ بالله · فانظرى يا آنستى كيف يتحول فنان مثلى الى منبوذ يمارس أحاسيس المجرمين المطاردين ؟ · آه ·· أى امتهان هذا بحق الله ؟ ··

● ● ●

لم تشعر الآنسة رشا ـ أو البتعة سابقا ـ بمثل ما شعرت به تجاه الملحن الشيخ « يحيى كامل » · طول عمرها تسمع اسمه ، لكن اسمه كان يتميز عن كل الأسماء التى تسمعها فى قريتها وفى المدينة بكونه ذى عمل واضح محدد ، كانت خزانة عقلها تحتفظ بعديد من الأسماء تسمعها ليل نهار وتسمع عنها دون أن تعرف ماذا هى بالضبط وما عمل أصحابها ، أسماء غريبة تطفو على سطح دماغها كيفما اتفق وفى لحظات كثيرة · طالما سمعتها وتسمع عنها ولكنها لم تتوقف لتعرف ماذا هم بالضبط وماذا

يعملون ولماذا هم دون غيرهم من الناس · أما الشيخ « يحيى كامل » فهو الاسم الوحيد الذى ان سمعته عرفت فى الحال انه الموسيقار الكبير الذى يلحن الأغانى للمطربة الكبيرة « قمر » وغيرها من المطربات والمطربين ، تعرف ذلك كما تعرف ان « أم كلثوم » مغنية ومحمد عبد الوهاب مطرب وموسيقار مثل الشيخ زكريا أحمد ·

وساءلت نفسها : كيف يمكن ان يقع الظلم كله هكذا على رجل كهذا ؟ · ركبها هم وغم شديد واقشعر بدنها وأحست أنها موشكة على الوقوع فى حفرة عميقة مظلمة وان ضلوعها سوف تتهشم لا محالة · ارتفع صوت فى داخلها يسأل : أيكون الشيخ « يحيى كامل » مذنبا فى حق الشعب مثل الملك السابق الذى طردوه أحد أن الملك مجرم كبير يخطىء فى حق الشعب وهو ملك ابن ملك ؟ هل هو الزمن الذى يجور على ناس وينحاز الى ناس ؟ أليس الزمن يسيره الله ؟ اذن فالملك يستأهل ما جرى له ؟ ولكن ياربى هى لا تصدق ان الملحن الشيخ « يحيى كامل » يمكن ان يكون مجرما فى حق الشعب حتى يستأهل كل هذا الظلم · ربما أحست بشىء من عدم الاهتمام تجاه « عبد القوى بك » والمسئول الاذاعى الكبير « شـداد النشرتاوى » ، كلاهما لم تفهم من كلامه شيئا وكانت كل مهمتها فى اللقاء ان تصبر نفسها على احتمال الجلسة ، أما الملحن الشيخ « يحيى كامل » فقد فهمت كلامه فهما جيدا كما أحست بأنها لا تريد مغادرة جلسته ··

ثم ان السؤال الأكبر قام فى داخلها فجأة فانهارت له كل قواها : لماذا يقولون لها هذا الكلام ؟ أترونهم يتصورونها رئيسة الجمهورية ؟ هى ليست ذكية حتى تعرف مقاصدهم على التحديد وان حفظت كلامهم عن ظهر قلب وسجلته فى ذاكرتها كلمة كلمة ، هى كذلك ليست غبية ، فقد أحست كما لو أنهم يحثونها على تبليغ هذا الحديث لأكبر مسئول فى البلاد · ثم انزلقت منها ضحكة مرة : انها لا تعرف حتى أصغر مسئول فى البلاد · كل ما نجحت فى الكشف عنه طوال الأسابيع الماضية هو معرفة شىء واحد فقط عن الشخص الذى كافأها ببقشيش عظيم حين أعطاها

بطاقته ؛ ذلك انه شخص مهم جدا جدا ، فما هو اسمه على وجه التحديد ؟ هكذا سألت المهرب الذى أرسلها اليه ذات يوم لاستلام ثلاث صناديق فيها بساتم سيارات ، فمكر بها المهرب غاية المكر وظل برهة طويلة جدا يتصنع التذكر لكنه فى النهاية نصحها بعدم الاقدام على هذه المحاولة مرة أخرى والا تكون قد رمت بنفسها بين فكى المصيدة التى لا عودة منها مطلقا ، ثم أضاف بحنان حقيقى انه يقول لها هذه النصيحة حرصا منه عليها وحبا لها خاصة بعد ان فتح الله عليها باب العز والمجد والشهرة ، وكانت قد أطلقت بعض أتباعها فكلفوا بدورهم بعض معارفهم ليعرفوا اسم الرجل الذى يستأجر الشقة الفلانية فى البيت الفلانى فى الحى الفلانى ، فصرفت على ذلك مبلغا موجعا ولكنها لم تتوقف عن محاولة جمع المعلومات عنه الا يوم جاءها السائق زوج ابنة أم جابر ليهمس فى أذنها ملتاعا بأن المباحث قبضت على صديقه الذى ذهب يستعلم عن اسم ساكن الشقة اياها ، سألته مذعورة واجفة القلب : كيف حدث ؟ ، فقال ان صديقه كان غبيا ومندفعا اذ تعرف على ابن البواب وسأله بشكل مباشر فاتضح ان ابن البواب أحد ضباط المباحث الذى اقتاده الى حيث لا يعرف أحد ·

من يومها ظلت تتوقع الخطر بين لحظة وأخرى ، وكان القلق يفرى قلبها حتى كان يوم الحفل اذ فوجئت بالمسئول الاذاعى الكبير « شداد النشرتاوى » يطرق عليها باب الكالوس ثم يدخل منحنيا ببطاقة ورد وخلفه شاب أنيق فيه وداعة الكلب البوليسى ونعومة ملمسة لكنك تحس الخطر كامنا فى جوفه الضرير · سلمت عليهما معا وأذنت لهما بالجلوس على الدكة الخشبية فجلسا ، وابتسم « شداد النشرتاوى » متمنيا حظا سعيدا ، ثم ابتسم مرة أخرى وقدم لها الشاب قائلا : « سيادة العميد شوكت الجزار » ، فبدا كل منهما فى عينها اثنين وكل شىء فى الغرفة ظهر له قرين حى ، وكادت المرآة الكبيرة التى تقف أمامها تميل عليها فصارت تعدلها وهى فى الواقع تحتاج لعدل نفسها ، وكانت من الذكاء بحيث دارت هذه الرجفة فى بحث مصطنع فى حقيبة يدها فيما هى تقول : « أهلا أهلا

.. تشرفنا .. ان شاء الله يكون لنا شرف حضورك الحفل » . قال الشاب : « طبعا طبعا .. أمال أنا جاى ليه ؟ » . قال « شداد النشرتاوى » ان سيادة العميد جاء يستفهم منها عن بعض الأشياء . قالت « خيرا » . قال الشاب : العميد : « هل تعرفين سائق لورى اسمه عثمان المخصى ؟ » قالت : « أبدا .. عمرى ما سمعت بهذا الاسم .. ولست أعرف من السائق سوى زوج ابنة أم جابر التى تخدمنى » . هز الشاب رأسه فى تأييد : « ولكن .. أليس من المحتمل أن يكون زوج ابنة أم جابر هذا قد كلفه بالبحث عن شيء ؟ » . قالت بثقة : « لا يمكن .. انه مستقيم ولا يفارقنى وأعرف كل شيء عنه .. ما الأمر بالضبط من فضلك ؟ » . قال العميد : « لقد أمسكنا بولد مجنون يتجسس على عنوان أحد الملوك العرب اللاجئين فى القاهرة » . صاحت هى من الرعدة وشهقت : « أحد الملوك .. اذن فلا تتركوه .. أدبوه فهو يستأهل » . شوح العميد فى لا مبالاة : « لقد هشمنا عظامه وفى النهاية اكتشفنا انه قليل العقل ، ولم نقم وزنا لأى كلمة من كلامه سوى قوله ان حضرتك طلبت منه ذلك » . من فرط الرعب أطلقت ضحكة عالية هادرة كانت السبب فى ان يخبط العميد بيديه على ركبته ثم يقف مبتسما : « ها هى ذى الشهرة تجيء وراءك بأضرارها من أول خطوة .. تمنياتنا لك بالنجاح » . ثم وقف « شداد النشرتاوى » وسلم عليها قائلا : « اطمئنى .. كان سيادة العميد يريد أن يتعرف عليك بشكل طبيعى وبكل وضوح .. لأننى شرحت له وعرفته من أنت وبأوراق رسمية دامغة .. فهنيئا لك » . ثم خرجا معا وتركاها فى بلبلة نسيتها فى تصفيق الجماهير وحرارة اللقاء بهم فى ذلك اللحن الجميل الخفيف المبهج .

حارت ماذا تفعل فى هذا البحر الهائج الذى ألقى بها فيه ، لكنها فى النهاية قررت ان تترك نفسها للتيار يلعب بها كيفما شاء ولكن عليها ان تظل قريبة من الشطآن ، متيقظة للأمواج العالية .

– ٣٨ –

أبدا لم يكن البحر هائجا كما تصورت ، ولم يكن ثمة أمواج عالية . ربما لأنها تعلمت السباحة جيدا وصارت فى هذا البحر بلطية كبيرة ليس من السهل أبدا صيدها ، عقدة ذنب صغيرة كانت تؤرقها فصممت على محو أسبابها . تلك هى البطاقة التى تسلمتها مظروفا مغلقا وسلمتها مظروفا دون ان تكلف نفسها معرفة اسم صاحب البطاقة واسم المرسلة اليه البطاقة . أما اسم المرسلة اليه البطاقة عرفته فى أول خطوة وأما اسم صاحب البطاقة فقد ظل حتى الآن سرا مغلقا كلما تذكرته شبت النار فى كيانها لبرهة ، حتى المهرب الشرقاوى لم يرسلها اليه ثانية ولم يرد له ذكر فى حياتها بتاتا . أما كانت تستطيع ، على الأقل ، فض المظروف وعرضه على من يقرأه عليها ؟ أم انها بمكر ريفى تكتمت الأمر وخشيت من فضيحة خاصة انها لم تكن قد اقتنعت بطرق ذلك الباب ؟ ربما كان هذا هو السبب ولكنها صممت على معرفة القراءة والكتابة مهما كلفها الأمر ، انها على الأقل يجب أن تعرف كيف تقرأ رصيدها فى البنك وكيف توقع على الشيكات وكيف تقرأ بنود العقود التى بدأت تنهال عليها من السينما والحفلات والمحلات الكبيرة ، يجب أن تقرأ ما تنتشره الصحف عنها من أخبار متواصلة . وهكذا جيء لها بمدرس فقيه كادت من فرط حبها له أن تمنحه جسدها لاكثر من مرة لولا تماسكها وتعففه . علمها القراءة والكتابة فى خلال شهور قليلة فانفتحت أمامها الدنيا على الحقيقة ، واتسعت أمامها الأبواب والنوافذ وانفكت عشرات الرموز الغامضة .

– ٣٩ –

فيلا « رشا الخضرى » فوق جبل الحواوشى أصبحت أتوبيس يصيح عندها المحصل قائلا : « محطة رشا » . فى حديقتها المزهرة تقف السيارة « الفولكس واجن » ذات اللون الزهرى مستعدة للذهاب الى المشاوير

القريبة غير الهامة ، وفى حظيرة ملحقة بها تقف كالروسة سيارة « بويك » مستعدة لمشاوير آلاسكندرية والحفلات والأفراح واللقاءات المثمرة ٠

علاقتها بالمهرب الشرقاوى لم تنقطع طوال ذلك ، بل تعمقت بقدر ما اتسعت وتنوعت ٠ هذا الرجل لابس الجلباب الصوف صيف شتاء ، واللاسة البيضاء ، النظيفة دوما ، والحذاء اللامع والصديرى الشـاهى والخواتم الذهبية ، والهدوء والرزانة والعقل الواسع ، أبدا لا يجب ان تخدعك هذه الجلباب فتتصور انك جالس مع فلاح أو بالكثير عمدة ، انما أنت جالس مع ملك أو قائد كبير أو حاكم عظيم لا يرد له كلام ، مع انه بسيط وليس فى مظهره أمر ولا نهى ولا صلف ولا غطرسة ٠ فوجئت انه يرطن بعدة لغات وان خياله أوسع وأخصب مما تصورت ٠ هو الذى فاجأها ذات يوم بأنه سيقيم لها حفلا فى بيروت ٠ انتفضت من الفرح وعدم التصديق ، وظلت وقتا طويلا تردد : حفل فى بيروت ؟ الى أن فوجئت به بعد أيام يقول لها ان تذاكر الحفل قد نفدت عن آخرها لأن الاعلانات كانت على ما يرام ٠ كيف اذن تملكت هذا الجبروت يا حاج « عطاطس » ؟ قال انه لم يفعل شيئا سوى الاتفاق مع شركة اعلانات ومكتب حفلات ، وليس مطلوبا منها سوى ان تكون جاهزة للسفر بعد شهر بأغنية أو اثنتين جديدتين ٠ قالت ان التأليف والتلحين يتكلفان ، وسفر فرقة بحالها أكثر تكلفة ٠ دفع لها برزمتين من الأوراق ، النقدية قائلا ان هذا من خيرها ، تنفقه على التأليف والتلحين والعازفين وبعد الحفـــل يكون له معهـــا حســـاب ٠٠

« سامى النهرى » منتصب القامة الفنية على الدوام ٠ الفنان الذى فيه ينتصب واقفا بمجرد لمس النقود ٠ فتح درج مكتبه فأخرج ملفا به قصاصات ورق كثيرة انتقى منها واحدة ثم واحدة قرأهما عليها فأعجبت بهما فقال انه اختارهما لأن لهما نبشا فى أعماقه من سنوات ٠

التصفيق موج فى أثر موج عال يرفعها على أجنحة سحرية ويطير بها بين جبال لبنان العظيمة ، لا يريد تصفيق الجمهور فى الحفل ان يتراجع او يتباعد بل يرافقها فى كل خطوة ، تنداج موجة التصفيق بعيدا فترفع بصرها خافقة القلب متهيأة لاستئناف الغناء فلا تجد للجمهور أثرا ، لا تجد الا جمهور الكازينو المنحوت فوق سطح الجبل والسيارات تسبح حواليه من كل ناحية كانها قوافل تتخبط فى متاهة دائرية لا تنتهى ٠ الاستاذ « سامى النهرى » وقد أصر على مرافقتها فى الحفل يجلس فى جوارها ممسكا بعوده يدندن أنغاما وافدة لا كلام لها ٠ لقد اتفق على مجموعة ألحان لاذاعة بيروت واتفقت هى على أكثر من حفل جديد يلزمها أغان جديدة ٠ « سامى النهرى » ليس يغلب طالما ان عوده معه ، أما الكلام فانه دائما يصطحب معه « سمير بقلاوه » ، وهو شاب فى الخمسين كان موهوبا فى التاليف ذات يوم لكنه لدناءة فى نفسه ابتذلت موهبته وأصبح يعمل فى مرتبة صبى أو مرمطون للملحن « سامى النهرى » يشـــترى له الحشيش ويقوم بتوضيب السهرات ولف السجائر وشد الأعواد ونقل الرسائل الشفهية بين سامى النهرى والمطربات الهاويات اللآتى ينتمين الى مدرسته ، عند الزنقة يكتب « سمير بقلاوه » أى كلام وبالقطع سيكون موزونا ومستساغا وان فرغ تماما من المعنى ٠

الحاج « عطاطس » هو الآخر لم يضيع من الوقت ثانية ، كان دائم الظهور في محيطها والجميع يعرفه باعتباره سمسار حفلات ناجح ويتملقونه طمعا وراء رزق يأتى من ورائه ٠ وبالفعل ـ وبفضله ـ تمكنت الفرقة من احياء سبع حفلات فى عشرة أيام عادت بعدها « رشا » الى القاهرة بسيارة مرسيدس معبأة بالحشيش والأفيون فى كل أحشائها ابتداء من اطاراتها الى كراسيها وفراغات الرفاف خلف الفوانيس ٠ لم تكتشفها الجمارك بالطبع انما اكتشفت ان الراكبة هى المطربة الصاعدة « رشا الخضرى » ،

وتكاتفت عينها بتحذير الجميع حتى قبلوا هداياها المتواضعة وتركوها تمر مشيعة بالتحية والاكبار ، وكانت قد أعدت حجة النجاة بأن السيارة لم تصبح بعد ملكا تاما لها وأنها تسلمتها هكذا دون فرصة لمراجعتها · ورغم أن هذه الحجة لم تكن صالحة للنجاة حقا الا انها كررتها وكررت معها عشرات المئات من الرحلات المشابهة فى مشارق العرب ومغاربها ، وتنوعت المهربات والمحلوبات ولم يكتشف أمرها ·· أبدا ·

ـ ٤١ ـ

« رشا الخضرى » نمرة ثابتة فى الاذاعة والتليفزيون وأخبار الصحف ، وفى ليالى الأعياد يكافئون الجمهور باظهارها تتكلم وتقول له كل سنة وأنت طيب يا جمهورى العزيز ·

ـ ٤٢ ـ

من كان يظن أنها وقد استمدت قوتها وسلطانها من شخصية شبه مجهولة تصبح هى نفسها ذات هيبة وسلطان ؟ · أما عن نفسها فشخصيا لم تكن تتوقع أى شىء مما حدث طول حياتها ولا تتوقع ماذا سيحدث لها فى قابل الأيام · انما هى كانت تخشى ان تجىء اللحظة الموعودة ، ان يكتشف الذين بثوها شكواهم انها ليست أهلا لذلك وانها لا تعرف كيف تخدم صرصارا · غير ان هذه اللحظة لم تجىء أبدا ، بل جاءت لحظات أحلى وأروع ، لحظات أصبحت هى فيها قادرة على أن ترتفع سماعة التليفون وتطلب أى شخصية تشاء : أنا « رشا الخضرى » ·· فلا تواجه أى حواجز صناعية · وهكذا تقابلت مع شخصيات كبيرة ذات سلطات كبير وجاملتهم فى أفراحهم بالمجان ، وتقربت الى شخصيات أكبر وجاملتهم بالهدايا وبذلك خدمت ناسا كثيرين وتوسطت لفض مشاكل كثيرة عويصة بين زملاء كثيرين

من أهل الفن حتى مشكلة الشيخ « يحيى كامل » مع المطربة الكبيرة « قمر » استطاعت ان تساهم فى حلها وديا وان يتنازل الشيخ يحيى عن قضاياه فى المحاكم وان تتنازل « قمر » عن بعض كبريائها فى سبيل أن تعود المياه الى مجاريها وقد عادت ولكن بشكل محدود ··

ـ ٤٣ ـ

فالدنيا مقلوبة هكذا والجو مقبض وينذر برياح عاصفة · الصحف تجهمت فجأة ووجوه المذيعين والممثلين ووجوه البرامج كلها مرئية ومسموعة هى الأخرى تجهمت وتنكرت للهزل مرة واحدة · مقالات حماسية ورسائل موجهة من كبار الأدباء الى الرئيس الأمريكى ، وثمة من يطلب منها أغنية وطنية . دهشت وقالت ما معنى وطنية ؟ قال لها مقدم برامج باذاعة صوت الأزارقة كلفه المسئولون بانتاج هذه الأغانى : « أغنية وطنية يعنى فيها غزل من أجل الوطن » ، فشردت لحظتها وقالت لنفسها ان الاستاذ سامى البهرى يستطيع فعل كل شىء ، يستطيع الاتيان لها بشاعر يتغزل فى حب الوطن أو يتغزل فى حب الجبل ، فهكذا تريد الاذاعة وما عليها هى سوى الامتثال غير ان مقدم الرامج الذى هو فى نفس الوقت له شركة انتاج سرية تنتج برامج منوعات هى خلطات متقنة من مختارات مما سجل على شرائط الاذاعة حيث يطلبها معمله فى الاذاعة ثم يسربها الى الخارج لينتقى منها ما يريد ثم يردها ، أولا يردها والذى هو فى نفس الوقت أيضا مشرف على جانب كبير من الحفلات التى تقيمها الاذاعة حيث يتولى الاتفاق مع الفنانين ومساومتهم وملاعبتهم الخ ـ قال لها انه سيعفيها من مهمة الاختيار وسيختار لها ، ثم قدم لها أغنية سقيمة سخيفة عالية الصوت صاخبة . من قبيل : « بلدنا مقبرة الغزاة ·· واللى يدخله يلاقى الموت حداه » · لحنتها ، ورغم ذلك لا تعرف ما الأمر على وجه التحقيق ؟ ·

مثلما تعودت ـ رمت وراء ظهرها بكل المقلقات ، اذ ما الذى يقلقها ولماذا تقلق ؟ ان الله الذى أوصلها الى ما هى فيه الآن من نعيم لن يقصد بها شرا أبدا ، على العكس لقد حماها من أبناء آدم الذين قصدوا بها الشرور ، ها هى ذى ملكة غير متوجة لا زوج ولا ابن ولا أحد يستأهل ان تقلق عليه ، انها لم تتعود ان تقلق على أحد منذ ان سلختها أمها من جلدها وباعها خالها بأرخص الأثمان وهرب من وجودها كله زوجها هريدى ٠

لقد باتت اليوم تعرف من هو العدو الغاشم ، تعرف أنه ليس رجلا واحدا بل هو دولة يقولون انها صغيرة ولكن رشا اكتشفت ان رمانة القبانى صغيرة كالكرة الشراب لكنها تزن القنطار والقناطير ، وهى ـ رشا ـ تفتح أذنيها جيدا فى سهراتها التى لم تخل أبدا من « عبد القوى بك » ، ومنه تعلمت الكثير والكثير والكثير ، انها ان كانت تعلمت من الحياة كلها شيئا طول عمرها فان ما تعلمته من « عبد القوى بك » وحده يفوق كل ما تعلمته ٠ كان اذ يجلس فى غرفة صالونها المطلة على حديقة الفيلا فوق الحواوشى العظيم يحس كأنه أخيرا قد وجد بيته وملاذه ٠٠ « أم جابر » وبعض أفراد عائلتها يظهرون فى الصالة ويبرزون أصواتهم من حين الى حين ويقدمون لعبد القوى بك ما يحتاجه من شراب أو مأكل أو سجائر ٠ أول من يجىء وآخر من ينصرف ٠ تضم السهرة فى العادة باقة ولكن غير متناسقة من الزوار : سامى النهرى ، توتو الأبيض أشهر مقدم برامج فى التليفزيون ، علياء المشهدى مقدمة البرامج الطرية العود والصوت ، حامد البحر المحرر الفنى بمجلة النجوم ، سالم عقله مؤلف الأغانى المشهور الذى كان فى الأصل حلاقا وتبنته رشا ، غير أن هؤلاء كانوا ينصرفون قبل ابتداء السهرة الحقيقية التى تضم فى العادة أيضا عبد القوى بك وسامى بك ومقدم البرامج بصوت الأزارقة وممثل مسرحى واذاعى كبير يمتلك هو الآخر شركة انتاج اذاعى خاص يبيعه لاذاعات الدول المجاورة من بطون بنى الأزرق ، حيث تمتد مائدة القمار تضيع فوقها الأموال والأهداف والنوايا الحسنة ويحس الجميع كأنما تجمعوا لتعرية بعضهم البعض والسخرية من بعضهم

الهمس بعمق وحتى النخاع ، أحلى ما فيها خطب « عبد القوى بك » التى لايزال يرددها بمناسبة وبلا مناسبة ٠ واذا كان الجميع يضيقون بهذه الخطب أحيانا ويسمعونها على مضض كانت هى فى أعماقها ترحب بها كل الترحيب لان « عبد القوى بك » موهوب بالفعل يتحدث كأنه السحر المتدفق بلغة فصيحة كأنها لغة القرآن الكريم يتحدث عن العدو وخطره العالمى وما يسمى بالامبريالية ويتحدث عن الحكومة والشعب الذين هما معا نفس الطينة من نفس العجينة وكيف اننا جميعا نعطى مؤخرتنا للعدو ونتغاضى عنها فيما نحن منشغلون فى تحية المواكب والطواويس ، ثم ينهى حديثه باسما حيث يشاركه الجميع فى نطق العبارة التى يحفظونها جيدا : « سوف نأكل الطواويس الطوايس » ٠

فى احدى الليالى ـ ولأول مرة ـ تخلف مقدم البرامج باذاعة صوت الأزارقة وطلب رأيها فى أمر هام ٠ خيرا ٠ قال لها انها حفل شـــديد الخصوصية أقرب الى حفل سمر على مستوى كبير بعض الشىء ٠ قالت انها تحب مثل هذا النوع من الحفلات لأن جمهورها يكون خاصا ومؤدبا فى التعبير عن اعجابه ٠ قال لها أما من حيث الجمهور فهو أكثر من خاص ، ولهذا فانها ستتسلطن على سنجة عشرة ، وان مناسبة الحفل وهدفها أكثر من خاص ولذا فهى لن تتقاضى عن الغناء أجرا ، بل ستكون متبرعة مثل رهط الفنانين الذين سيتشرفون باحياء الحفل ٠ انتفضت كل عروقها واقفة كشعر القطة المتحفزة ، قالت أين الحفل ومن أصحابه ؟ قال انه سيقام فى مدينة الخنافس على الحدود ، وفكرته اقترحتها صحفية ناشئة نيابة عن أحد المراكز الثقافية الفنية المنتشرة فى الشرق الأزرق ، على ان يقوم هو بتمويلها ـ ثم استدرك منتبها ـ أقصد يصرف على نفقات الحفل النثرية من طعام وشراب وكراسى وتنقلات وما الى ذلك ، والهدف من الحفل سهام وسهل : الترفيه عن رجال الجيش من حرس الحدود الذين كتب عليهم واجبهم الوطنى ان يعيشوا حياة جافة خالية من كل الرفاهية وبما انهم مقبلون على معركة حامية الوطيس فالواجب الوطنى والانسانى والقومى يحتم علينا ان نشارك فى هذه المعركة حتى ولو بمهمة الترفيه عن الجند ٠٠

فى الحال قالت رشا انها موافقة وبكل سرور مادام الأمر كذلك ٠

حينئذ اتسعت الابتسامة الشاحبة على شفتى مقدم برامج صوت الأزارقة وارتعش شاربه الجميل فى بشر ٠ ثم نهض واقفا وقال انه سوف يتصل بها خلال أيام قليلة ليبلغها عن موعد الحفل ، ويوم الحفل سيتكفل ناس بأمر انتقالها تحت الحراسة ، وردها الى البيت تحت الحراسة أيضا ٠

— ٤٤ —

كانت تستعد للحفل المنتظر باغنيتين قديمتين ، وكان صاحبنا قد تكفل باقناع الفرقة الموسيقية الكبيرة التى سوف تصاحبها وتصاحب غيرها طوال الحفل ، لا تدرى كيف اقنعهم بالتبرع وهى تثق ان مسألة التبرع أمر غير وارد فى قاموس حياتهم على الاطلاق ، لكنها لاحظت أن الفرقة تستجيب لطلباتها دون تذمر وتوافق على اجراء البروفة حسب مزاجها هى فى أى وقت تشاء ٠٠

ولم يكن قد بقى على حفل الخنافس الا أيام قليلة حين طرق باب الفيلا من الخارج ونبحت الكلاب بشراسة ، ولم يفلح خفير الفيلا فى اسكاتها ، وكانت هى جالسة على مائدة القمار تطلق قهقهات عالية بلا معنى حين اقتحمتها أصوات الكلاب فأحست بانقباض فى صدرها وتسللت خارجة فاطفأت أنوارا كثيرة فى الصالون واغلقت باب الصالون بالمفتاح وانطلقت فى الصالة ومنها الى الشرفة المطلة على باب الفيلا مباشرة فأضاءتها وصاحت بخوف : « فيه ايه يا عليوه » ، فصاح عليوه من بعيد مغطيا على أصوات الكلاب قائلا ان سعادة البيك يريد مقابلتها لأمر مهم كما يقول ٠٠٠٠٠٠ فجاءها صوت مصقول مؤدب يصيح : « مساء الخير يا هانم ٠٠ أنا الرائد مجدى الصوفانى ٠٠ ممكن نقعد مع سعادتك خمس دقايق بالعدد ؟ » ٠ قالت وقد أعجبها ان مثل هذا الرائد يستأذنها بأدب هكذا قائلا يا هانم : « بكل سرور ٠ تفضل » ٠ ثم دخلت ، مرت على الصالون

فسحته وأوصت بخفض الصوت تماما لأن ضيوفا أغرابا سيدخلون البيت » ٠ ثم أغلقت الباب بالمفتاح وأضاءت نور الانتريه واختفت بالداخل قليلا حتى تكفل الخفير بادخال الرائد مجدى وأجلاسه فى الانتريه ثم انصرف ٠ بعد برهة طويلة دخلت اليه رشا تخطر كالبطلة كانها قائمة لتوها من حجرة النوم ٠ وبعد برهة أطول دخلت أم جابر تحمل الصينية الفضية عليها زجاجة الكوكاكولا المثلجة والكوب الكريستال وضعتها أمام الرائد مجدى وانصرفت فقالت له رشا : تفضل ، وصبت له المشروب فى الكوب فصنع مظاهرة لطيفة من الوشيش والطرطشة ٠ شفط رشفة مديدة ووضع الكوب فتلقفت رشا عينيه قائلة كأنما من تحت اللحاف : « أهلا » ٠ قال : « تشرفنا » ٠ قالت « خير » ٠ قال : « الأمر بسيط ٠٠ سعادة مصطفى بيك يرجوك مقابلته لأمر هام وعاجل ٠ شردت ثم : « مصطفى بيك ٠٠ من هو عدم المؤاخذة ؟ » ٠

•

« مصطفى بك عصمت يا هانم ألا تعرفينه ؟ » ٠٠ هكذا صاح فيها الرائد بهدوء كأنه لا يصدق انها لا تعرفه ٠ غير انها كانت بالحق لا تعرفه ابدا ، بل ربما كانت هذه أول مرة تسمع فيها اسمه ٠ وقد راحت تنظر الى الرائد فى استفهام منتظرة ان يشفق عليها ويشرح لها من هو مصطفى بك عصمت ولماذا يطلبها على وجه الدقة ، لكنه لم يقتنع أبدا انها لا تعرفه ، ولهذا فقد أنهى كوب المشروب ونهض واقفا وراح يكتب ورقة صغيرة قدمها اليها قائلا : « الموعد غدا ٠٠ فى الحادية عشرة صباحا بمكتبه ٠٠ نرجو عدم التأخير » ٠ ثم سلم عليها بشدة وانصرف ٠ وحين انصفق الباب منغلقا انكسرت فى دماغها جدران زجاجية كثيرة واختلطت عشرات الصور ببعضها من كافة الأيام والسنين الفائتة كحلم ساحر ومخيف ٠

تهاوت جالسة على الكرسى وأمسكت برأسها ونظرت فى الورقة للمرة المائة محاولة استشفاف ما وراءها دون جدوى ، حيث لم يكتب فيها سوى : « مصطفى بك عصمت ٠ ٤ حدائق اللبوءة » ٠ حتى الحى فكرت

فيه وفيمن يسكنونه : حدائق اللبوءة ٠٠ كان فى الماضى ـ كما تسمع اليوم ـ يسكنه الكبراء من الأسود فى عالم المال والاقطاع ، وكان أول من ابتنى فيه رجل يهوى تربية الأسود واطلاقها فى حديقته المهولة ، ومن بين أسوده كانت لديه لبؤة تفعل الأعاجيب فى الحديقة ويتفرج عليها الناس بل يحجون اليها ، وقد جاورها عشرات الآثرياء بحدائق مثلها وأصبحت حيا كبير ينطق ساكنوه اسمه بكل تفخيم وتعظيم : حدائق اللبوءة ٠ كل ما تعرفه « رشا » عن الحى غير هذا انه حى قد أحيط مؤخرا بالأسـوار والحراس ٠ كان بامكان « رشا » ان تدلف الى غرفة الصالون وتستفهم عن حقيقة الأمر لينبرى عبد القوى بك شارحا لها كل شىء باسهاب ٠ لكنها أحبت أن تظل فلاحة ماكرة ، فلا داعى لاطلاعهم على هذا السر الذى يعد من أسرارها الخاصة ٠

ـ ٤٥ ـ

فوجئت بأنها فى نفس المنطقة التى سبق ان جاءتها ذات يوم من أجل الاستفهام عن مصير عنتر كباية ٠ أهذه اذن هى الحدائق ٠

وهكذا زحفت سيارتها المرسيدس الفاخرة بكل ثقة ، وكلما تمهل فى طريقها حارس نظرت اليه نظرة تصرعه فى الحال قتيلا ، فيزيح من أمامها المتاريس حتى وجدت ثمة سيارات راكنة فركنت بجوارها ثم نزلت وصفقت الباب خلفها ثم شرعت تخطر كطائر النورس فوق صفحة البحر ٠ كان فى استقبالها أكثر من واحد يلبس الزى الرسمى ويعلق على وجهه نظره استنكار صارمة ولكن مستعدة للمرونة ٠ زحفت قصاصة الورق بأصابعها تجاههم فتلقفها من يبدو انه كبيرهم ونظر فيها ثم انحنى لها باسما وأشار لها أن تتبعه ٠ مضت خلفه ٠ كان يبدو من ملبسه ومن خطورته أنه صاحب رتبة كبيرة ، يؤكدها ان عشرات من الضباط كانوا يعظمونه طوال الطريق ٠٠

خرجت من ممر طويل الى آخر أطول ثم الى ثالث أقل طولا ، ثم حودت فاذا بها أمام باب لم يكن يبدو انه باب الا حين فتحه من يتقدمها ٠ دخلت وراءه ، فوجدت أمامها جدرانا منكسرة من القطيفة الخضراء حودت من خللها فاذا بها أمام حجرة مستطيلة مليئة بالأثاث الفاخر وفى نهايتها مكتب يجلس اليه عملاق كبير يرتدى اللباس العسـكرى وعلى كتفيه نجوم وضبابير تفوق ما فى سماء قريتها ، وعلى ثدييه شارات حمراء وزرقاء وخضراء ولا حصر لها ، وفوق الرأس ذلك الكاب المخيف سقط قلبها فى قدميها لبرهة كما تعودت ، فطول عمرها لا يهزها فى الدنيا شىء من الأعماق كما يهزها اللباس العسكرى ويلقى الرعب فى قعر بطنها ، شعور توارثته ولا تدرى له تفسيرا ٠

على انها حين تقدمت بضع خطوات منه كادت تتناثر الى فتات تتطاير فى الهواء ورغم أن أجهزة التكييف كانت توحى اليها بوجود رياح عاصفة فى الخلاء فان جسدها كان مبتلا بالعرق الساخن كالبخار ٠ نظرة واحدة نظرتها فى عينيه تأكدت بعدها انه هو ٠٠ نعم هو بعينه ذلك الرجل الذى أعطاها البطاقة ذات يوم لتكون السبب فى شهرتها الفائقة والسبب فى العز كله والهناء كله ، ها هو ذا ـ أخيرا ـ صاحب البطاقة يظهر فى حياتها من جديد وتراه وجها لوجه مرة ثانية ٠ بكل ما تبقى فيها من قوة وقدرة على التماسك سلمت عليه ومنحته الكثير والكثير من الحنان والشـعور بالامتنان فى ضغطة يد ، قال لها فى شعور حقيقى بالرضا : « تفضلى » ٠ الآن تأكدت بما لا يدع مجالا للشك انه هو ، نفس العينين نفس الأنف المستطيل المتأفف نفس الشفتين المطبقتين على شعور عميق بالخطر نفس اليد بملمسها نفس الصوت برنته وايقاعه ، هى ليست تتخيل أو تتوقع ٠ لكن ٠٠ لم يتغير فيه سوى اللباس ، فحين رأته فى المرة الأولى كان باللباس الملكى أفنديا عاديا ٠ لم تسأل نفسها ما علاقته بالحاج عطاطس هل هى قرابة رحم أم قرابة دم أم قرابة طبع أم قرابة مصلحة ، كل ما يشغلها الآن شىء واحد راح دماغها يحدثها به فيما ينشغل عصمت بك فى توقيع بعض الأوراق : ها هو ذا الرجل الذى قدم اليك الجميل شرع يطلب أجره ،

حقه ، كان من الواجب أن تسارع هى برد الجميل ولكنها سارعت ولم تفلح وهذه هى عصمتها عند اللوم ، ها قد آن الأوان لأن يأخذ حقه منها ، ترى أى ثمن سيطلب هذا العملاق ؟ هل تراه سيطلب صراحة أم سيسكت ويتركها تفهم من تلقاء نفسها ؟ أليس من المحتمل أن يكون انشغاله عنها هذه اللحظات مقصودا به اعطاءها مهلة للتفكير فى الأمر والتصرف بلباقة ؟ ولكن لا ٠٠ عصمت بك ليس هكذا أبدا ، لقد كان كريما معها فى أول لقاء ولا تظن أن الكرم صفة يصطنعها الانسان وقتما يريد ٠

أخيرا أغلق أوراقه وأشار لمن كان حوله أن ينصرف ويغلق الباب تماما ٠ فخفق قلبها بشدة ٠ ثم ان عصمت بك أشعل غليونه فى حماس مكشرا بين حاجبيه يشد النفس فى انفعال ، ثم مال نحوها قائلا : « رشا هانم ٠٠ احنا لنا عندك خدمة بسيطة » ٠ خفق قلبها مرة ثانية واعتدلت فى جلستها وهزت رأسها موافقة : « وماله يا فندم ٠٠ احنا تحت الأمر والأذن ٠٠ ولو انى ما عدتش باسافر اليومين دول كتير ٠٠ تقريبا ما عدتش باسافر خالص ٠٠ لكن مادام حضرتكم تقصدونى فى خدمة أهلا وسهلا » ٠

ثم ارتعدت وصارت كالسمكة تنتفض فى زيت مغلى ، أدركت انها أخطأت بجهالة وغباء ٠ ذلك أن عصمت بك نظر فيها نظرة جاحظة ذاهلة متشككة ، ثم أشعل غليونه مرة أخرى وشد الانفاس المتلاحقة وقال : « مش فاهم ٠٠ ايه دخل السفر هنا ٠٠ سفر ايه وبتاع ايه ؟ » ٠ كانت ترتجف ، قالت وقد استردت ذكاءها ومكرها الريفى : « متأسفة ٠٠ افتكرتها خدمة يعنى حفلة » ، ثم أحست ان اعتذارها غير مقنع على الاطلاق فابتسمت فى ارتباك وقالت : « على كل حال ٠٠ اللى تؤمر بيه يمشى » ٠ قال عصمت بك فى جد كأنه قرر تأجيل الشـــك فى ارتباكها هكذا : « الاستاذ عبد القوى بيسهر عندك ٠٠ طبعا » ٠ قالت بسرعة : « طبعا ٠٠ مش هو لوحده ٠٠ دى مجموعة أصدقاء ٠٠ الاستاذ عبد القوى والاستاذ سامى وفلان وعلان » ٠ قاطعها بكفه قائلا : « مضبوط ٠٠ عايزين نعرف أيه اللى بيقولوه ٠٠ اللى بيعملوه احنا طبعا عارفينه ٠ مش مشكلة ٠٠

بس أيه اللى بيقولوه عن مشكلة الشرق الأزرق والسيد الرئيس والنظام وأوضاع المجتمع ، دى بصراحة معلومات تهمنا وعايزين نعرفها » ٠

اعتدلت رشا وتمطت بعض الشىء كأنها استراحت ، قالت : « هى دى المهمة اللى سعادتك عايزنى عشانها ؟ » ٠ نقر بأصبعه سطح المكتب : « عليكى نور » قالت فى براءة : « بس أنا مش ممكن أقدر أفتكر أى كلمة ٠٠ من حيث الكلامأهم بيتكلموا ٠٠ زى كل الناس ما بتتكلم ٠٠ بس كلامهم بيبقى أعمق شوية ٠٠ زى ما تقول أنهم عارفين حاجات كتير النـــاس ما تعرفهاش » ٠ صاح عصمت بك وكاد يقف : « زى أيه ٠٠ أهو ده اللى احنا عايزين نعرفه ٠٠ أيه بالضبط الحاجات اللى بيعرفوها ؟ ٠٠ قولى يا رشا ماتخافيش » ٠ قالت رشا فى براءة : « لا مش قصدى ٠ قصدى انهم ٠٠ اسمها أيه الكلمة اللى بتقولوها على الناس اللى عارفين ومتعلمين ٠٠ مثقفين ٠٠ أيوه ٠٠ مثقفين » ٠ ضحك عصمت بك حتى دمعت عيناه ٠ قال « على كل حال ٠٠ الخدمة اللى تقدميها لنا بسيطة ٠٠ الرجالة بتوعنا حيزوروا الفيلا بتاعتك لمدة نص ساعة بس ٠٠ مش حيفتشوا على أى حاجة ٠٠ بس حيركبوا حاجة بسيطة كده فى الصالون ٠ وبعد كام يوم حيروحوا يفكوها ويجيبوها لى هنا ٠٠ موافقة ؟ قالت وقد غرقت فى حيرة عميقة : « موافقة » ٠

ثم امتد بينهما الصمت لبرهة طويلة رد خلالها على التليفون مرة او مرتين بسرعة ٠ فلم تجد مفرا من الوقوف ٠ واذ وقف هو الآخر ليسلم عليها ركزت فيه عينيها فلم يبد عليه مطلقا انه يعرفها من قبل أو رآها فى حياته ٠ قالت له فى صوت مرتعش : « أظن سعادتك ماشفتنيش قبل كده ؟ » ٠ قال بوجه مشدود وصوت حاد : « الحقيقة ماتشرفتش » قالت له : « من كام سنة كدة ٠٠ مدة كبيرة الحقيقة ٠٠ كان ٠٠ كانت ٠٠ كنت » ٠٠ « أيه مالك ٠٠ مانمتيش امبارح كويس ؟ ٠٠ ما أعرفتش ليه الناس بتخاف وترتبك أول ما تيجى عندنا ٠٠ يفقدوا القدرة على التركيز ٠٠ احنا بنخوف الناس ولا يه ؟ » ٠ أطلقت لضحكتها العنان بعض الشىء

وقالت : « ما هى بصراحة حاجة تلخبط ·· أصل سعادتك ·· فى يوم من الايام » · أرسل اليها نظرة شك قاتلة هذه المرة ، شفعها بقوله : « تانى ·· على كل حال أنا واثق انى ماتشرفتش برؤية سعادتك قبل كدة » · فسلمت عليه بحرارة قائلة : « على العموم فيه واحد يشبه سعادتك قدم لى خدمة كبيرة قوى قوى قوى ·· فحتى لو ماكنتش هو · قصدى لو ماكانش هو حضرتك ·· برضه حاشكرك لانك شبهه » · فضحك عصمت بك عاليا وهز يدها كأنه يدفعها الى الخارج · فاستدارت ضاحكة وحيته بانحناءة قصيرة ثم انصرفت قائلة فى نفسها : « وحق جلال الله هو بعينه مهما ينكر » ·

- ٤٦ -

حفلة مشئومة · باتت تكرهها كره العمى وترتعد كلما تذكرتها · كانت أول مرة ترى فيها مدينة الخنافس وهى مدينة على الحدود الشرقية لوادى بنى الأزرق · ليتها ما رأتها ولا غنت فيها · كان الحفل حافلا ، لكنه أبدا لم يكن لائقا ، ليلتها أسكروها رغما عنها فخرجت عن حدود اللياقة لتصير مثلهم جميعا ، وغنت حوالى ثلاثة أرباع الساعة وهى تتقصع وتتلوى وتتوجع والجميع يتوجع معها ، كلهم رجال خشنون وغليظوا الطبع ويفترضون ان كل من عداهم هو العدو اللدود · دامت الحفل ليلتها حتى الصباح وبعدها بساعات قليلة اعترفوا جميعا فى الصحف والراديو والتليفزيون ان العدو قد دمر طائراتنا ودمر قدرتنا على التحليق والطيران ·

كان عبد القوى بك يقول فى مرارة باكية : « الوطن ·· الوطن ·· فرطنا فيه » وكانت ترد قائلة فى نفسها : « ما الوطن ·· ها هى الناس تعيش كما هو ولم يأخذ أحد بيوتهم ولا أملاكهم ولا تعرض لهم فى أرزاقهم » ، وكان يقول : « الاستعمار ·· الاحتلال » ، وكانت ترد قائلة

فى نفسها : « طول عمرها وهى تسمع ان البلاد يحكمها الاستعمار الأجنبى ·· وفى منتصف حياتها قامت ثورة ، ومنذ قامت وحتى الآن وهى لم تعرف على وجه التحديد ما هو الفرق بين حكومة الاحتلال الأجنبى وبين حكومة الثورة ؟ ·· ان الجرائد والراديو يقولون أن الثورة خلصت البلاد من الاحتلال الأجنبى ·· ومعنى ذلك انها لم تخلصها بعد من الاحتلال المحلى » · ثم شوحت بيدها فى فروغ بال نحو عبد القوى بك فانزعج عبد القوى بك ورمى ورق اللعب من يديه وأشعل سيجارة نفث دخانها فى شعور بالهم ، ووجه حديثه للجالسين قائلا : « الآن الآن فقط ، اقتنعت ان الوطن الحقيقى ليس هو الأرض أو العرض أو المكان أو ما الى ذلك ·· الوطن الحقيقى هو الثقافة فى الوطن ، هو معنى يتعلمه الانسان ويتثقف به ، فبدون الاحساس بهذا المعنى يصبح الوطن مجرد أرض ينتزعها الأقوى فلا بأس وعرضها ينتهكه المتسلط فلا حول ·· نعم يا أخوتى ·· ما أضيع الوطن بين يدى الدهماء ، وما أشقى أهله الواعين تحت أقدام المتسلطين ـ ثم وجه الحديث نحوها ـ الويل لكم يا أبناء بنى الأزرق الملاعين مادام الوطن فكرة غائمة لا معنى لها فى أذهانكم ·· الذنب ليس ذنبكم على أى حال بل ذنب آخرين لعلهم المثقفون لعلهم القادة لعله الاستعمار لعله الزمن لعله كل ذلك مجتمعا ·· المهم انه شىء ليس يدعو للأسف فحسب بل يدعو ـ وللمؤاخذة يا ست رشا ـ الى الارتخاء » · ثم انه بصق فى الهواء بقرف ونهض واقفا يلم سترته المترهلة ويعدل رباط عنقه الأنيق ، ثم انصرف صائحا كعادته فى مرح الصبيان وخفة المهرجين : « الى اللقاء غدا » · لكنه لم يطأ عتبة رشا الخضرى من ليلتها ، بسبب بسيط وهو انه لم يعد يظهر على وجه الأرض بعدها ·

- ٤٧ -

ركبها الهم والغم شهورا طويلة كانت فيها كالغريقة لا شطآن ولا برور · لايمر يوم دون استدعائها الى مكان ما فى حدائق اللبوءة ، ويوم لايستدعيها

أحد يزورها آحاد بحجج مختلفة · وكانت الحفلات قد توقفت تماما وعم البلدة كرب عظيم ، حتى الأفراح التى دعيت لاحيائها من بعض علية القوم كانوا يقيمونها فى مسارح مغلقة ويقتصرون فى البهرجة مراعاة لخاطر الموتى فيما أسموه بالنكسة وما أكثرهم ، نعم كانوا من الكثرة بحيث انها دهشت لأن يموت أو يتوه أو يتشرد كل هذا القدر من شباب بنى الأزرق فى ساعات قليلة من عمر الزمان · شغل التهريب أيضا أصبح محاطا بالكدر مع أن أحجامه تزايدت وفرصه اتسعت اتساعا مذهلا · سفرة فى السر أو سفرتين الى أوروبا فى حفلات وهمية لمدة اسبوع على الأكثر تعود منها محملة بالحقائب الحافلة بالثياب أو ألماظ أو الدولارات أو علبا وصناديق مبهمة تتصاعد منها عطور فاخرة ويتسلمها فى المطار ناس معينون ·

الكدر لايزال يغلف البلاد والجو لاينبىء عن استقرار · حتى لقد ضاقت بالحصار وفقدت أعصابها فباتت لاتهيأ بالنوم أو الهدوء ، تبكى لاتفه الأسباب وتتنهد مصعدة عينيها الى السماء فى ضراعة · أسود يوم جاءها آنذاك يوم استدعاء زوج ابنة أم جابر الى الاحتياط ، وهو وعشرات الآلاف من الشبان الذين كانوا قد أنهوا مدة خدمتهم فى الجيش وخرجوا لتوهم ، وظلت أم جابر تملأ يومها وليلها بالعديد والبكاء الحارق ، وكان الليل على جبل الحواوشى يريها مدينة العاصمة راكعة على قدميها كالبهيمة الغطسى ، ورغم كل هذه المحنة التى أحست بنفسها فيها لم يعاودها اللوم على نفسها بسبب عدم ارتباطها بزوج يؤنس وحشة حياتها بولد أو اثنين ، بل ـ رغم شعورها الفائق بالوحدة والخوف والضياع ـ أيقنت من أنها كانت فيهم من يستطيع الحصول على ثقتها ، ليس فيهم من تستأمنه على ظهرها محقة حين لم ترتبط بأى رجل فى هذه المدينة المنكفأة على وجهها ، فليس لحظة قصيرة ولو فى الفراش ··

رن جرس الباب بعد شهور طويلة من الصدأ ، واذا بالقادم رجل عملاق يلبس الحلة العسكرية ذات النياشين والضبابير والنجوم الصفراء اللامعة ، والكاب الأحمر · اعتقلت صرختها ونظرت فى الخلاء فلم تجد أحدا

سوى سيارة تعرفت عليها بسرعة ، ثم أغلقت الباب وهى تقول لنفسها : « خير يارب » · وكان الرجل العسكرى قد جلس فى الانتريه وخلع الكاب وما ان رآها مقبلة حتى زأر فيها : « مساء الخير يا هانم » · فتسمرت فى وقفتها ترتعش : « مين ؟ » · قال : « اقعدى أحسن معنديش وقت » · صاحت وهى تجلس مرتعدة : « معقول ؟ المعلم عطاطس ؟ » · ابتسم : « براوه عليكى » · نظرت فى لباسه بكل ذهول ودهشة · شوح بيده فى وجهها : « ماتاخديش فى بالك ثم مال عليها وهمس فى أذنها ان لديها غدا حفل فى صعيد الوادى فى مدينة الأزرق سيشرفها بالحضور سيادة المحافظ ومدير الأمن ورؤساء المدن والقرى والهيئات الكبيرة ، والحفل سيكون كبيرا جدا وسوف لن تحصلى على أجر لأنه لصالح المجهود الحربى · قالت له : هل لك صلة بالجيش ؟ قال : لا · قالت : فلماذا ترتدى هذه البذلة اذن ؟ · قال ضاحكا انها ليست بذلة جيش انما هى بذلة بوليس · قالت : فما لك والبوليس ؟ · قال ضاحكا انه كان رتبة كبيرة فى الداخلية قبل ان يسوى معاشه ويستريح ويستقل وانه كثيرا ما يحن الى هذه البذلة التى ظل يحتفظ بها فيرتديها كل حين لدقائق معدودة يستعيد بها ماضيه المجيــــد ··

رشا لم تعد تهتز من هذه المفاجآت المذهلة ، فهى تعرف مقدما أنها تعيش فى مدينة يسمونها أم العجب نسبة الى ما فيها من أعاجيب لاتنتهى · لهذا فقد انتقلت الى الحديث عن الحفل مباشرة كأن مفاجأة كهذه لم تحدث · أعطاها مزيدا من التفاصيل عن الحفل · ثم أضاف باسما كعادته انه نظرا لكونها ستغنى فى الحفل مجانا فقد رأى أن يعوضها من ناحية مقابلة · قالت : كيف ؟ · قال أنها عند انتهاء وصلتها تقابل جماعة من العرب بعضهم غزاوى وآخر بيروتى وثالث عمانى ورابع ألمانى ، سيصعدون اليها فى كواليس المسرح ويوقعون معها عقودا وهمية على حفلات تقيمها فى عدد من البلدان ثم تقبض منهم المبالغ المتفق عليها معهم ، وعليها ان تورد هذه المبالغ اليه بعد عودتها من الحفل ليعطيها نصيبها من العمولة ، قالت :

ألست سأغنى ؟ قال : « لا ·· هى ثمن أشياء بعتها لهم » · ثم أضاف : « ومن يدرى ؟ ربما أقاموا لك حفلات تغنين فيها بالفعل وحينئذ تحصلين على أجرك ·· والآن ــ ثم نهض واقفا ــ استأذنك فى أن أترك عندك أمانة لمدة يوم واحد حيث يمر أحد رجالى لاستلامها ·· لا شأن لك بها ·· سنضعها فى حجرة عليوه » ·

خفق قلبها · سألت متوجسة : « أمانة ؟ » · صاح : « لا تخافى ·· هى ليست مخدرات ·· انها ·· انها بضائع ·· سلع ·· تعالى وأمرى عليوه بفتح حجرته » · ثم جذبها من يدها الى الخلاء فى الحديقة فصاحت : عليوه · فجاء عليوه يجرى فقالت له : افتح الحجرة التى نخزن فيها الكراكيب القديمة · فانطلق يجرى خلف الفيلا حيث فتح الحجرة فى البدروم أضاءها فظهرت الكراكيب والكراسى القديمة وظهر الغبار وظهرت الرطوبة · ودخل « عطاطس » وخلفه رجل يحمل على ظهره صندوقا من الخشب الابلكاش الكبير مبرشم من جميع النواحى · ساعده عليوه فى وضعه وراح يعوله فى ركنة مناسبة فما أن فرغ حتى دخل الشيال بصندوق ثان ، ثم ثالث ثم رابع ، وكانت « رشا » تتابع ذلك فى ذهول ، فما ان شرعت تسأل كيف تم نقل هذه الصناديق سمعت مارش سيارة نصف نقل ثم رأت ظلالها تمرق الى بعيد · حينئذ جاورت عطاطس وهمست فى اذنه متوجسة : « ايه البضائع دى بالضبط ؟ » · قال المعلم عطاطس بكل بساطة انها مجموعة من الأسلحة لا تزيد عن ثلاثة أو أربعة آلاف قطعة ما بين مسدس وبندقية ورشاش تسوقها سيادته من صعيد الوادى بشق النفس وغالى الاثمان · قالت له : أهذه هى الصفقة التى سأقبض ثمنها فى الحفل اذن ؟ · قال نعم · ثم سلم عليها وانصرف مسرعا ·

تركها واقفة على سلم الشرفة شاردة خائفة خوفا يشوبه بعض لذة · وكانت ناقمة فى سرها على ناس مجهولين لا تعرف من هم بالضبط · وكان عليوه قد عاد ودخل حجرته المواجهة للشرفة تماما وأضاءها ففوجئت «رشا» انها أمام متحف شعبى طريف جدا وبهيج ، صور لزميلاتها وزملائها من

الفنانين منزوعة من المجلات الملونة وملتصقة بالحوائط كلها فى تنسيق بديع ، ورف للراديو وآخر لأدوات الحلاقة وبعض البراويز المذهبة لصور افراد أسرته ·

ــ ٤٨ ــ

وكانت ساعة الحائط الذهبية تعزف لعقاربها التى راحت ببطء وصعوبة تتسلق جدران الليل الموحش الكئيب ، وفرقة ثلاثى أضواء المسرح تتراقص على دق الطبل قائلة : « دكتور الحقنى المغص جوه فى بطنى ·· أغلقت التليفزيون فى عصبية وتمددت ، فرن جرس التليفون فرفعت السماعة فى سأم : آلو · فجاءها صوت رقيق مؤدب » هاللو رشا هانم ·· تسمحى لى بزيارة حضرتك خمس دقايق ؟ ·· أنا « أحمد سليم » مدير مكتب مصطفى بك عصمت ·· أحنا لاتنين رتبة واحدة بس هو صاحب المكتب وأنا مديره هاها ها ·· حاكون شاكر قوى لو حضرتك سمحتى بالمقابلة ·· الليلة ضرورى » · وافقت على الزيارة وانتظرته بقلق شديد ··

نفس الطابع كأنهم جميعا يصبون فى قالب واحد ، كل ما هنالك من اختلاف بينه وبين الآخرين ان اسمه « أحمد سليم » أهلا وسهلا · شرب الكوكاكولا ثم تلكأ حتى شرب قهوة ثم تلكأ حتى شرب كأسا من الويسكى ، والكأس يجر أخيه ، وأخوه يجلب المزة ، والمزة تستدر العشاء · وهكذا سهر « أحمد سليم » سهرة خاطفة انتعش فيها وتعرف على نوع الويسكى وكم ثمنه فى داخل المطار وخارجه وكيف يغشونه وكيف وكيف · كل ذلك ولم يعترف بهدفه من الزيارة المفاجئة ، فلما استحثته على ذلك اخبرها بشىء كثير وغريب من التشفى ان أمورا خطيرة قد وقعت فى الساعات القليلة الماضية · ثم رفع بصره واستقر به على صورة عبد الناصر داخل البرواز الذهبى الأنيق فارتسم على وجهه شعور كبير بالتقدير يشوبه

شعور كبير بالخوف الغامض · أحست رشا بذلك فابتسمت قائلة : « ما الأمر بالضبط ؟ » · قال لها ان مصطفى بك عصمت وقع فى الرئاسة واختلت الموازين فجأة بين كافة الأصدقاء والأولياء فتفرقت السبل وحدث ما لم يكن يتوقعه أحد ، اذ يجلس مصطفى بك عصمت الآن فى منزله لا حول ولا طول بعد أن نزعت منه المسئولية · تنهدت رشا واستعاذت بالله من شر النفوس، وسألت أحمد سليم لماذا يقول لها هذا ؟ · قال : « ظننت انك تمتين اليه بصلة قربى فأردت أن أنبهك لتخذى جانب الحيطة والحذر ، فانهم لا يعرفون الله فى هذه المسألة · قالت له انها لم تكن تمت اليه بصلة · قال بخبث : ولا تورطت معه فى شىء ؟ ·

وجدت نفسها مضطرة الى أن تحكى له كل شىء عن المهمة التى ساعدت بها مصطفى عصمت · حينئذ هز رأسه فى أسف مصطنع قال انه من طينة مختلفة عن طينة هؤلاء الذين سيطروا على كل شىء بدون وجه حق ، وانه لهذا ــ جار عليه الزمن فمصيره مدير مكتب لأحد زملائه السابقين الذين كانوا فى الواقع أقل منه نبوغا ، وانه ــ لهذا أيضا ــ يشفق على الناس من ظلمهم البين الصارخ ، ولولا وجود أمثاله فى مركز كمركزه لما نجا أحد على الاطلاق من الأبرياء وأنه ــ لهذا كذلك ــ أشفق عليها وعلى سمعتها وعلى مستقبلها مما يخبىء لها المستقبل ، ولما كان من المعجبين بصوتها فقد جاء يعرض خدماته ، ثم اختتم حديثه النشوان المتناثر مؤكدا لها انها لا يجب أن تخشى شيئا أو تقلق من شىء طالما هو يعيش على ظهر الأرض · ثم سألها : : ألم يحدث لك استدعاءات كذا وكذا ؟ قالت نعم ، قال سوف لن تتكرر أبدا ، ولك مطلق الحرية فى أن تعيشين حياتك طولا وعرضـــا ·

كانت تظن انها طرطشة النشوة بفعل الويسـكى الجيد ، فاذا به يصدق فى وعوده ، واذا بها تعيش أسابيع فى راحة بال تخلو تماما من القلق · لهذا ألقت اليه بحبل الود متصلا ، فكان يزورها بين ليلة وأخرى

ويقدم لها الخدمات والتسهيلات فى كل مكان ، وكان مجرد ظهوره معها فى بعض الأماكن يفتح أمامها أبواب الرزق بلا حساب ·

وجدت نفسها تعيش معه أطول فترة ممكنة ، ووجدت انه وقد عرف الكثير من دخائلها وأسرارها · وشبت العواطف بينهما شيئا فشيئا حتى اذا ما اشتعلت تماما قرر الاثنان استدعاء المأذون بدون وعى · ولم تكن رشا لتدرى انها قد وقعت ابتعادها عن ساحة الفن تماما والى الأبد ·

ـ ٤٩ ـ

لا تدرى ان كانت الزوابع تقتحمها لتريها كيف تعصف بالآخرين أم ان زوجها اللواء « أحمد سليم » هو الذى دأب على نقل ما يحدث اليها أولا بأول . فعلنا كذا ، فرضنا الحراسة على فلان وذهبنا ووضعنا يدنا بالفعل على أمواله وثروته ، قبضنا على فلانة ورحلنا فلانة الى دولتها الشقيقة ، التحقيق يدور مع الكاتب فلان والممثل فلان المومس فلانة لأنهم كشفوا عن تنظيم سرى يمثلونه · كل ما تدريه رشا أن الواقع كان قد اختلط بالأساطير، هى لم تكن تعرف هذه الكلمة لكنها كانت تعرف ان الحواديث التى استمعت اليها كلها لم تكن تخريفا من خلق خيال البشر ولم تكن خيالا أبدا ، فها هى ذى نفسها قد طوردت من قريتها بلا ذنب وألقى بها فى قلب المولد فاذا بها تصبح من أثرياء البلاد المعدودين ومع ألمع نجومها المعدودين وتجالس وتؤاخى وتتزوج حكامها وثوارها الأشاوس ، هى ليست بدعا فى ذلك ، هى ليست البطلة الوحيدة فى حواديث هذا الواقع ، فثمة ممثلة سينمائية صاعدة تزوجها أحد كبار قادة الثورة ، وثمة مطربة كبيرة لها علاقات بغيره يعرفها الناس من أقصى البلاد الى أقصاها وثمة ممثلة مسرحية ضربت الرقم القياسى فى الصعود الى القمة ، هذا ما يردده الناس فى الشوارع ولابد ان ما خفى يكون أعظم بكل تأكيد ·

فرغ سوق المطربين والمغنيين تماما وخلا للمهرجين والمتزحلقين على الجليد فى سخف · مطربة شامية رحلت وبيعت شقتها ، مطرب شامى يهرب المخدرات ويتمكن من الهرب · رشا اكتفت بثروتها وحمدت الله على ما زرق ، والغناء ·· على خفيف كما طلب زوجها « أحمد سليم » قالت : « يعنى حفلة ولا حفلتين فى الشهر » · قال : ؟ نعم لا بأس » · فلما جاءت الحفلات السرية كانت رشا تقتاد الى الحفل مخفورة بالحرس وتعود منه مخفورة بالحرس ، أحبت هذه المسألة فى بادى الأمر ولكنها سرعان ما تأففت وتململت وأعلنت ضجرها ، خاصة ان الجمهور — كما بدا لها فى ذلك الوقت — كان قد مل هذا النوع من الغناء وباتت هى فى حاجة الى مسايرة ذوقه بأغان جديدة وألحان جديدة كما يفعل البعض من المتربعين · ولكن زوجها · أحمد سليم كان يريدها كما هى امرأة فحسب امرأة سرير على وجه التحديد لا أزيد ولا أقل ، ان هاتين العينين السميرتين — فيما شرع يقول لها — لا يجب أن يكون لهما مسامرا آخر سواه ، وهذا الجسد حرام أن تتطاول عليه النظرات · وكان مصليا محترفا تقريبا ، كان حرفته الأصلية هى الصلاة والعمل شىء ثانوى ، وفى البداية كانت تحب فيه ذلك وتقدره حق قدره لكنها فوجئت بأنها كلما تعمقت المناقشة بينهما حول أمر من الأمور الجوهرية أو حول أزمة من الأزمات أجهز هو على كل شىء وشرع يقيم الصلاة ، وهكذا كم ضاعت أمور وحقائق ومصارحات وأشياء لاتجيد التعبير عنها ··

مع ذلك كان حيوانا جنسيا لا يشق له غبار · كان شيئا مروعا لم تسمع بمثله من قبل أبدا ، كانما دوره الوحيد فى الوجود هو المضاجعة ليل نهار دون توقف الا للحظات ضرورية ، حتى أجهدها تماما فى أشهر قليلة فأصابها أعياء وصداع متواصلين ذهبت بسببهما الى أكثر من طبيب مشهور أجمعوا على ان الاجهاد ليس من هذه الناحية بل من ضغوط نفسية قوية ، عرفتها هى فيما بعد ، حين كان يظل طول الليل يكشف لها عن أسرار يقشعر منها البدن ، ليس فى الدنيا شىء لا علم له به والعياذ

بالله · وكان جسمها يغوص فى نفسه وتفيض الدماء فى وجهها كلما أمعن فى الحكى عن أسرار البلاد والناس وما يفعلونه فى الخفاء حيث كانت قد باتت تتوقع أن يخوض فى ماضيها هى الذى من المؤكد انه يعرفه ·

كان بالغ القسوة ، يقطف الوردة وقبل أن يعلقها فى عروته يفعصها بكفه فيحولها الى هشيم ، ذابل · هكذا كانت تتصور نفسها فى أعماق الليالى ، حيث تكون قد فقدت كل رغبة فى الجنس بل وكرهت وجودها وصارت مجرد خرقة كالشاة لا يفيد سلخها بعد ذبحها ، حتى الآن لم تجد تفسيرا لهذه العادة الحيوانية ، أن يقبل عليها ليتناولها بعد أن تكون قد أصبحت جثة هامدة ، كيف كان يجد شيئا من المتعة ؟ ··

لاتنسى ليلة القميص الأسود ، ذلك الذى غواه فاشتراه لها من حر ماله والبسها اياه ، ولما نظرت نفسها فى المرآة وجدت نفسها غزالا أسود البطن والكتفين أما الوجه والذراعين فعاج مبهر · وكانت قد أرغمته — لكى تلبسه بنفس — على الموافقة بأن تشرب كأسا من الويسكى · وكانت واضعة ساقا على ساق أمام مرآة التسريحة فى يدها الكأس الخامس عشر وعل السرير يتمدد زوجها بساقيه الرفيعتين كأرجل الماعز وكرشه وثدييه البارزين ، وكان يضغط ساقيه فى بعضها بعصبية فى انتظار أن تفرغ هى من شرودها أما هى فكانت في دوامة شديدة العنف صنعتها كلمة قالها عفوا : « رأيت اليوم اسمك فى كشوف الحراسات ·· وبحثت فوجدت عشرات من التقارير فى غير صالحك » · ظنته يمزح فضحكت ، لكنه بكل وجه جاد وصارم كرر الخبر ، فبرقت فى خيالها فكرة شريرة توعز اليها بأنه يسعى لغرض ، لكنه انفرط نائما فوق السرير كالواقع فى خطر حقيقى · سألته بجد وخوف : « وما العمل ؟ » · فسألها بجد وخوف هو الآخر : « ما العمل بالنسبة لى أنا ·· كل خوفى الآن اننى قد صرت فى مواجهة الريح ·· يبدو ان الأمر ليس حراسة فقط بل يبدو أن ثمة تحقيقات واتهامات و ·· و ·· و ·· وربما اعتقالات » · ثم انه — وبكل بساطة — جلس

فاكل كالعادة حتى تكورت بطنه وتجشأ كطائرة نفاثة · الأدهى من كل ذلك انه ينتظر أن تقوم اليه وتواقعه ·

بعدها لم يهدأ خاطرها ولا استقر · لقد فوجئت به فى خوف حقيقى حتى لقد هزل جسمه وبرزت عضلات وجهه واختفى كرشه وانصدت نفسه عن كل شىء فجأة · أشفقت عليه وأحست انها تتحمل مسئوليته حيث انه كان دائم الترديد عفوا : « لست أعرف ما الذى أخذوه عليك فى تقاريرهم ·· انهم جميعا وهم زملاء يرفضون اطلاعى على أى شىء ·· الغدر فى عيونهم ومن الواضح أن وراءك قصصا وقصصا » فكانت تعجز عن الرد ، فيستدرك قائلا : « هناك من يهمس فى أذنى بأنك كنت على صلات واسعة جدا وعلاقات عميقة ، وان اشارة منك توظف شخصا أو تفصله وانك كنت تقومين بتعين هذه السلطات وتقبضين أجرها غاليا والا ما تكونت هذه الثروة من الغناء وحده ، وانك متهمة باساءة استخدام العلاقات والمتاجرة بأسماء مسئولين كبار ·· الخ » · يقول ذلك وهو يكاد يبكى والدموع فى عينيه · من فرط الشعور بالاشفاق والمأساة قالت له : « اسمع يا أحمد ·· اذا كنت خايف من ارتباطى بيك طلقنى ·· ولى رب اسمه الكريم ·· الحمد لله اننا لا عيل ولا تيل ·· من حسن حظك ما باخلفش » · عند ذلك انتفض واقفا كأنها قد طعنته فى شرفه ، صاح بكل شهامة : « أطلقك ؟ ·· ازاى ·· والله لو حطولى الدنيا فى كفة وانتى فى كفة ، ما أطلقك أبدا ·· ده حب مش لعب عيال ·· وأنا مستعد لأى تضحية فى سبيلك ·· انتى فاكرانى من اياهم ولا ايه ·· لا يا هانم دانا راجل قوى ··دانا فلاح صعيدى أفدى صديقى بروحى ·· فما بالك بالحبيب ؟ » فوقعت فى متاهة · وسألت وما العمل ؟ · قال ان قرار الحراسة قد صدر بالفعل وانه بحكم مركزه بين زملائه استطاع ـ فقط ـ أن يحملهم على تأجيل التنفيذ لساعات قليلة لعل وعسى ·

سقطت مغشيا عليها · انقطعت الصلة بينها وبين الحياة لمدة توشك ان تكون دهرا ، لكنها حين أفاقت من تلك الغيبوبة وجدت نفسها ممددة

فوق السرير ووجدت فوق بلاطها أثار لهاث جنس حقير فاشمأزت ولكن الكارثة عادت فدهمتها من جديد · فتأوهت بحرارة ، فزحف هو من المطبخ عادما يحمل كوبا من الشاى الأسود يغب منه بشراهة ، وضعه على الكوميدينو وانحط جالسا يقول : « سلامتك يا حبيبتى » · نظرت له مهمومة تردد : « وبعدين يا أحمد ؟ » · قال بعد تفكير قليل : « مالكيش قرايب يعزو عليكى ؟ » · قالت : (لم ؟) · قال « الحل الوحيد اللى حاقدر أقدمه انك تكتبى كل ممتلكاتك باسم واحد قريبك ، بتاريخ قديم ، تيجى الحراسة تحرس ماتلاقيش » · تنهدت قائلة : « ماليش حد فى الدنيا غير ربنا وانت » · قال : « ونعم بالله » ·· تكتبى باسمى ؟ « أنا موافق » · نظرت فيه قائلة : « تفتكر ؟ » · قال : « اذا كنتى بتثقى فى » · قالت : « ربنا يعلم » · قال : « اسألينى أنا عن الحراسة وشئون الحراسة واللى بيحصل من تحت رأس الحراسة ·· مافيش حاجة تتحط تحت الحراسة وتنفع بعد كده ، لازم يخيب أملها ·· و ·· » · فقاطعته قائلة بكل صدق وبراءة « على كل حال اللى عندك أحسن من اللى عندهم ·· أنا حاكتب لك كل شىء عندى وحاعتبر انى عينتك حارس عليها ·· عزنها حراسة عائلية منتا فينا ·· زيتنا فى دقيقنا » · تجاهل معنى هذه السخرية العميقة وقال : « خلاص ·· مفيش وقت ·· اكتبى لى عقد بيع وشراء بتاريخ قديم ·· أهو مجرد ورقة تبقى فى أيدينا يمكن نقدر ننفذ بيها الثروة ·· وخلى بالك ان الحراسة مادام اتوضعت يبقى الأمل فى رفع الحراسة ضعيف ·· مش جايز تتأمم ؟ ·· يلا يلا نروح للمحامى يكتب لنا العقد » ·

وكانت لاتزال تتلكأ فى النزول معه الى المحامى . حتى اضطر الى فقد أعصابه فأخرج لها القرار من جيبه ودفع به فى وجهها قائلا : « جايز تكونى مش مصدقة ·· أدى صورة القرار » · فقرأتها بلهفة وكادت تقع مغشيا عليها للمرة الثانية ولكنه أسندها وراح يقرأ القرآن فى سرعة ولهوجة ·

مر بها على ادارة الحراسات وطلب مقابلة ناس فلما قابلوه راحو يبدون أسفهم على صدور القرار ويوصون الهانم بالصبر · فقال لهم فى

نبرة انتصار عالية ان الهانم اتضح انها لاتملك شيئا اذ كانت قد باعت ما تملك منذ وقت طويل . ثم انه أخذها وانطلق الى المحامى ، الذى أعد لهما عقدا محكما لا يخر الماء من بين بنوده . فلما وقعت على العقد وانتهى كل شيء استدرك المحامى فتقدم لهما بنصيحة ضرورية حتى تنجو هذه الثروة حقا من براثن الحراسة ، قالا معا : « ما هى ؟ » . قال المحامى : « الطلاق » . صرخ كلاهما : « الطلاق ؟ » . رد المحامى فى هدوء فولاذى : « وما المزعج فى هذا ؟ .. انه طلاق صورى .. فسخ أوراق لا أزيد ولا أقل .. وبما ان أحمد بك رجل مؤمن يخاف على سمعته عند الله فليصبر على الطلاق الجنسى بعض الوقت . أى انه طلاق مؤقت حتى تنجلى الأمور فتعود المياه الى مجاريها » . غرقت هى فى ذهولها أما هو فصار يقف ويقعد ويصيح : « كيف .. لا .. لا أطيق البعد عن رشا ولو لساعة واحدة .. طلاق ؟ .. لا ياعم .. هات عقد البيع . فلتأخذ الحراسة كل شيء وتبقى زوجتى أرى حضنها كل ليلة .. لا لا أنا لا أوافق على هذا المقترح القاسى » . وهكذا راح المحامى يتحايل عليه ويرجوه أن يتعقل وأن يضحى وأن يتحمل فى سبيل نجاح المشروع فانهم ليسوا يلعبون انما هم يقومون بتهريب ثروة لبعض الوقت من وراء ظهر الحكومة . وأخذ المحامى يستميل رشا فى صفه ويقنعها ويحسدها على حب زوجها لها الى أن انضمت اليه فأخذت ترجو زوجها أن يوافق على فكرة الطلاق وهو مؤقت . فى النهاية وافق على مضض . وجيء بالمأذون فطلقها طلقة بائنة وخرج محملا بالنقود والهدايا ..

ليلتها عادت الى البيت فوجدت نفسها ـ برغمها ـ ترتدى القميص الأسود ثم فوجئت بطرق على الأبواب ، فنهض زوجها أحمد سليم وخرج الى الشرفة فتسللت خلفه من وراء ستار فرأت مجموعة من الضباط والعساكر يقفون الى بعيد وأحدهم يقف فى مواجهة زوجها الذى راح يقول فى لهجة رسمية حاسمة : « يا حضرة الضابط أنا قلت لسعادتك رشا الخضرى مش هنا .. طلقتها .. وأدى وثيقة الطلاق » . ثم اختفى قليلا

وعاد حاملا وثيقة الطلاق فقرأها الضابط ثم قال : « بس الفيلا دى أصلا باعتها .. ملكها » . فصاح زوجها باسما فى سخرية : « لا ده كان زمان .. الفيلا دلوقت ملكى أنا .. تحب سيادتك تشوف وثيقة البيع مفيش مانع بس يعنى حضرتك لازم تقدر الظروف عشان ما ندخلش بيوت ناس ونقعد نفتش ونبهدل فى أهلها بذنب ناس تانيين .. رشا الخضرى مطلقا .. واذا كنتوا عايزينها فى حاجة أنا أجيبها لكم .. حاتصل بيها وأخليها تيجى تقابلكم .. فى حدود يوم ولا يومين بالكثير » . فرضى الضابط بهذا الكلام وحياه شاكرا ثم انصرف .

فلما انفردت بزوجها قال لها ان هؤلاء ليسوا تبع الحراسة انما هم زوار الليل ومعنى قدومهم للسؤال عنها مطلوبة للتحقيق فى أمور جد خطيرة قد تستغرق أياما . ثم أضاف بأنه أنكر وجودها الآن لكى تذهب هى اليهم معززة مكرمة بدلا من ذهابها فى عربتهم كالمتهمة العادية ، ثم ليعطى نفسه فرصة التوصية عليها بين المحققين حتى لا يرهقونها بالأسئلة .

السيارة المرسيدس هى الأخرى لم تعد ملكا لها ، فلقد وقعت على عشرات الأوراق ولا تعرف هذه الورقة من تلك . وفى الصباح كان عليوه ـ الذى أصبح يتلقى أوامره من سيده الجديد ـ قد فتح غرفة المرسيدس ونظفها ولمعها . وهبطت رشا مرتدية البالطو والفراء وغطاء للراس من القطيفة الثمينة وترتدى كذلك معظم حليها ، وفوق عينيها نظارة سوداء . حودت الى الغرفة كالعادة ودلفت الى المرسيدس فأدارتها وأشعلت سيجارة امريكانية وراحت تنفث الدخان فى سأم وقد امتلأ الفراغ أمامها بضباب كثير غامض وامتلأت نفسها بهموم ثقيلة غامضة ، وسخنت السيارة بما فيه الكفاية ، ولكنها كانت تحس برعشة فى ساقيها وتتمهل فى الطلوع بالسيارة كأنها ستنفذ من جاذبية الأرض الى الخلاء المجهول الشرس .

زحفت السيارة خارجة من غرفتها ثم حودت فوق الزلط الى الباب الواجه . لكن السيارة أوقفت زحفها فجأة اذ انشقت الأرض عن أفندى

متين البنيان نصف أنيق ونصف مهذب يشير بأصبعه آمرا السـيارة بالتوقف • ثم مال نحو الشباك : « رشا هانم •• ضيوف بره منتظرين سعادتك » • نظرت فيه بأنفه واشمئناط : « مين سيادتك ؟ » • تجاهل ذلك ببرود : « أنا •• أنا الخدام بتاعهم •• قالو لى انده لسعادتك » • أدركت على الفور ، ثم فكرت نفخت من الغيظ ، ثم نزلت وهبدت الباب وراءها ، ثم تقدمته خارجة فرأت سيارة كبيرة تقف الى بعيد وبداخلها رجال • ونزل أحدهم واستقبلها باسما : « أهلا رشا هانم •• اتفضلى » • ثم فتح باب السيارة المجاور له • قالت : « الى أين ؟ » • قال باسما : « كلمتين صغيرتين وترجعى » • دارت بها الأرض ، تذكرت عنتر كبايه وعبد القوى بك وغيرهما ، تذكرت المعلم عطاطس ذا الوجهين ، تذكرت مدراء مكاتب كبار القادة والمسئولين تذكرت عصمت بك وأحمد سليم وتذكرت طفولتها البعيدة وحين صفقت الباب بعد ركوبها سيارة الشرطة أيقنت انها هى الأخرى •• لن تعود ••

ـ ٥٠ ـ

أشهورا كانت أم دهورا ؟ والله انها لا تدرى ، غير أنها لن تنساها مطلقا • منذ دخلت بها سيارة الشرطة ذلك المكان البعيد جدا فى حدائق اللبؤة ثم عادت بها فى المساء وسط كتل الظلام فى سيارة مغلقة الى مكان ما عالى النوافذ ، مجرد حجرة بها سرير رخيص • فوق هذا السرير وفى هذه الحجرة عاشت أسود أيام حياتها على الاطلاق ، تظل طول الليل تبكى وتصرخ وتدق الباب والجدران والأرض بقدميها وتمزق فى نفسها بأظافرها ، ولما انفتح الباب قليلا اندفعت الى الخارج صارخة صـائحة مطالبة بمعرفة تهمتها على وجه التحديد ولماذا هى هنا • كل بضعة أيام يحضر لها أحدهم ويلقى عليها بسخفة فى هيئة أسئلة لا حصر لها عن أشياء لا حصر لها لا تعرف عنها أى شىء ، عن أناس تسمع أسماءهم لأول

مرة ، عن أماكن لم تسمع بها طول حياتها ، عن وقائع وأشياء لم ترد فى كتاب حياتها ، العجيب انهم لم يسألوها مطلقا عن مسائل تخص التهريب او الاتجار فى المخدرات وكانت تظن ان هذه هى التهم الرئيسية ولكنها اكتشفت ان التهم أشكال وأنواع منها ما يمكن ان يكون كلاما غير مفهوم ولا معقول بالمرة •

فى سبيل ان يعرفوا منها أشياء لاتعرف ما هى أوصلوها الى حافة الجنون خدشوا مكنون سرها فاندفعت تنتقم بشراسة ووحشية تضرب أى احد فى مواجهتها بأى شىء تطاله يدها ، حتى عرضتهم لفضائح واسعة ، فنقلوها الى المستشفى • وحين هدأت أعصابها قليلا طلبت ان تكلم أحد افراد أسرتها • جاءوها بالتليفون سرا فطلبت نمرة بيتها فى الحواوشى فظلت السماعة ترن فى دوى متصل ، حتى يئست فتنازلت عن هذا الطلب مرة أخرى • ثم بعثت فى طلب زوجها ـ تقصد طليقها أحمد سليم فجاءتها من مكان عمله ـ ومع مخصوص على حسابها ـ أغرب مفاجأة يمكن ان تتوقعها ، حيث اتضح لها ان زوجها المحترم كان قد سرح من عمله قبل ان يتزوجها بشهور طويلة !!

لم يعد لها ملاذ سوى البكاء الغزير الساخن • فلما ذبلت العينين وانطفأ الجمال فيهما اكتشفت ملاذا أعظم هو الصلاة •• فظلت تشغل وقتها ليل نهار مصلية متهجدة رافعة كفيها الى السماء ضارعة •

فاجأها الراديو ذات مغربية مشئومة بخبر موت الزعيم وبعدها انشرخ الجو وانشقت الأرض وتزلزلت الجدران • وبكى وادى الأزرق بكاء لا يذرفه الا نهر كنهر النيل على زعيم كعبد الناصر أو سعد زغلول • وادى الأزرق مثل وادى النيل مثل وادى حلفا مثل وادى الأردن ولذلك بكى بنو الأزرق كأنهم كل هؤلاء • وظل البكاء والعويل يملأ سماء المنطقة أياما وينقله الراديو مشبعا بالكآبة والمأساة السوداء • الى أن جاء يوم استلانت فيـه الجدران كوجوه السجانين •

شكرت الله ان سائق الأجرة لم يتعرف عليها ، ثم استرقت نظرة الى مرآة السيارة فوجدت أمامها وجها لا تكاد تعرفه ولا يمت لها بأى سبب . ولم يكن قد بقى فى حقيبتها حلى أو نقود بل لم يكن قد بقى لها حقيبة من الأصل ، وهى فى الواقع ليست متأكدة مما اذا كانت قد تركت حقيبتها فى السيارة المرسيدس ساعة نزلت لتقابل أولئك الذين أسروها أم انها سلمتها فى الأمانات وادعوا انهم لم يتسلموا شيئا ؟ . الظلم حرام وهى ليست متأكدة .

عند فيلا رشا بالحواوشى توقفت السيارة الأجرة ونزلت رشا قائلة للسائق : « لحظة واحدة » . فقال السائق : « عايزة رشا الخضرى ؟ .. أظنها باعت الفيلا من زمان » . فاستدارت اليه كانها لا تعرف ، وبقلب مشقوق من الألم صاحت : « صحيح . وهى فين عنوانها ما تعرفش ؟ » . قال السائق : « الحقيقة ما أعرفش .. انتى قلتى لى فيلا رشا .. لو قلتى انك عايزة رشا نفسها كنت قلت لك .. لكن والله ما أعرف عنها أى حاجة .. ربنا يعلم » . كادت تبتسم وتكشف عن هذه اللعبة السخيفة ، لكنها قالت : « طب خمسة بس وحارجع تانى يمكن تودينى مشوار » . وسربت يدها من خصاص باب الفيلا ففتحته وصارت الكلاب تنبح فى استقبالها بسرور حقيقى . ما كادت تصعد سلم الشرفة حتى انفتح الباب وخرج لها شاب رفيع وظهر خلفه فى الصالة أم متهتكة وثلاث بنات عرائس وطفلين وخادمة . شعرت بتقزز . قال الشاب : عايزه مين حضرتك ؟ . قالت : مش ده .. منزل .. مدام رشا .. قصدى الأستاذ أحمد سليم ؟ . قال الشاب : لا يا أفندم .. لا ده ولا ده .. أى خدمة ثانية ؟ . أحست ان شررا يتطاير من عينها . قالت : غريبة . زحفت نحوها الأم كأنها تريد معالجة الموقف بشكل أحسن قائلة : حضرتك مين ياست هانم ؟ . قالت : أنا مدام رشا الخضرى . قالت السيدة كأنها لا تعرفها على الاطلاق : أهلا

وسهلا بيكى ياختى عايزه مين حضرتك ؟ » . قالت رشا وهى تسند قلبها وتبحث عن ريقها : « امال فين الأستاذ أحمد سليم .. ده بيتى .. وهو ز .. » . قاطعتها السيدة : « انتى بقى صاحبة البيت اللى اشتراه منك ؟ .. على العموم أنا الست بتاعته أم الأولاد » — وأشارت الى الأولاد حولها . ثم أضافت هامسة فى اذنها : « هو بصراحة ماهش هنا .. مسافر بلاد بره بقى له كام شهر » . قالت رشا محاولة ايقاف دموعها : « بيعمل ايه فى بلاد بره ؟ » . قالت السيدة : « الله أعلم يا اختى .. يوم ما سافر قال لنامشوار صغير وراجع بعد اسبوع .. فات ييجى عشر ميت اسبوع وماجاش .. والآخر سمعنا انه مش ناوى يرجع خالص .. أصله يا أختى زى ما بتقولى واقع مع النظام والرياسة » . قالت رشا باكية : « وما بيتصلش بيكم » . قالت السيدة : « أبدا .. احنا كمان سبناه على راحته .. الحمد لله ربنا غانينا عنه .. ماتتفضلى ياختى نعمل لك فنجان قهوة ؟ » . قالت رشا من خلال عضه : متشكرة خالص . ثم نزلت تجر ساقيها ..

رجت السائق أن يوصلها الى ميدان الجامع الأزرقى حيث توجد شقتها القديمة فى رعاية أم جابر ، الشىء الوحيد الذى أخفته عن زوجها هو هذه الشقة ولم تكن تفتحها الا لتخزين شىء هام أو للافراج عن شىء هام . خيرا فعلت حين استجابت لنصيحة المعلم عطاطس وأم جابر وغيرهما بعدم تفكيرها فى بيع الشقة فالأيام غير مضمونة ، هاهى الحكمة تتحقق بالفعل . وها هى ذى تطرق باب نافذة غرفة أم جابر المطلة على الحارة وكانت تظن انهالن تجدها وأنها لابد ان تكون قد فنيت فى الطوفان أو جرفتها رياح التغيير التى هبت على كل شىء فغيرت حتى معالم النفوس وجعلت الناس تفقد حياءها تتأجج وتتصافق وتستعد للخناق دونما سبب معلوم .. ولكن ، وكالعادة جاءها صوت أم جابر متحشرجا منسلتا من فوق الحصير عبر عشرات الكراكيب : « مين » . قالت رشا « أنا رشا » . صاحت ام جابر : « رشا ؟ » . قالت رشا : « ايوه — البتعه » . قالت

أم جابر من قلب كليم : « قلب أمك ·· جيتى يا اختى ؟ » ثم فتحت النافذة وتطلعت فىّ وجهها ، ثم اختفت وفتحت الباب وخرجت تحتضنها وتبكى · قالت رشا وهى تربت عليها فى حنان كبير : « هاتى مفتاح الشقة » ــ دخلت أم جابر وعادت فأغلقت باب غرفتها وتقدمتها صائحة : « تعالى يا اختى » ثم وصلت الى الشقة ففتحتها وصارت تنظفها · لكن رشا ما ان دخلت ووجدت كل شىء على ما هو عليه دون خدش دفعت بنفسها الى غرفة النوم وارتمت على سريرها القديم وشرعت تبكى بحرقة لكنها كانت تحس براحة عظيمة تتمشى فى أوصالها ، فها هى ذى فى النهاية تجد لنفسها ملاذا يثبت ان الله لايزال معها ·

ــ ٥٢ ــ

شىء عجيب · كأنما عادت الى قوقعتها الأصيلة ، كأنها كانت شريدة طوال السنوات الماضية وعادت أخيرا الى شاطىء الأمان · هذا السرير الذى لايصح أن يقارن بسرير فيلا الحواوشى ، وهذه السجاجيد دبرت ثمنها بشق النفس وحتى هذه الجدران نفسها كل ذلك بدا لها رشيقا دقيقا متصاعدا الى أعلى بقناة تشق الظهر فاصلة بين ضلعى لنفسها : « شكرا لك يارب ·· لقد أعطيتنى الدرس وقد وعيته ·· أنا فى هذه اللحظة يارب قد فهمت لماذا فعلت بى هكذا فى هذه المحنة الثقيلة ·· نعم عرفت السبب وأنت محق تماما فيما فعلت بى ·· فهذا طريق ما كان يجب ان ادخله من الأساس ·· لكنه الشيطان ·· زين لها كل شىء وقادها مخمورة فى طريق خلاب أفاقت منه وقد خسرت كل شىء ·· هذه البنت التعيسة يارب هى أنا ·· وانت يارب قد أكرمتها وحفظت لها ملاذا تبيت فيه يستر عرضها من الوحوش السامة ·· رشا الخضرى ·· هم ·· نجمة صاعدة ·· متألقة ·· صور ·· حفلات ·· رقص ·· حكمتك يارب ان رشا الخضرى لم يعد منها الآن أى شىء ، كل صورها فى الجرائد والمجلات استهلكتها

محال الفول والطعمية والترمس التى لاتنفد وأكلتها المعيز فى خرائب العاصمة ومزابلها التى لاتحصى ، وكل أغنياتها بضع شرائط فى مكتبة الاذاعة سقطت فى حفائر النسيان منذ أفل نجمها ·· حتى باروكات الشعر والفساتين والأحذية ضاعت وانتفع بها غيرها ·· هذا الاسم يا رشا ــ القصد يابتعه ــ يجب ان يسقط هو الآخر والى الأبد ، هى واثقة ان أحدا فى اذاعة بنى الأزرق لن يذيع اسمها أو صوتها أبدا طالما هى لم تتقابل ولم تلح ولم ترسل الهدايا والمجاملات ·· رشا الخضرى اسم لمع وانطفأ وسوف تخمد ذبالته ، وشخصية التبستها لسنوات وقد خلعتها ·· من فانه قديمه تاه ·· الآن هى البتعة ·· من فضلك وحياة النبى عندك يا أم جابر ساعدينى على نسيان هذه الانسانة ·· هى لم تكن أنا ·· أنا الآن لست هى ·· هل أنا الآن أشبها ؟ انظرى هاك وجهى هل هذا الوجه الطبيعى البائس الهادىء هو وجهها الذى كان مجرد لوحة تلعب فوقها الفرش والألوان والمساحيق ليل نهار ؟ ·· لا أظن يا أم جابر ان شبها بيننا سوى العينين ، ولكن عينى سوف تعودان شيئا فشيئا الى صفائهما القديم ·· فى عرضك ·· اذا سألك أحد عن رشا الخضرى التى كنت تخدمينها من قبل فقولى لهم التى احدى قريباتها من بعيد وقد ورثت هذه الشقة أما هى فمنذ اختفت يعلم الله وحده أين مكانها » ·

وكانت كلما جرت الدماء فى وجهها واستعادت ملامحها ذلك الهدوء القديم نظرت فى وجه أم جابر باسمة وتساءلت كيف استطاعت ان تقنع الناس ان البتعة ليست هى رشا الخضرى · لكن أم جابر ابتسمت عن ظرف لطيف وقالت فيما يشبه الفحيح انها لم تقنع أحدا ولم تتكلم مع أحد فى هذا الشأن أبدا لأن أحدا لم يسألها ولم يبد على أحد انه يعرف شيئا من أى شىء !!

بل ان البتعة دهشت غاية الدهشة من ان أحدا فى الحارة أو الحى أو فى المنطقة لم يلاحظ الشبه بينها وبين رشا الخضرى المطربة المشهورة التى كانت نجمة قبل شهور ، الكل قد عاد من جديد ينظر فى عينيها

ولا يشغلهم سوى شخصية عينيها · كثيرا ما تمشت فى سوق الخضار لابسة فستان الغزل ممسكة حقيبة الخضار بيمناها ، غلبانة تعيسة منكسرة الى ان ترتفع عينيها فكأنما رفعت خنجرين ماضيين · الوحيد الذى لحظ الشبه بينها وبين المطربة رشا الخضرى هو صاحبى الملعون كحكوح ولم يكن يعرف من قبل ان « رشا الخضرى » هى « البتعة » حبيبته القديمة ، فهو لم يلتق بالمعلم عطاطس من يومها الا لماما ذلك ان رشا قد أغنته عن الاحتياج لمثل مستوى كحكوح · وكان صاحبى كحكوح ـ ويا للعجب ـ من أشد المعجبين بصوت « رشا الخضرى » وكان يروج له فى غرزته ويقرأ أخبارها وصورها ، ويقول معلقا كلما تمعن فى احدى صورها المنشورة بالألوان على نتيجة حائط أو هدية مجلة : « باقولكو بنت بلد مصفية ·· وحياة النبى جمالها ده ما تلاقيه الا فى البيوت الأصيلة ·· ثم يواصل بصوت اخنف كأنه يوحى اليك بالخنف انه يقول أشياء لا يصح التصريح بها ـ آ ·· يوه ·· دى مطربة مسنودة يا آبا ·· بيقولوا خالها فلان الفلانى عضو مجلس قيادة الثورة كان رئيس وزرا وكان وكان ·· أمال ·· بس بينى وبينك صوتها مش بطال ·· هو مش حلو قوى يعنى بس مش وحش ·· نص بلدى نص أفرنجى » · وهكذا لم يكن ليخطر على بال صاحبى كحكوح أبدا ان تكون « رشا الخضرى » هى نفسها بلحمها ودمها « البتعة » فلما رآها ذات يوم تسير فى حى « القليليه » وقف مسمرا فى مكانه جاحظ العينين لاتكاد ترى له فما أو شفتين أو خدين ، مجرد عينين صغيرتين تحت عمامة مملوكية كبيرة يشع منهما ضوء أزرق ساخر ذاهل معا · كانت فى الواقع تريد ان تتجاهله ولكن طلقة ضوء من عينيه العجيبتين فى عينها أجبرتها على الابتسام فى قليل من الحياء ، فتجرأ فى الحال واقتحمها هامسا من بين نواجذه : « ايه الصدف السعيدة دى يامره ·· كنتى فين من زمان يابت ؟ » · احمر وجهها وجاهدت طويلا لكى تتخلص من رقة النجمة اللامعة ، وكان عليها أن تعقل ذلك بسرعة ، فزغدته تحت ثديه بقوة حنونة وقالت : « اتاخر بس كده » ، ودفعته الى جوار الحائط بعيدا عن الجمهرة ثم قالت : « ازيك ياكحكوح ·· ايه أخبارك واحشنى » · قال

بهبطه ، انتى اللى فين ؟ » قالت متجوزه ·· ومحصلش نصيب كل واحد راح لحاله » ثم ابتسمت حين رأت معالم التصديق على وجه كحكوح · ثم انه قال : « ولسه فى الكار ولا ·· ثم بلهجة ذات معنى ـ هبرتى لك قرشين منه واتكلتى على الله ·· ياترى كان سعودى ولا كويتى ولا بحرينى ·· أنا شامم ريحة البترول يامره ·· هو مش باين عليكى صحيح لكن ريحته باينة » · قالت متجاهلة كل ذلك «انهو كار تقصد ؟» · قال كحكوح: « العشرة البلدى على واحدة ونص » · قالت : « لا ·· أنا نسيت الشغلة دى خالص ·· ولسة على باب الله » · قال كحكوح بجرأة من يخاطب البتعة : « ماتعمليلك دولاب كدة على الضيق زباين نضاف ·· تقطعى لك فى اليوم عشر أوقيات يكرمك الله من ورائها بمائة جنيه على الأقل » ·

رغم ان الفكرة ضربت فى رأسها كالفانوس المشتعل الا انها ابتسمت فى استنكار قائلة : « هه ·· ع العموم ربنا يسهل ·· عن اذنك » · ثم سلمت فى سرعة ومضت ·

اختلت بنفسها وقلبت الفكرة فى رأسها ، هى تريد نقودا على وجه السرعة لتعيش منها هى وأم جابر · حاولت الاتصال بالمعلم عطاطس فى بعض النمر السرية التى كانت تكلمه فيها ، فرد عليها أحدهم فى احدى النمر وطلب منها المجىء لمقابلته ، فذهبت اليه فاذا بها فى شقة محترمة فى ضاحية عريقة وأمام شاب ظل يتفرس فيها طويلا وأخيرا قال لها : « فيه ناس كتير بتسأل عن المعلم ده فى التليفون ده مع انه مش معروف أبدا خالص ·· ايه الحكاية مين هوه الاسم ده ؟ انتى أول واحد يقبل ويتفضل بالمجىء ، فارجوكى ان كنتى تعرفى حاجة عنه قوليها » ·

وكانت نظرات البتعة قد تجولت فى أنحاء الشقة فرأت صورة بالحجم الكبير فى برواز للمعلم عطاطس بذات نفسه ولكن فى لباس أنيق ، البذلة ورباط العنق على سنجة عشرة · فقالت للشاب : « تقول انك تريد ان اعرف شيئا عن المعلم عطاطس ·· واسمح لى اسألك لكى أجيبك فيما بعد

٠٠ هل تعيش فى هذه الشقة منذ مدة طويلة ؟ » ٠ قال : « لا ٠٠ منذ ان جئت لالتحق بالجامعة ٠٠ ومن قبل كانت بمثابة استراحة لخالى ٠٠ سالم بك الكردى » ٠ أشارت الى الصورة الكبيرة « اهو ذلك الذى فى هذه الصورة ؟ » ٠ قال : « نعم ٠٠ هو بعينه » ٠ تأملته طويلا ثم قالت بسخرية عميقة : « يا جماله ٠٠ ايه الابهه دى كلها » ٠ قال الشاب : « هو الآن يقيم فى باريس بصفة نهائية وان كانت هذه الشقة وغيرها لا تزال باسمه » ٠ قالت « ماذا يفعل فى باريس ٠٠ يتاجر فى الأسلحة ؟ » ٠ ضحك الشاب فضحكت هى الأخرى ، اذ ان الجرائد كانت لاتزال تنقل أخبار أحد قادة الجيش الذى هرب الى باريس من عشرات التهم وأقام هناك يتاجر فى الأسلحة ٠ قال الشاب مستدركا : « لا ٠٠ خالى صاحب شركة ملاحة بحرية ٠٠ عنده أسطول كبير فيه حوالى خمسين ستين سفينة كبيرة شغالين فى أعالى البحار ٠٠ وكان عايز السفن بتاعته تحت العلم الأزرقى وتكون عاصمتها مقره الرئيسى ، لكن الذين بيدهم الأمر وضعوا أمامه عشرات العراقيل حتى يبز بأكبر قدر ممكن من العمولات ٠٠ على انهم لا يعرفون خالى ٠٠ عمولات من خالى ؟ ٠٠ ان حياته كلها قامت على العمولات وتكونت ثرواته من العمولات فكيف به هو نفسه يدفع عمولات ؟ هو الآخر كان ابن هرمة ، بدا هو الاتفاق بأن طلب العمولات لنفسه من دولة الأزرق مقابل وضعه للعلم على سفنه » ٠

رغم المأساة وتمزق نياط القلب ضحكت البتعة مع الشاب حتى قالا معا : اللهم أجعله خيرا ٠٠ واستطرد الشاب : « فما كان من خالى الا ان وضع سفنه تحت العلم اللبنانى وجعل باريس مقره الرئيسى ، وله مكاتب فى أثينا وألمانيا وجميع أنحاء العالم من أقصاه الى أقصاه » ٠ دموع الضحك استدرت دموع البكاء فصارت تبكى بعنف وتنتفض وتوشك أن تقع فريسة اغماء لا نهائى ٠ قال الشاب فى ذكاء برىء : « لقد فهمت ٠٠ لابد انك كنت على علاقة به ذات يوم ؟ » ٠ قالت وهى تنهض مستعدة للانصراف : « لا ٠٠ لا أظن اننى رأيته من قبل ابداء » ٠ نهض الشاب هو الآخر منزعجا :

« ولكنك لم تخبرينى عن حقيقة المعلم عطاطس » قالت بصعوبة من بين دموعها : « انه رجل لاتعرفه ٠٠ يبدو انه كان ضيفا على هذه الشقة ذات يوم فأساء استغلالها ٠٠ أرجوك لاتسألنى عن شىء أكثر من هذا » ثم تقدمت نحو الباب ففتحته وألقت بنفسها فى الشارع ثم فى عربة أجرة وكان رأسها يدور بعنف ٠

نزلت فى ميدان المشهد الأزرقى واخترقته فالتقت بصاحبى كحكوح ذاهبا يشم ٠ ازيك وأهلا ورايح فين تعالى بس ٠ مشت بجواره دون حرج فاذا به يرتد بها قائلا : « بنت حلال ٠٠ فيه واحد صاحبى عايز مخزن ٠٠ ايه رايك ٠٠ أهو قاعد عندى فوق ٠٠ الليلة بخمسة جنيه للاقة ، حيخزن فول عشرين أقة يعنى بميت جنيه فى الليلة وعداد بيعد ٠٠ الكمية اللى باخدها تنخصم ويجى غيرها وغيرها وطول ما ربنا ساترها اهى فل » ٠ راقت لها الفكرة ٠ غمزته قائلة : « طب أنا مروحة ٠٠ هاته وتعالى ورايا » ٠

بعد ساعة جاءها كحكوح ومعه رجل رفيع كالسفاية ممصوص الدم رغم احمرار وجهه ٠ من أول نظرة قدم لها عقدا شفويا غير منطوق مفاده انه رجل لا باع له فى أمور النساء وانه دينه وديدنه العمل والأمانة وانه ملك لمن يصون الأمانة ناسف لمن يخونها فزغده كحكوح بعشم وقال له : « افق يا هذا : ان من يعاشر البتعة لا يسلوها أبدا ٠٠ اسألنى عنها هى تربية ايدى » ٠ ثم أضاف وهو يشعل سيجارة : « أصل دى كما ماهش شغلتها دى هواية عندها ٠٠ شغلتها الأصلية مغنية أفراح ٠٠ بزمتي ودينى شبه وردة الخضرى وتضربها بالصرمة صوتا وشكلا ٠٠ غير شىء الدنيا هى اللى مظوط ٠٠ لكن معلهش ٠٠ المهم الأصل والأمانة ٠٠ ست بتعة الحقيقة ما تتكلمش انت بخصوصها ٠٠ أنا المسئول » ٠ فضحك الرجل السفاية ناظرا الى كحكوح نظرة ذات معنى كأنه يقول : « وانت من يضمنك يامربوع ؟ لكنه ادار وجهه ناحية البتعة مشوحا بذراعه قائلا : « على بركة الله ٠٠ البضاعة حتوصلك ٠٠ » ، ثم نهض وهمس فى أذنها مكملا ان

البضاعة ستكون عندها غدا فى الثانية عشرة ظهرا مع امرأة عجوز تحمل سلة على رأسها وتمشى تبيع الفجل منادية : « فين أكالك يا ورور » وعلى البتعة حين تسمعها ان تفتح باب البلكونة وتناديها قائلة : « ورينا كده اللى معاكى ياحاجة » فتصعد الى الشقة وتدخلها لتترك البضاعة وتخرج فى دقائق معدودة ثم ان الرجل السفاية قال لها : « عايزة فلوس ياست بتعة ؟ » ثم أخرج رزمة كبيرة من عشرات الجنيهات وعد لها عشرا سلمها لها مطبقة قائلا : « ليلتك فل » ، فأخذتها ووضعتها بجوارها فى اهمال قائلة : « طب المخزن وخلصنا منه ‥ افرض انى عايزه اشتغل قطاعى » ٠ توقف ممتعضا : « لابقى ‥ يادى ‥ يادى ‥ انصحك مادام حتشتغلى مخزن بلاش تقطعى » ٠ هزت كتفيها قائلة فى ثقة وقد برقت الفكرة فى رأسها : « اللى بيشيل قربة مخروقة بتخر على دماغه ‥ وأنا حاشيل القربة ‥ أنا حره ‥ يمكن عندى اللى حيخزن واللى حيبيع ‥ مالكش دعوه انت » ٠ توقف الرجل السفاية حائرا لبرهة كأنه تورط ٠ مرة أخرى زغده كحكوح فى جنبه : « اتكل على الله واسمع كلامها ميهمكش ‥ دى ست انما دماغها كبير قوى قد مليون راجل ‥ صدقنى » ٠ هز الرجل السفاية رأسه موافقا : « خلاص قطعى ‥ قطعيلك وقه ‥ وسعرها حسب السوق وأقل شوية عشان خاطر عيونك ‥ بس انتى تخلى بالك من نفسك » ٠ قالت : « اطمئن » ٠ فسلم عليها وانصرف ٠

ـ ٥٣ ـ

‥ يوم اقتحمها الشحات لشراء ربع القرش لأحد الزبائن كانت قد مضت عليها مدة من الاستقلال تبيع لحسابها الخاص ويمولها مهرب كبير ٠ ولانها سيدة وجميلة وناعمة فزبائنها من الصفوة ولذا اختصها بأجود أنواع الهبو الذى لايفهم قيمته الا كل حشاش صاحب مزاج ، يدفع فى زنة قرش تعريفة مخروم أربعين جنيها أو أكثر مع انه قد يحصل على نفس الكمية بجنيهين وربما بجنيه ونصف ٠

يومها دهشت حين رأت الشحات وابتسم وجهها ٠ على غير العادة وقفت وراءه مباشرة وجلست بجواره قائلة : « خير ياشحات » ٠ قال لها : « عايز ربع قرش » ٠ وشرع الثلاث جنيهات فى مواجهتها ٠ قالت بابتسامتها المريضة : « لك ولا حتشربه ؟ » ٠ قال باسما : « لى » ٠ قالت : « يعنى حاكل فيه عيش » قال ببسمة مرتعشة « تقريبا » ٠ قالت : « انت سبت الكحكوح ؟ » فحكى لها الشحات ما حدث بكل دقة وصدق ٠ نهضت وغابت داخل الشقة ثم عادت وأعطته قطعة سائبــة ـ أى غير ملفوفة فى ورق سلوفان ـ تزن أكثر من نصف قرش بالراحة ، وقالت فى حنان عظيم : « بعد ياشحات » ٠ فانبسطت ملامحه من الفرح وناولها الجنيهات الثلاثة مبرومة ففردتها وانتزعت منها جنيها أعطته له قائلة : « ده عشانك ‥ وكل ما تعوز حاجة تعال » ٠ فشكرها ببسمة حنينة وطلب ورقة سلوفان فلم يجد فارغ من علبة سجائره ورقتها واقتسم القطعة ولف أحد القسمين لفة جيدة واحتفظ بالنصف الآخر لنفسه ، وعندما صار فى بئر السلم لف القطعة الأخرى وقرر ان يبيعها أيضا بثلاث جنيهات لزبون آخر ٠

منذ ذلك التاريخ صار الزبائن يعفون أنفسهم من مهمة المغامرة بمقابلة تاجر المخدرات وجها لوجه اذ يتكفل الشحات بتسليم الصنف لهم فيما هم جلوس على المقهى ٠ جرى القرش فى يده وكان وفيا للبتعة لا يعتمد على أحد غيرها كمصدر ، وكانت هى تسر غاية السرور وهى ترى الطابور يمتد حتى قرب شقتها ، فلما صار الشحات هو كل شىء فى حياتها اراحت نفسها وانتهزت الفرصة وتزوجته على سنة الله ورسوله واتسع البيع وعظم الوريد وقامت لهما فى الحارة مملكة أى مملكة ٠

الباب العتيق

● **عندما خطر لأبى شافية أن يستر الوديعة**

يرجع مرجوعنا لأبى شافية ـ الشحات سابقا ـ وكيف قبل مهمة القيام بالوساطة بين صاحبى كحكوح وزوجته · وكان أبو شافية قد أنبأ صاحبى كحكوح أن لديه مشوارا ناحية بيتهم وسوف ينتهز الفرصة ويمر على الست ليعالج الأمر · فانطلقت أنا أجرى بلا توقف حتى وصلت الى صاحبتى ·

لم أجدها بالمنزل · فنزلت أشم أثر خطواتها على الطريق فكلما امتلأت خياشيمى برائحتها أمعن فى المسير حتى وجدتها بلحمها سائرة فى شارع الصاغة مرتدية الملس والحبرة والحذاء ولا يظهر من وجهها سوى عينين متلصصتين · فقفزت أمامها وصرت أشب وأحمحم وأطوح ذيلى وهى تكاد من فرحها تحتضننى على البعد وتصيح قائلة : « طب تعال ورايا ·· تعال » ·

تبعتها كظلها حتى فوجئت بها تحود على دكان « شفيق » الصائغ خلعت من يدها خاتم يبدو أنه ضاق على أصبعها وانها ـ لهذا فقط ـ تريد بيعه · وزنه « شـفيق » الصـائغ وخصـم من ثمنـه ما خصم على ذمة ما يسـمونه بالتمغـات حتى يئست صـاحبتى فأخذت منه ما تبقى وانصرفت ·· فعرفت أنها بتبيع ما يصلح للبيع لتحمى بثمنه ما لا يجوز بيعه ، فاغتظت وحنقت من كثرة الاشفاق على صاحبتى · غير

ان التوتر العصبى ركبنى فجأة فوقفت جحافل الشعر على جلدى كالأسلاك المدببة وصرت أنبح فى عصبية نباحا متواصلا وصاحبتى تقول : « مالك ·· يا ترى فيه أيه » · وحقيقة الأمر اننى كنت أشم رائحة كل من أبى شافية وصاحبتى فى نفس المكان ·

حين تأكدت ان صاحبتى دخلت البيت بالفعل اندفعت أجرى بأقصى سرعة حتى وصلت البيت منساقا وراء الرائحة وقد صدق أنفى ، اذ لمحت صاحبى كحكوح يحوم حول البيت ويحاول الاختباء منى · فرابطت أمام الدار واقفا على مؤخرتى منتصب الأذنين متحفزا · ان هى الا برهة وجيزة حتى أقبلت صاحبتى تحمل بيدها بعض اللفائف · فقمت بمناورة درت فيها حول صاحبتى دورتين وحول منطقة البيت ثلاث مرات وحول المنطقة كلها اربع مرات ثم استدرت عائدا فلحقت بصاحبتى على السلم · فتحت الباب بمفتاح مربوط فى ضفيرة شعرها ثم أشارت لى فدخلت فلحقت هى بى وأغلقت الباب · ما كادت تتخفف من أحمالها حتى طرق الباب فاندفعت أنا أجرى تجاهه وهى فى أثرى قائلة : « مين ؟ » ، ثم لم تنتظر ردا ففتحت الباب فاذا بأبى شافية نفسه يكاد يسد فراغ الباب قائلا : « مسا الخير عليهم » ·

شهقت صاحبتى وضربت صدرها بيدها صائحة : « الحاج ؟ » ، ثم ارتبكت قليلا ثم قالت : « اتفضل يا حاج » ، ووسعت له ، فتقدم داخلا على استحياء وهو يقول : « أيوه الله حق الله » ثم تنحنح شأن الرجال المحترمين يحذرون النساء من ظهور صوت رجل غريب فيحتشمن ، اما هى فكأنها الرجل الذى خف لاستقباله ·

ـ ١ ـ

لحقت به ففتحت باب غرفة الجلوس حيث الكنبتان البلدى بفرشهما النظيف المغطى بكسوة الكريتون المزهزة الألوان : « خطوة عزيزة يا حاج شحات ·· والله زمان ·· أيه الحكاية يا ترى » · وكانت الفرحة تطل

من عيونها وأعطافها وأردافها . ليقينها أن الشحات لم يأت الا لمصلحة هامة وانه غير طامع فيها اذ ما الذى يصيب رجلا ثريا كهذا بالخبل فيجعله وهو يقتنى أجمل زوجة فى المنطقة يفكر فى مطاردة واحدة مثلها لا هى هنا ولا هناك .. حينئذ فقط أدركت ان الزمام قد أفلت وانتهى الأمر .. فاقعيت أمام أبى شافية مهدل الأذنين ضائق النفس فيما اختفت صاحبتى داخل المطبخ .

صاح أبو شافية : « ما تعمليش حاجة .. أنا والله شارب كل حاجة تتصوريها .. فضى نفسك وتعالى بس دول كلمتين صغيرتين أحسن ما ورايبش وقت » . فصاحت بدورها من داخل المطبخ : « جرى أيه يا حاج و ده يليق برضه .. دانت بقى لك سنين ما دخلتش بيتنا » .

تقلصت ملامح أبى شافية فجأة وراح ينظر حواليه متلصصا كأنه ينوى القيام بسرقة ، بل انه مط رقبته كثيرا لينظر فى الصالة . فلما اطمأن أخرج علبة النشوق الفضية خلسة وفتحها وسكب منها مسحوقا أبيض فى راحة يده ثم شدها بطاقة أنفه ، ثم كرر ذلك فى الطاقة الثانية ، ثم أعاد الكرة مرة ثانية ثم دس العلبة فى جيب الصديرى وراح يدعك فى أنفه بلذة لا مثيل لها .

دخلت صاحبتى حاملة صينية ذات أبهة عليها كوب ذو أبهة عرف أبو شافية منهما ومن الصينية ان صاحبتى سافرت الى بورسعيد أكثر من مرة ، فابتسم حين تذكر ان مثيلات هذه الأوانى فى منزله ترد من لندن وباريس على متون الطائرات محشوة بالحشيش الخام . جلست صاحبتى فى مواجهته على الكنبة الأخرى قائلة : « والله سلامات يا حاج .. عاش من شافك » . اعتدل أبو شافية فى جلسته وتأهب للحديث فأخذت أنا أنبح بشدة ، فنظر الى فى قرف فظللت أواصل النباح فقامت صاحبتى تهششنى ، ورأيت عيـون أبى شافية وهى تتصعلك فى نهم مروع على عجيزة صاحبتى التى لم تكن بالكبيرة ولا بالصغيرة بل كانت كخيط وهى

يمدد بروزا رشيقا دقيقا متصاعدا الى أعلى تشق الظهر فاصلة بين ضلعى الفستان المحتشم .

مالت صاحبتى لتحتضننى كى أكف عن المهاترة ، فاندلقت نظرة أبى شافية الى مقطع الفخذين بالساقين بسمانتى القدمين ، الكعبان ريالات من الفضة . احمر وجه أبى شافية وبدا انه قد وقع من طوله ولا يستطيع ضبط اعصابه . كانت رائحة الصابون الطيب تنبعث من صاحبتى . وفيما انا أحاول الزوغان منها داخلا الى القاعة استدارت هى بميلها منثنية بى فاندلق صدرها فوق دماغى واذا بيدين تندبان فى صدر صاحبتى مباشرة ولكن بحجة انه يخلصنى منها لنتفاهم معا باعتبارنا ذكورا نفهم بعضنا . نهشت يده بأظافرى وتركته يتأفف وجلست فى ركن وصاحبتى تؤنب فى وهو يتوعدنى ضاحكا .

ثم انه تخلص من الحذاء فى الأرض وربع ساقيه كفقيه سيقرأ ربع قرآن*، لكنه بكل بساطة أخرج ربع الحشيش من جيبه وفركه فى كفه ثم اخرج سيجارة من العلبة فارتبكت يده فسقطت العلبة فقامت صاحبتى وتناولتها وأخرجت السيجارة وتولت بنفسها فركها بين راحتيها حتى تساقط نصف ما فيها من دخان ثم قدمتها الى أبى شافية . ملأ فراغ السيجارة بالحشيش مع قليل من حبات الدخان كالقليل من الصودا على كاس الويسكى .. ثم أشعل السيجارة فتسلقت رائحة الحشيش كافة النوافذ صارخة صادحة بما فى هذه التعميرة من بهجة وأنس نادرين .

رشقته صاحبتى بنظرة من عينين كأنهما فجوتين ينحتون الكحل منهما فلا تنفد قالت : « أظن وجبت القهوة السادة » . فعوج رأسه فى انبساط طفولى وقال : « يا عينى » . فهمت واقفة كالفدهو ومضت تتبختر انها ليست مجرد جسد كأجسادنا ملفوف فى ثياب أنيقة ، انما كل شئ فى جسدها له شخصيته البارزة القوية ، فكأن جسدها مجموعة شخصيات جمالية تحرك بعضها فى اتساق كأن الطبيعة تتدلل وتتفنن فى برجلة عقول الرجال . اختفاؤها فى المطبخ لم يقطع نظرة أبى شافية

التى كانت قد دقت بمسامير فى نفس الاتجاه · أخرج من جيب الصديرى ورقة سلوفان فتحها وقضم منها سنة أفيون كبيرة وصار يتلمظ · وكانت عينه تقول بكل وضـــوح ان قوة فى الأرض لا ينبغى أن تحـرمه من « وديعة » ، نعم انها وديعة فى هذا المكان وتحت سيطرة هذا الجبان حتى يجىء هو ويستردها ، ولسوف يستردها ، فليس أحق بها سواه ، سواه هو وحده ، هى تحبه من قديم ، ما أحلى تلك الذكرى ، ما أحلى القديم اذ يضىء لنا مسلكا جديدا ، هى له وليذهب كل شىء الى الجحيم ، اذا كان الله وهبه النعيم على يدى « البتعة » فانه سيهبه الجنة على يدى « وديعة » ·· البتعة ·· انسانة طيبة أى نعم وأرجل من الرجال هذا صحيح وجميلة بلا شك ، لكنها ـ عدم المواخذة ـ كانت مجرد وسيط هيأه الله له لكى يصبح فى هذه الأملة ويجىء فى النهاية لينقذ « وديعة » من وساخة كحكوح ، وله الحق كل الحق فى هذا فهو يفهم الاثنين ويشهد أمام الله ورسوله ويقلب المصحف على عينيه انها ملاك يعاشر حيوانا زنديقا سافلا ، يكسب ثوابا لا شك من يتيح لهذه الحورية فرصة الخلاص من هذا القحف فهذا الجمال لا ينبغى ان يهان أبدا ، ان الحكومة كما قرءوا عليه فى الصحف قد جندت البوليس الدولى كله ليساعدها فى البحث عن لوحة مسروقة من قصر لا يدرى من ، وهى لوحة غالية الثمن فيما يقولون لأنها بريشة لا يعرف من ، فاذا كان هناك من يدفع مثل هذه الآلاف المؤلفة فى لوحة رسمتها يد بشر مثلنا ، واذا كانت كل هذه الدول تهرع للمشاركة فى البحث وضبط اللص ، فما بالك بهذه التحفة الرائعة التى رسمتها ريشة الله سبحانه وتعالى ؟ المؤكد انها آية من آيات الله فى الخلق مجسدة فكيف يجوز امتهانها ؟ من رأى منكم منكرا فليغيره بيده وهذا منكر ولسوف يقوم بتغييره بيديه ، سوف ينفق عن سعة الى آخر قرش يملكه حتى يخلص وديعة من كحكوح الى الأبد ·

حين دخلت صاحبتى بالقهوة فوق الصينية ومالت لتضعها أمامه كانت ابتسامة عريضة بلهاء قد حلت بشفتيه · تساءلت صاحبتى عما يضحكه فقال انه تذكر حدوته الشاطر حسن وست الحسن والجمال ،

ثم ضحك بصوت عال فشاركته فى جذل وصوت ضحكها كرنين المعادن والأوانى الأصيلة فى بيوت السلاطين ، يطير منها لب أبى شافية ، تؤكد له دقات قلبه انها هى الأميرة وهى القصر وهى المملكة بكامل هيأتها ·

جلست صاحبتى على الكنبة المواجهة من جديد ورفعت ساقا لتضعها الى الأخرى فتحركت معهـا كل الأشياء فى عينى أبى شـافية · قالت صاحبتى : « لعله خير يا حاج » · قال أبو شافية وهو يلوك الأفيونة ويرشف القهوة ويتردد : « الحقيقة كنت عايز أقول ·· كحكوح ·· » · ردت صاحبتى مشوحة : « قطع و لاكان » · وقرأت فى عينيها ان هذه العبارة مجرد عبارة تعبر بها ـ كذبا ـ عن صمودها وعدم رغبتها فى الاستماع الى سيرة الأبعد · وقرأت فى عينى أبى شافية انه قرر فجأة ان يغير من دوره وينفى الغرض الأصلى من الزيارة ، قرر أن يصدق عبارة « قطع ولا كان » ·

لكنها عادت فسألت : « هو قالك حاجة ؟ » · ضحك أبو شافية وهو يتذكر دوره القديم أيام كان صبيا فى الغرزة · نضحت عينه بما يعتمل فى نفسه من ان كل هذه السنين لم تغير شيئا من وديعة ولم تضف الى صفحة وجهها أى ظلال ولم تصب جسدها بأى ترهل ، وانفتحت البلاد وسقطت الجسور بينها وبين رأس المال الأجنبى ، واصطلح بنو الأزرق مع أعدى أعدائهم وكل هذه الأحداث بكل هذه السنين لم تغير من وجه وديعة أو من طبع زوجها كحكوح ، كل ما فى الأمر ان كحكوح انقلبت به الأوضاع وانحدرت من سىء الى أسوأ بسبب طقفان مخه ·

فتح أبو شافية فمه ليتكلم ولكنه أبقاه مفتوحا فى ذهول ·

نكس أبو شافية رأسه فى الأرض وراح يرشف بقية القهوة ويلوك الأفيون ثم قال فجأة « تصورى انك ما اتغيرش فيكى أى حاجة ؟ » · قالت وهى لا تخفى سرورها بهذه الملاحظة : « ما خلاص ·· راحت علينا يا حاج » · قال أبو شـافية بصدق : « لسـه بدرى قوى » · قالت صاحبتى : « بدرى من عمرك ·· ادينى قاعدة أهه مفيش أتعس منى » ·

وكانت هذه الجملة الأخيرة قد حملت شحنة من الحزن لا قبل لبشر باحتمالها ، حتى انّ دموعا ساخنة فرت من عينى صاحبتى وتناثر رذاذها كليمونة تنعصر بقوة • ثم حاولت ان تغطى ضعفها فمسحت عينيها بمنديل صغير ثم فردت على وجهها ابتسامة عريضة ساحرة وقالت : « ما قلتليش •• كحكوح قال لك ايه ؟ » :

ـ « سيبك منه بلّا كحكوح بلا بتاع » ••

ـ « يعنى انت مش جاى من طرفه ؟ » ••

ـ « لا •• أنا بصراحة جاى أعرض عليكى عرض ياريت تقبليه » •

ـ « خير يا حاج » ••

ـ « تعال نتزوج » ••

ـ « ايه ؟ » ••

ـ « نتزوج » ••

ـ « ولكننى متزوجة كما تعلم » ••

ـ « نطلقك منه » ••

ـ « كيف ؟ » ••

ـ « بأى شكل •• بكل وسـيلة •• أنا أعرف ازاى أرغمه على الطلاق » ••

ـ « مفيش داعى يا حاج •• بلاش » ••

ـ « كحكوح أنا عارف داؤه •• الفلوس •• الفلوس داؤه ودواه » ••

راقبت صاحبتى جيدا فى هذه اللحظة • رأيت الشمس تطلع فى عينيها لبرهة وجيزة ثم يسدل عليها ستار الجفون • ثم كان الصقيع

قد حل فجأة باختفاء الشمس ، اذ أسندت صـاحبتى رأسها على كفها وغابت فى شرود طويل • لم أكن فى حاجة لأن أقرأ على صفحة وجهها ما يدور فى خاطرها ، انما أستطيع السباحة فى خواطرها •• أراهـا تسرح الآن بخيالها الشفيف ، السفينة التى تركبها ترسو بها أخيرا الى شاطئ النعيم والأمان ، الفراغ اللانهائى انفسح فى دماغها فجأة ، تتسع مساحاته كمحيطات كانت متراكمـة داخل نفسهـا من سنوات الفراغ والجدب والجفاف ، الفراغ بحر لجى هائل ، على البعد أمواج تتلاطم فى عنف وتنذر بالخطر ، لكن واديا من الأشجار الخضراء المحملة بالزهور والثمار والعطر يقبل نحو السفينة ، زهور أخرى من الأضواء تكشف عن قصر زاخر وحدائق تحفل بالأبقار والجواميس والماعز والأغنام ، رجـال ومحاريث ، وعربة من معرض قصر النيل تقف فى الانتظار •• الشحات لا يزال رغم ما يلقيه فى جسده من سموم يتمتع بكامل الشباب والقوة ، يأكل فى الطقة الواحدة ديكا روميا وبجواره طبق بيض وكبد وفواتح المشهية ، يحلى بصينية بسبوسة ينهض بها وحده •• تسأل نفسها خوف اوقع السراب : أمعقول أن يكون قد أحبها مثلما أحبته ؟ أمعقول أن يكون قد ظل طوال هذه السنين يفكر فيها حتى لم يعد قادرا على الانتظار فجاء يطلب يدها من يدها وهو يعلم ان رقبتها فى يد شخص موتور لا يرجى من ورائه أى خير •

رحت ازأر بعنف هادئ أو بهـدوء عنيف لأوقف أبا شافية عند حده ، اذ رأيته يتحفز للتقدم نحو صـاحبتى التى بدا أنها غابت عن الوعى تماما • الملعون نهض بالفعل غير عابئ بزئيرى وتقدم عن ثبات فجلس على الكنبة بجوارها ووضع يده على ظهرها فى رفق قائلا وقد ارتعش صوته : « وحدى الله •• مالك » • لم تتحرك صاحبتى من مكانها • هو أيضا كان يريد ان يربت على كتفها عدة مرات لكن يده توقفت ثم استرخت بجواره ثم انه غرق فى صمت عميق تهدلت له ملامحه ، واعتلاها شعور بالخجل والخيبة شديدين • بعد برهة رفع وجهه تجاه صاحبتى

وقال بلهجة فيها التقديس كله كأنما يخاطب آلهة الأحـلام : « ست وديعة ·· ست وديعة » ·

لو كان جبلا لاهتز من هـذه النبرة وهـذه الضراعة · فما بالكم بصـاحبتى وهى أرق من الرقة · قالت له من خلال شرود وتهدج : « نعمين يا حاج ؟ » · أخرج طرف لسانه ومرره على شفتيه الجافتين ثم حاول ابتلاع ريقه فلم يجد سوى عصا صـلبة تقف فى حلقه : « أنا طلبت منك طلب محدد ·· أرجوكى يا ست وديعة ·· ردى عليه بجواب محدد » · تنهدت صاحبتى فارتفعت أنا معها عن الأرض وهبطت ثانية على أحر من الجمر · صار أبو شافية ينقر بفص الخاتم الزواج ·· موافقة ولا مش موافقة ؟ » ، ثم تعلقت عيناه بشفتيها وهو يلهث ويفتح فمه كأنه يريد أن يتكلم نيابة عنها · كنت أعرف بسيدتى منها ومنه · سيدتى ليست تصدق مطلقا ان طاقة القدر يمكن أن تنفتح بهذه السهولة الخارقة اليست تصدق انها فى اليوم الذى لجأت الى الجواهرجى لتبيع خاتمها العزيز لتأكل منه جاءها البشير بأنها تنتقل من وجع الدماغ الأزلى والضنك المستحكم والعذاب والشجار الذى لا ينتهى الى زوجة للشحات تصبح ملكة متوجة على عرش هذه الأموال كلها ؟ ··

قالت أخيرا : « موافقة طبعا بس » هكذا أطلقتها · من لى بكلمات تصور الهدوء العظيم الذى أغرق أبا شافية وذلك الشرود المنذهل الذى حط على صاحبتى ؟ لكن صفحة الهدوء تشابهت مع صفة الذهول فى ان ثمة شموس أضاءت خلفهما فكان كلاهما يرى نفس الحلم المتلألىء بالبكارة يتحقق فى لمحة ·

فى هذه اللحظة ارتعدت فرائصى وانتفضت ، اذ رأيت وجه صاحبى كحكوح يطل من شباك فى الحجرة مطل بدوره على المنور · أجزم أنها لم تكن أول طلة ، اذ ان بدنى قد اقشعر عـدة مرات لبرهة سريعة · لكنه ما ان رآنى فى مواجهته حتى اختفى وجهه فى الحال قبل ان أنبه الى وجوده · أعرف كيف صعد من المنور الى شباك الشقة فى الدور

التالى فهو لص قديم محترف · لكننى أعرف أيضا ان رؤيته لكل شىء لا يختلف عن عدم رؤيته لأى شىء فكل شىء فى نظره سواء ، ما ليس سواء حقا هو ما لا يتفق ورغبته الشخصية وما لا يكسب من ورائه لقمة العشاء الهنى ·

هكذا صاحبى وأنا أعرفه ، أكبر جبان · ان كنت مثلى قد أعجبتك الكلمة رعديد رغم عدم تبين معناها على الوجه الدقيق فان صاحبى يمثل لك معناهـا على الوجه الأدق ، والا فمن غيرى يستطيع الفهم فى هذه المسـألة ؟ أليست الرعددة هى الشىء الذى تتعامل به نحن بنو الكلاب الأصلاء مع بنى البشر وبنى الخليقة كلها ؟ ان أول شىء نشمه فى المخلوق هو رائحة الرعددة حتى ولو كانت خلف مظهر جليدى أو برونزى أو نحاسى أو ذهبى أو حجرى كله يستوى عندنا فنحن فى الواقع قد لا نرى من الأصل هذا الهيكل ·

رائحته الكريهة لا تزال تنطبع فى أنفى · أفقت على مشهد مروع · لا أدرى ، كيف حدث هذا فى لمح البصر ، ولا كيف انتقل أبو شافية من مكانه أو انتقلت هى من مكانها ، ولا كيف زحف بهما الوجد والاشتياق المدق فتلاقيا عند الباب على هذا النحو ، حيث التحم الجسدان وصارا جسدا واحدا يلف فى دوامة كما فى الأفلام تمـاما ، كطفلين غريرين كريشة فى مهب ريح كطائرة من ورق احتفت بها الريح المواتية فى قمة سامقة وصار خيطها بلا زمام · أخذتنى الدوامة بدورى فرحت ألف معها أحاول التمييز بين الجسدين وقد تعطر أنفى برائحة هى مزيج من الأنوثة والذكورة فيالها من نشوة يهتز منها الحجر فكيف لا أهتز ؟ ·

اخذت أعوى وأحمحم تمجيدا لهذه اللحظة العبقرية ودعوة لاستمرار هذا السموق الى ما لا نهاية · لكن آه من رائحة القلق ، كل الروائح محملة الا هى تسم البدن والعياذ بالله · عينى على مصدرها بين درفتى الشباك المطل على المنور · وجه صاحبى يهوى فى الفراغ كاختفاء وجه الاراجوز · ثم هوت الطائرة الورقية فى لمح البصر لا أدرى كيف ·

ما ان ودع طرفى وجه الأراجوز وارتد متحفزا حتى رأيت الجسدان قد صارا حطاما على الأرض واختلطت الأشلاء ببعضها . قالت صاحبتى كأنها تدرأ خطرا داهما خوف الوقوع فيه وهى الراغبة : « لا زلت فى عصمة زوج وشرفه أمانة .. هو صحيح انسان بلا شرف ولا يؤتمن .. ولكن شرفى أنا يوجعنى ان فرطت فى أمانة استودعتها عينها ذات يوم » . وقال أبو شافية انه لهذا الأمر وحده سوف يخترق اليها كافة الحواجز والحجب مهما كانت صلابتها . ثم جمع نفسه وبقاياه وتهيأ للانصراف والعرق الساخن ينثال فى أنحاء جسده . رمقته هى بنظرة يا الهى خفف على البشر وقع سحرها ، تودعه وتستبقيه فى نفس الوقت ، حزينة حتى النخاع فرحة حتى النخاع . قال انه عائد اليها لا محالة عن قريب ، لكنه لن يعود الا وقد هيأ لها خلاصا تاما من براثن كحكوح .

فى تلك اللحظة كنت أعوى ذلك العواء الحزين الزاعق الذى ان سمعتموه قلتم اننى شاهدت عزرائيل وتشاءمتم بكل ما فى أعماقكم من فزع . ازداد هياجى وغيظى من الجميع . حينئذ طرق الباب عدة طرقات متوالية فانزوى أبو شافية وردت صاحبتى : من ؟ فجاءها صوت آبر خشن : « افتحى يا امرأة » . رايت الدماء تتساقط من صفحة وجهها ككرات حمراء مضيئة انطفأت كنجوم تتهاوى فى الأفق ذابلات . لم تملك صاحبتى الا أن تفتح الباب . فاذا بالحكومة تسد فراغ الباب وتنحدر على السلم . خبطت على صدرها وطار فى الهواء وجهها كزنبقة صفراء ذابلة ، ثم انها شهقت . لكن الضابط ببذلته السوداء وأزرارها اللامعة اندفع داخلا وبصحبته اثنان من أمثاله وخلفهم رهط من المخبرين . قال الضابط : « أين وديعة البصال ؟ » . قالت صاحبتى مشيرة الى نفسها فى حياء : « أنا » . قال الضـابط : « أين الشحات خميس الشهير بأبى شافية ؟ » . جاء من ركن قصى صوت عجوز واهن تبينوا فيه كلمة : « أنا يا أفندم » . قال الضـابط للمخبرين : « امسكوهما » . وكان الباب قد أغلق وقال الضابط : « أين الصفقة ؟ » . قالت صاحبتى وأبو شافية فى نفس واحد : صفقة ماذا ؟ . قال الضابط وفى عينيه

نظرة خبث ماكرة لن تقبل النزول عن مكرها الحشيش يا هانم . انتى وابو شافية مهربين صفقة حشيش فين هى ؟ » صاح كل منهما وهو ينظر فى عين الآخر بتشكك وحيرة : « صفقة ؟ حشيش ؟ » . فأمر الضابط بالتفتيش وتقدم نحو حجرة النوم فدخلها . رفع دائر السرير الحريرى ونظر تحت السرير منحنيا الى أقصى درجة ثم رفع رأسه وصاح : « تعال يأبو شافية طلع الشنطة دى » . فانحنى أبو شافية وسحب من تحت السرير حقيبة كبيرة ثقيلة أشبه بصندوق مستطيل . وهنا انبسطت أسارير صاحبتى وقالت ساخرة : « هى .. انها حقيبة الخردة نضع فيها أشياء لا نحتاجها .. حتى افتحوها .. لن تجدوا سوى كراكيب وأحذية قديمة وخلافه .. أنا واثقة .. ها هى » . ثم تقدمت بكل ثقة وفتحتها ثم شهقت ، فقد كان فى الحقيبة جوال من البلاستيك السميك المغطى بجلباب قديم أمسكت به صائحة : « الفستان الذى اتهمنا بنت الجيران بسرقته » ، ثم فتحت الجوال فوجدت اسطوانات الحشيش . صاح الضابط : « مبروك » .. حينئذ اندفع أبو شافية يصرخ من أعماقه مؤكدا انه « مالوش دعوه » وانه تاب من سنوات طويلة فى حين تبكى صاحبتى منهارة مولولة مؤكدة ان الكلب زوجها هو الذى دبر هذه الركسة لكنهما حين امتثلا لوضع اليد فى الكلبشات لم يكن قد بقى فى جسديهما أى روح .

— ٢ —

اما روح أبى شافية فانهـا لازمته ثلاث سنين فى الزنازين قبل ان ترحمه من العذاب وتغادره الى غير رجعة . واما روح صاحبتى فانها لا تزال ترافقها فى سجنها وتسقيها مر العذاب . هل يتصور أحد ان أبا شافية كان من الممكن أن يدفن فى مدافن الصـدقة لولا صـاحبى كحكوح ؟ .. نعم لقد بدا يومها رجلا غاية فى الشهامة حين استقبل جثمان ابى شافية وزفه الى مثواه الأخير زفة لائقة بعد أن جهز قبرا بجوار

قبور الوجهاء شهد الجميع بفخامته كما شهدوا بهول الجناز ، وتوجه له بعضهم بالدعاء . ذلك ان صاحبى كحكوح كان – بسبب ما قد حدث – قد استرد سطوته وسلطانه وأصبح أغنى من ملك وأقوى من ذى جاه وأشطر من ذى مركز وأحقر من جرذ وأوسخ من حشرة .

– ٣ –

السذج وحدهم هم الذين يندهشون من هذا . وأكثرهم سذاجة من يتشدقون بكيف ويطالبون بمعرفة الحقيقة دون ان يخوضوا بأنفسهم غمار البحث عنها فى واقعهم ، وكأنما الحقيقة مجرد سلعة غير متوفرة فى الدكاكين . الحقيقة ان عالم المخدرات لا يعرف المنطق والانسانية ولا أى قانون متعارف عليه . ومهما استغرب المستغربون وتشدق المتشدقون فان ما حدث يحدث كل لحظة ويستوعبه الواقع دون ان تهتز فيه شعرة واحدة .

– ٤ –

ما ان زج بصاحبتى وأبى شافية فى السجن حتى كان هو القائم بأمره فى مملكة « البتعة » يستلب منها الأموال على ذمة المحامين والقضاة والضباط والكتبة ، وهى من فرط عجزها عن الرفض تعطى بوهم الأمل فى نجاة أبو شافية وان كانت واثقة من غدر كحكوح ووساخته رغم انه أوهمها بما يقرب من الاقناع انه هو شخصيا برىء من تهمة تدبير الواقعة وان أبا شافية كان بالفعل يقوم بالتهريب لحسابه الخاص من وراء ظهرها مستغلا طيبة زوجته وديعة . صاحبى كحكوح كالسوس ينخر فى عظام النفس مهما كانت صلبة فيخترقها ويتلفها – ولو ان أحدا مازح البتعة مجرد مزاح مذكر آياها بأنها ذات يوم ستكون تحت سيطرة كحكوح

فانها على الأقل ستقطع علاقتها بهذا الأحـد . كحكوح ؟ .. لم يبق الا كحكوح .. سلامات يا كحكوح .. فما بالها الآن وقد أصبحت تحت سيطرته بالفعل خاصة بعد موت زوجها فى السجن ولم يعد لها أحد يعاونها فى حماية هذه الثروة الهائلة وانقاذها من التبعثر ، حتى أمام جابر ماتت ، كذلك مات زوج ابنتها وزملاؤه فى حرب الانتصار المجيد ..

– ٥ –

ولكن أى ثروة ؟ . لقد صـودر معظمها ولم يبق منها سـوى ما تمكنت – بفضل كحكوح والحق يقال – من تهريبه ومنازعة الحكومة فى بعضه . يكفى معرض السيارات ومعرض العاديات .

ضربت المسكينة أخماسا فى أسداس وجمعت فى دماغها ناسا على ناس وطرحت ناسا من ناس ، وضربت ظروفا فى ظروف فكانت النتيجة النهائية ان لا مفر من قبول الزواج – مرغمة وأنفها فى الرغام – من كحكوح .

كان يبالغ فى تدليلها والتقرب اليها ولثم قدميها بشكل أذهلها . وكان جنونه الجنسى الأخرق يذكرها بأيام الصبا اللذيذة التى – رغم جمالها الفتان – لم تتمتع بها كما ينبغى . كان اهتمامه بها وانصرافه التام الى مزاجه واليها قد عوضها عن اهمال أبو شافية لها فى سنوات العمر الأخيرة – لكنها مع ذلك لم تكن تحتمل مرارته ، ولم تكن تستطيع نسيان دوره القذر فى كل ما حدث ، لكن ما جعلها تحتمله انه كشف لها عن ممتلكات لا حصر لها كان يمتلكها زوجها دون أن تعرف عنها أى شىء مخازن فى حوارى بعيدة وبضائع كبيرة لدى ناس فى الأقاليم وقروض وسلفيات لدى فلان وعلان كان المرحوم يحدثه عنها كثيرا لحظة قيامهما بالشم معا .

باب الفتوح

● حضرة صاحب السيادة : الكلب الأجنبى

ـ ١ ـ

آه من ذلتى يوم اختفاء صاحبتى . لقد تشردت وراءها أسابيع طويلة حتى اختفت رائحتها تماما . ثم اننى تسكعت فى الشوارع بحثا عمن يلمنى فلم أجد أحدا . بل اننى أفقت على حقيقة غريبة شرسة لم أكن متنبها اليها من قبل أبدا ، تلك هى انتشار أنواع وفصائل أخرى من الكلاب النظيفة المهيبة ذات الأسماء الرنانة ، تمشى خلف أصحابها فى تعاظم كأنها ملوك هذه الأرض ، تتبختر فى السلاسل المعدنية الثمينة يجرها أشكال وألوان من بنى البشر والكلاب تبدو أكثر نظافة وأكثر جمالا بل وأكثر تحضرا منهم ، لست متعصبا لبنى جنسى ، أبدا وحق الله ولكن هذه الفصائل من بنى جنسى ، تحكمها على الأقل قيم سلوكية عظيمة ندر ان تجدها بين البشر .. أهناك دليل على هذا أكثر من ان هؤلاء الذين أراهم قد طلعوا فى اقتناء الكلاب الأجنبية أصبحوا يعملون خدما لدى هذه الكلاب ؟ أجزم ان الواحد منهم أحوج الى قطعة لحم يتبلغ بها أولاده بينما هو يتفاخر عند الجزار بشراء هذا اللحم للكلب ، والواحد منهم يستخسر الجنيه فى نفسه وأولاده ومع ذلك يدفع عشر أمثاله لمن يسمونه بالمدرب ومثلها لمن ينظفه ومثلها لمن يطببه فى حين انه ربما تكاسل عن الذهاب الى الطبيب ليعالج نفسه أو أسرته .

حضرة صاحب السيادة الكلب الأجنبى قد صار يتربع الآن فى عظمة على كافة العروش ، وتلمح تأففه وتقززه من وساخة المكان الذى كتب عليه ان يعيش فيه بعد ردهات القصور والحدائق الغناء .

لكنه الجبن الأصيل . لا يقتنى شرس الكلاب سوى أضائل الجبناء . أجزم ان بنى جنسى من الوولف والسلوق وغيره يحسون بمدى الانحدار الذى وصلت اليه مراكزهم فهم مثل بنى البشر يتحدد سعرهم وأقدارهم فى الحياة بقدر ادراكهم لحقيقة أنفسهم ، وأول ما يدركونه عن حقيقتهم انهم خلقوا للقيام بأدوار هائلة لا لمجرد الزينة واكمال مظهر الأبهة . خلقوا لاصطياد الوحوش والفرائس الضالة واقتفاء أثر المجرمين والقبض عليهم ، لحراسة القصور من أمثال هؤلاء الأسياد الجدد يجلس على عرشها قيصر هو الآخر وملك فوق الملك ، أرقى اللحوم وأرقى المياه وأرقى شفاه ، وفوق ذلك لغة يتعاملون بها ، انهم ـ ولا أقول انها ـ لا يضيعون وقتهم فى حشو اللغات ورطانة اللهجات وجليطة العجماوات بل انهم لا يتعاملون الا بالشفرة ، ربما كانوا هم أساتذة الشفرة نقلها عنهم بنو البشر ، من ليس فى مستوى ذكائهم يفرضون عليه ـ فهم الأقوى ـ لغتهم فيتعلمونها ويستأجرون من يعلمهم اياها وهم ليسوا فقط صاغرين بل ومتفاخرين بأنهم أجادوا التحدث معنا والتفاهم معنا بلغتنا الخاصة . ابدا لم يخلق هذا الصنف الراقى من بنى جنسى لكى يتشرد هكذا فى الشوارع ، دعك من نزول مستوى الحياة ، دعك من شقاء الكلاب طول النهار وما يبذلونه من جهود ومناورات وتكتيكات كلما انتقل بهم أصحابهم الى مكان جديد أو بقعة جديدة وما أكثر ما يتنقلون بداع وبدون داع ، بل ربما أمضى الكلب منهم يومه كله فى هزار سمج سخيف مع أولاد خشنين وجيران وأقارب يجأرون بالضحك فى بلاهة يشمئز منها ابن جنسى .

دعك من كل هذا وانظر الى حسرة الكلب وهو يرى قيمته وقد اهدرت وكفاءاته وقدراته العليا عطلت وأعضاءه من سوء التغذية والجو والبيئة قد هزلت وتضعضعت ونفسيته الصافية من طول الكدر والسأم

قد دمرت وجنسيته من فرط الهزء والاختلاط بالأوباش قد انحطت ٠٠ فكلب عظيم النسيل مهيب يضاجع كلبة جرباء سنكوحة وأخرى ثمينة تضاجع عجوزا مريضا ٠٠ انهم على وشك ان يصيروا مثلنا جيفا تحرس جيفا ٠

ـ ٢ ـ

العشرة بالنسبة لنا خيوط غير مرئية ، حتى نحن لا نراهـا رغم أننا تفردنا فى نظركم دون كافة المخلوقات برؤية عزرائيل ٠ يقسـو علينا الصحاب مر القسوة لكننا سرعان ما ننسى ونهب لدى أى مكروه يصيبهم ٠ أبدا ما كان لمسـألة الأكل والشرب والايواء دخلا فى حفظنا للعشرة أو فى طلبنا لها ، فقطعة عظم ترضينا وقد نكون حراسـا على أطنان لحم ولعق زلطة يبل ريقنا ، وكافة الأرض مباحة لايوائنا ٠ وربما لهذه الأخيرة فقد نضرب المثل بأنفسنا فى المواطنة ، اذ ليس فى الدنيا مواطن فى عمق مواطنة الكلب ، ذلك أن غزو مربطه أمر دونه ـ كما تقولون فى أشعاركم القديمة ـ خرط القتاد ٠

عفوا ، أسمعكم تستخدمون جنسنا عند الشتم وتصـفون بنـا حقراءكم ٠٠ كذبتم والله ، وما يشهد بكذبكم سواكم ، وان شئتم دليلا على ذلك فهاكم بقية حكايتى ٠٠

ـ ٣ ـ

فيما كنت أتسكع ضائعـا فى حوارى المنطقة التى استوطنتها فوجئت بأحد البكوات يمشى منفوخ الصدر وان كان بلا صدر ، مرتفع الهامة وان كان بلا هامة رشيق القوام وان كان بلا قوام ـ أقصد أن سعادة البيك الذى رأيته يسير هكذا يحاول اظهار نفسه على هذه الصورة

وليس فيه سوى ثياب فاخرة : جلباب من الصوف المفتخر وعباءة من الجوخ وحذاء مستورد وعمامة بشال من الحرير الخالص وعطر ونفاذ ٠ لكن كل ذلك لم يخف رائحته الحقيقية ، فعرفت دون حاجة الى اثباتات اخرى أنه صاحبى (كحكوح) وقد لبس بعد الضنى حريرا فى حرير ٠

لم أندهش مطلقا ، فصاحبى يستطيع أن يفعل ما يشاء فى هذه البلاد دون أن يكون لديه من مقومات الفعل سـوى ثمن المسئولية ، فبالنقود يجد دائما من يدافع أو من ينافق أو من يتغافل أو من ليس موهوبا سوى فى القبض ٠ ظللت ألهث وراءه حتى حاذيته ونظرت فى وجهه ورحت أطوح ذيلى بنشوة وأتراقص ، وهو ينظر لى باسما فى تشف أو حقد لست أدرى ، لكنه تركنى أسير ، حتى رأيتـه يدخل شـقة « البتعة » ، فتجرأت ودخلت وراءه فاذا بحضرة صاحب السعادة الكلب الأجنبى يفزع نابحا فى وجهى حتى ضعفت قواى وتلاشت من الرعب مع أنه كان مربوطا فى جنزير من الفضة ٠٠

أخذ صـاحبى و « البتعة » يضـحكان من رعبى ويشـجعانه على لينهشنى ويمزق أنفى ووجهى بأظـافره ، وكنت أكتفى بالعواء الواهن والصوات المتوجع ٠ اننا معشر الكلاب مثلكم لا نخاف من شىء فى الدنيا قدر خوفنا من بنى جنسنا الأقوى منا جسدا أو شكلا أو استنارة ٠ وهكذا لم ينقذنى من خوفى سوى « البتعة » حيث أوصته بى خيرا وراحت تقذف له بالشيكولاته فى فمه ٠ مع ذلك ظللت أرتعش وأنا أتابعه يرتع فى فراغ الشقة رائحا غاديا فى هرولة متبخترة واثقة متعالية ، كذلك أتابع (كحكوح) والبتعة وهما يتابعانه فى بلاهة منبهرة ٠

كنت قد أحسست براحـة عظيمـة اذ توصلت أخـيرا الى صاحبى (كحكوح) ، فالواحد منا لا يحس بوجوده الحقيقى الا فى الزمن الذى يكون فيه مسئولا عن شىء ، نعم لابد أن يكون هناك ما أحرسه أو أدافع عنه أو أهوهو لحسابه أو أعطيه الونس ٠٠

على أن صاحبى كحكوح وهو نذل كما تعلمون وزوجته البتعة وهى رقيقة كما تعلمون أيضا ، لم يسمحا لى بالانتظار · صاحت البتعة فى أن أنصرف ، فسكّت اللكاعة طويلا ، فصرخ كحكوح فيما يفتح لى الباب : « بره » ، فانكمشت على نفسى وتمسحت فى قدميه لكنه صاح مناديا حضرة صاحب السيادة فجاء يجرى كالفهد ، وكنت أظنه مثلنا يقوم بالتهويش حيث لن يهون عليه لحمى يمزقه ، فاذا بظنى هذا وهم واذا بابن جنسى ينزع من عنقى هبرة كبيرة خلفت فى عاهة مستديمة ·

نزلت أعوى ولم يعطنى الألم فرصة للعدو فمكثت تحت المسلم طويلا لا نصير لى ولا عائل · فلما التأم جرحي تبينت أن ألفة قامت بينى وبين المكان فظللت لا أبرحه · وكنت قد تأكدت من أننى لكى يسمح لى باللجوء الى هذا المكان فان على أن أصير بدورى حارسا وخادما لصاحب السيادة الكلب الأجنبى · فمع أن سيادته لم يكن محتاجا لأى حراسة بل انه كان أفخم بكثير من حراسه وأوقع للرعب فى القلوب منهم ، الا أن وفدا من الخدم كان يصر دائما على مرافقته ولو بحجة الفرجة · ولأنهم ورثوا مشاعر الخدم وسلوكهم فان وجهاءهم كانوا أسرع من فقرائهم فى اظهار التملق للكلب وابداء الرغبة فى الخدمة ·· حتى أنا كنت أهرول خلفه وأتقافز متحمسا بالغ الحماس كأننى أشارك فى زفة عريس أو فى بيع تحفة نادرة ·

— ٤ —

يعود كحكوح فى كل ليلة يتطوح ، حتى أن فوانيس السيارة المرسيدس التمساحة تصنع مقشة من الضوء فى يد طفل لا تكاد ترميها يمينا حتى تردها يسارا ··

اذ يطفىء الأنوار ويوقف المحرك ويهبط ضاربا الباب خلف ظهره فى عنف لا مبال يقف ملقيا نظرة لا مبالية أيضا على السيارة فيجد أنها

غير منضبطة فى ركنتها ، ويرى أن مؤخرتها لو حاذت الحائط قليلا لأصبح الشارع سالكا يسمح بمرور عربة مثلها ، لكن ذلك يقتضيه مجهودا · انه بالكاد يستطيع أن يقود السيارة فى شوارع العاصمة ، وبهلوانية عظيمة منه أن يدخل بها مجرد الدخول الى هذه الحارة فكيف يركن على الشعرة وما الى ذلك ·

يعرف أن عشرات من السائقين والراجلين والمحملين سوف يتوقفون عند سيارته حائرين لا يعرفون كيف يمرون · ويعرف كذلك أن شيئا لن يحدث على الاطلاق حتى لو انسد الشارع تماما ، حتى مجرد اللعنات ، حتى البرطمة ، حتى مجرد الشعور بالاشمئزاز ، حتى مجرد الاحساس بأن هذا خطأ ، أى شىء من ذلك لن يحدث مطلقا بل على العكس ربما تطوع واحد أو اثنين أو ثلاثة فعدلوا سيارته فى وقفتها كيفما اتفق ، وان عجزوا عن معالجتها فسوف يعالجون وضعهم هم · يعرف كذلك أن كل التناقضات تتدفق فى شوارع هذه البلاد فى نفس اللحظة وتتعايش وتتكيف بل وتتآلف بشكل مذهل حتى لتصير عائلة متماسكة بمونة من أسمنت عجيب هو مزيج أعجب من الأخلاقيات واللاأخلاقيات ، من الكرم والخسة ، من البشاعة والسلاسة من الدمامة والجمال من المرارة والعذوبة من الصبر وعدم الاحتمال ·· يعرف هذا الفيلسوف أن الجاهل الفيلسوف ان الشعب الأزرقى قد أصبح هكذا لأنه فاق الحد فى قدرته على تجاوز المشكلة وليس على حلها ··

فى الظهيرة وهو قائم يحشش فى بلكون الحجرة المطلة على الشارع يسمع ويرى من خصائص الشرفة كيف يختنق الشارع كله والمنطقة كلها بسبب الحارة التى تصب فى الشارع ويصب فيها والتى اختنقت بالسيارة التمساحة ، ومع ذلك يقول للولد الذى يسقيه : « أسرع بعشر حجارة اخرى حتى أنزل وأفتح لهم الشارع » · ومهما أسرع الولد فان اصطباحة المعلم كحكوح لن تنتهى قبل الثالثة ظهرا · ينزل بعدها لعمل مشوار او مشوارين لدى أحد المهربين أو التجار أو أحد أقسام البوليس ، ثم

يعود ليطبق فى صدر الديك الرومى أو ذكر البط و الجدى الصغيرى المشوى ·

فى الجيران رءوس كبيرة وعالية المقـــام لو سلمنا بالمنطق المفهوم للعقلاء ، وكلاء وزارات ، صحفيون ، مهندسون ، أطباء ، مشخصـــون وكتاب ، رجال من ذوى الرسمال المعتق فى الكتمان ، تجار فول وطعمية وأعلاف يملكون العمارات فى ضـــواح بعيدة ، سماسرة وعربجية · تشكيلة عجيبة من السكان تحفل بها الحارة ولكن رأس كحكوح هى الأعلى وكلمته هى الأنفذ ورغبته هى القائمة · فالأمر فى هذه البلاد ليس لمن فى يده الأمر ، انما الأمر لمن فى يده النقود الكبيرة ، خذها حقيقة مسلما بها من كلب حكيم مثلى ·

لا تنزعجوا يا أهل الدراما فلست براو للأحداث فحسب ، ورويدكم يا نقاد فانما أنا معنى بالحديث عن بنى الأزرق قدر ما أنا معنى بعرض سيرتهم · ولذا أقول بأن تأريخهم عهود وفترات وحقب منفصلة لا يربطها سوى الشقاء ، ومصدر البلاء كله ما استقر فى أرض الوجدان من بذور البذل والبر ، الأمر دائما معسكران حكام ومحكومون ، ولأن المعسكر الأول يعيش دوره حتى النخاع فان المعسكر الثانى هو الآخر يعيش دوره حتى النخاع ، ولا معابر بين الاثنين سوى ما يلخصه المثل العتيق الشائع الدائم دوام الأبد فى هذه الربوع : « اللى تعرف ديته اقتله » ، وحكمة المثل أن لا شىء فى الدنيا بلا ثمن وما دمت تملك ثمن الشىء فادفعه دون تسويف تنج بنفسك وحياتك : ولهذا فبنو الأزرق يمجدون الرسمال بصرف النظر عن مصدره ويرفعون قدر أهله بصرف النظر عن أصولهم وجوهرهم · فى مجتمع كهذا يصبح كحكوح حاكما بأمره · جميعهم يرى كل شىء لكنه يلغى من ذهنه كيفية استجلاب المال ولا يتذكر الا صيرورة حال ذوى الأموال ·

آه لو ترون كيف تسير « البتعة » بضع خطوات فى الحارة لتصل الى باب السيارة أو باب البيت · تنفتح كل الشبابيك وتبصبص العيون

الفرو المنطرح على كتفيهـا ووهج الذهب المنتشر على صدرهـا وأذنيها وذراعيها ورائحة العطور النفاذة التى يقولون أن الزجاجة منهـا بالف دولار ، وتتناقل الشفاه من نافذة لبلونة ومن بلكونة لمنور ومن منـور لسطوح هامسة بأن « البتعة » ـ المضروبة ـ لا تزال صبية وصاحبة أرفع خصر ، وانها رغم ثرائها تجيئها كل هذه الملبوسات الفاخرة ذات الأذواق الملوكية هدايا من الأمراء والشيوخ ورجال المال الذين تعرفهم وتورد لهم الحب والليل الساهر البهيج · قد يظهر بعض الحقد على بعض الوجوه المتعالية أو بعض الاشمئناط فى الشفاه الممرورة ، ولكن الحظ منهم من اذا توقفت عنده الحاجة « بتعة » فهزت له رأسها بعواف أو تمسى بالخير · يا لها من فرحة تلك التى يرد بها ، مهما كان أفنديا محترما أو مثقفا فانه قد يعقب على رد التحية بمزيد من المجاملات والدعوات ·

عجبت لهـا هى الأخرى تقترف الاثم وتفعل الثواب معـا وبنفس القوة · تتاجر فى الحرام وتنشر الممنوع ، وتحج كل عام ، وتنفق عن سعة فى سبيل الله ، صدقات ومرتبات سرية لرجال محترمين ، حفلات قرآن وزار ومداحين وموالدية ، هذه ليلة لأهل الله ، وتلك فى رحاب السيدة وثالثة تقربا للحسين ورابعة على شرف لا أدرى وخامسة تأييدا لمرشح المنطقة ، ومهما تنفق فى هذه الحفلات من أموال باهظة فان ما يدخل اليها يصل الى عشرات الأمثال اذ أن رجالها يقومون بمزاولة نشاطهم الحقيقى وراء هذه المظاهر البريئة ، وأخطر الصفقات وأحلاها ما جاء فى حفل تحرسه عشرات المظاهر والنفوس الفرحة ·· ويد البتعة التى شبعت من تقبيل الشفاه اللاهثة المحمومة شبعت كذلك من تقبيل الشفاة المنتنة الشاكرة ·

— ٥ —

لم يكن أحد ليتصور أن البتعة يمكن أن يصيبها العجز أو الشيخوخة أبدا ، فعشرات الأطباء تحت أمرها فى كل لحظة مع خبيرات التجميل ·

لكن العيون لاحظت أن صحة البتعة فى النازل · الا أن موظفا فى هيئة التامينات يسكن فى الحارة ويدمن قراءة الجرائد عرف أن أموال الحاجة بتعة قد وضعت تحت الحراسة ، بأمر من المدعى العام الاشتراكى ·· فكانت فرصة لأن يعرف الجميع مقدار ثروتها ، وكانوا رغم فداحة المبلغ يفتحون أفواههم صائحين فى بلاهة : « بس ؟ » ، ثم يتبعونها منبهرين : « يا ···ه دا مبلغ كبير قوى » · فلما تابعت الجرائد أخبار الموضوعين تحت الحراسة من تجار المخدرات تيقن الجميع أن البتعة لن تقوم لها قائمة ·

ما أذهل الجميع أن قاضى نيابة الاشتباه ، أو محكمة القيم لا أذكر ، قد أفرج عن أموال البتعة · هكذا نشرت الجرائد والناس عادة يحتفظون بالجرائد ليس لحدث تاريخى هام بل لمناسبة كهذه · وهكذا قرأ أهل الحارة الخبر ودققوا فى الحروف عدة مرات واقتنعوا أن حيثيات القاضى قانونية تماما لا يأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها ! وعلى الرغم من ذلك ظهرت البتعة فى نظرى مهمومة وليست على ما يرام !!

— ٦ —

سعيت أتمسح بين قدميها كأننى أقـول لهـا : « مالك فيه ايه مزعلك ؟ » · لكنها لم تكن تحس بوجودى ، انما كانت تربت على ظهر الكلب الأجنبى قائلة : « لم يعد سواك مخلصا أمينا لى » · وكان الكلب الملعون بقوامه الأهيف يشب واضعا ذراعيه على كتفيها كأنه يهم بتقبيلها فاذا هى تحوط عنقه بذراعيها ماسحة رأسها ورقبتها فى عنقه ورأسه وبنشوة بالغة تزحف كفاها على جذعه الناعم القطيفى · وكانت تبكى ملء المآقى ، وصاحب السعادة الكلب « ميشو » يشعر بالسأم والملل من البكاء ويتركها ويذهب الى بعيد ثم يجلس مريحا خده على أماميتيه .

قامت هى الى المطبخ وقمت أنا الى ميشو · تمسحت به ثم داعبته ببوزى فى كتفيه على استحياء وحذر · فنظر الى فصحت به فى غبطة : « هنيا لك يا عم » ، فأزاحنى ببوزه المستطيل بدفعة رمت بى الى بعيد ، فاعتبرتها مداعبة ودية وعدت اليه هامسا فى مسكنة : « ما الذى حل بسيدتى ؟ » · هو مثل كل من يوضع فى صف المستنيرين من الجنس الأرقى لا يحب كثرة الكلام ، فزومة واحدة أو زومتين ، وبنظرة ذكية ، لمزة لبقة أفهمنى أن النذل كحكوح قد خانها فى طفلة صغيرة على سريرها هى وأنها من طيبة قلبها سامحته فاذا به أول أمس يعزم أحد كبار رجال الأعمال على الغداء تتقدمه من رجال الأعمال هدية بسيطة تساوى مئات الآلاف من الدلارات ، فأقامت المعلمة عزومة هائلة لكنها فى النهاية فوجئت بان الثرى الكبير ينتظرها على سرير نومها · فكيف أيها الكحكوح الحقير ؟ أتشتغل قوادا على زوجتك صاحبة الفضـل العظيم ؟ ·· هكذا راحت المعلمة تنشال وتنحط وتدمر كل ما تطوله يدها · وكانت تقصد تدمير راس كحكوح لكنه زاغ منها بمهارة ··

هذه هى الحكاية اذن ؟ أى نعم ولها الحق فى ثورتها كما تعلم · هكذا رد صاحب السعادة الكلب ميشو بهزة من رأسه ، وكشأن الكلاب المستنيرة من الجنس الأرقى همس فى أذنى معلقا بقوله : « صحيح ان سيدتك لا مانع لديها من النوم تحت هـذا الثرى الكبير ولكن ما أثار جنونها هو أن يكون ذلك عن طريق كحكوح بنفسه » · قلت له : « هكذا طرد كحكوح من الجنة » · قال : « وطرد معه الثرى الكبير شر طردة » ·

ثم استأنف صـاحب السعادة وقد أنس الى فقال انها فى اليوم التالى ثابت الى رشدها وأدركت مدى فداحة غلطتها ، وظلت تسأل نفسها فى ضيق واشمئزاز : كيف عاملت هذا الثرى الكبير بهذه المعاملة القاسية رغم أنه جاملها بهدية تساوى عمر مدينة بكاملها من مدن بنى الأزرق ؟ ان هديته لجديرة بالاحترام حتى ولو كان وراءها غرض ! ما الغرض يعنى ؟ مضاجعة ليلة أو بضع ليال ؟ لقد سبق لها أن ضاجعت أصبع مخلوقات الله بلا ثمن بل كانت تدفع الثمن ·· رجل كهذا لم يكن ينبغى

أن تخسره بهذا الحمق ، وقد كان هناك حلولا كثيرة للانفلات من مأزق المضاجعة غير الذىّ فعلت خاصة وأنها خير من يخلص من مأزق كهذا دون أن تترك أثرا من الغضب على الطرف الآخر ··

ثم ان قلب سيدتك ـ يقول صاحب السعادة ـ خفق بشدة وكاد يسقط فى ساقيها وهى تستعيد صورة الثرى الكبير لحظة دخولها عليه · دهشت لحظتها حين دخلت حجرة النوم لتحضر أشياء من درج التسريحة ففوجئت به فى مرآة التسريحة يجلس على كرسى بجوار السرير متخففا من بعض ثيابه ، فتجاهلته وصارت تعبث فى درج التسريحة ولكن عيناها عليه من طرف خفى فاذا به يفتح فمه من فرط الدهشة والذهول والشبق بل والتحفز ، حتى خيل اليها أنه سيندفع نحوها وينقض عليها لثما وتقبيلا بل وتمزيقا ، ولولا رعشة واضحة تملكته لخافت منه وفرت هاربة · على أن ذلك نفسه كان مثيرا للدهشة على أى حال ، فأطالت من البحث فى الأدراج عامدة الى التمعن فى عينيه فوجدت أن شررا أحمرا كان يتطاير منهما وآب الى سحابة من الدموع جافة وقاسية قسوة تمتد صلابتها فى وجنتين بارزتيّن وفك مستطيل مطبق على أسرار كثيفة غامضة ، وما بين الفك والوجنتين ظلال لا تدرى ان كانت لشـــعور بالقهر أم بالفروسية أم بالصبر الحكيم ·· وجه من عشرات الوجوه المألوفة لديها من مئات الآلاف الذين قابلتهم فى مشوار حياتها ، يلبس فاخر الثياب وأغلاها تقول من بعيد انها من أكبر محلات لندن وباريس ، أكبر دليل على عراقته فى الثراء تهدل مظهره وخشونة الجسد المستور بالثياب ، نفس مظهر الباشوات القدامى حيث كانت مثل هذه الملاحظات لا تلغى أنه باشا ابن باشا ليكن فى الأصل من بيئة ضالة شقية ولكن أصلك وقتك كما يقول المثل الحكيم الشائع ··

واذ هى تستدير لحظتها لتخرج من حجرة النوم يائسة من العثور على ما كانت تبحث عنه ناداها برجفة نابعـة من فؤاد مكلوم : « بتعة هانم ·· من فضلك يا بتعة هانم » · استشعرت فى صوته نبرة كريهة

تشعر بها البغى العريقة اذ ينثال فى هذه اللهجة رجاء رخيص · فصاحت مشمأنطة متعالية : (لحظة واحدة من فضلك) ، ثم خطت ، فلاحقها صوته فى شبق متعجل : « بس ماتغيبيش على والنبى » ، فاستدارت اليه عاقدة ما بين حاجبيها فى قرف لا يتناسب مطلقا مع حجم العزومة او حجم الهدية صرخت فيه كأنها تلعن أباه : « ايه ده ·· فيه ايه » · قال الثرى الكبير بجرأة وصفاقة : « ده كلام برضه مش عارفه فيه ايه » · بنظرة احتقار شديدة راحت تشيله وتحطه فى الأرض عدة مرات · نهض اليها واقترب منها وكان قوى البدن كثور راسخ الخطو كجمل · أراد ان يسترضيها بطريقته فوضع يده على خصرها قائلا : أنا مش قصدى أزعلك » ، فدفعته بعنف وبصقت فى وجهه ، ثم اندفعت خارجة فى هياج الثيران الاسبانية تنطح وتدمر وتزمجر ، حتى ان المسكين كحكوح لم يؤت الفرصة لفتح فمه وكان من الذعر والغباء قد تلاشى تماما · فلما خرج كلاهما مطرودا ظلت سيدتك تنتفض وتضع نفسها تحت الدش ساعات طويلة وتفتح التليفزيون الملون ثم تغلقه وتدير الفيديو كاسيت بعشرات من الأفلام العالمية الشهيرة وبغيرها ··

فلما تنفس الصبح زفرت عن صدرها كل المشاعر السالفة وهيأت صدرها لقليل من التروى ، وفكرت بهدوء : هذا الكلب كحكوح كان من الممكن أن تقوى على تحجيمه بفضل رجفة كهذا ·· لقد كان راغبا فيها الى حد الجنون ·· انه صيد ثمن واعد بخير وفير والغبية لم تحتفظ به على الأقل لاستخدامه كسند يعاونها على الخلاص من كحكوح · ولكن ـ وبرقت فى عينيها نظرة استبشار عريضة ـ انه رغم سوء ما فعلت قائلا : « اتمسى بالخير يا بتعة هانم » ، أى أنه يحتفظ لها بخط الرجعة ، كان عند خروجه مطرودا لا يزال يحتفظ بابتسامته اللبقة بل انه حياها فرجل كهذا يضحى بهدية كهذه لا يقطع حبل الود بسهولة وهى على اى حال موقنة أن لقاء الأمس لن يكون آخر لقاء · ثم قررت أن تنزل الشارع لترفه عن نفسها قليلا ، وأن تستدعى الكلب كحكوح وتطيب خاطره وتدحلبه حتى تعرف منه الكثير من المعلومات عن هذا الثرى الكبير

الذى فاجاها به وكيف تأتى له أن يتسلل داخلا الى حجرة النوم ، هل دخلها بناء على اتفاق تم بينه وبين الكلب كحكوح ؟ أم أن الرجل داخ من الافراط فى الشراب فأذن له بالدخول ليستريح بصفاء نية ؟ ··

ثم إنها شرعت تسوى الفراش وتغير طاقمه كعادتها كل يوم ورفعت الوسادة فتطايرت بطاقة صغيرة سرعان ما انقضت عليها وقد انبثق بداخلها فرح عظيم مصحوب دائما فى خيالها بصورة ذلك الرجل الذى علمها القراءة والكتابة ·· وكانت نظرتها قد استقرت منذ برهة على البطاقة « عبد الجبار » · شعرت بسخونة الغيظ من نفسها تسرى من أسفل قدميها الى رأسها · لن تسمى البتعة بعد ذلك ان لم تعده اليها راكعا على قدميه · ثم ان سيدتك قلبت البطاقة وجهها الآخر فوجدت كلمة موجهة اليها ترجوها الاتصال به فى عنوان كذا · ثم سيدتك من فرط البهجة صارت تداعبنى كما رأيت وأنا لم أكن أهتم بمداعبتها ليقينى أنها تداعب فى شخصى شخصا آخر أو أملا آخر ·

ثم رمقنى صاحب السعادة بنظرة ذات معنى وكأنه يكيد لى بما سوف يراه فى صحبة سيدتى بعد قليل · لكن هذه النظرة هدمت الحواجز الطبقية بينى وبينه فمنحت نفس حرية التعامل معه كأصدقاء ، فاندفعت أتشقلب أمامه بحركات هوجاء لطيفة تثير رغبته فى الضحك والشعور بالتفوق على ، وانتهز فرصة انبساطه فأنطحه برأسى فى عنقه أو أصعد فوق مؤخرته أهارشه وأتمسح فيه · فلما استكن وأحسست انه قد تلقف حبل الود منى ، رجوته ـ كأخ أكبر ـ أن يصطحبنى معه فى هذا المشوار فهو الوحيد الذى ان سكت عنى أعطانى شرعية المشوار · الحق لم يسكفنى الأخ ميشو بل رسم لى كيف أذهب ، سوف ينفتح باب السيارة ليدخل سعادته فأتسلل أنا دون شوشرة وأدفن نفسى فى الفراغ بين الكراسى الخلفية والأمامية وحين تكتشف سيدتى وجودى عند الوصول سوف تسلم به وأمرها الى الله ·

باب الريح

● عبد الجبار يأخذ غرضه من البتعة :

ـ ١ ـ

ظللت منطرحا على فرش السيارة لا أنبس ببنت شفه ، انما أبصبص بعينى ، فلما وجدت أن البصبصة بالعينين يستتبعها تطويح ذيل قد يفضحنى أغمضت العينين تماما وكان صاحب السعادة الكلب « ميشو » منجعصا على الكرسى الخلفى وحده كنجم عالمى مهيب لا يأبه بانبهار الأقوام ولا بتحاياهم · يتحرك من أول الكرسى الى آخره ليسجل فى كل اتجاه جلسة · وعندما نزلت سيدتى صاحب فى كثير من الابتهاج : « ينيلك ·· ؟ انت جيت ·· والنبى أصيل » فقدمت لها ما يليق بها من قواعد البروتوكول الكلابى وجعلت أمسح المكان فى رحابها ··

اذا بنا فى ضاحية جديدة نوعا · « فيلا » من خمس طوابق غاية فى المهابة والأناقة ، تحوطها حديقة مزهرة وتقع فى نهاية شارع متاخم الخلاء تحفة أشجار شابة صبية ، على باب الفيلا لافتة نحاسية لامعة مكتوب عليها « فيلا عبد الجبار » ضغطت سيدتى فوق زر على باب « الفيلا » فاضيىء النور فى عديد من الشرفات وارتفعت أصوات قبيلة كاملة من الكلاب اهتز منها صاحب السعادة قليلا لكنه استوعب اللحظة ثم صار يطلق زئيرا يفح بانذارات حاسمة ، واذا بصوت ينبثق من ضاح

باب الفيلا تبينا فيه صوت الثرى الكبير قائلا : « مين هناك » فقلنا جميعا في نفس واحد « احنا الحاجة بتعة » ، ثم بحثنا عن مصدر الصوت فوجدنا جهازا لاسلكيا يشبه جهاز الراديو الترانزستور مثبتا في صدغ الباب الخارجي ، هكذا عرفني به صاحب السعادة ميشو وأضاف قائلا بابتسامة من يعرف أنني سأنبهر لابد : « أن الثرى الكبير يكلمنا الآن من فوق سريره عبر جهاز كهذا ٠٠

ان هى الا دقائق حتى انفتح باب الفيلا واقتادنا أفندى أنيق جدا ولكن العين لا تخطىء انه بواب حقير ٠ صعدنا بضع درجات ودخلنا الى اليمين الى صالون يمتد كملعب ويحتشد بالأرائك والكراسى المطعمة بالأصداف ، ترابيزات وطقاطيق عليها غير ما على الحوائط تماثيل وأوان وقطع فنية نادرة لكنها رغم فخامة البيئة تبدو كأنها قطع من الحديد الخردة فى مخزن تاجر غشيم ٠

بعد أن قامت سيدتى بجولة بل كل هذه الأشياء وتفحصها بعين واعية ، اختارت ركنا فى الصالون قريبا من الداخل ويتميز بأن محتوياته وكراسيه تأخذ الطابع الفارسى بألوان زاهية ٠ ثم جلست ٠ انبعثت رائحة العطور فى أنحاء المكان ولكنها عطور كما لو كان يشوبها شىء من العفن ٠ فمال صاحب السعادة ميشو وهمس فى أذنى قائلا : « الرائحة الطيبة هى رائحة الأشياء المجلوبة الى هنا وأما العفن فرائحة السكان » ٠ هززت رأسى قائلا فى اعجاب : « يا لك من حكيم » ٠

دخل سفرجى يلبس لباسا أفخر من لباس الفنادق ٠ وضع أمام سيدتى صينية فضية عليها زجاج وكوب ودلو صغير من الفضة يمتلىء بمكعبات الثلج ٠ همس صاحب السعادة فى أذنى بأن هذه الزجاجة اسمها شمبانيا وأنها من أغلى الأصناف وأجودها لكنها أبدا ليست مشروب أهل هذه الدار ٠ قلت كيف يا صاحب السعادة ؟ ٠ قال : « أصالة الشىء وأصالة استخدامه شىء آخر ٠٠ والشىء الثمين يفضح الدخلاء من سوء استخدامهم له » ٠ قلت : « ما الذى تريد قوله بالضبط يا صاحب

السعادة ؟ قال ضائقا من غبائى : « نحن باختصار أمام جسد من أصل دونى يتلفف بثياب وأدوات عالية المقام » ٠ قلت وأنا أهز رأسى فى سويحة تعلمها الأزارقة « وايه يعنى ٠٠ المهم انه راجل جدع ٠٠ لو ما كانش جدع ويستاهل النعمة دى ما كانتش جاءت له » ٠ ثم استدركت قائلا : « احذر أن تكون من اياهم » ٠ قال : « من هم ؟ » ٠ قلت : احذر ان تكون شيوعيا فكلامك والحق يقال كلام الشيوعيين » ٠ سلقتنى منه نظرة احتقار شديد ، ثم برطم : « متخلف أنت كأهلك وأصحابك ٠٠ ان الجسد الدونى اذا ما أدخل نفسه فى ثياب عالية المقام تتحول الثياب الى كفن ٠٠ أن الأبهة شىء لا يشترى أيها الغبى وان كان لديكم من يشترى أدواتها ومظاهرها جاهزة فانه يشتريها بثمن خرافى يفقد فيه شرفه وانسانيته مقابل استمرار تدفق المال بين يديه لينفقه على استمرار هذه الأبهة الكاذبة ٠٠ والدليل على ذلك ٠٠ الدليل على أن هذه الأبهة ان هى الا كفن فخيم يلف جسدا متعفنا ، هذه الرائحة الكريهة التى تطغى على روائح الأشياء الثمينة والعطور الراقية ٠٠ انه جسد مات من زمن طويل وتعفن ولكن ماكينة الكسب التى أنشأها ابان حياته لا تزال دائرة كما هى لا تكف عن صب النقود فى الخزائن » ٠ قلت : « ما الأبهة الحقيقية اذن يا صاحب السعادة » ٠ قال انها تلك التى تنشأ مع الانسان ، فلكل مخلوق فى هذه الدنيا مهمة غريزية لو أنه انتبه لها وفهمها لاصبح له فى الأبهة أسلوبا فريدا يحتذى ، لكنكم ـ يقول سعادته ـ فى بلادكم تستوردون كل شىء حتى مظاهر الأبهة وفى ظنكم انها تعطيكم الأبهة بالفعل فى حين انها تحيلكم الى مسخ واذا لم يكن فيكم من يعرف انكم الآن فرجة العالم المتقدم وغير المتقدم تكونون اذن مسخا على الحقيقة والخلقة الالهية ٠٠

ثم أضاف قائلا بالحرف : « العالم المتقدم ـ يابنى الأزرق ـ قد اقام لكم حفلا تنكريا ، ربما أنه يعرف شخصياتكم الحقيقية واحدا واحدا فانه يلذ له بالغ اللذة تجاهل شخصياتكم الحقيقية ومعاملتكم بشخصياتكم التنكرية ، بل انهم يمعنون فى انكار شخصياتكم الأصلية والاعتراف

بشخصيات الثياب التى ألبسوكم ، لأن الثياب التى ساعدوكم على التنكر فيها هى التى تحقق لهم مصالحهم الجوهرية بين ظهيرانيكم » قلت له : « ولكن أصحاب الدار يبدو من العز أنهم ناس طيبين » فشخ صاحب السعادة حنكه عن آخره وأطلق ضحكا كالعواء أو عواء كالضحك ، ودفعني بذيله علامة على الاستهانة بى والاستهجان لأفكارى ، ثم قال : « اسمع يا هذا ٠٠ انت وقومك ها هنا تؤمنون بخرافات لا يصدقها عقل ٠٠ فكل من يلبس لباسا فاخرا بعض الشىء أو يصرف عن سعة أو يستخدم أشياء ثمينة تصفونه على الفور بأنه ابن ناس طيبين ، كيف بحق الله تقترن طيبة القلب والنبالة والطهارة بمثل هذا المظهر ؟ ألم يدر فى خلدكم وأنتم تحكمون هذا الحكم أن اللصوص والمجرمين والقتلة ٠ والسفاحين كلهم يلبسون فاخر الثياب وغالى الرياش وثمين الأشياء ؟ » قلت له مدليا أذنى من الكسوف : « مضيفنا كبير المقام لابد » عوج شفتيه فى اشمئناط : « لص ابن لص ٠٠ غير أنه لص عصرى ، آخر طبعة من طبعات اللصوص التى تتدفق عنها عبقرية المكان من ناحية وعبقرية الشركات الرأسمالية الكبيرة من ناحية أخرى ٠٠٠ انها شركات لا تعمل لحساب نفسها فحسب بل لحساب دولها بالدرجة فرعا فى كل مدينة من مدائنكم ، فلابد لها من وسيط حريف صايع » ، ثم تثاءب وأضاف : « لعن الله بلدا تنتشر فيها التوكيلات ٠٠

زحفت ظلال شممنا فى أثرها رائحة الثرى الكبير ، الذى دخل يرتدى الروب دى شامبر الأنيــق فوق المنامة وخف من الجلد الطبيعى الثمين ٠ عملاق ، وجهه المستطيل المسحوب فى صرامة ينتفض بالحيوية والدماء ، وبالنشوة العظيمة ، كفارس اجتاز كل المتاريس وعبر الأنهار والبحار وها هو ذا أخيرا يشرف على شاطىء الفوز العظيم ٠ انتفضت سيدتى قائمة وقد تحول وجهها الى بسمة عريضة نابضة ممتنة خجلة ، لم يكن فى عينيه شبقا هذه المرة ، ولا تعجلا ، ولا أى أثر لشىء حدث من قبل ٠ برصانة كبيرة مد لها يده الكبيرة ذات الأصابع المستطيلة ،

فأطبقت بيديها عليها فى حنان ، فهز رأسه بابتسامة غفران ، فاهتز جسدها من الانفعال وارتمت على صدره باكية ٠٠

كانت يده الكبيرة لا تزال مستسلمة ليديها اذ راحت ترفعها وتقبلها عدة مرات والثرى الكبير يستغفر ولكن فى استمتاع دونى ٠ توقفت نظرتها لبرهة سريعة خاطفة على خاتم فى اصبعه استغربت جدا لوجوده بين هذه الأصابع التى تفر ملايين الجنيهات كل يوم ، هو خاتم رخيص مما يباع فى أسواق القرى والموالد ٠٠ ثم انها انفجرت ضاحكة طقطقة غزيرة ، فارتعش وغاضت الدماء من وجهه قليلا وقال : « علام تضحكين ؟ » قالت سيدتى انها تضحك اذ اكتشفت دليلا على طيبة قلبه لأنه وهو القادر على لبس الألماظ واللؤلؤ يتواضع فيلبس خاتما كهذا يجدر أن يلبسه واحد قرداتى ٠ زام الثرى الكبير ثم عقب قائلا ان الخاتم دليل فعلى على طيبة قلبه اذ هو يمثل بالنسبة له ذكرى طيبة لا يجب أن ينساها ، ثم قال : « المهم لعلك بخير » قالت سيدتى انها آسفة لما حدث ٠ قال الثرى الكبير : « بنت حلال وحق الله » ٠ أحسست فى نبرته غمزة مخيفة ، قالت : « لعله خيرا » ٠ قال : « كلبك غير الأمين كان هنا بالأمس » ٠ انتفض صاحب السعادة فغمزته قائلا ان الرجل تحفظ بقوله غير الأمين أى أنه يقصد كلبا بشريا ٠ وقالت سيدتى للثرى : « أى كلب تقصد ؟ » ٠ قال الثرى : « كحكوح » شهقت ، ثم اعتدلت جالسة تنتفض فى تحفز كبير ثم رددت : « الكلب كان عندك » ثم صــاحت : « أحب أن أعرف علاقتك بكحكوح ٠٠ أو علاقة كحكوح بك » ٠٠

– ٢ –

لم تعد محتاجة لاقتناع بأن الثرى الكبير غير طامع فيها ، بل لقد كشف لها عن رقة ودماثة لم تعهدها من قبل فيمن عرفتهم ٠ كان يكاد يرفع ذيلها عن الأرض ، ويقدمها على نفسه فى كل شىء ويفرغ لهــا

الشراب فى الكاس ، وبنفسه يهيىء لها الطعام ، وينتظرها فى الموعد على أحر من الجمر كمراهق كبير ، ومع ذلك لم يقل لها ما علاقته بكحكوح بل لم يقل لها لماذا كان يزوره يوم قال انه زاره . كيف نسيت هى أن تسأله ؟ كيف اندمجت مع الثرى فى حديث عن الفن وأمريكا ولعبة النساء والمخابرات الأمريكية ونظام البنوك ونظم القبض والصرف والبيع والشراء والتقدم ؟ عديد من المواعيد واللقاءات فى كل منها قررت أن تتفرغ لمعرفة علاقته بكحكوح ولكنها لا تتذكر شيئا من ذلك الا قرب قدوم موعدها معه ..

أبدا لم تكن تعيش قبل أن تلتقى بالثرى الكبير ، كل ماضيها كان مجرد « بروفة » أو تدريب على حياة هى النعيم كما وصفه الله فى قرآنه العظيم ، الولدان المخلدون ، والأرائك والزرابى المبثوثة والقطوف الدانية وأنهار العسل والخمر كل ذلك رأته البتعة فى قصور الثرى واستراحاته المتعددة التى تجىء دائما وبشكل أو بآخر على ضفة النهر فاذا كان نهر بنى الأزرق يمتد فى أحشاء أراضيهم فانما لكى تقام على ضفافه مثل هذه القصور والاستراحات المبنية بالرخام والمعدن الثمين . كل ما يمكن أن يحلم به الانسان من جنان باسقة رأته فى صحبته الا شيئا واحدا لدهشتها العظيمة لم يحدث ولم يهم كلاهما بالآخر فى أى لحظة ، اذا كانت هى قد شغلتها الجنة وأضواءها عن نداء الجسد فما الذى شغله هو ؟ هل ليثبت لها أنه ليس يسعى لغرض رخيص ؟ هى لن تصدقه مطلقا اذ هى كأنثى تدرك من أعماقها رغبته الدفينة فيها ، تضبط نظراته المختلسة وتتجاهلها لعدم احراجه ولكن ياله من قوى ، أكان يريد أن يوصلها الى هذه الدرجة من الاشتياق حتى تقوم هى بالطلب والمحايلة ؟ لا تنكر أنها توشك أن تفعله بين لحظة وأخرى ولا يمنعها سوى اطمئنان كمن فى أعماقها بأن اللقاء الجسدى سوف يحدث .. سوف يحدث . وكانت هذه الموجات من اللغط تضرب جدار ذهنها مبارية أمواج رأس البر حيث تقف الاستراحة مطلة على ذلك البرزخ الذى هو بينهما : ماء البحر

وماء النهر .. فلا يبغيان ، بل يحترم كل منهما الآخر ويمضى فى حدود نفسه كأنهما متوحدان منفصلان فى آن معا ..

وكان الثرى الكبير مشغولا عنها لحظتئذ بشاب دميم الوجه متماسك الهندام مرن الهامة ، معه جهاز تسجيل وأوراق وأقلام ، يقضيان ساعات طويلة فى الغرفة المطلة على الماء وهى مجاورة للشرفة التى تجلس فيها الآن ، مستجيبة لتنبيهاته بعدم اظهار نفسها للشاب أو لأى أحد من زوار مصيفه . سألت نفسها كثيرا عما يشغلهما هذه الساعات ، ولما خرج الشاب وعاد هو اليها سألته نفس السؤال فقال الثرى الكبير انه يكتب مذكراته لينشرها فى الصحف وفى كتاب .. أسوة بزعماء البلاد الذين دأبوا على كتابة مذكراتهم هذه الأيام ؟ .. هكذا سألته البتعة مبتسمة فى براءة ، فصحح لها قائلا فى جدية وبساطة انه أكبر من كل هؤلاء .. هتفت واقفة وقد شعرت أنها فى مهب ريح قوية عاتية ، صاحت فى فرحة ساذجة : « أنت اذن عبد الجبار ؟ » . قال بغضب حقيقى دفين : « أى نعم أنا هو .. ألا تقرأين الصحف أو تشاهدين التليفزيون ؟ » ، قالت انها تشاهد وتقرأ ولكنها دخلت اليه ـ على ما يبدو ـ من الباب الآخر ، فهى لم تكن تتوقع أن يتنازل عبد الجبار ويزورها فى منزلها المتواضع . ذلك أبعد عن ذهنها صورة عبد الجبار وان كان الشبه واضحا بشكل حاسم ..

ثم انها استرخت فى كرسيها مستسلمة لخدر لذيذ سرى فى أعصابها كالنشوة البالغة ، هى لم تعد تستبعد أى شىء يحدث فى حياتها ، كل ما حدث فى حياتها كان من قبيل الأساطير .

مددت ساقيها المرمريين وتركت الريح تنصب فوقهما خيمة صغيرة من ذيل فستانها الأنيق الرقيق ، وقالت : « هل كنت تعرف أحدا من رجال الثورة الأزرقية من قبل الثورة ؟ » . شوح قائلا : « لا والله .. لكنهم فى النهاية بشر مثلنا ، كلهم أبناء يحلمون بالمستقبل وبالبيت الملك والرصيد الذى يبيض كل يوم ، ان الثورة لابد أن يتلم سلاحها

اذا ما مر على هذه العضلة بالذات من عضلات الضمير ، فلا يحز فيها خاصة اذا كان الثوار ابناء ناس على قد حالهم ، هم صحيح عظماء وقاموا بثورتهم على الأرجح ، هذه مسائل قد لا تفهمين فيها ولكنى سوف أدونها فى مذكراتى ، انها شهادتى للتاريخ ، ومع كل ، فأنا من ذوقى لن أقول هذا هكذا بل ربما أشفق على بعض الأحياء فيهم كما أتعفف عن تجريح الأموات ، المهم ٠٠ » ٠ ثم تعلقت نظرته فى شرود داخل الخيمة الصغيرة التى كانت الريح تزغرد داخلها وتصنع صوتا موسيقيا جميلا ، ضاع منه خيط الحديث داخل الخيمة ، بل ضاع هو نفسه ، فهبطت هى بالكرسى فانفرشت الخيمة على صدرها وظهر وجهه مبهورا مذهولا كطفل يرى العرى لأول مرة فى حياته ، ثم انها قربت وجهها منه فى نداء لاهب ، فانقض على شفتيها وصار يأكل فيهما وقد احتواها بين ذراعيه فى قوة حيوانية كادت تحطم عظامها الرقيقة ، حتى اذا ما وصل اشتعالهما أوازه نزع نفسه باسما فى لذة ، تاركا اياها كالسمكة تنتفض على صفيحة ساخنة ، قامت اليه فى ضراعة ، تجاهلها بنشوة ، وذهب يفرغ لنفسه كأسا ويشعل سيجارة ، فلاحقته ولثمته فى كل مكان فألهاها عنه بكأس قدمه لها ثم قطعة لحم مشوية ، ثم تركها وذهب الى الشرفة وجلس يشرب ويتابعها فى لذة فيما هى تحاول تبريد نفسها وكتمان غضبها بنكات قديمة غير مضحكة ٠

— ٣ —

أخيرا جاءتها الفرصة دون أن تسعى اليها ، اذ قال لها وهما يجلسان فى استراحة قصر التيه : « ما أخبار كحكوح ؟ ٠٠ أخشى عليك من جنونه ٠٠ آفة الشم أتت على مخه تماما وهو يستطيع أن يفعل أى شئ فى لحظة جنونية ٠٠ أنت طبعا تعرفينه أكثر ولكننى اعرفه أعمق ٠٠ زوجك أبو شافية رحمه الله كان مظلوما » ٠٠

صرخت سيدتى : « حتى هذا الأمر تعرفه » ٠ قال : « طبعا ٠ ولو قدر لى رؤيتك أيامها لقلت لك الحقيقة بكل حذافيرها ولأمكن مراجعة القضاء فى الحكم عليه » هبت سيدتى واقفة تصيح فى ألم : ولماذا لم تتصل بى ٠٠ تقول انك تعرفنى من زمن طويل ٠٠ ولديك معلومات عنى وعن زوجى ٠٠ فلماذا لم تبحث عنى ؟ » ٠ قال عبد الجبار : « مع الأسف الشديد لم أكن فى البلاد أيامها ٠٠ كنت مسافرا سفرة طويلة وكانت الأنباء تتأخر فى الوصول الى ، فلما عدت الى أرض الوطن عرفت كل شئ » قالت سيدتى : « وما الذى عرفته عن أبى شافية ٠٠ قل أرجوك » ٠ قال عبد الجبار باسما : « عرفنى كحكوح بأبى شافية ٠٠ فتحملت سخف كحكوح وجنونه من أجل خاطر أبى شافية ٠٠ كان فى الواقع يعاوننى فى شهامة ورجولة ٠٠ وقف معى فى معركة مع أصحاب الحوش الأطرش حين أردت شراءه منهم كحظيرة أخزن فيها سيارات النقل الخاصة بشركاتى ، نعم ذلك الحوش الذى أقمنا عليه فيما بعد احدى شركات المياه الغازية ، كانوا طامعين فى وكدت أستخدم العنف معهم لولا تدخل أبى شافية فى الأمر لقد أثر عليهم وأثر فى فاصطفيته ونفعته من ورائى كثيرا والحمد لله ، وكنت أتابع أخباره أما كحكوح فأنا أعرف كيف أستوسه وانتفع منه دون أن يدرى وبرخص التراب » ٠٠

ثم قدم لها قطعة حلوى وطوح بأخرى فى فمه واستأنف يلوك الكلام : « زوجك يرحمه الله ٠٠ كان كحكوح قد رجاه أن يصالح عليه زوجته وكان فى الأصل يريد التخلص منهما معا ليتفرغ لك ويرث أموالك وأموال المرحوم ٠٠ وكان قد أعد عدته ٠٠ وهذا الحشيش المضبوط تحت سرير زوجته صفقة سرقها من ولد غلبان وادعى له أن الشرطة هاجمته فتركها ونفد بجلده ٠٠ فلما استجاب زوجك للمشوار حدثت الطامة الكبرى » ٠

توقفت أسنان سيدتى عن المضغ وبلعت اللقمة بدلا من بصقها ٠ وأخذت تمسح دموعها المنهمرة مرددة : « الكلب ٠٠ الكلب » وصاحب السعادة الكلب ميشو يهدد بأزمة دبلوماسية كبيرة وأنا فى السر أرجوه

ضبط النفس وفى العلن أتضـــامن معه فى نباح رقيق نوعا · قال عبد الجبار : « بتعة هانم ·· أنت الآن فى الأمان ولن تتوصل يد كحكوح اليك بعـد الآن » · صاحت واقفة تدمدم من الغضب : « الطـلاق ·· الطلاق » · « قال عبد الجبار : « أنا كفيل بذلك » · قالت : « أينوى بى شرا ؟ » قال : « نعم ·· مؤكدا » قالت : « هل كانت لهديتك وزيارتك لى صلة بهذا الأمر » قال : « ربما » قالت : « كيف طلبت منه أن يوصلك الى ؟ » · قال : « لم أطلب منه ذلك » · شربت سيدتى جرعة ماء · قال عبد الجبار باسما : « كحكوح يعزمنى على الغداء منذ عشر سنوات على الأقل ·· فلما وجدت الفرصة مناسبة لبيت له طلبه ·· هذا كل ما فى الأمر ·· وأما الهدية فأنا شخصيا حين أدخل بيت أحد للغداء فلابد من هدية لائقة » ·

رددت من جديد : « الطلاق ·· الطلاق » · ابتسم عبد الجبار وضغط على ذر ، فدخل أفندى يرتدى أفخر الأزياء ولكن العين لا تخطىء انه باطجى كبير · شده عبد الجبار من أذنه وهمس طويلا ، فاختفى الأفندى · ودعيت سيدتى للانتقال الى حجرة الصالون · حيث جىء بالفاكهة المثلجة والشمبانيا وأديرت الموسيقى الخفيفة · ودخل عبد الجبار قائلا : « ولكننا نسينا شيئا هاما يا بتعة هانم ·· هذا الكلب كحكوح سوف يلاحقك بالشكاوى وسوف يزور امضاءك ويوقعك فى مشـاكل لا حصر لها مع الضرائب والحراسة ، على الأقل سيخلق لك جيشا من الموظفين الحكوميين يعيشون على حسابك ظلما وعدوانا » · هى قد جربت ذلك ، ولا تزال تصرف على بيوت بأكملها من رجال كانت وظيفتهم فى الأصل مراقبتها وتدبير الهجوم عليها ، قالت : « وما العمل ؟ ·· لو كان لى ولد أو ذرية لكتبت لهم كل شىء باسمهم ·· لكن ·· » ، ثم اندفعت دموعها كشلال ساخن ودافق ، حتى ان عبد الجبار أخرج منديله من كم الجاكت ومسح به رذاذ دموعها المتناثر على وجهه هو ، وهم بأن يمسح لها دموعها ولكنه تردد وأعاد المنديل الى كمه صائحا : « فيه حل واحد » · نظرت اليه بلهفة · أجاب : « تبيعى كل أملاكك ·· وتشترى بالفلوس

كلها شهادات استثمار لا ضرائب ولا حجوزات مهما كانت الوفات ·· وعلى فكرة ·· أقدر أخدمك فى البيع ·· أجيب لك أعلى سعر ·· انتى محتاجة لوجع الدماغ ؟ محل وشركة وجرايم ودوشة ·· أى واحد تحطيه مشرف على محلاتك حياكلك ألف فى الميـه ·· ثم انك مش محتاجـة للتوسع ·· مكسب الشهادات وفوائدها لوحدها حتعيشك حياة الملوك مدى الحياة ورأس مالك زى ما هو بل يمكن يزيد ·· وبعد الحـكاية ما تقدم شوية وتتنسى ، أقدر أدخلك شريكة بالأسهم فى أى شركة من شركاتى » ·

أشرق وجهها بالبشر · صاحت : « والله فكرة ·· طب ياريت ·· عندك مشترى ؟ » · ابتسم : « نخلق المشترى ·· بشرط أن يكون على هوانا ·· على كل حال ·· سوف أكون أنا هذا المشترى ·· ولكن لابنة شقيقتى وهى طالبة فى كلية الآداب ·· وأنا سعيد بابنة شقيقتى ولهذا فارجوك أن تكونى قاسية على فى طلب المبلغ الذى تشائين » · اشعلت سيدتى سيجارة وضعتها فى المبسم الذهبى ثم ذكرت له آخر رقم مالى صعد اليه ثمن كل محل من محلاتها · فرفع الثرى الكبير كل رقم ثلاثين فى المائة من سعره المقترح · ثم انه ضغط على ذر فدخل اليه خادم فأمره باستدعاء محاميه ومحاسـبه · وقامت هى وطلبت بالتليفون محاميهـا ومحاسبها ·

ثم ســاد هدوء شـامل لبرهة كأنما لتفصــل بين زمنين ، قطعها عبد الجبار قائلا : « والله سلامات » · قالت باسمه : « الله يسلمك » · فقال ان جيش الموظفين الحكوميين ينتظر ان تهديه الظروف بواحد مدان للحكومة حتى ولو على باطل ، لتدخل عليه جحافل فى منتهى الطيبة والمسالمة غير أنها تريد أن تعيش بقية عمرها على حسابه ، بل ربمـا اعتمدت عليه فى تحقيق طموحاتها المادية وأحلامها القديمة ، ثم أضاف : « لقد عانيت منهم كثيرا ولكننى عرفت منذ البداية كيف أتصرف معهم وعلى اى نحو أعاملهم ، انهم بحكم البؤس الذى يعيشونه والراحة التى يعيشها غيرهم يتصورون ـ دون استعداد للتنازل عن تصورهم ـ ان

الآخرين ينهبون بل يغرفون من آبار الحرام .. ثم انهم يوازنون الأمر بينهم وبين أنفسهم .. هم طول عمرهم لا يحبون الحكومة ، لا يحبونها اذ هى فى نظرهم مصدر سخرة لا تعمل أبدا لصالحهم .. لطالما نهبت الحكومة من الخراج والضرائب لأفندينا ولمحمد على وللعائلة المالكة ولكن الحكومات التى كانت تعتبر نفسها طبقة أعلى من الشعب والباقى مجرد خدم لهم .. الحكومة كانت دائما هى قبضة الملك المالك تنهب لحسابه وتفتك باسمه بكل الناس .. فى القديم كانت الحكومات تتكون من أهل الملك أنفسهم : أبناؤهم أعمامهم وأخوالهم وأصهارهم ، فلا يملك جهاز الموظفين الا أن يكون ترسا فى أيديهم .. أما الآن فان الحكومة فى وادى الأزرق تتكون من أعوان الحاكم والهبيشة وخدمه الخصوصيين ، فحاكم وادى الأزرق ورث الحكم ولم يرث عراقة التقاليد ولا الثقافة ، ولذا فان أعوانه يديرون الجهاز لحسابهم الخاص فى مقابل تأمينه من أى طامع فى السلطة أو من أية ريح تهب ، ووأد كل طفل تتنبأ العرافة بأنه يهدد عرش الفرعون .. الحكومات فى وادى الأزرق ، يا بنعة هانم انما جاءت لتخدم مصالح السادة ورفاهيتهم .. وقد ورث الموظف الأزرقى حقيقة عبرت عنها حكمته الشهيرة : أخرة خدمة الغز علقه ، الغز يعنى الأتراك .. يعنى السادة أصحاب الشغل والوظائف التى تسمى بالحكومية .. ورث حقيقة أنه مجرد خادم ، وأنه من ثم لن يكون محل ثقة من رؤسائه أبدا ، لتأكده من أن رؤساءه أصلا ليسوا أهل ثقة أو ضمير .. لعل المثير للسخرية يا بنعة هانم ان أبناء الشعب الذين ورثوا الحكومة بعد ثورتهم ورثوها كما هى بنفس المنطق ونفس المفهوم ونفس السلوك .. فتحولوا الى جهاز من الموظفين الغلابة يقف على أكتافهم هرم من الغيلان والانتهازيين !! » .

ثم فشخ حنكه عن أسنان سوقية الشكل والتكوين كأنها أسنان حيوان ، وكان صنبور الكلام الفارغ قد توقف فى فمه . فابتسم من جديد قائلا : « سوف أكتب هذا أيضا فى مذكراتى » .

— ٤ —

انعقدت الجلسة فى الصالون الكبير بالدور الأرضى بقصر التيه وتمت كتابة العقود وحصل كل من المحاسبين والمحامين على عمولته نقودا حية وانصرفوا جميعا وهم فى غاية النشوة . وتسلمت سيدتى شيكا بمبلغ امتدت أصفاره وأرقامه حوالى بوصة كاملة ، ثم قررت وهى تضعه فى حقيبة يدها انها من غد ستحوله الى شهادات استثمار تضعها فى خزينتها الخاصة بالبنك الأزرقى . أما عبد الجبار فقد أصدر أوامره بتشكيل وفد خاص لاستلام الممتلكات . ثم انه — اكراما لخاطرها — قرر أن ينهى علاقتها بكحكوح فى أقرب فرصة .

— ٥ —

كانت الساعة قد لحقت بمنتصف الليل فى استراحة القناطر الأزرقية حين يجيء بكحكوح فى عربة جيب سريعة مصحوبا — أو مخفورا — بثلاث من سائقى اللورى ومقاولى الفواعلية العاملين باحدى شركات عبد الجبار . وكانوا قد تلقوا معلومات من قصر التيه أن « الرجل » على سهر فى انتظارهم بالاستراحة . فما أن وصلوا حتى اقتادوا كحكوح الى حجرة الصالون ، حيث جلس وشرب الشاى ثم القهوة ثم التمر هندى ثم بدأ يرفع صوته بالاحتجاج فى زئير مكتوم يردد ألفاظا غامضة . فلما فوجئ بعبد الجبار يدخل عليه ابتسم وحول ضجره الى حركات فكاهية ضاحكة . صار كالقرد تماما يتمسح فى عبد الجبار ويتراقص ويسلم ويسأل عن الصحة والأحوال كأنما عبد الجبار ابنه التلميذ العائد من المدينة . أجلسه عبد الجبار بضغطة رقيقة ضاحكة قائلا : « بطل غلبة بأه » . ثم جلس قبالته ومال نحوه فى ود كبير ، وبصوت يحمل شحنات هائلة جدا من الحب والأخوية والتواضع قال له : « قلبى معاك يا منيل

على عينك .. ناوى تعمل ايه فى المصيبة اللى حلت عليك دى ؟ » .
انتفض كحكوح وقد اصفر وجهه كورقة شجر ذابلة ، ردد فى لعثمة :
« خير يا سعادة البيه .. اللهم اجعله خير » . قال عبد الجبار كابن بلد
مصفى ينشر ظله على أخيه فى شجاعة وايثار : « أنا فى الحقيقة خفت
عليك .. انت مهمــا كان بتنفع . وأنا زى ما انت عارف أخاف على
رجالتى .. حتى اللى بطلوا يتعاونوا معايه بيفضلوا فى نظرى رجالتى
برضه لأنى يمكن فى يوم من الأيام أحتاج لهم .. وباحتاج لهم ...
وعشان كده حبيت أجيبك من تحت الأرض عشان أنبهك قبل ما تقع
الفأس فى الرأس » .

استوعب كحكوح هذه العبارات جيدا وبرقت عينه من خلال السحب
عدة مرات كالشرر المتطاير ، وشد نفسا عميقا من السيجارة ابتلعه قائلا :
« فيه ايه يا سعادة البيه » قال عبد الجبار : « البتعة مقبوض عليها من
امبارح » . صاح كحكوح واقفا كأنه يبحث عن نفسه : « ايه » . واصل
عبد الجبار : « مباحث أمن الدولة قبضت عليها .. أصلها كانت متزوجة
واحد من الضباط الكبار من حاشية رجال الثورة .. وكانت مشتركة
معاه فى تهريب أسلحة وتجسس وتآمر على الحكم وبلاوى زرقه » ، انحط
كحكوح جالسا وقد انهارت كل قواه ، انطفأ البريق فى عينيه تماما ،
وبكى ، وصارت قدمه الصغيرة تهتز بعنف وجسده كله كلعبة خشبية
بزنبلك ، حتى دموعه كانت تبدو متدفقة من خزان فى دماغه . قال
عبد الجبار فى حنان : ماتخافش يا كحكوح . أنا برضــه حانقذك من
الورطة .. أنا عمرى ما أفرط فيك حتى لو أنت ندل زى عوايدك ..
امبارح كانوا بيدوروا عليك » . صاح كحكوح : « فعلا .. فيه جماعة
زى المخبرين كــده ســـألوا على فى الحته » . برق الذكاء فى عينى
عبد الجبار ، قال : « طبعا .. أنا عارف .. لو مسكوك اللهم انهم مش
حيسيبوك مدى الحياة .. دا اذا ما كانش فيها اعــدام .. أصــلهم
بيعتبروك شريك البتعة وانك واضع يدك على كل الأموال اللى هربتها ..
وبيتهموك بما هو أبشـــع .. بانك بتمول حركة متطرفة من الجماعات

الاسلامية اللى طلعت لنا اليومين دول » . انفجر كحكوح ضاحكا خلال
الدموع المنهمرة ، ثم صاح باكيا : « أموال .. حركة اسلامية ؟ » .
قال عبد الجبار : « أنا متأكد انك مش ممكن تمول نملة .. الكلب بتاعك
انه يشهد عليك طول النهار صايع وما صدق شافنا ماسبناش .. ثم
انك لا تفهم لا فى الاســلام ولا فى دين .. انت تفهم فى تطليع الدين
معلهش .. لكن هما معتقدين كده وادى الله وآدى حكمته .. شوف
مين حيسمع كلامك أو يصدقك قال كحكوح فى مراوغة مفضـــوحة :
« مسكينة والله .. دانا من يوم مازعلت منها بطلت أوريهــا وشى بس
كنت مطمئن ان العمل بتاعها ماشى .. هى ما شاء الله كانت كل ساعة
فى محل بتفتش وبتجرد وتراجع وتمسى على الرجالة .. دلوقت مين
حيعمل لها ده ؟ » . انفجر عبد الجبار ضاحكا فى مرح وتشف خبيثين .
قال : « أموالها ايه وأملاكها ايه يا عم كحكوح كل سنة وانت طيب » .
هب كحكوح واقفا مرة أخرى : « ايه ؟ » . واصل عبد الجبار : « النهاردة
استلمتها الحراسة خلاص .. ما عادش حد يقدر يتصرف فى أى مليم
ولا هى نفسها » . من بين سحب كثيفة جدا برقت عين كحكوح برقة
سريعة خاطفة ، ثم ردد كالغريق : « بلغنى .. تصدق انى بلغتنى حاجة
زى كده ؟ » . قال عبد الجبار : « بلغك ايه ؟ » قال كحكوح : « ناس جم
قالوا لى فيه لجنة راحت دكان الآثار وطلبت الدفاتر ومفاتيح الخزنة
والدواليب ودنيا مقلوبة .. رحت معرض السيارات وبصيت من بعيد
لقيت برضه حاجة مش طبيعية .. دا حتى الرجالة بتوعك جابونى من
هناك وأنا عمال ألف حوالين المعرضين » . قال عبد الجبار وهو يكتم
ضحكه : « لم يعد لدينا الآن ســوى ان نفكر فى انقاذك .. انت لن
تستطيع الهرب مدى الحياة .. خصوصا فى قضايا أمن الدولة .. كله
الا هذه » . صاح كحكوح وهو يهم بشق الهدوم : « طب وأعمل ايه ..
ياربى » . قال عبد الجبار : « بسيطة يا حمار .. تطلق بتعة .. بس
أطلقهــا بتاريخ قديم .. قديم شويتين » . قال كحكوح : « أطلقهــا
بحسابى ؟ .. طب ومين اللى حيطاوعنى على التاريــخ القديم ؟ » قال

عبد الجبار : « مالكش دعوة .. ممكن أخدمك الخدمة دى على شرط تطلع راجل معاية مرة واحدة . مظبوط ؟ قال كحكوح : « أنا خدامك يا سعادة البيه » . قال عبد الجبار : « لن أطلب منك شيئا الآن .. فلست نذلا مثلك أبيع خدماتى وأقبض فى الحال .. لا ... ولكن .. سأدخر عندك جميلا يحق لى ان أطلبه فى أى وقت أشاء » . قال كحكوح فى صدق حقيقى : « رقبتى لك يا سعادة البيه » . صاح عبد الجبار : « اطلبوا المأذون الخصوصى بتاعى » . علق كحكوح فى سعادة : « يا سيدى .. هو كده » واستأذن عبد الجبار فى خمس دقائق . وجلس كحكوح يفرك يديه ليهدىء من الفوران الذى بداخله ، ثم أفرغ مسحوق البرشام وشم دورين بسرعة مذهلة ، ثم حشر فى فمه تلقيمة مدغة وصار يبصق فى منديله الجربان ..

ثم انه طلب قهوة فجىء بها ، وطلب سجائر فانفتحت له العلبة الصدفية على الترابيزة ، ثم فوجىء بشاشات متعددة فى كافة أركان الغرفة وزواياها البارزة لتليفزيونات ملونة تعرض ألوانا شتى من المناظر ، فصار ينحاز الى هنا تارة وها هنا تارة أخرى حتى نسى نفسه تماما فى تيار من الصور العارية يمضى فى سياق وحوار حتى طار لبه من الفوران ووقف على حيله عدة مرات بدأ خلالها كحيوان شرس محبوس فى قفص ، ثم ان الشاشة انطفأت فجأة وتركته محيرا لبرهة . فلما عاد بصره يألف المكان حوله وجد المأذون يجلس بجواره قائلا : « أهلا بك وسهلا » . انتفض كحكوح مذعورا : « أهلا » وسلم عليه بيده فى تملق يخفى عدوانا غريبا . عزم عليه بسيجارة من العلبة الصدفية وأشعلها له وبدا ان المأذون غير مدخن . فصاح فيه كحكوح بغيظ مكتوم : « لما مابتشربش بتاخذها ليه ؟ » ثم زام . وضحك المأذون وقال انه لا يرفض الخير والا كان جاحدا . فزام كحكوح مرة أخرى وقال بصوت ممرور محزون : « تبقى حتوافق ! تبقى عمرك ما ترفض أى حاجة ! بشرة خير يا مولانا ! ياريت لنا عندك حاجة أكبر » . ودخل عبد الجبار على عجل . وقال كحكوح

لنفسه ان الدقائق التى غاب فيها عبد الجبار كسب خلالها عشرات الآلاف من الجنيهات لمجرد حضوره فى بيع صفقة أو كتابة عقد ..

قال عبد الجبار لمولانا ان كحكوح ـ وهو أحد كبار رجاله ـ يريد ان يتخلص من زوجته اللعينة التى كانت شورتها هبابا فى هباب . صاح مولانا قائلا خذوهن بالمعروف وطلقوهن بالمعروف . قال عبد الجبار : « اعمل انت المعروف وطلع ورقك » . فأخرج المأذون أوراقه وصار يكتب الصيغة المعلومة ، وعند التوقيع مال عليه عبد الجبار وهمس بالتاريخ المطلوب . فتردد المأذون قليلا ثم مد ذقنه وسحبها عدة مرات فى همسات طريفة مفضوحة الحوار ، أخيرا هز يده مع رأسه محددا بأصابعه الخمس أقصى مدى من الشهور يستطيع اللعب فيه ومعالجة وضعه . فوافق عبد الجبار بهزة من رأسه فكتب المأذون ووقع كحكوح وجىء بسائق اللورى ومقاولى الفواعلية فوقعوا شهودا على الطلاق . ثم أشير للمأذون الى مظروف أصفر منتفخ قليلا على الترابيزة بين الأشياء فأخذه المأذون ودسه فى حقيبته بارتعاشة نشوانة ، ثم هب واقفا وألقى السلام ثم انصرف .

وحين هم سائق اللورى بالانصراف استبقاه عبد الجبار ، ثم وجه الحديث الى كحكوح قائلا . « انت بقى .. يلزمك راحة شهرين ثلاثة كده تقضيهم بعيد قوى .. عايزك تختفى اليومين دول عن البلد .. حط القسيمة فى جيبك واتكل على الله .. اسمع .. الأسطى حسنين يقدر يسفرك بلدهم فى الفيوم ويستضيفك فى بيته شهر شهرين ثلاثة زى ما أنه عايز .. وخد المبلغ ده معاك أصرف منه لحد ما ترجع لطرحك .. أى مزاج أى شىء الأسطى حسنين يبقى ياخدهولك معاه فى أى وقت » . ثم ربت على كتفه فى حنان كبير واستأذنه فى الانصراف . ونظر كحكوح الى الأسطى حسنين وقال له : « بينا يا أسطى ناخد التموين ونتكل على الله .. أنا فعلا عايز أستريح لى يومين .. أنا أعصابى تعبانة قوى يا أسطى وخايف أموت عندك » . قال الأسطى حسنين : « فى بيتك ياكحكوح .. يلا بينا » . وسحبه من ذراعه فى رفق ومضى .

.. ذهلت البنعة وهى تسمع نص ما حـــدث ، أى حواديت وأى اساطير يحدث فيها مثل ما يحدث الآن . وقال عبد الجبار وهو يخلع سترته ويعلقها على حامل معدنى انه لم يعمل حساب الخطوة القادمة وهى ان كحكوح قد يكتشف وجودها عنده فيما بعد فماذا يكون موقفه هو ؟ ثم قال وهو يتخلص من البنطلون ان هذه مشكلة سوف يجد لها مخرجا لابد . ودس ساقه فى البيجامة ثم عاد فخلعها ورماها وارتدى الجلباب الحريرى الأبيض .

ثم أمرها عبد الجبار أن تقوم وتعد الطعام فنهضت كالغزال متجهة نحو المطبخ . مضى وراءها فى طفيلية تكشف عن صابع قديم . أحست خلفها بنظرات تطلق اشعاعا كريها . فلقد أصبحت من طول المراس والتجربة ترى بظهرها ، فاذا كان المعجبون بجسمها يعتبرون ان ظهرها وجها آخر لها أكثر ابهارا وجنونا من وجهها الأول ، فانها توقن من أن لوجهها الآخر عيون تبصر بها كل شيء ، وتـرى النظـرة الشرهة وهى تتسلق قناة ظهرها البارزة صاعدة من مؤخرتها بعد طول تلكؤ ثم هابطة من جديد الى الساقين . ذلك الاشعاع الكريه الذى أحســـته فيما هى متجهة الى المطبخ ذكرها بصور قديمة كريهة بل ذكرها بصور مطموسة من قريتها يفح منها الخوف والعفن والغموض ..

انحرفت الى المطبخ فانحـرف وراءها . قالت لنفســـها : ليس بمعقول ان يطاردها هكذا كالطلبة الغرباء يلاحقون المرأة الغسالة فى المطبخ ، فى حين انها كانت شبه عارية أمامه منذ برهة . لكنها تجاهلته ، وصارت ترفع ذراعها لتحضر حلة أو لتفتح بابا فيمتطى جسدها ، ثم انه دخل دورة المياه وسمعت هى بعد قليل نثيث مياه الدش فوق جســـده وسمعت وحوحته الطفلية السمجة ، وأحست لأول مرة ان هذه النبرة الصوتية المعبرة عن النشوة الخائفة أو الخوف النشوان تعرفهـــا جيدا

استمعت اليها من قبل ولم تحبها . ثم انها شرعت تعد الصحون وتسخن اطعمة كانت فى الثلاجة جاهزة ، فاذا بها تحس بصهد خاف ظهـــرها مصحوب بظل كثيف ثم اذا بجسم صلب يخترق عجيزتها فى ســـوقية ذعرت لها من أعمق أعماقها ، وكان رد الفعل المباشر أن تستدير اليـــه فتصفعه بالكف على وجهه أو تبصق عليه ، لكنها تذرعت بالهدوء وحاولت الابتعاد معبرة عن ضيقها ببسمة معووجة ممرورة ، وكانت تنوى التغاضى عن مثل هذه الحركات البذيئة مثلما تغاضت من قبل ، حيث تبين لها على طول التنقل بين المجتمعات ان البذاءة والسوقية بين كبـــار القوم لا مثيل لهما فى الدنيا ، لكن صفحة من الماضى البعيد دفعت بها الريح امام عينيها فكأنها جدار ثقيل نزل بينها وبين عبد الجبار ، جدار ثقيل اسود فصل فى الحال بين عهدين حاسمين ، فقبل هذه اللحظة كانت قد اشتهته أما الآن فهى واثقة تمام الثقة انها لن تشتهيه بأى درجة ، لقد أحست بهبوط القرار فى أعماقها داويا لا رجعة فيه ، لهذا أمعنت فى تجاهل عبد الجبار ، وبكل رزانة وثبات كأنها امرأة غريبة عن الدار أخذت تعيد ترتيب الأطباق والشوك وعلى وجهها كثير من الحـرج والصلابة . ما ان استقرت فى وقفتها حتى شـــعرت بصهد الظـل الكثيف يزحف نحوها . فبعثت اليه من فوق كتفها نظـــرة استنكار تحمل كثيرا من التقزز . فكان وجهه الغليظ المكلبظ جلد طبلة مرتخية متكسرة يرتسم عليها ما يشبه الابتسام الأبله ، ثم انها تذكرت هذه البسمة البلهـــاء الكريهة لكنها لم تتذكر بالضبط أين وممن ، لكنها تدرك انها تكرهها كره العمى . بثبات راحت تخرط الأوطة فى دوائر رقيقة ، فاذا به يلتصق بها دفعة واحدة ويطوقها بذراعيه لاهث الأنفاس يطلق فحيحا عميقا أجوف بدائيا . صارت تحرك نفسها بين ذراعيه بعنف وهو كالطود الراسخ حتى انهكت وتركت نفسها بين ذراعيه كخرقة بالية ، فلما انتفض على ظهرها كالذبيح وتخلخلت قيزده حولهـــا ردت اليها الروح ، غير ان ارويحة قبيحة بللت عجيزتها فشعرت بقرف حاد ، وكانت أنفاسه الكريهة لا تزال فى أنفها فتيقنت فى الحال انها تعرف هذه الأنفاس جيدا ولكنها

لا تعرف أنفاس من على وجه التحديد انما تعرف انها تكرهها وتتمنى الموت لو قدر لها النوم لصاحب هذه الأنفاس .

استدارت اليه وقد تجمعت البصقة فى فمها ، لكنها تذكرت انها فى بيته وانه عبد الجبار صاحب وادى الأزرق وزعيم المنشنين ، فابتلعت بصقتها كارهة ، فانتابها غثيان ودوار ، سيطرت على نفسها حيث قررت فى نفسها أن تقاوم الغيبوبة أو الانهيار بأقصى ما تستطيع ، لكنها لم تستطع السيطرة على الغثيان ، فاتجهت الى حوض المياه وأمالت رأسها عليه وتهيأت لافراغ ما فى جوفها كله ، لم تكن تقصد أن ترسل عجيزتها الى بعيد وقد صارت شيئا منفصلا عنها متصلا بها عبر جسر من غدير ، ما لم تتصوره مطلقا حدث ، فوجئت بالجسم الصلب يخترق عجيزتها من جديد كعود من الحديد وفوجئت بحيوان ذى مخالب يتسلق ظهرها ليقبض على ثدييها ويفعصهما فى عنف شرس ، فانتفضت واقفة فى غضب شرس كفرسة جامحة ألقت به الى الوراء يضحك فى صبيانية بلهاء ثم نظرت فيه غاضبة حاقدة ، ثم أنبته بنظرة أخـــرى ، ثم استدارت من جديد الى الحوض ومالت نصف ميل وقلصت معدتها و .. تقيأت ثم أفاقت لكنها تصنعت التعب وتركت المطبخ متجهة الى حجرة النـــوم وارتدت فوق كتفيها سترة روب ، ثم جلست على كرسى مريح ، فجاء خلفها كطفل مذنب وضيع ، وجلس قبالتها ، قال بصوته المتحشرج : « مالك .. ما كنتى كويسة من دقايق .. حصل ايه ؟ » سلقته بنظرة ، لكنه فلفص منها وقال : « أجيب لك دكتور ؟ » . قالت بسرعة وحسم : « لا .. مفيش داعى .. أنا كويسة مفيش أى حاجة بس أعصابى مش مظبوطة » . قام اليها فاستقبلته بنظرة اشمئناط ورفض واستياء ، جلس بجوارها فوق حافة الكرسى حاشرا الحافة بين ضلعى مؤخـــرته ، وطرح ذراعه حول رقبتهـــا فنظرت اليه فى رجاء كأنهـــا تقول : « اعمل معروف سيبنى دلوقتى » . فوضع رأسه على عنقها كطفل مدلل وقال : « عايزانى أســـيبك اقلعى الروب » . فنهضت وخلعت سترة الروب ورمتها بعيدا ثم جلست على كرسى آخر فى ركن بعيد ..

اعتدل فى الكرسى واســـتدار به فواجهها قائلا فى شىء يشـــبه التهديد انهـــا اليـــوم غير طبيعية ، ثم أضاف بأنه الليلة على ما يرام ولم يشهد لمزاجه انتعاشا طول حياته مثلما يشعر الليلة ، نعم فلقـــد عاش السنين الفائتة كلهـــا يعمل ليل نهار كالماكينة الالكترونية التى ضبطوها على حركة معينـــة فهى لاتنى تدور فيهـــا بدقة محسوبة حتى الجنس لم يشعر له بلذة أبدا لأنه لم يكن ملتفتا اليه فى شبابه وحين تزوج اختاروا له ابنة ثرى لم يشعر نحوها بالحب أبدا وان كان يشهد بطيبة قلبها وحسن أخلاقها وتربيتها ، وجودها فى حيـــاته كأى شىء يقتنيه ، حتى وهى تسهر معه فى بعض السهرات أو ترافقه فى بعض المناسبات ، تسير تحت أبطه كشىء معلق فى ذراعه لا تغـــار ولا تسأله عن خصوصياته ولا تفعل أى شىء من هذا القبيل ، بل هى فى الفراش بكل جمالها الخارق ترتمى اليه كشىء يمتلكه ويمارسه وقتما شاء .. وقد أتيح له أن يرتاد مجتمعات الجنس وأندية العراة فى شتى أنحاء العالم ، وانفتحت أمامه شقق وبيوت لا حصر لها تحوى نساء كالفاكهة الناضجة ، لكنها فى النهاية لا تثيره ولا تمتعه لاحساسه القوى بأنها لم تنفتح له بل انفتحت لأمواله ، ان أمواله تسبب له عقدة جنسية عويصـــة ، فكل النساء اللاتى أقبلن عن فراشه طائعـــات كن بدافـــع من اثنين : اما ردا على هدية قيمة واما انتظارا لهدية قيمة .. وكان يمارس معهن الجنس أى نعم ولكن كنوع من الألعاب الرياضـــية المجنونة لا يحس بعدها انه قد استراح أو هدأت بأعماق صدره الجمرات المتقده ، بدليل انه لم يكن يحس بالهياج الحقيقى الا حين يرى امرأة أخرى بعد انتهائه من المضاجعة مباشرة ، فما أن يقترب الى المرأة الأخرى موضع الاشتهاء حتى تنكشف له أعماقها عن تاجرة جشعة ..

ثم ضحك عبد الجبار بصوته الأجش ضحكة لا معنى لها . طردتها الضحكة من أذنيها ونهضت قائلة انها تشعر بالرغبة فى العودة الى البيت لتنام شهرا بأكمله حيث كانت قد دهمتها جحافل من الصور القديمة

الجديدة كلها ذات طابع مخيف حتى وان كان بعضها يأخذ سمة الضحك والمرح ، أشياء تكرهها وأشياء لا تعرف ان كانت تحبها حقا أم لا ، أمها وهل لا تزال على قيد الحياة ؟ خالها وأبناء خالها ومن عاش منهم ومن مات وماذا يا ترى حالهم ؟ عنتر كباية وهريدى وذلك الذى كانت تدعوه بمختار ، ورجال الثورة وحدائق اللبؤة وجبل المقطم كل ذلك تداخل فى بعضه وتناحر وتعارك وهد قواها فبدت مهزولة على غير ما يرام . اكتأب عبد الجبار فجأة وتحول وجهه المكلبظ الى عجينة مفعوصة بقبضة يد ، وحين تأملت هى فى ثقبى عينيه أحست بحقد دفين يخرج منهما وان اتخذت نظرته شكل العتاب . بلع ريقه وزام وأشعل سيجارة ، وقال لها انه لا داعى لأى قلق ، وانها تستطيع النوم فى هذا القصر كيفما شاءت لأى وقت تشاء ، ثم ذكرها بأنها من المفروض ان نيابة أمن الدولة قبضت عليها فكيف يكون موقفه لو ركب كحكوح جنونه وذهب يبحث عنها فى بيتها ليتأكد .

انهارت جالسة فى اعياء وقهر شديدين . نهض عبد الجبار واتجه اليها فى جدية شديدة وفى شهامة ابن بلد ، ربت على ظهرها فيما قصد أن يكون حنانا ، واعتذر عما يكون قد بدر منه وأساء اليها ، ثم قبل رأسها ورجاها النهوض معه الى الشرفة فنهضت مستسلمة ليديه . الشرفة تطل على حديقة بعيدة الغور حافلة بأشجار الموز الخضراء بأوراقها العريضة الجميلة المنسابة من أسفل الى أعلى مثل أكف ضارعة ، تذوب فى الساق وتستقل عنه فى نفس الآن . أشجار الورود منتشرة والزهر يتسلق افريز الشرفة وعناقيد العنب تتدلى بداخل الشرفة فوق كرسى من خشب المامبو . فوق هذا الكرسى المستطيل العريض الجميل جلست البتعة ممددة ساقيها طلبا للاسترخاء والهدوء . وعند نهاية قدميها جلس عبد الجبار مكررا أسفه على ما حدث لها . ثم ضغط على ذر بجواره فجىء بغذاء جديد جاهز شهى ، أجبرت البتعة على أكله مع أقداح البيرة المنعشة وظلت أقداح البيرة تزحف اليها فى صحتها حتى انتعشت واستعادت حيويتها وصارت مستعدة لتقبل عبد الجبار

عن ملاله ، بل ان نظرتها تغيرت فجأة من الحقد الى الاشفاق ورغبت فى ان تعرف الكثير عنه منه هو نفسه ، فاعتدلت فى جلستها وجرته من جديد الى حديث الجنس فاذا به يفاجئها قائلا :

— « سوف أعترف لك بسر » .

اعطته كل انتباهها :

— « قل .. » .

فاندفع قائلا : « هل تتصورين اننى لم أشعر بالجنس الحقيقى الا وصورتك فى دماغى ؟ » . قالت باسمة : « كيف ؟ » . قال : « لا أدرى .. ولكننى طول عمرى ما حلمت بذروة الجنس الا معك » . قالت فى دهشة : « تقول طول عمرك .. أنت تعرفنى اذن طول عمرك ؟» . ثم ضحكت فضحك هو الآخر قائلا : « أقصد من يوم ما عرفتك » . قالت منساقة وراء المتتاليات الحوارية التى حفظتها من أفلام التليفزيون : « ومتى عرفتنى ؟ » . قال ملوحا بكفه : « منذ .. منذ .. ثم ابتسم فى حيرة — منذ رأيتك تغنين فى فرح أحد أقاربى » . شحب وجهها : « أنت اذن تقصد رشا الخضرى ؟ » . قال ملوحا بكفه : « يو .. و .. .. ومن لايقصد رشا الخضرى ؟ » — ثم بلهجة ذات معنى : « على فكرة كانت تشبهك » . حمدت الله وان كانت لم تصدق انه يجهل كونهما — رشا وهى — شخصية واحدة .

على أن عبد الجبار فى ذكاء شديد حاول أن يعطى لهذه اللعثمة معنى فقال بلا معنى انه حين يرى رشا الخضرى فى التليفزيون كان يهتاج ، فقط لانها كانت تذكره بجسد معين لفتاة معينة كامنة فى أعماقه ، وهو لا يعرف بالضبط ان كانت هذه الفتاة المعينة سبق ان رآها فى مراهقته أو طفولته أم انها من خلق خياله ، ولكن هل ينجح الخيال فى ان يخلق صورة حية مجسدة الى هذا الحد ؟ ولماذا تكون على هذا النسق —

أقصد نسق رشا الخضرى فلما رأيتك أول مرة ـ هكذا أضاف باسما ـ أحببتك لأنك انقح « من رشا الخضرى جسدا وشكلا وروحا • تأملته بعينين فاحصتينَ باحثتين عن شئ يسمونه الحقيقة ، فلم تجد له عينين حيث أن عجينة وجهه كانت فى حالة انفعال تقلصت معها وزحفت الأذنين فوق الخدين والتصق الخدان بالجبهة •• فضحكت بمرح رغما عنهـا ضحكا رنانا صافيا ، ثم ركنت رأسها ونظرت فى حوائط الشرفة وكانت نفس العجينة المفعصة تطل له من فوق حلل فاخرة وكانت هى تعجب كيف استطاع كل من عاملوه أن يتعاملوا مع هذه العجينة الخمرانة على الدوام •• لكنها انفجرت تضحك وتضحك وهو يتابعها مفصحا عن عينيه شيئا فشيئا وكلما ظهرت عيناه اكتست عجينة وجهه بتعبير ما ، ثم قال لها فى تفاخر خجول بعض الشئ فيما يشير بأصبعه الى الصور : « فعلت كل هذا لأتحدى أبى •• وأسعد لحظاتى هى التى أراقب فيها أبى حين يتفرج على مثل هذه الصور ، أحيانا كان من الفرجة يصيح ورائى كالطفل مطالبا بأن آخذه معى الى حفل افتتاح كوبرى أو مصنع أو مخبز أو فندق أو ماتش كورة •• وكنت أربت على ذقنه فى حنان وأتركه وأنصرف •• كان أبى تاجر حبوب ، وكان غنيا وكان بخيلا الى حد لا يطاق ، يكفى اننا تعلمنا أنا واخوتى دون أن نتكلف من ثروته مليما واحدا ، كلنـا ذهبنا للشغل فى الوسايا وفى البلاد واقترضنا من جـدتى لأمى ومن أخوالى •• وكان يتلذذ كلما رآنا فى عوز ، ويتشفى قائلا : سـوف تعودون لى •• وان عدنا اليه سمم أجسامنا بقارص الكلام •• انت يا ولد مكنة أكل ؟ يكفيك رغيف واحد••وانت يابنت مالك كالبقرة •• وأنت يا امرأة ـ يقصـد أمى ـ خففى عن العيـال بدلا من الحشر حتى لا يمرضون ويكلفوننا أموالا ليست معنا •• لسنا نحب يا ولية ان نصرف من بتاع الناس •• وهكذا ظللنا أنا واخوتى نرتعب من بتاع الناس فتركناه للناس وبحثنا لأنفسنا عن بتاع نقتات منه وكله من رضا الوالدين أقصد رضا الوالدة فقد ماتت رحمهـا الله وهى تدعو لى ولاخوتى •• أبى الآن بكل هيله وهيلمانه وأمواله ينام فى البلدة على شاطئ الرياح

الزرقانى مجرد واحد من الأعيان لا نحتاج اليه ولا يحتاج الينا •• بعض المتحفظين من قول كهذا يقوله انسان عن أبيه ، لكننى سأكتبه سأكتبه فى مذكراتى وسوف أخلق منه درسا لشباب البلاد حيث يتعين على كل منهم أن يتحدى والده ويخلق من نفسه شيئا كبيرا عالى المقام •• انهـا الأموال •• النجاح •• كم حققت فى حياتك من أملاك يافتى ؟ أكثر مما حقق أبوك ؟ اذن فأنت قد نجحت بعون الله وحسن اجتهـادك • هل حققت أقل مما حققه أبوك ؟ اذن فأنت قد فشلت وضاعت حياتك هدرا ولا بد انك لست بسخط الوالدين أو بالضـلال عن الهدى والحق • اما ان حققت أقل من ذلك فأنت غير جدير بالحياة •• هكذا الدنيا •• لسنا لا سمح الله نقول انها غابة مليئة بالذئاب كما يقول الشيوعيون ، ولن نقول لك تذئب حتى لا تأكلك الذئاب •• حاشا لله •• انما نقول ان الحياة شطارة •• وهناك ناس تتبعثر الأموال حولها منادية عمن يستفيد بها وهم مع ذلك لا يرونها •• انهم اذن مغفلون •• وهناك شبان طلعوا علينا هذه الأيام بتهمة التكفير يبعثرونها فى كل اتجاه ويعتبروننا نحن الأثرياء فى ضلال عظيم ••

ثم اغتاظ فجأة وصاح بغضب : « ليتنى أدرت جهاز التسجيل لاستطيع أن أقول هذا مرة أخرى •• هكذا يجب أن أدون فى مذكراتى ولكننى دائما أنسى اصطحاب جهاز تسجيل فى مثل هذه اللحظات النادرة التى أرانى فيها محبا للحديث عن نفسى وعن حياتى •• لقد داخ الولد المحرر معى فى الحقيقة •• طلبنه فى أوقات متعددة وحـالات نفسية مختلفة ولكننى عندما يحين الحديث ونفتح ـ الجهاز وهو يسدد لى نظراته البلهاء من خلف المنظار تجف ينابيع الحديث فى نفسى ، وأرانى أقول كلاما فارغا ، أسرح فى أشياء فرعية ويبـدو على اننى لست أعـرف بالضبط ماذا أريد قوله • فحيث أريد أن أسجل قصة حياتى وكفاحى أرانى قد انحرفت فجأة الى الحديث عن مواقف مثيرة حدثت بينى وبين بعض الزعماء أو الملوك أو المسئولين الكبار الذين لم يعد لهم وجود فى

الدائرة الضوئية ، فاذا بذكرهم يغريني بالاسترسال في الحديث عنهم وكيف ساوموني على كذا وكيت وكيف عرضوا على الرشاوى وكيف وقفت وكيف دافعت وكيف تخلصت · ألانني في أعماقي مولع بأن يقترن اسمي بأسماء زعماء وملوك وأباطرة ؟ أم لانني أريد بالفعل أن أفضى بأسرار يستفيد بها التاريخ وتنتفع بها الأجيال ؟ ·· ولكن لا ·· تعالوا هنا ·· ألسنا الآن نريد أن نخدم التاريخ والأجيال ؟ حسن ، فلننسى قصة حياتنا الشخصية ونكتب فصولا من مذكراتنا عن مواقف هامة عشتها مع رجال لهم أهميتهم في تاريخ البلاد ؟ ·· ولسوف أسجل تاريخي من بينهم ، نعم فأنا الذي استطاع أن يتجاوز معهم جميعا ويتجاوز كل قواهم الغاشمة وأحقادهم ويحتفظ الى ذلك بصداقتهم · سيقولون انني أجرح الموتى وأفضح رائحتهم العفنة مع اننا كنا أصدقاء صداقة يضرب بها المثل ·· وأقول لهم ان الحي أبقى من الميت ، وانني رجل أحترم حق الأحياء وأحترم حق التاريخ في أن يعرف ، أنا هنا مجرد من الأهواء الشخصية » ·

ثم صب لنفسه كأسا من الويسكي ولها قدحا من البيرة المعلبة ، وقدم لها أصبع بطارخ التهمته كله وراء جرعة بيرة ، فانتقى واحدا آخر مثل خيارة لطيفة الحجم وقام بنفسه وهم بادخاله في فمها لكنها أشاحت بكفها وهزت رأسها رافضة فتوقف ناظرا اليها كأنه يقول : عشان خاطري ·· فلم تعره التفاتا · فهم بادخاله ثانية في فمها ، فمدت أصابعها السرحة الطويلة الأظافر وأمسكت أصبع البطارخ وجاملته بأن قضمت منه قضمة صغيرة أخذت تلوكها في ملل · فجلس وقد أحس بقليل من الصدمة ، ودفع الى جوفه بكأس الويسكي دفعة واحدة ، ثم قال وقد بدا أنه يتذرع بالصبر : (أقسى شيء يمكن أن يقع في حياتي هو أن يحبط مزاجي هذه الليلة ·· هذا شيء لا أستطيع احتماله أو معاناة آلامه ·· لربما انفجرت الى شظايا ان حدث لا قدر الله ما يعكنن على ويخمد جذوة اشتعال مزاجي ! ·· أنا الآن لست عبد الجبار ·· أنا ذلك الرجل الذي وجد أخيرا جزيرة وارفة الظلال فآب اليها بعد طول تشرد

بين الأمواج والرياح ! ·· لقد عشت كل هذه السنين الفائتة أنتظر هذه اللحظة ، نعم هذه اللحظة ، حيث يتم اللقاء بيني وبين من ظلت مدى الحياة مصدر أحلامي الجنسية !! أنت هي !! أقصد انك أنت هي التي عاشت في مخيلتي وأفسدت على كل العلاقات مع الجنس الآخر !! لقد فشلت كل علاقاتي معهن شرعية كانت أو غير شرعية وكان فشلها لحسابك أنت ! لقد كنت أطالبهن جميعا بأن يكن أنت وهذا مستحيل !

وقد غاب المستحيل عن دائرة حياتي فترة من الزمن غرقت فيها في تجميع كل هذه الأموال وتحقيق كل هذا الوجود العريض !! لكنه سرعان ما هب على أفق حياتي من جديد ، فحيث كنت أظنه مستحيلا اذا بي أجده يتحقق في صورة رشا الخضري ، فلما ضاعت رشا الخضري تحت سنابك المرتزقة من أعوان الثورة الازرقية واندفنت تحت ركام الأحداث في كهف مجهول رأيتك فاذا المستحيل يتكرر ، ولكن كأنما ليقول لي ان هذه هي آخر فرصة لي معه ، ان المستحيل ان حدث فهو لا يمكن أن يتكرر هذه من مسلمات الدهر ، أما ان تكرر فلكي يبلغ هدفا أعظم أو رسالة عظمى ، وأنا قد تلقيت هذه الرسالة التي قالت لي : أغتنم هذه الفرصة لانها لو ضاعت منك تظل بقية العمر تعاني حرارة الندم وحسرته ، هذا ان بقي لك عمر بعدها) ·

ثم صب لنفسه كأسا ، وأكمل لها كوب البيرة ، فهزت رأسها شاكرة في رصانة وقد أحست انها أكبر مما كانت تتصور وأفخم ، ثم شعرت ان هذا الاحساس لن يقودها الى شيء ذي بال فنبذته · ابتلعت نصف كوب البيرة ، وأشعلت سيجارة واعتدلت جالسة كأنها تعطيه الاشارة باستئناف الحديث ، ففي الواقع كانت قد بدأت ـ منبهرة ـ تستلطف حديثه وحركاته وتلتقي معه عبر حديثه على عقد مشتركة وأشياء كثيرة مسموعة في حياتها الخاصة ، نعم فهو يشبهها في كثير من الأشياء وهي تشبهه في كثير من الأشياء · شدت النفس واستحثته قائلة : « هيه » ··

وضع ساقا على ساق وجرع الكأس وصب غـيره والقم نفســه أصبع بطارخ ، وكانت الحيوية تتدفق من عينيه على وجهه ، ويتحرك بنشاط ، ثم قال كأنه يبدأ حديثا جديدا : « لست أعرف ما سر هذه النشوة التى هبطت على الليلة .. أشعر الآن اننى شاب فى العشرين .. بل دون العشرين .. أنا الآن .. بالضبط بالضبط .. طالب فى « الثانوية التوجيهية » وفى حديقة منزلنا فى البـلد أو فى حجـرة الخزين ، تنتابنى الآن نفس مشاعر تلك الفترة ، أشم رائحة بيتنا القديم فى البلد ، أشم رائحة الحبوب المخزونة ، أشم رائحة محل الأدب ، رائحة السمن المقدوح ، أحس بخفقان قلبى على حق ولأول مرة منذ ذلك الزمان البعيد ، خفقان نشوان اذ أن فى انتظاره الأنثى ، الأنثى التى هى . أسراب النمل الآن تتمشى فى عروقى ، حتى انظـرى ، ها هو الكأس يرتعش فى يدى ، لا أدرى ان كنت غاضبا الآن أم نشوانا .. أما كونى نشوان فهذا مالا جدال فيه ، واما كونى غاضب فهذا وارد ، لأننى أحس بالانفعال كالنواة داخل تمرة النشـوة .. ولكن لماذا أرانى أنفعل ؟ ما السبب ؟ هل لأننى فى أعماقى كما لو كنت أريد الانتقام من شىء ؟ ربما كان فى أعماقى ثارات كثيرة مبيتة ولكننى لم أجرب لحظة الانتقام أبدا . ولكن مم أنتقم ؟ لقد أساء الى زعماء كثيرون وأضربى قواد كثيرون ومع ذلك لم أفكر فى الانتقام منهم بل اننى حين جاءت سيرتهم فى مذكراتى تحدثت عنهم بكل حب ولطف وأمانة .. وجدتها .. وجدتهـا .. سر الانفعال الكامن فى شرنقة النشوة هو خوفى من فشل هذه اللحظة التى أعيشها الآن .. انه وحده عذاب أليم ولولا هذا الويسكى الأمريكى العظيم لبدنى ثقله .. ان كان فى الأمر ثمة انتقام فيكون فى شهوتى الجامحة ورغبتها فى الانتقام من الحرمان الكبير !! » ..

ثم انه انتقل إليها بكأسه وجلس فوق حجرها واضعا رأسه فوق صدرها والكأس فى حضن الثديين ، وكان ينتفض وتنبعث منه حرارة كثيفة مخيفة ، لكنها أحست بضعفه الشديد فى هذه اللحظة ، دفعها

الاشفاق الى ابداء الرقة فهو مهما كان رجل كبير الحجم قدم لها خدمة ويكفى انه نجاها من حقارة كحكوح وما كان ينتظر لها بجواره من مصير ، ثم تذكرت فجأة بخفقان قلب انها بدون رجل كهذا فى الحياة سـوف تأكلها الذئاب ، وحسمت الأمر فى نفسها بأن رضيت ان يلعقها كلب من ان يأكلهـا ذئب ، ولكن ايهما الذئب وايهما الكلب : عبد الجبـار ام كحكوح ؟ .. هنا لم تستطع الحسم برأى لكنها قالت ان تجربتها مع كحكوح تثبت انه اخس من رأت على ظهر الأرض .

وانتبهت فاذا بعبد الجبار قد أباح لنفسه أشياء كثيرة وأفعالا كثيرة دون ان تدرى . اذا بها مضطجعة فى مخرجها وعبد الجبار كله داخلا فى جوفها واذا بالكأس يندلق بين ثدييها فيفيقها قليلا ببرودته واذا بعبد الجبار يلاحق الشراب المنسرب بين الثديين فيشربه ويمتصه بنشوة بالغة . ولم تكن قد خلعت قميصها ولا هو ، ولكنهـا فوجئت بنفسها بين يديه كريشة فى مهب الريح يطوح بها فى كل اتجاه ويضربها فى سقف النشوة ضربات موجعة ، ثور هائج يفح الشرر من عينيه ومن الجنون والعبث مقاومته لكن جنونه كان أخرقا ، كان يلعب بها كالبهلوان وكانت ترى نفسها معلقة فى الهواء أو منكفأة على وجهها وكانت توشك ان تلفظ أنفاسها عدة مرات ، وكانت تبعث الشـحير واللهاث والاهات العميقة المسترحمة دون جدوى ، ثم اذا بها تصرخ من أعماق جوفهـا المعبأ بالنار .

لمع الذعر فى عينيه . انحنى فوقها وصار يقلبها فاذا بها كالخرقة بين يديه لكنها جاحظة العينين تنثال فقاقيع الريالة على شدقيها ويخلو وجهها من كل حياة . أمسك رسغها وجس نبضها فلم يجد سوى خشبة أنيقة الصنع تركها فانهارت على الأرض . وضع يده على قلبها ، لا نبض ، لا حركة ، لا حياة . مصيبة . وضغط على شفتيه السفلى فى غيظ . عاد يقلبها ، لا جدوى ، مددها وعدلها وأسبل عينيها وغطاها ثم اندفع يهرول الى الداخل . دخل تحت الدش مباشرة وظل يسلم رأسـه لخيوط الماء

ويفح ويفتح عينيه ويهز رأســـه ثم يتفكر ثم يعود للدش من جديد ٠ دعك نفسه بالماء البارد والساخن حتى يفيق ٠ أخيرا خرج عن الماء وجفف نفسه وخرج بالبشكير ملفوفا حول جسده وهو يتوقع أن يراها جالسة معتدلة فى رقدتها ، لكنه رآها من بعيد وقد تخشبت تماما ، ومع ذلك اقترب منها وصار يهز رأسها ويدغدغ جسدها ولكن لا حياة لمن ينادى ٠٠ وأدرك أنها ماتت ، فانهار جالسا بجوارها خابطا رأسه بقبضته ثم خابطا الأرض بقدمه فى حقد جنونى ، ثم اسند رأسه بين يدية لبرهة طويلة أفلتت خلالها من عينة بعض دموع ميتة باردة ٠ ثم انه نهض فى حيوية مفاجئة ودخل حجرة النوم وأخذ يرتدى ثيابه ٠ واذ هو يفك ربطة « الكرافت » ويعيد ربطها بشكل أنسب لمع الخاتم الرخيص فى أصبعه لمعة خادعة جعلته يوقف يده ويعيد النظر فى الخاتم ويتعجب فى نفسه من أن يكون للمعدن الرخيص لمعتـه البراقة حتى وان كانت خادعة ، ثم ان عجينة وجهه تقلصت ، فترك رباط العنق وهرول الى الشرفة من جديد ، وخلع الخاتم من اصبعه وألبسه أصبع البتعة ثم نظر فيه فوجده غير ملائم على الاطلاق ، لكنه تركه فى يدها وعاد الى حجرة النوم ووقف أمام المرآة يكمل رباط العنق ٠

باب الخرق

★ كيف عاد الجسد الغريب الى أصل غربته :

– ١ –

فى تلك الليلة المشئومة كان صاحب السعادة الكلب ميشو لا يزال ينتظر صاحبته فى عربتها الخاصة ـ أقصد فوق العربة ، فمنذ أن جاء أحد الخدم وفتح له الباب ليتهوى ظننت انه سيندفع الى الخلاء كما نفعل نحن ، اذ ما يصدق الواحد منا أن ينفتح أمامه باب حتى يندفع بأقصى سرعته ربما الى غير رجعة ، ربما لشعورنا المتوارث بالخوف من السجن ، ربما لأن كلاب بنى الأزرق يولدون وفى أعماقهم باب السجن الموصـد فى الحياة ولهذا فنحن مدربون على التسلق ونط الحواجز وقفز الترع والمصارف كما نحن متعودون على تلقى الضرب باستمرار ودونما سبب ٠٠ أما صاحب السعادة ميشو فانه حين انفتح له باب السيارة دلف خارجا فى رصانة وهدوء كقيصر الروم ، ثم أخذ يحوم حول العربة ناصبا أذنيه شاهرا كل حواسه ، وكان عكر المزاج لحظتها حقا ، يتحرك فى عصبية وينبح بصوت مهذب ثم آبت ثورته الى صمت دبلوماسى مريب ، وكان قد صعد الى مقدمة العربة واستراح فوقها كأنه يفكر بعمق شديد فى أمور خطيرة ٠ أما أنا فان خصلة الصياغة والشمشمة بحثا عن الرزق وقتلا للفراغ قد دفعتنى الى اقتفاء أثر سيدتى وقد نجحت فى التوصل

اليها بحيل يعجز عنها صاحب السعادة ، حيث شممت رائحتها فى الشرفة المطلة على الحديقة فتسلقت جدرانا وأشجارا ثم أقعيت على حافة الشرفة مباشرة فرأيت كل ما حدث وبشكل تفصيلى وقد اقشعر بدنى وأماتنى الذعر فى جلدى ، ولم يكن قد بقى فى من علامات الحياة سوى الشعور بالحزن العميق الممض ، وتأكد لى أننا معشر الكلاب الضالة من بنى الأزرق نرى كل هذا الخرق لأننا كلاب ضالة لا قيمة لها ولا سعر حتى وان كنا مثقفين موهوبين ، الضلال فى الحوارى كالضلال فى القصـــور يفقـد الانسان فيه كيانه ويتبدد من كثرة ما يرى ـ أقصـــد الانسان الكلب أو الكلب الانسان • ليست هذه تسمية من اختراعى ، ولكن الواحد منا يكون انسانا حين يعلن احتجاجه وبكل قواه على كل ما يمكن أن يهدر انسانيته ، ويكون كلبا حين يصبح جزءا من الخرق لا يتجزأ ولكم سالت نفسى هل انسلخ الانسان فى عن الكلب أم ضاع ولم يبق سوى الكلب ؟ لكننى لم أصل الى جواب حاسم ، ولولا وقوعى بين شقى هذا الصراع لما رويت لكم هذه القصة من الأساس • ومنشأ الصراع اننى دون معظم كلاب بنى الأزرق لازلت أشعر بالقدرة على عدم الاعجاب ، وعلى التصريح به فى أى وقت فى أى ظرف أمام أى أحد ، وذلك يسبب لى ضربات ببوز الحذاء وأحيانا فى بطنى وفى كل موضع مؤلم فى ولكننى منذ أن رأيت أمى تهبط الى المستنقع النتن مشجوجة الرأس دون ذنب جنته وأنا أدخر فى أعماقى رفضا غامضا لكنه قوى مرذول ، وكلما تذكرت ذلك المشهد البعيد تتيقظ فى نفسى عيــــون تريد أن ترى الكثير وآذان تريد أن تسمع المزيد ••

كانت هذه الخواطر تأكل فى رأسى كألسنة اللهب فيما أنا مقع على حافة الشرفة ، حين تناهى الى سمعى صــوت صاحب السعادة ينبح بقوة وانفعال مخيفين فنزلت أجرى نحوه لأحكى له ما حدث ، ولكننى فى منتصف الطريق بين الأشجار الكثيفة وأحواض الزهـــور فوجئت برصاصة تنطلق من مكان مجهول وتصيب صاحب السعادة فى رأسه مباشرة ، فعوى مرتفعا فى الهواء عند شجرة ثم هوى فوق الأرض ينتفض •

فتسمرت فى مكانى أرتعد حتى رأيت ولدا خشنا أغلب الظن انه بستانى يتقدم ويجر صاحب السعادة من سلسلته المثبتة ، فأخذت أرقبه من بعيد فرأيته يغيب صاحب السعادة فى حفرة عميقة ويهيل عليه التراب •• فعرفت ان نفس المصير ينتظرنى وأخذت أبحث عن وسيلة للخلاص دون أن يدرى بى أحد • لكننى ما كدت أندفع بحثا عن منفذ حتى تعثرت فوقعت فانطلقت منى صيحة شدت انتباه البستانى اللحــاد فنظـــر الى باستهانة وصاح : « امشى » ، فتسمرت ثانية من الدهشة وقد أحسست بأننى لا قيمة لى حتى يصبح لقتلى قيمة ، ولعل البستانى لم يتلق أمرا باغتيال أمثالى من الكلاب المنسحقة حتى ولو كانت تعرف زبدة الأسرار ، ذلك ان السر ان لفظه شخص مهم صار شيئا هاما وخطيرا أما ان لفظة ضال منسحق مثلى فهو تخريف عامة وهو أنيميا وضيق أفق • لحظتئذ دهمنى شعور قوى بأننى يجب أن ألحق بصاحب السعادة فأشاركه نفس المصير ، وبأننى يجب أن أعرض نفسى للقتل عامدا ، يجب أن أنبح وأثير فى الكون ضجيجا يفضح هذا الخرق العظيم ويشهد العالم عليه • وقلت لنفسى : اننى اذن سأفضح المجتمع الأزرقى وأكشف عن نقاط ضعفه العدو الذى يتربص به ليدوس كل صغيرة وكبيرة فيه ، وشعرت بكثير من العار يشتد أواره فى صدرى ، ثم قلت اننى حين أصرخ لن يكون هدفى هو الفضح بقدر ما هو طلب للنجاة من كائن أقوى ، فحيث كان المفروض ان نقوم نحن بصنع النجاة بأنفسنا أصبحنا لفرط كلبيتنا نطلبها • فلما شرعت أنبح لم أجد صوتى ، لم أجد الا صوصوة عاوية من الجوع والألم تطلب الطعام قبل أن تتمكن من طلب النجاة • ظللت مسمرا فى موضع عثرتى حتى رأيت البستانى اللحاد مقبلا نحوى فأخذت أرتعش وأغوص فى الأرض دون حاجة الى حفرة ، فاذا بالبستانى اللحاد يمر بجوارى غير عابىء بى فيدوس عفوا فى بطنى فأصرخ مدافعا بأنيابى فيركلنى فى بوزى ركلة سريعة ثم يواصل السير بعيدا عنى •• فعرفت ان من حقى التجوال كيف أشاء • قطعت الحديقة جريا وهرولة واكتشفت ان لها عديدا من الأبواب السرية والسحرية واننا دخلنا من غير الذى دخل منه كحكوح ولهذا فان

كحكوح حين كان هنا منذ ساعات قليلة لم ير سيارة البتعة ولا كلبهــا لأنهما كانا فى الجانب الخلفى ، واستنتجت ان هذه الأبواب وهذه الزوايا أعدت لتسريب وفود من وراء ظهور وفود ، فقد يفضى بك هذا الباب الى طريق بينه وبين الطريق الذى يفضى اليه الباب الآخر عشرات الأميال .

وكنت قد وجدت نفسى خارج باب يفضى الى طريق لم أتبينه جيدا ، فأخذت أحاول التعرف عليه فاذا بى أرى سيارة البتعة تخرج من أحد أضلاع الحديقة لتنطلق فى طريق عمودى يفصله عن الطريق الذى أشرقت عليه حقول عريضة ، كانت رائحة سيدتى تنبعث من العربة رغم سرعتها الشديدة ، فاندفعت أجرى خلفها مخترقا الحقول . أدركت استحالة اللحاق بها فاستدرت عائدا الى حيث يوجد جثمان سيدتى . ورأيت سيارة قادمة على الطريق الثالث المواجه للضلع الثالث أغلب الظن انها سيارة اسعاف كان الباب مغلقا لكننى تسللت من تحت الأسلاك الشائكة ودخلت فما ان وصلت الى الساحة الخضراء حتى رأيت سيارة الاســعاف تزحف داخلة ساحة الفيلا ، عرفتها طبعا من شــكلها ومن شــاراتها الحمراء والكتابة التى عليها ، يقودها سائق عجوز ممرور مكدود يرتدى كاب الاسعاف الأحمر وحلتها الصفراء ، وبجواره الأسطى حسنين .

نزل الأسطى حسنين وراح السائق العجوز يعدل وضع العــربة لتكون مؤخرتها فى مواجهة باب البهو . واندفعت أجرى الى أن وصلت حافة الشرفة ونظرت فيها فوجدت أن جثمان سيدتى قد ارتدى ثوبا شديد التواضع تفوح منه رائحة غريبة نفاذة لا أعرف ان كانت رائحــة القدم أم رائحة العثة أم رائحة الخزين ، على طراز نصفه فلاحى ونصفه بندرى ، فيه صدر مشغول بالترتر ، أما رأسها فقد التفت بطرحة قديمة من الحبر الأسود ، فتغيرت معالم سيدتى تماما وخيل الى انها الآن تستعد لتصوير لقطة جديدة فى فيلم نهايته الموت لحياة حافلة بالغرائب والمدهشات . ثم اننى تأملت منظرها محاولا تحديد شخصيتها فى هذا الفيلم فوجدتها شخصية « غازية » من غوازى الموالد والأفراح تحشمت على سفر فأدركتها

المنية . انفتح الباب ودخل الأسطى حسنين . وكان ضوء اللمبة الصغيرة المنبعث من ركن مجهول يصنع أشباحا ترسم أسرابا من النساء المتشحات بالسواد يلطمن الخدود ويصوتن فى حرقة . اخترق الأســطى حسنين ظلالها وتقدم نحو سيدتى فطرح عليها ملاءة بيضاء لففتها ثم حمل جثمانها على ساعديه واستدار خارجا ..

بقفزة واحدة صرت فى أرض الحديقة بين أشجار الموز الملســاء . هرولت نحو العربة فرأيت الهدوء الشديد يعم كل شىء وليس من أحد فى هذا السكون حتى السائق القابع خلف عجلة القيادة ينتظر فى الظلام لم يكن موجودا . كان باب العربة الخلفى مفتوحا . قفزت الى داخل العربة لأرى دكتين من الخشب المنجد متقابلتين ارتكنت تحت أحداهما ودفنت نفسى فى الصمت والظلام وبعد برهة زحف جثمان سيدتى يرتطم بأشياء فى العربة حتى تمكن الأسطى حسنين من راحتــه على احــدى الدكتين ، ثم هبط الى الأرض وصعد مرة أخرى بحقيبة كبيرة لكنها قديمة وبالية ، حقيبة من الجلد الطبيعى ذى الرائحة لكن جوانب الغطاء منفرجة والأقفال خربة ولذا فهى محزمة بدوبار غليظ محــكم ، أما اليد فقطعة من الجلد ملفوف عليها عشرات الخرق المربوطة فى الحقيبة باحكام . وضع الحقيبة على الدكة الأخرى ثم هبط الى الأرض وأغلق باب العربة وذهب الى كابينة القيادة فجلس بجوار السائق ، وسمعت خرخشة ورق رصين وصــوت السائق يقول : « ما هذا ؟ » ، وصوت الأسطى حسنين يردد فى عطف أخوى : « هدية من البك .. جزاء ما تحملت المشـــقة معنــا فى هذا المشوار » . قال السائق فى غبطة : « أهذه التخانة كلها جنيهات ؟ » ، قال الأسطى حسنين : « انها عشرات يا بقف .. سوف تعيش أياما طويلة فى بحبوبة » . قال السائق : « الله يكرمه .. ولكن لماذا كل هذا التعب ؟» . قال الأسطى حسنين : « يا رجل يا طيب .. ســعادة البيك حين يعطى لا يقل عن هذا ولا يصغر قال السائق فى امتنان : « ابن عز .. ابن أصول .. يشعر بحال الفقير .. اللهم أكرمه وزده من فضلك » ..

ثم ان السائق أدار « مارش » العربة وعدلها ثم أضاء النور واندفع خارجا · وحين اعتدلت السيارة على الطريق الطوالى وأخذت سرعتها الرابعة أشعل السائق سيجارة روثمان وقال : « لكن ايه الحكاية بالضبط يا أسطى حسنين ·· مالها الست ·· حنوديها مستشفى ايه ؟ ·· عشان لابد افوت أخذ زميلى من حتة قريبة » · قال الأسطى حسنين وهو يشعل لنفسه سيجارة هو الآخر : « شوف بقى ·· لا مستشفى ولا يحزنون ·· الحكاية باين عليها مش مستهلة ·· حاكم الست دى والعياذ بالله عندها المرض اللى اسمه : الصرع ، زى اللى كان فى تمثيلية القرين فاكره ؟ ·· بعيد عنك تجيلها الحالة تفقد الوعى قول ساعة قول ساعتين (ثم هامسا فى لهجة ودودة) بينى بينك أصلها من قرايب البيك بس من بعيد قوى قوى ·· تقريبا أهلها كانوا بيعرفوه وهو لسه فقير ·· فلما ربنا كرمه فضل يعطف عليهم ·· الناس لمؤاخذة معندهاش مخ ·· ان كان حبيبك عسل ما تلحسوش كله ·· ده راجل ماهش فاضى لوجع الدماغ كل ساعة والتانية ·· هو قادر يطلب لها أجدع دكتور فى البلد ، ولا يوديها أحسنها مستشفى ·· لكن هو بينى وبينك عمل بالعند المرة دى حاف ما هو عامل لها حاجة ·· أصلها بقى محترفة الحكاية دى ·· بتستغل ضعفه وكرمه ·· كل يوم والتانى تيجى تعمل التمثيلية دى قدامه عشان يديها ثمن الدوا والعلاج الذى منه ·· دا غير اللى هى بتأخده كل شهر ·· هه ·· وربنا يستر على عبيده » · وقال السائق العجوز : « بنى آدم عينه فارغة ما يملاهاش الا التراب ·· أنا كنت ناوى أقوم أسعفها بأى حاجة لكن مادام هى غاوية تمتيل سيبها بقى ·· داهية تاخدها » · ثم اندفعت السيارة تنهب الطريق نهبا ·

- ٢ -

توقفت العربة بعد وقت طويل من السير · ونزل الأسطى حسنين واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وفتح باب العربة فازددت انكماشا

فى ظلمتى · فانحنى هو ودخل فأخذ الحقيبة ومضى فتسللت وراءه وهبطت فى أثره دون وعى منى · لم يرنى · لأننى تسحبت الى بعيد كأننى من أبناء هذه المنطقة · رأيت الأسطى حسنين يختار للحقيبة وضعا مناسبا فى حوض مستطيل تبينت فيه حوض ساقية قابعة تحت شجرة توت عجوز كبيرة ، ثم انه عاد الى السيارة فغاب فيها قليلا ثم خرج حاملا على ساعديه جثمان سيدتى ، ثم نادى بصوت ودود مرتعش صائحا : « يا جماعة ياللى هنا ·· يا أم الخير » ، فزحفت الى حيث كان يقف مناديا فتبينت فى الظلام بناء من أربع جدران بالطوب النيىء مسقوفة بجذوع الأشجار · دخلتها فلم أجد بها أحدا على الاطلاق عرفت ان هذا البناء هو ما يقيمه الفلاحون فى الحقول ويطلقون عليه اسم (الطيارة) لكى تستريح فيها مواشيهم ودوابهم الشغالة ، وعرفت أيضا ان الأسطى حسنين يعرف انها خالية من السكان فى هذه اللحظة وانه يموه على سائق العربة التي وقفت الى بعيد جدا بحيث حين ينحرف الأسطى حسنين الى الساقية لا يراه من يكون فى العربة · ثم ان الأسطى حسنين بعد أن نادى مرتين تراجع خطوة ووضع الجثمان فى حوض بئر الساقية مسندا رأسه على الحقيبة ثم وقف صائحا : « اتمسوا بالخير بقى ·· لا والله ما أقدر أستنى ولا دقيقة ·· تصبحوا على خير » ، ثم اندفع مهرولا حتى وصل الى العربة فركبها بجوار السائق · واندفعت العربة تغوص فى الظلام وعجلاتها تطلق صريخا ملتاعا ··

اندفعت الى جثمان سيدتى · صرت أنبح بكل قوتى · فلما لم يجاوبنى أحد رابطت فوق مدار الساقية بجوار رأس سيدتى مباشرة وأخذت انتظر الصباح ·

- ٣ -

يبدو اننى غفوت قليلا أو كثيرا لا أدرى ، لكننى حين فتحت عينى كانت الشمس تتوسط عين السماء وتصب قيظها فوق جثمان سيدتى

الذى غطى بأشياء جديدة وبعشرات البشر رجالا ونساء وأطفالا وخفراء وشرطة . وكانت الحقيبة قد نزعت من تحت رأسى سيدتى وانفتحت وراح رجال الشرطة يفرزون ما فيها فلم يجدوا سوى أشياء غريبه : خلخال فضى قديم ، مكحلة ، زجاجة عطر رخيص من نوع قديم جدا ، عقد من الكهرمان الاصفر ، قميص نوم مشغول بالترتر ، قسيمة زواج . تناولها رجل الشرطة بلهفة وانتصار كبيرين ووقف يقرأها ثم صاح معلنا ان صاحبة الجثمان هى : « بسيمة أحمد ربيع » ـ زوجة « هريدى خليل هريدى » .

ـ ٤ ـ

هنا فقط اهتزت الأرض وارتفع أوارها بالصراخ والنحيب . الجميع تقريبا فيما عدا الشرطة يبكى بحرقة . نظرت فرأيت ثلاثة أجيال تبكى . صيحات تتعالى حول الجثمان : « أخيرا رجعت لبلدها .. شوف الدنيا .. بعد هذا العمر الطويل تعودين يا حبيبتى .. قلنا أصابك الغز وابتسمت لك الدنيا .. فين هريدى زوجك وفين أيامه .. فين أمك يا حبيبتى » . هكذا كانت النساء تقلن . لكن أصواتهن سرعان ما انداحت فى الأفق البعيد أمام أصوات رجال صاروا يصيحون فى غضب : « ملعونة .. فاجرة .. زانية .. هاربة .. وهذه هى النهاية المحتومة » . ثم صاح أحدهم فى غضب : « صاحب اللحم يلمه » . فصاح رجل الشرطة فيه : « صاحب اللحم يتقدم ليأخذه منا » . وكان من الواضح ان النيابة هى الأخرى موجودة ، اذ تلقت عربة الاسعاف أمرا بحمل الجثمان الى الطبيب الشرعى فى المستشفى ..

وحين حملتها عربة الاسعاف بدونى صرت أعوى من كبد مسحوقة والناس ينظرون نحوى مشفقين قائلين : « دا باين عليه كلبها .. يا حرام » . وهنا ، أحسست برجل الشرطة ينظر لى فى تمعن ثم

بلسانى ثم يعود فينظر الى مدققا ثم يمضى الى العربة ، لكنه قبل ان يركب استدار من بعيد وأرسل الى نظرة كأنه يوشك بعدها أن يطلب بطاقتى الشخصية .

ـ ٥ ـ

أهل البلدان الأزرقية لا ينجون على أبناء بلدانهم المجاورة حيث هم أخوة فى النهر ، لا ينبح ولا يثير الضجيج والفزع سوى الكلاب الضائعة التى تتوهم انها قد وجدت لنفسها مستقرا هنا أو هناك ، فلا تجد لديها وثيقة واحدة تحميه بها سوى النباح القوى الأجش الأجوف لدى رؤيتهم لأى ظل وافد ، حينئذ تلتم كل الكلاب الضائعة دفعة واحدة لا بمشاعر الكتلة بل بمشاعر الجبن الفردى يندفع مدافعا عن شىء استلبه . قصر الكلام اننى وقعت فى قبضة الكلاب الضائعة ، فلم ترحمنى وشرحت جلدى ونهشت أنفى وشفتى . لم ينقذنى من براثنهم سوى « مأمون » ، وكان يمشى ورائى منذ شرعت أمشى فى أرض لا أعرفها ولا يحمل أنفى أى ذكريات فيها ولولاه ما دخلت البلدة ، اذ أنه ـ وكان يسير بين كوكبة من صحابه عائدين من الفرجة على جثة الفقيدة ـ رأيته دونهم جميعا يبادلنى النظرات المتأملة الرصينة المستثارة ،فلما تسللت شخصيته الحبيبة الى أنفى انتميت اليه فى الحال وأديت رقصة الولاء حوله وحده فأرسل ابتساماته المشبعة بالامتنان والحب ثم أشار لى ان أتبعه فتبعته ومضيت أستمع الى حديثه مع الصحاب الى أن فوجئت بنفسى بين دائرة الفزع التى خرجت منها متحنا بالجراح ، أكاد التصق بذيل جلباب « مأمون » كلما لمحت كلبا ضائعا شرسا .. فما ان آب المسير الى بيت صغير متواضع حتى راح مأمون يطيب جراحى بمادة حمراء ، وقدم لى الطعام من طبق كان يأكل منه معى لقمته بلقمتى .

شاب فى العشرين من عمره لا يزيد • فقد ولد كما سمعته يقول لصحابه فى العام الواحد والستين بعد التسعمائة بعد الألف ، وكانت سنه حوالى ست سنوات حين كان دوى القنابل اليهودية تشرخ سماء قريتهم وتشرد عصافيرهم ومواشيهم ومشاعرهم • أيامها – يقول – مات أخوه الطفل فى مدرسة القرية المجاورة بحر البقر وكانت الطائرات اليهودية الصهيونية قد تبولت على المدرسة قنابلها • يذكر انه ظل سنوات طويلة يرتعب كلما أقبل الليل حيث كانت جثة أخيه الممزقة تطلع له فى كل ركن من دماغه حتى لقد كانت أمه تولول قائلة : « واحد مات من القنبلة والثانى حيموت من الخرعة » ، « وقد عالجونى قدر ما استطاعوا حتى كففت عن الصراخ بلا سبب وكففت عن الرعشة ولكن هل تراهم عالجونى من التذكار ؟ ان صورة أخى سوف تظل تطلع لى فى الليل ولسوف أستطيع التحاور معها بكل اللغات والمشاعر » ••

وكنت ليلتذاك أقعد أمامه على مصطبة الدار الخارجية والقمر يواجهنا فوق شواشى النخيل البعيد القريب ، حين قطعت عليه الحديث عجوز حيزبون يرتعد الانسان من منظرها لمجرد شعوره بأن هذا الجسد الموغل فى القدم لا يزال يحيا بكل حيوية ويعيش وجوده كاملا ، امرأة لا يقل سنها عن الستين ان لم يكن أكثر دخلت – أقصد خرجت علينا من الدار الى المصطبة – حاملة صينية الشاى عليها براد وكوب نظيفين جدا ، ثم تمهلت ناظرة الى بود عظيم ، استدارت برهة حيث وضعت الصينية أمام « مأمون » على المصطبة ثم عادت ناظرة الى من جديد تتخايل على ملامحها العجوزة المتكرمشة أعمق أخاديد المودة ، فأحسست كأنها تريد ان تنفرد بى الى ما لا نهاية ، فانتشيت وشرعت أؤدى رقصة الولاء لها ولكننى تذكرت اننى يجب ان أحترم جلسة مأمون ومالها من جلال فى نظرى فكففت واكتفيت بالتثاؤب الملول من فرط اشتياقى للمعرفة ، فما ان أعطتنا العجوز ظهرها ومضت تركض فى الداخل حتى أشار اليها مأمون قائلا : « انها أم بسيمة » • هززت رأسى فى ملل ثم رنت الكلمة فى أعماقى فدت ، فانتفضت واقفا منتصب الأذنين مرفوع الذيل

كاننى أقول له : « ماذا قلت » ، فاذا بابتسامة من الثقة تتسع على وجهه ويكرر : « أم بسيمة أحمد ربيع •• صاحبة الجثة التى آبت اليوم الى مسقط رأسها » •• لم أتمالك نفسى فاندفعت مهرولا داخل الدار أنبح بصوت عال يقودنى أنفى الى مطرح العجوز ، وكانت قد تكورت جالسة فى قاعة جوانية تحتلها مصطبة هائلة بحجم القاعة كلها فيها فرن خبيز وحمام غسيل ، قفزت فوق المصطبة أهوهو نحوها أكاد أرتمى فى صدرها ، الحق انها رغم قدم جسدها تفوح منه رائحة جذابة للغاية ، رائحة تبقيك بجوارها وقتا طويلا تتغذى خلاله أعصابك بالهدوء العظيم • ولما تحاشت ان ألمسها وصارت تهشنى بعيدا بغلظة مكشوفة أيقنت انها تريد الابقاء على وضوئها لتصلى به فروض العشاء من ديون سابقة ، فارتددت عائدا الى مأمون وقد أحسست ان الدار أصبحت دارى ، اننى انتقلت فقط من دارنا التى فى القاهرة الى دارنا التى فى هذه القرية البعيدة ••

استقبلنى « مأمون » فى مرح ثم أشار الى بالجلوس فجلست بجواره هذه المرة وقد انتابنى – لأول مرة أيضا – احساس الكلب الأجنبى الذى لا يطالب بالاحتفاظ بمسافة بين سيده وبينه ، الكلب الأجنبى يعامل كسيد هو الآخر وربما أفخم وأفخر ، وها انذا أحس ان مأمون قد منحنى هذا الحق ببساطة • مددت بوزى نحوه فيما هو يداعبنى وفى عينى نظرة متلهفة تقول له : «ولكن ما علاقتك يا مأمون بأم بسيمة؟» وكان على وشك ان يجيبنى لولا ان ظهر الاهتمام فى عينيه فجأة ، فنظرت فى مسيرة عينيه فرأيت كهلا مقبلا نحونا محنى الظهر تحت جوال منفخ ، يمشى فى تؤده ولقدميه وقع صلب يهز الأرض • اقترب منا فاذا بوجهه رغم عينيه الصقرتين يقول انه قد تجاوز السبعين من العمر ، وطول أطرافه وصلابة ملامحه انه يدخر فى نفسه عمرا جديدا يعيشه من أول وجديد • ألقى السلام علينا ثم دخل وتباعدت هزة الأرض تحت خطوه الثقيل ، وحينئذ قال « مأمون » مشيرا الى الداخل « انه جدى •• والد هريدى » ، ارتعدت فرائصى وانتفضت واقفا منتصب الأذنين كاننى

أقول : « ماذا قلت ؟ » ، فاستطرد قائلا وفى عينيه نظرات جنونية جبية : « نعم هذا هو والد هريدى زوج بسيمة ·· وهو نفسه حموها وزوج أمها وهو أيضا جدى أو والد والدتى ·· ذلك ان بسيمة هى خالتى شقيقة أمى التى أنجبتها أمها من والد هريدى زوج ابنتها بسيمة !! » ·

فشخت حنكى عن أخره وصرت ألعق شـــفتى دهشة أو ابتهاجا لا أدرى ، ومأمون يضحك ويقول : « هو الآن يشتغل أشغالا كثيرة ·· كان فى الأصل صيادا ·· وحين أقول الأصل فانما أقصد حدود عمرى فقط أما ما قبله فستضح ان لجدى أصولا أخرى أبعد من ذلك بكثير ·· فكلما كبرت ظهر لى أن هذه المهنة العريقـــة ليست مهنته انمـــا مهنته الأصلية هى كذا ·· ولو عددت له كلمة الأصلية فى مهنة لفاقت كل تصور ·· هو الآن شغلته الصيد ·· فى الظاهر صيد السمك بأحـــد القوارب التى يؤجرها ليوم أو يومين أو ثلاثة ، ليرسو بها على شـــاطىء « بور سعيد » ويفرش بأسماك طازجة ويعود بالقارب محملا بالبضائع التى يبيعهـــا فى العزب والقرى لناس يعطونه فيهـــا عرقه ويأكلون من ورائها عيشا ·· هو أيضا يبيت كل يـــوم وقد تعشى أربعـــة وعشرين قيراطا ·· ومع ذلك ·· لا يرضى ولا تعجبه الأوضاع ·· تنهال الفلوس بين يديه ويشترى مروحة بالكهرباء وثلاجة وغسالة وجهـــاز تسجيل ويلبس من شغل المكن الأجنبى ومع ذلك يشتم ويسب ويتهم زماننا بأنه خسيس قليل الخير بياع لكل القيم ·· تسليتى الوحيدة هو فى هذه البلدة الهامدة الأمنة أمن الكلاب » · قاطعته قائلا : « لا تعب يا مأمون » ، لكنه تجاهل هوهوتى قائلا انه يتسلى بجده اذ يشاغبه بالحديث فى الليل حتى يثير ثائرته ، لكنه ـ مأمون ـ يتجنب اثارته أكثر من اللازم اذا كان فى حالة سكر ، اذ هو يستحضر من « بورسعيد » أنواعا لا حصر لها من الويسكى والكونياك يبيع بعضها ويجرع الآخر وحده ، فلما يسكر وحده يظل يبكى بكاء حادا صامتا لساعات طويلة كأنه يؤدى صـــلاة عجيبة ، وربما لهذا يتجنب السكر وحده ولكنه دبور كبير اذا انســـاق وراء نفسه أوقع بعشرات النساء من أى مكان يخطر على البال وهو مستعد

اضاجعتهن جميعا فى ليلة واحدة فى خيط واحد كأنه يريد انجاب بلد بأكملها من رجال غيرنا وغير كل هؤلاء ، رجال كما يقول تجرى فى دمائهم انهار الغيظ لا تقف أمامها سدود الا فى حدود ، الطريف أن جده الذى يقول هذا القول يعرف ان دماءه التى يدلقها فى النساء تضيع هدرا ، فالنساء الضائعات الضالات لا يلدن ·

ثم ان مأمون جرع كوبة الشـــاى على رشـــفات مسموعة الصوت فى لذة ، ونظر فى وجهى فأحس بأننى مشتاق لمعرفة الكثير عنه هو نفسه أولا ·· فابتسم فى خجل كمن يقدم نفسه لأحد النجوم اللوامع ، وقال انه تخرج فى معهد الخدمة الاجتماعية ، ولكنه عين فى مدرسة فى المدينة مشرفا اجتماعيا وأمينا لمكتبتهـــا · ذلك أن مأمون يحب الكتب ويعشق الكلمة لكنه ضاق بالحياة فى قريته مع حبـــه الشديد لأهل قريته . لقد اكتشف البراءة فى قصص الكابتين وفى حياة كل من جدته وجده ، اذ هما يتحدثان عن كل شىء أعدى الأعداء ببراءة تامة ، ولكن كيف اكتشف براءتهما ؟ لقد اكتشفها ـ ويسدد أصبعه نحـــو فمه ـ بالقراءة ، فحين قرأ عرف ان جدته وجده وكل هؤلاء الناس لايعـــرفون شيئا بل انهم يسلمون رقابهم للجزار دون أدنى خوف ، ان هناك ناس لا تعرف الخوف ليس لأنهم شجعان بل لأنهم من فرط جهلهم لا يعرفون ·

ثم اعتدل فى جلسته قائلا كأنه يحدث صديقا أثيرا :

ـ « للعلم فان جدتى هذه لا تعـــرف الآن ان جثة ابنتها بسيمة قد عادت الى بلدتها بعد غيبة ما يزيد عن ثلاثين عاما · لن يقول لهـــا احد ممن رأوها انهم رأوها ، لسبب بسيط هو انها قد أصبحت طرشاء لا تسمع شيئا على الاطلاق ولا تتذكر شيئا على الاطلاق ، ولست أعرف كيف نسيت كل شىء الا آيـــات القرآن الكريم · يحلو لى ان أجلس لأراقبها حين يرتفع صوتها عفوا بالقراءة عند الصلاة ، فأجدها لا تخطىء فى حرف واحد وتنطق الألفاظ سلسة ·· أما جدى فعلى شطارته فى اعمال الكسب والتهريب يحلو له ان ينسى كثيرا من الأشـــياء خاصـــة

ما يتصل منها بالغائبين ، ان مسألة الغائبين فى نظره كلمة واحدة : مقدر ومكتوب ، كل من احتجزه ستار الغيب ، وكل غائب له الله . هكذا يقول لك فان لم تفهم أشاح عنك الى حديث آخر أكثر وضوحا . دع الغائبين وشأنهم وأبدا معه أى حديث تشاء تجد سميرا لا نظير له ينضح حكمه وفلسفة ، أحيانا يخيل الى انه هو الذى ألف سيرة عنترة والزير سالم وذات الهمة وألف ليلة وليلة .. ولقد فهمت جدى فهما عظيما فعرفت انه يسمع ما يحبه ويغلق أذنيه تماما عما دون ذلك ، لكنه يفعل ذلك بشكل عجيب وبهلوانى .. منذ بضع ليال كنا نجلس أمام التليفزيون صدفه ، مجاملة لضيوف شرفونا بالزيارة من بلدة أخرى يدمنون مشاهدة تمثيلية الثامنة والربع .. فلما جاء موعدها خيل لهم اننا لا نملك جهازا ، فأشرنا اليه قالوا لابد انه مجرد تحفه ، أوريناهم الفاتورة فقالوا لا بد انه خرب ، قلنا لا ، فقالوا كيف يكون لديكم جهاز ولا تفتحونه على التمثيلية ؟ قلت لهم اننى أكون أحمقا لو كان عندى رجل كجدى ثم أتركه وأتفرج على التليفزيون .. فلووا بوزهم عجبا وولوا وجوههم شطر الشاشة الصغيرة منجذبين الى هدير الاعلانات التى لا شك انهم سمعوها عشرات الآلاف من المرات فى نطاق زمنى قليل ، الأرجح عندى انهم لا يستمعون ، فهم كجدى تقريبا لايستمعون الى ما لا يريدون حتى وان كان جذابا ، تراهم زاد الشىء عن حده انقلب الى ضده وأغلقوا عنه الأذن ، فطالما انهم لا يمكلون ايقاف الاعلان فانهم يوقفونه من عندهم .. لله ما أفكه جدى لحظتذاك : طلع علينا المشهد مثيرا مخيفا ، وجوه حمراء فى لون العدو ترتدى الكاب العسكرى ، ووجوه أخرى بيضاء فى لون الحملة الصليبية تضربها ، وصخرة تهبط فوق رءوس فتدمرها ليظهر وجه خواجه طرى الملامح والعود قائلا بلهجة أطرى مثيرة للشبق : « شوية شوية .. شويبس أهى جايه » .. حينئذ صاح جدى وقد وقف فى ابتهاج منبسط الملامح كأنه صغر خمسين عاما ، وارتفع صوته الشارخ : « مدد .. مدد يأكل من غابوا

لكيلا يغيب القمر » . فضحكنا جميعا وقد ارتجفنا من المفاجأة : « ماذا يا جدى .. هل جاءتك الحالة ؟ » .

« هذا هو صوت المدد .. هذا هو صوت الأمل أخيرا نطق » . تبادلنا النظر فى توجس من ان يكون قد خرف بمعنى الكلمة .

« لحظتذاك أدركنا ان جدى فقد البقية الباقية من عقله ، لولا اننا كنا ننظر فى وجهه فنجد علامات الجد الشديد طافحة عليه . فيما يقول : شوية شوية القدس أهى جايه ! ثم اذا بالتمثيلية تنتهى وتجىء الاعلان وراءها مباشرة ليضمن انه حاصر المشاهدين دلالة على حلل الحدث الذى يعلن عنه . فرفعنا صوت التليفزيون عن آخره ليسمعه جدى ، لكنه أبدا لم يستمع الى كلمة شويبس هذه واصر على تعديلها بكلمة القدس فياللعجب العجاب منك يا جدى » .

●ثم ان مأمون صب لنفسه كوب شاى جديدة بعد أن دلق بقايا الأولى فى ركية النار ، وواصل الحديث لنفسه قائلا :

ـ « فهل ترانى بعد ذلك أقول لجدى ان بسيمة زوجة ابنه هريدى وابنة زوجته هو قد عادت اليوم جثة متهتكة لا تحمل من متاع الدنيا سوى محتويات صرتها القديمة التى ذهبت بها ؟ هل أقول له ان خالتى المسكينة قد عادت كما ذهبت مع تبديل واحد فقط هو ان نصف الخرج التى كانت تصر فيها أشياءها قد صارت الى حقيبة جلدية قديمة ؟ لكم أنا الآن مشوق لمعرفة ماذا سيطرأ على جدى حين يعرف ان نصف الخرج لم يعد معها . لقد ظل جدى الى زمن قريب يتحدث عن حسرته بضياع الخرج الذى أخذته هى معها لأنه كما يقول قد رافقه فى رحلات طويلة عاشره خلالها بالمعروف الجميل فلم يذب أبدا ، يحشر فيه الرباب والعيش والحبوب والفرش والغطاء ويركب فوقه ، حتى الآن لم يفرط فى الرباب ولو كان الود وده لاحتفظ ببقايا الخرج الأصيل الى جواره . جدى لم يكف عن الحديث عن نصف الخرج الضائع الا بعد أن طرأ علينا شغل البحر والبضائع المهربة .

رفعت رأسى وأطلقت ثلاث هوهوات رقيقة خشنة معا كأننى اقول له : « بالراحة شوية .. صبرك بالله قبل أن أموت فى يديك من فرط الألم والدهشة أو أتحول الى أبله من فرط الذهول » ، فاحتوى فكى بيده وصار يربت بالأخرى على رأسى ويقول ضاحكا : « حلمك انت على .. مانا لازم أتكلم .. حاموت لو ما اتكلمتش .. مش لاقى حد أكلمه .. واحده طرشه والتانى حاطط مخه فى مخزن والقفل مصدى .. ان شاء الله سنة ولا اتنين واخلص من مشكلة الجامعة اللى أنا منتسب اليها وأتفرغ لكتابة القصص والروايات .. بعد ما أتخرج من كلية الآداب حاقعد أكتب روايات للصبح .. وساعتها أبقى لقيت اللى أتكلم معاه » . مددت رقبتى وفتحت فكى عن آخرهما كأننى أعلن يأسى من فكرة الكتابة هذه ومن جدواها . فأطلق سراح رقبتى من تحت أبطه وشرع يواصل الحديث كأنه يتمرن على كتابة رواية سوف يكتبها فى القريب العاجل .

باب القنطرة

★ الشعب الأزرقى وكيف يخرج من جذوره :

- ١ -

قال مأمون :

ـ « العجيب ان غياب بسيمة لم يشغل البلدة يوم تخلفت عن المجيء من المولد فى ذلك الزمن البعيد . وهكذا يقولون لى ولما رأيت ان البلدة كلها تحمل فى ضميرها حكاية بسيمة وهريدى لعدة أجيال وجدت من العار الا أنشغل بها أنا الآخر ، فما ان شرع الوعى يطاوعنى فى فهم الأسرار وجئت أسأل كلا من جدى وجدتى فوجئت بانهما يتعمدان اخفاء كل شيء عنى ، حتى لقد كدت أصاب بالجنون ، كان ضميرى يحمل عدة حكايات مختلفة التفاصيل بطلاها هما خالتى بسيمة وزوجها هريدى واختفائهما فى ظروف غامضة . وكنت كلما سألت أحدهما عن تفصيلة غامضة تثير دهشتى وعدم تصديقى أجاب اجابة أكثر غموضا لا أفهم فيها ان كان ذلك قد حدث حقا أم هو من نسج خيال العامة ..

« غير اننى صممت على معرفة حقيقة التفاصيل أو يذهب عقلهم من جنونى وان شاءوا فليقتلونى . العجيب يا جدع انهم .. قتلونى ، تركونى أهذى بلا مجيب حتى فقدت السيطرة على عقلى بالفعل ، وابتعدت

منهم جميعا وعشت فى مدينة المركز وحدى أتنسم الهدوء بين كتب مكتبة البلدية التى استحضرها معى على عهدتى وواقع الأمر اننى كنت قد بدأت أعانى الوحدة والفراغ والشعور بالعار والجرح العميق ، حيث ملت أمى من انتظار أبى فدب فيها الجفاف وظلت تكتم الحسرة فى قعر بطنها حتى توكلت على الله وأسلمت روحها فى بداية النصف الثانى من يناير فى العام السابع والسبعين ، كان معها الحق كل الحق فى أن تموت ليلتها ، ذلك ان أبى الذى لبس فى الجهادية بعد زواجه من أمى بشهور قليلة مكث فى الجيش حتى العام السابع والستين ، ولما عاد الينا كان يحمل فى جوفه نصيبا عظيما من الانكسار والذلة ، لكن من حسن حظنا وحظه ان عودته كانت مؤقتة فلم يقدر له أو لنا رؤية كلا منا الآخر وهو على هذه الحالة من الشعور بالذنب والعار كأن حبيبته قد خانته مع عدوه · واذا به يواصل الخدمة فى الجيش ، واذا بنا نقيم الأفراح فى ليلة رمضانية مفترجة والبلدة تتحزم وترقص على دوى القنابل والغارات ، نعم ترقص طربا كأنها أخيرا قد زفت الى حلمها القديم ليس بتحقيق النصر وحده بل بخوص المعركة ذاتها ··

« الا أن الطبول آبت الى أصداء تتردد فى الأفق البعيد بايقاع رتيب لايتوقف برهة واحدة ، والرقص آب الى لعب على الحبال بدربة ومهارة أو الى ركض متوجع ، واصداء الطبول الجوفاء تحجب صوت الأنين ، وكثرة اللامعين فوق الحبال على الهواء تحجب جحافل المدهوسين· ثم ان سماء البلاد امتلأت بموجات صوتية تنبعث من أجهزة بعد الحصى فى الصحراء ، ولم يعد ثمة صوت منفرد على الاطلاق · ثم ان صوت الانين انهزم شر هزيمة فارتد الى الداخل ، كل واحد يئن على كيفه ولكن فى داخله ··

« كنت صبيا صغيرا وكانت وجيعتى كبيرة · فلما رأيت أمى فى ذبول مستمر بسبب انقطاع الأخبار عن أبى قررت أن أستجيب لرأى أهل البلدة وأكون رجلا أى ـ أذهب للسؤال عنه فى ما يسمونه بادارة

السجلات وبالفعل ركبت البيجو من أمام منزلنا هذا ـ شوف التقدم ـ الى العاصمة الكبرى · وفى هذه الادارة استصغروا شأنى رغم انى أخبرتهم من أول البوابة اننى ابن العريف محمد عكاشة النجار ، فلم يقل لى البواب الجندى حتى كلمة أهلا وسهلا ، بل هشنى بيده الى الداخل ، وفى حجرة أخرى طرقت بابها فهب رجل يرتدى الفانلة الكاكى والبنطلون يسرح شعره القصير قلت له : أنا مأمون محمد عكاشة النجار · فقال هازءا بهزة من رأسه : أهلا ياخوية قلت له : ابن العريف محمد عكاشة النجار · فقال بغلظة وهو يوزعنى بيده هناك هناك أجرى على الأوضة التانية ·· يلا يلا يا ولد · فانهمرت الدموع من عينى بغزارة وأحسست اننى لن أصير رجلا بعدها · قلت له : طب هدى أعصابك يا سعادة الكابتن · فنظر فى كأنه يردينى قتيلا برصاص عينيه · فغاب جسدى كله عن الأرض وسمعت حشرجة تتعثر على لسانى وشفتى قائلة : متأسف · ثم استدرت والدموع تقسم صور الأشياء كلها الى قسمين · اخترت حجرة دخلتها ، فاذا بها عشرات الجالسين على المكاتب باللباس المدنى يكتبون ويثرثرون ويتكلمون فى التليفونات ··

« وقفت بجوار أول مكتب على اليمين لأنه كبير نوعا ، وشرعت استدر صوتى لأتكلم · فنظر فى الرجل الجالس قائلا : « مالك يا شاطر ؟ » فقلت له : « بادور على أبويا » ومسحت دموعى فتزايد هطولها فصرت أمسح منطقة فمى على الدوام والرجل يغمد عينيه عن وجهى ، فاذا برجل آخر على مبعدة منه يصيح فى قائلا برفق : « فيه ايه يا شاطر ؟ » · فدنوت منه أكاد أتعثر قائلا : « أبويا لسه ماجاش من الحرب والناس كلها رجعت » · فكسر عينه هو الآخر ناظرا فى دفتر أمامه راح يقلبه قائلا من وراء عينيه : « شوف ياسيادة الرائد » · فصاح رجل يجلس فى ركن بعيد دون أن ينظر الى : « اسمك ايه يا شاطر ؟ » · فدنوت منه أقاوم انهمار الدموع حتى استطيع الكلام ، ثم قلت : « اسمى مأمون ·· وأبويا العريف محمد عكاشة النجار كل الناس اللى كانوا معاه جم واللى ماجاش اتعرف خبره

الا هو دون عن أهل البلد بحالها » ، فصاح فى بخشونة كأنه يحتج على البكاء : « فى انهو وحده · فين البيانات بتاعتـــه ؟ » · فأخرجت ورقه دائبة جئت بها معى كنا ننقل نصها على ظهر خطابات نرسلهـــا لأبى · أخذها ونظر فيها ثم ردها الى مشيرا الى شخص آخر يجلس فى نهـــاية الحجرة فدنوت منه وقد جفت الدموع على خدى فأحسست بجلدى يكاد يتشقق من فرط الألم ، ولكن عينى كان قد عاد اليهما الصفاء · فلما وقفت أمامه أعطيته القصاصة فنظر فيها نظرة عابرة ثم سحب دفترا فتحه على صفحة معينة ثم أرسل أصبعه زاحفا عليها ثم توقف فجأة ونظر فى وجهى قائلا كأنه يوجه الى اتهاما خطيرا جدا : « كيف تقول ياولد ان خبـــرا لم يصل اليكم هه » · فارتعدت الأرض تحت قدمى وقلت وأنا على وشك البكاء ثانية : « وكتاب الله ما نعرف عنه أيها حاجة » ·

فسلط عينيه فى عينى بقوة وقسوة كأنهـــا الطعنات · فعاودنى البـكاء من جديد ولكن بصـــوت عال فيمـــا أقول بعبارات متقطعة : « ·· كتاب الله ما نعرف ·· وأمى كمان عيانه عيا الموت عشان كده واذا ماكنتوش مصدقين تعالوا شوفوها » · فانتفض الرجل واقفا ضاربا المكتب بقبضته فى قوة رهيبة صائحا : « كداب ·· امشى انجر من هنا يانصاب » · فلم أصدق ان عفوا صدر عنى ، فما كدت أستدير نحو الباب فى ذلة حتى أرعدنى صوته : استنى هنا ·· تعال · فدنوت منه أحاول الضغط على شفتى السفلى والأرض تحت قدمى متضارسة · تساندت على المكتب ووجهى يرتد مرتعدا عن اليمين مرة وعن اليســـار أخرى توقعا لصفعة مفاجئة تنالنى لكن الرجل بلطف مفتعل قال : تعـرف تقرأ ؟ قلت : ·· نعم · فلوى الدفتر العريض المستطيل نحو وجهى وجذبنى من كتفى بأصبعين من كماشة حادة ، وصار يخبط بأصبعه فوق ســطر معين ويقول : ايه ده ؟ اقرأ ·· فيه خبر وصل لكم ولا لأ ؟ ما تنطق · غير اننى لم أنطق ، حيث كنت بالكاد قد بدأت أعرف قراءة الكلام المدون أمام اسم أبى · ولقـــد قرأته ، لكننى نظرت فى عينى الرجل ، وعدت

ونظرت فى المكتوب ، وعدت من جديد أمسح الحجرة بنظرة غائمة لا أدرى ماذا أقول · وكان الرجل يصيح بلا توقف :

تانى مرة ماتبقاش تدعى ·· مش أى واحد تطلع فى دماغه كلمتين ولا دمعتين ييجى يعملهم قدامنا هنا ؟ احنا جسمنا طاب خلاص ·· داحنا جبال ·· لو بنشيل فى نفسنا كنا موتنا من زمان ·· كل واحد ييجى يسأل عن قريبه ولا نسيبه ولا أبوه عايز يحملنـــا مسئولية موته ·· دا قدر ·· استشهاد واحنا بنأدى عملنا على خير وجه ·· وكفايانا حزن بقى من كتر الكتابة فى الدفاتر دى لوحدها ·· على كل حال ·· اتكل على الله روح انت وحتلاقى الجوابات مركونة فى البوستة أو فى أى حته ·· املا الاستمارات اللى فيها وابعتها لنا واحنـــا حنعمل اللازم ·· مع السلامة ··

« اندفعت الى الطرقة العريضة فقفزتها ومنها الى السلالم قفزا حتى ارتاب بعضهم فى أمرى · ما صدقت أن صافحنى هواء الشارع · وكنت لا ازال أجرى حين همت سيارة بضربى لولا ان فرملت بقوة أسقطت قلبى من جديد فى ركبتى · تركت السائق يلعن أبى الشهيد بأقذر اللعنـات ويصف أمى المسكينة بأشنع الأوصاف ، وأخذت أواصل الجرى أريد أن أضمحل تماما من هذه المدينة لا أعرف ان كنت نشوانا أو تعيســـا ، فها أنذا أجرب لأول مرة معنى أن يكون أبوك أنت بالذات شهيدا ، أن يموت فى معركة حربية دفاعا عن الوطن · لم يكن ذلك شيئا جديدا علينا · والحق لقد كان لذيذا أن يقول المرء بثقة : لقد حارب أبى فى النكسة ومات فى حرب رمضان وصوت النصر المدوى يقول الله أكبر · لكن ليس لذيذا بالمرء أن يصير حالى الى ما قد صار عليه ·

« المثير للدهشة اننى لم أجدنى محتاجا لابلاغ أمى نبأ استشهاد أبى · لقد عرفت الخبر بمجرد النظر فى وجهى ، فانفجرت باكية وهى تقول لى : خلف لك طولة العمـر ، ولم أكن أبكى على اســتشهاد أبى بقدر ما كنت أبكى على ما لحقنى فى المدينة من اهانات · وقالت أمى انها

كانت واثقة من موته منذ أن رأته ذات حلم فيما هي تركب بجواره على الدبابة التى يقودها حيث تمرق الدبابة عبر المياه من شاطىء القناة الى شاطئها الآخر كأنها تقطع أرضا صلبة ، ولكنه على الشاطىء الآخـــر حفر لها خندقا جميلا معرشا بالنباتات وأوصاها بانتظاره ريثما يطمئن على أصدقائه ويعود ، وكانت الدبابات تبدو كأنهـــا عربة ملاكى بدون فوهات مدافع وكان يبدو ان الأرض الواقعة على الشاطىء الآخر جزءا من حديقة غناء تحضنا فلهذا تركته يذهب لرؤية أصدقائه ، وكان ثمـــة احساس فى داخلها يقول لها انه سوف يعود لها ومعه أكلة سمك طازجة وبضعة أصدقاء يعزمهم عليها • وقالت أمى كذلك انها الآن تأكدت انه لن يعود ولكنها لا تملك سوى الانتظار • وكانت قمينة بأن تظل الدهر تنتظر أكلة السمك الطازجة تنبىء رائحتها عن مقدم العزيز الغـــالى ، لولا ان المجنون ، أعنى المرحوم الولد حسان أخى الأصغر طالب الاعدادية ورفيقى الوحيد فى الحياة •• آه ماذا أقول •• لا أعرف من ذا الذى دفعه الى موطن الخطر وهو الذى يمشى بجـوار الحائط كما علمنـــاه وأوصيناه ، الولد المسكين ليس من أهل الهتافات والمظاهرات ولا شأن له بشىء ، وكان يمشى فى حاله قادما من المدرسة فى مدينة المركز ، وكان يعرف ان ثمة هتافات وهياج كبير يجوب شوارع المدينـــة يجأر بكلام منمق خطير ، لكنه لم يكن يعرف ان ثمة جنودا قد نزلت الى الشوارع فى المدينة وضواحيها وقسمتها الى معسكرات شـــديدة الاستحكامات ، ولم يكن من ثم يدرى ان أى خطوة يخطوها عفوا فى طريقـــه الصحيح تعد انتهاكا لمعسكر الجند ، فمشى المسكين بكل راحته كما يمشى كل يوم فاذا بقنبلة مثيلة للدموع تعمى عينيه وثمة رشاشا فى أثرها يصوب نحو أذنه ففقد التوازن والاتجاه وأخذ من حلاوة الروح يجرى خبط عشـــواء فاذا به يقع من آخر ضلع فى الكوبرى فيسقط فى قاع النهر ••

« لا تســـل عن يوم مجىء جثتـــه • بالله من ذا الذى يستطيع احتمال هذا ؟ ان أمه كالجبل قد تصـــدع من عنف الزلازع الموجعـــه •

لقد نزعوه من حضنها فى عنف وقسوة وحملوها الى سرير الدار ، وانها الرقدة التى لم تقم بعدها • ماتت فى عز شبابها النضر •

« أما أنا فقد ترسمت فى مواجهة المأساة خطى جدى • لقد أعجبنى حكمته وقدرته على النسيان • عرفت ان سر تماسكه واحتماله للخوارق هو انه قرر ان يتحدى الحياة ويخرج لها لسانه قائلا : افعلى ما تريدين فانا واثق من دنائتك وخستك ولن يزعجنى أى مسلك تسلكين تجاهى مهما عظم • وهكذا قابلت الحياة وجها لوجه معلنا لها اننى غير طموح فى مصاحبتها أو كسب ودها ، أن هى الا بغى تعطى نفسها بسهولة لكل لص ونشال وقاطع طريق وليس شرفا بالمرة ان يكون موسرا • ليس من قبيل الغرور قولى بأنى قد نجحت فى هذا ، ولكن يكفى اننى قد صرت أعيش فى هذه الحياة وحدى وأصبح مسئولا عن جدى هذا وجدتى تلك • ولقـــد تسلحت جدتى ضد طوفان الأخبار المزعجة ناقلة العار فأصابت نفســـها بالطرش ، وتسلح جدى فى مواجهة الحياة بأزميل حده السخرية وحده الآخر النسيان • أما أنا فقـــد تسلحت باحتقـــارى لكل هذه المنتجات والأجهزة والملبوسات التى يشتريها أهلنا بفادح الأثمان ، وقديما قال أجدادى البلغاء : استغن عن الشىء تكن نده ، واطلب الشىء تكن عبده •• ولسوف أكون ندا لأى شىء •

« ولئن كنت هكذا حقا فاننى لابد أن أظهر ذلك فى قصصى سوف أكتبها وروايات سوف أؤلفها ، اننى أسافر كل يوم الى عاصمة المحافظة حيث أحضر محاضرات الجامعة وأشترى بنصف مرتبى كتبا • تسحرنى قصص يوسف ادريس وتسكرنى روايات عبد الرحمن الشرقاوى وأحب السملكة فى حوارى القاهرة القديمـــة مع نجيب محفوظ أتأمل فتواته وحرافيشه فتذهب نفسى حسرات على قوم يتجسد فيهم كل هذا الواقع المرير ويظل باقيا كل هذه الدهور • أما احسان عبد القدوس فاننى أشكر له صنيعا جميلا قدمه لى اذ كشف لى منذ وقت عن طبقة كاملة لم أكن أعلم شيئا عنها فضلا عن ان تكون قائمة بين ظهرانينا • وأما فتحى غانم فاننى

صديق لبطله السرمدى يوسف منصور ٠٠ اننا دائما نتأثر بما يحدث فى الديار المصرية، باعتبارها من أشد الدول المجاورة تقدما وديموقراطية وحضارة ، ومثلما نتأثر بثوراتهم نتأثر بكتابهم وفنانيهم وكل تراثهم قديمة وحديثة ، لكننا نظل محتفظين بشخصيتنا الأزرقية وان كان بعض مؤرخينا يزعمون ان معظم سكان الديار الأزرقية وافد من الديار المصرية أثناء سنوات القحط التى مرت بها على امتداد تاريخها الطويل ٠ ويبالغ بعض المتيمين بالثقافة المصرية فيقولون ان الثقافة الأزرقيـــة أصلها مصرى ، لكن ثمة أصوات أخرى أكثر ارتفاعا وثقة تذهب الى ان العكس هو الصحيح وان الثقافة الأزرقية هى الأصل فى كل حضارات المنطقة ٠ وان سألتنى عن رأيى الشخصى فاننى أقول ما أقوله دائما : ان ثقافات المنطقة كلها متأثرة ببعضها البعض ومن الصعوبة ان تفصل بين الأصل وبين الفرع وبناء عليه فيكون أهل المنطقة كلهم كذلك سواء بمعنى انهم يمكن ان يكونوا شخصية واحدة ٠

« ورغم اننى لست عضوا بأية جمـــاعة أو تنظيم الا اننى تلاقيت مع الجميع على شىء واحد هو الوطن ، لكننا اختلفنا كالعادة فى معناه ، ليكن مفهومه غائما فى أذهانهم لسبب أو لآخر لكنه فى وجدانى هو أبى الذى لم يعد من الحرب ، هو زوج جدتى الأول ، بل هو أيضا خالتى بسيمة وأخى من أبى - هريدى ، الوطن هو دم كل هؤلاء وذكرياتهـــم وبناياتهم واشعاعهم ونمائهم فكيف يتسنى لى بيع كل ذلك بمغنم شخصى مهما كان ثمينا ؟ » ٠٠

- ٢ -

قال مأمون :

- « هذا ما كان من أمرى ٠ أما ما كان من أمر خالتى بســـيمة فان اختفاءها كما قلت لم يكن له صدى يذكر فى البلدة ٠ انما انشغل

الجميع بهريدى ٠ فما ان انتهت أيام المولد وعاد كل الذين ذهبوا ما عدا هريدى وزوجته نشطت الألسن وقيل ان عصابة من قطاع الطرق اغتالوه ليحصلوا على بسيمة ٠ ولم يجد لسان واحد عن هذه القـــرية أبدا ، بل تطوع بعضهم فأنشأ قصصا وحكايات تزعم انه قابل بسيمة فى البلدة الفلانية تمشى مع أحد البكوات ، ومرة مع أحد الفتوات ، وثالثـــة مع ولد تلميذ ابن ذوات ، ورابعة مع ولد صايع خريج سجون ٠٠

« لكن هريدى ما لبث ان عاد بعد ســـنين طويلة ٠ وكان متخفيا يسأل بلهفة غريبة عن زوجته بسيمة ٠ فقالوا له : أتسألنا ؟ نحن من يومها فى انتظاركما معا ٠ فصفق كفا على كف وقال فى حزن شـــديد بالك انه كان يتعشم ان يأخذها لترافقه فى رحلة حياة معذبة قدر له ان يعيشها ، وكان حريا بألا يعيشها لولا انه دخل فى طريق لم يعد يملك الرجوع عنها ربما لأنه يجد لذة ومتعة كبيرة فى ذلك ، وربما لأنه لم يعد قادرا على جمع بصماته عن الطريق ٠ وهذا الطريق يكلفه ما لا يطيق ، لكنه فى نفس الوقت يعطيه فيغدق حين يعطى ، فهو فى معظم الأحيـــان تطارده مباحث أمن الدولة فيختفى بعيدا عن الأنظار ، فيجد دائما أبدا من يأوى غربته ويسترها بفيض من عطاء ٠٠ قالوا له : كيف يا هريدى ؟ وما الطريق وما أمره ؟

فقال هريدى :

- « الحكاية يا أســـيادى بدأت من لحظة ما اختطفنى جمع من الرجال وأحاطونى برعايتهم وحبهم وتشجيعهم ٠ أنا الذى لم يكن يدور بخلدى أن اعجاب الجمهور سهل الى هذا الحد ، فوجئت بطوفان من الحب يحتوينى ، حتى اننى فى نهاية الليلة بدأت أتذكر بسيمة ولكننى لم أنزعج ، قدرت انها على أسوأ الأحوال سترتد عائدة الى البلدة حين تيأس من ملاقاتى ٠ أقول الحق يا رجـــال ، لم أكن فى أعماقى أحس برباط قوى بينى وبين بسيمة ، بدليل اننى لم أرها جيدا أبدا ولم يقم بينى وبينها لقاء أتذكره ، ولهذا استنام قلبى فى لذة التوهج ٠ فجأة

صرت صيتيا محترما كأولئك الذين جاءوا بلدتنا ذات يوم وسهرت بهم حتى الصباح وأغدقت عليهم ·· هكذا صرت يا رجال بدون أى مجهود ، والنقود تنهال على من كل اتجـاه · ثم اننى سئلت عن بلدتى فأجبت ، وعن مدى ارتباطى بها فنفيت أى ارتباط ــ عامدا أو غير عامد لا أدرى ــ لكننى انسقت وراء التجربة وهى ساحرة ··

« استوطنت شقة فى العاصمة الكبرى اهدانيها واحد من عشاقى الأغنياء من علية القوم السابقين وتجارهم الحاليين ، وتركها لى ، فصرت ملكا غير متوج ، الشقة لا تخلو أبدا من زوار عشاق على جميع المستويات، منهم من يعنى بتنظيف ثيابى ومفروشاتى ، ومن يعنى باحضار مكيفاتى من دخان وخلافه ، كل ذلك دون ان أدفع شيئا ، كل مهمتى أن أغنى لهم فحسب ، فكنت كل يوم ألبى دعوة جديدة فى شقة جديدة من جماعة جديدة سمعت عنى ومنى فعشقتنى وتقيم سهرة على شرفى أغنى والعلع وتنهال على البقشيشات من كل ناحية ، فى السر وفى العلن على السواء · الانسان ضعيف يا رجـال خصوصا فى شـيئين : المرأة والنعيم · وبعون الله نجوت من أسر المرأة لكننى لم أنج من اغراء النعيم ، فنسيت كل ما كان من أمرى فى سنى العمر الفائتة دون ذرة حزن واحـدة · أعذرونى يا رجال ، قدروا موقفى ولا تحتقرونى ، فلو كنتم مكانى ورأيتم حلاوة كيف يتحقق الحلم هكذا فى لمح البصر لعذرتمونى ·

« غير اننى وقد هدأت كان لابد وان أعرف لماذا يحبنى كل هؤلاء المعجبين فوجدت ان الحماس يزداد بهم نحوى كلما تصادف ان غنيت موالا فيه معنى تحكم الخسيس فى الأصيل ، ففهمت ان الثورة الأزرقية تضاءل معناها فى نفوس الشعب الأزرقى الى مجرد احسـاس بأن الجاه والسلطان تم استلابهما من أولاد الأصول الباشوات والبكوات وانهـا قد أعطت السلطان لمن لا يتحملون مسئوليته من الدهماء ·· فصرت فى كل حفل أضيف من عندى كلمات على الموال أو المديح أعرف انها ستعجب الناس ·· وفهمت ان أشد ما يستولى على اعجابهـم هو اننى أقول غناء

يتكلم عن أشياء وبأشياء يحسونها ويريدون الكشف عن سرها · وبين يوم وليلة يا رجال وجدت بجوارى من يؤلف كلاما على أن أقوم بتلحينه وادائه · وجدتها كلمات جميلة ورائعة ، فيه الدفء الذى نحسه نحن ابناء البلاد ، فيه المرارة والخبث والتحريض على الانتقـام · لو لم تكن هذه الكلمات قد وفدت على فربما كنت فكرت فى الانسحاب من هذا الطريق · لكن هذه الكلمات ظلت تنهال على فلا أملك الخلاص منهـا واجدنى ساهرا على تلحينها أنا الذى لم يكن يفكر فى ان يصبح ملحنا ، وتستبد بى النشوة من كونى استطعت تلحين كل هذه الأغنيـات بهذه الحلاوة التى تغـرى الجميع بترديدها ورائى وتسجيلهـا وترويجها فى كل مكان ··

« القصد لقد أصـبحت اسما ثابتـا فى كشـوف من يسمونهم باليساريين ، يقبض على من حين الى حين لأى سبب وبأى تهمة ، لا وضع فى الزنازين عاريا · لكن الدفء يجيء دائما من خارج الأسوار · فثمة دائما من يجمع لى النقود والدخان واللحوم ويوصلها الى خلف الأسوار بشكل أو بأخر · حتى الأغانى كانت تبلغنى كلماتها من الزنزانة المجاورة ، فتصل الى أبعد ما يتصور الخيال · لا تدهشـوا يا رجال فان اغنياتى التى هى من تلحينى وأدائى ومن تأليف صعلوك مثلى ، تطبعها شركات باريس على اسطوانات مغلفة بصورتى كأكبر نجوم السينما فى العالم · أما أنا فقد حققت دخلا معقولا وفكرت فى بسيمة وأشفقت عليها ولحنت من أجلها بعض الأغنيات ولكن ضميرى ظل ينقح على فجئت أطلبها صاغرا لاعتذر لها طول حياتى عما بدر منى تجاهلها ، وأقول لها ان هريدى القديم لم يعد منه شىء حتى اسمه لم يعد هريدى بل اشتهرت بسيف الموالدى ، ولكن صحابى وعشاقى تعمدوا الخطأ وأشاعوه فأصبح اسمه « سيف الماوردى » ··

واستطرد مأمون قائلا :

ــ « ثمة شىء أحببته فى أهل بلدتنا هذه ولذا فاننى أحب المكوث فيها مهما كرهتها عند الغضب · ذلك انهم كانوا يستمعون الى حديث

هريدى الذى كان يعتبر لحظتها تصريحا بتقديمه الى المشنقة ، ولو تسرب خبر وجوده فى البلدة لنشط العسكر واقتادوه فى الحال مكبلا بالحديد . كان لحظتها كما صرح لهم هاربا من أمر بالقبض عليـه فى تهمة قلب نظام الحكم وتهييج الجماهير . وكان أى صعلوك من الجالسين يستطيع الاسراع بابلاغ الأمر الى الجهات المعنية ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . بل انهم كما كانوا يقولون كانوا يرفعون رءوسهم وينظرون اليه باعجاب وتقدير اذ هو يتجرأ على الحكومة الكبرى ويصارحها بأخطائها ويدعو الى اصلاح حال الرعية ودفع ظلم الأقلية عن الأغلبية . بل ان ضابط نقطة الشرطة نفسه تنكر فى زى مدنى وشخصية أخرى لا ليقبض عليه بل ليمتع نفسه بالاستماع اليه فى حفل من الحفلات السرية العديدة التى دعى اليها . ولقد ترك هريدى بذرته فى أطفال قريتنا فصاروا من يومها يؤلفون أغنيات على نسق أغنياته التى خرجت من السر الى العلن يسخرون فيها وبها من أشياء مثيرة فى بلدتنا .

« امضى هريدى فى داير الناحية ثلاث أسابيع تنقل خلالهـا بين عشرات الطوائف والجماعات والأسر والبلاد والقرى والعزب ، ثم لم يعد بعد ذلك ، وصرنا نقرأ أخبار القبض عليه فى الصحف ، ونتناقل أخباره من المسافرين والعائدين . ويبدو أن أيام سجنه كانت وستظل دائما أكثر من أيام حريته حتى انه لم يعد يملك المجىء الينا ثانية . ولم نكن نعرف هل التقى ببسيمة أم لا . لكننا اليوم علمنا ان أحدهما لم ير الآخر مرة ثانية .

- ٣ -

نهض مأمون فى نصف جلسة . فلما انتبهت اليه سمعت صوتا عاليا يهدر فى داخل الدار تبينت انه صوت صادر من جهاز تسجيل ، وكان الصوت مجرد خرخشة عالية . اكتأب مأمون : « الراجل المجنون

حيمارس هوايته .. حيسمع أغانى .. اللهم ان صوت التسجيل حيطفشنا من هنا » ثم قفز المصطبة مندفعا نحو الداخل فاندفعت وراءه . دخلنا قاعة فيها سرير بعمدان نحاسية وناموسية حريرية مشغولة برسوم ، ودائر عليه أطفال بأجنحة محلقة فى الهواء ، وفيها دولاب كبير بأربع درف ذى طراز قديم ومتين وترابيزة مستديرة ، وبضعة كراسى خيزران ..

قال مأمون :

كلما دخلت هذه الحجرة خيل الى ان أمى لا تزال راقدة على هذا السرير تنتظر عودة أبى ومن سخرية الدهر ان يرحل كلاهما ولا يبقى على السرير سوى جدى يستبيح لنفسه كل شىء فى هذه الحجرة دون احترام لقداسة ذكرياتها ، أتراه فقد الاحســـاس بالذكريات فينتهك قداستها باستخدام أشياء أصحابها أم تراه غارقا فى الذكريات حتى أذنيه لا يريد الخروج منها ؟ يعلم الله ..

وكان صوت التسجيل أعلى من ان يسمح لمأمون أو غيره باستمرار الحديث . أزاح مأمون طرف الناموسية فاذا بجده قد تمدد على السرير واضعا مسندين خلف ظهره مستغرق فى النشوة وقد تمكنت يده من ضبط الصوت تماما . وكان الجهاز موضوعا بجواره على المخدة ، جهاز كبير فخم مما يسمونه ستريو ، وكومة من الشرائط حوله . أزاح مأمون طرفى الملاءة الى بعيد وجلس على حافة السرير فقفزت الى جواره . ثم مد أصابعه فخفض الصوت جدا حتى صار بالكاد يبلغ الآذن . فانتبه الجد وفزع فاتحا عينيه ، ثم هشنى ، فنبحت فيه بغلظة فأشاح عنى . ونظر فيه مأمون قائلا مع ابتسامة حنون : « بالزمه أيه اللى بتسمعه ده ؟ » ثم تجرأ وأخرج الشريط من الجهاز ناظرا فيه صائحا بقهقهة عالية : (ظننتك تستمع الى الشيخ عبد الباسط أو أم كلثوم أو عبد الوهـاب وغيرهما من مطربى الدولة المصرية الشقيقة .. كنت أظنك على الأقـل ستستمع الى شرائط ابنك هريدى » ..

ثم حـول وجهه عن جده ناظرا الى ناس تخيل وجودهم ويقول : « تصوروا ان هـذا الرجل العجوز يدير شريطا لمطربة اسمها رشـــا الخضرى ٠٠ رشا الخضرى ؟ أى ابتذال هذا بحق الله ٠٠ رشا الخضرى هذه كانت ذات يوم مطربة درجة ثالثة وصعدت بها الكوسة الى الدرجات العليا وكل الناس يعرفون ، لكن من يصعد بالكوسة يهبط بالكوسة كأن شيئا لم يكن ، أين هى الآن رشا الخضرى ؟ ٠٠ ثم انها مطربة شبابية فى صوتها غنج أرادت أن تدارى به بحة فلاحية فاذا بها تجسد شيئا يدير رأس المراهقين ٠٠ فهل أنت مراهق يا جدى ؟ ٠٠ من أين جئت بهذا الشريط ؟ » ٠٠

قال جده بعد برهة كأنه يحدث نفسه انه اشترى مجموعة شرائط من ولد متشرد يبدو انه سرقهم ، ودفع له فى هذه المجموعة كلها ثلاث جنيهات وهى تساوى خمسين أو ستين ٠ وقال أيضا انه سيجربها كلها فما يعجبه منها يحتفظ به لنفسه وما لا يعجبه سيبيعه بمكسب ٠ وقال كذلك ان هذه المدعوة برشا الخضرى ليست رديئة فهو شخصيا يحس أن صوتها أحد أقاربه ، وهذه ميزة يحسها مع كثير من المطربين والمقرئين ٠٠

رد مأمون :

« عمرى ما رأيتك تستمع الى شرائط ابنك هريدى ٠٠ أليس صوته أحد أقاربك ؟ » فلم يرد الجد كأنه لم يسمع ، وصار يعبث بالشرائط فى ابتهاج كما يفحص صفقة رابحة ، كل شريط عليه صورة مطرب أو مطربة أو مقرىء من المشهورين ، وقائمة بالأغانى التى يضمها الشريط ٠ تناول مأمون أحد الشرائط عفوا وكان على علبته صورة المطرب محمد فوزى ٠ فتح علبة الشريط وأخرج الشريط قائلا : « حلو ٠٠ أنا شخصيا من عشاق محمد فوزى وأرى أن الأغنية العربية كلها لم تتجاوزه » ، ثم ثبت الشريط فى الجهاز وأداره فاذا بصوت رصين ينطلق قائلا : « الله الله ٠٠ الله يفتح عليك يا سيف يا مواردى » ٠٠

سيف الماوردى ؟ هكذا صاح مأمون ثم هلل كالأطفال : « الحق يا جدى ٠ ابنك هريدى له شريط أهه » ، واستخسر أن يتكلم مضيعا فرصة الاستماع لأن أغنية لسيف الماوردى انبعثت بايقاع مبتهج رصين راقص الاعطاف ، كلام حلو ونغم أحلى ، نفس كاريكاتير سيد درويش ، تريقة على ناس حكام ، وناس دلاديل للحكام ، تذكير بالوعود المكذوبة ، تجرىء للمستمع على قذف النخيل العالى بالحصى ، أغنية تؤدى الى أغنية ، الكلام مألوف ، تقريبا هى نفس الأغانى التى كنا نرددها فى بلدتنا من سنين ، مع اختلاف كبير هو ان محتواهـا القديم التحم بمحتوى جديد يشبهه تماما ويستفيد منه ويعكس عليه وهجا جديدا ، هكذا يجب أن تتطور أغنيات الشعب ، هكذا يجب أن يغنى الأولاد فى الشوارع ٠ كنا فى طفولتنا نغنى : يا قمرنا يا هادى ٠٠ ويا طالع الشجرة ، وأغنيـات سيف الماوردى تكاد تكون هى نفس هذه الأغانى ولكنها تحتوى على أشياء تشـغل بالنا جميعا ، وتذكرنا بأشياء نسيناها ، وتبث فينا الحماس للمطالبة بكذا وكيت وكيت ٠٠ عجيب أمرك يا سيف يا ماوردى وانت يا من تكتب له هذه الكلمات النارية يا من تسمى مراد الحلو وانت حلو بالفعل ، أقسمت انك تستطيع وحدك ان تكون جهة حساب عليا ٠٠ يه ٠٠ يه ٠٠ يه ٠٠ ما هذا ٠٠ تغنى عن طغيان عبد الجبار ؟ تسلقه بكلمات كالخناجر ؟ ، ورشا الخضرى أيضا تسلقها وتتساءل من هى وكيف كانت وأين اختفت من عالم الغنـاء والتهريب ؟ مجلس الشعب واهل منزله ؟ كل شىء لم يسلم من لسانك يا مراد يا حلو ، والأحلى منك ومن كل شىء ان يكون هذا اللسان السليط الحارق لسان مغن يسلق بالغناء ويجعل من هو موضع السخرية يغنى هو الآخر على خيبته وخيبة الجميع ٠٠

نفد الشريط ٠ نزعه مأمون واختار غيره فاذا به لفريد الأطرش ، اولا ان أغنية الربيع كانت مكتوبة على الغلاف لما أدار الشريط ٠ لكن الشريط ما ان دار حتى اتضح انه أيضا لسيف الماوردى ما هذا ؟ استفز

مامون فجرب كل الشرائط فوجد ان معظمها لسيف الماوردى ولكنهـــا متنكرة فى صور مطربين آخرين مشهورين ٠٠

اعتدل مأمون وأمسك برأســه ثم نظر لجده قائلا : « قلت انك اشتريت هذه الشرائط من ولد متشرد سرقها على ما يبدو ؟ » ٠ فلم يرد الجد وان بدا على وجهــه تعبير الموافقــة على ما قال ٠ فقال مأمون : « اذن فان الولد يكون قد سرق هذه الشرائط من مكتبة واحد يسارى كبير ممن يحتفظون بشرائط سيف الماوردى ويروجونها بينهم » ٠ ثم هز يده بجوار رأسه فى دهشــة قائلا : « ولكن يا له من حب ، ان مؤسسات بكاملها قد لا تستطيع تنظيم هذا التهريب الثقافى الفنى بهذه الطريقة الجهنمية ، ان الحب وحده هو القـــادر على هذا ، حب هذه الأغنيات ، فان كانت الدنيا قد أصبح فيها من يحارب حتى الأغنيـــات وشقشقة العصافير فليعلم ان قوة فى الأرض لن تستطيع اسكات صوت العصافير ، ان الفنون تنمو جيدا فى درجات الحرارة العالية ، ولسوف تعبر العصافير عن مأساة حرمانها من الشقشقة بالشقشقة ، شقشقة كل العصافير أصبحت تعكس وأواة طفل وليد وصوصوة طائر حبيس وصهيل فرس مكبل » ٠٠

ثم صار ينقل البصر بين جده وبينى قائلا : « العجيب انه لا يحب الاستماع الى صوت ابنه ٠٠ هذا الصوت الجميل المؤثر ٠٠ يا أخى ان لم يكن يعجبك كصوت مطرب فلتحبه كصوت كلمة كنت ولا تزال تحب ان تقولها ٠٠ ألست تحب ان تعود الى طفولتك لتغنى هكذا ؟ ٠٠ الغناء ليس رشا الخضرى وأمثالها يا جدى العزيز ، الغناء ليس هذرا نتسلى به فى أوقات الفراغ ، الغناء طقس تتحقق به أشياء وتتطهر به نفوس ومجتمعات » ٠٠

وصمت مأمون وبدا على وجهه احساس بانه لم يكن ثمة داع لهذه المحاضرة الغنائية ٠ ثم أدار وجهه نحوى كالمعتذر عن جده قائلا :

ـ « انه خبيث ، لئيم ، يوهمنا انه لا يستمع درءا لأى مهاجم بسبب التحريم ٠٠ ها هو ذا كأنــه لا يعرف ذلك المدعو هريدى أو ســيف الماوردى ، كأن صلة لم ولن تقوم بينهما ، ها هو ذا يفترض ان كل كائن غريب عن عالمه ربما كان دسيسه أو مخبرا أو قادما بنبأ عظيم الخطر ، هو من ثم فى حالة تحصين دائمة ضد كل ذلك ٠٠ لكن لو دققت فى الأمر ، لوجدت ان جدى الجالس أمامى هذا يحفظ كل أغانى سيف الماوردى عن ظهر قلب ، يحفظها بنغمها ولحنها ،أما متى استمع وكيف فهذا ما لا يستطيع أحد اثباته حتى نحن ٠٠ أحيانا أدير شريطا لسيف مما يصل الينا خلسة مع طلبة الجامعة القادمين من العاصمة الكبرى ، واسرح أنا مع النغم وأنتبه اليه فجأة فأجده يردد نفس النغم بنفس الكلمات لا بشفتيه فحسب بل بكل جسده وكامل نفســه ٠٠ يكاد هذا الجد العجيب يكون هو مشكلتى الرئيسية واسطورة حياتى ٠٠ يقول لك انه اشترى هذه الشرائط من ولد متشرد سرقها على ما يبدو ! ٠٠ ولست اذهب بعيدا ولا أكون مخرفا اذا قلت لك ان جدى هذا ربما كان هو الذى قام بتعبأة هذه الشرائط فى مكان ما من مصدر ما جاء بها متنكرة فى هذه الصورة ! ٠٠ لم لا ؟! ٠٠ ان الشىء البعيد حين يصبح قريبا بنفس درجة ابتعاده يكون ذلك من علامات الساعة لست أقصد القيامة ، انما أقصد الساعة المعنية التى ظلت البشرية تنتظرها طوال القرون ٠٠ فلقد تداخل كل شىء فى كل شىء وأصبح الانســـان محتاجا لاسلوب جديد فى المقاومة ، لم يعد الانسان مضطرا الى الاستعداد لمواجهة المسئولين او الحكومات الظالمة أو الدول العظمى أو حتى مجلس الأمن على ضياع فى حقوق أو فى أعمار أو فى محاولات بتر من الوجود ٠٠ انما أصبح الانسان مضطرا الى الاستعداد القوى للتفريق بين الأشياء الصحيحة وبين الأشياء الكاذبة ٠٠ لم تعد الأصوات وحدها تكفى للتعبير عن نفسها ٠ عليك ان أردت أن تفهم شيئا أو شخصا أو وضعا أن تدرس خريطة هائلة شديدة التعقيد فى علاقاتها المركبة المتناقضة فى تآلف !! » ٠٠

تململت فى جلستى ، أطلقت هوهوة أنبأت بها مأمون ان جده قد أخلد للنوم الهانىء اللذيذ . فابتسم مأمون فى سخرية أسيفه ثم جمع شرائط سيف الكاوردى على بعضها وحملها تاركا بقية الشرائط قائلا : « لك ان تبيع هذه يا جدى ان أردت .. نشكرك على كل حال .. لقد أديت واجبك الذى لم يكلفك به أحد ، وبفضلك صرت أمتلك ثروة هائلة من الأغنيات المحاربة المعارضة المناضلة أستطيع أن أعيش على حسابها حفلات لا تنتهى بين طلبة الجامعة والمثقفين والتجار الممرورين والسياسيين المتقاعدين برغم أنوفهم والثوريين المحبطين والأدباء المكبوتين ، هى الأخرى قوى متناقضة لكنها – على هذه الأغنيات – يمكن ان تتآلف ويصبح شكلها جميلا خلابا » . ثم أرخى طرفى الناموسية وأسدلها على جده ومضى ، فمضيت على أثره لا أحيد .

– ٤ –

دخل مأمون فى سرداب يلتصق بظهر منزلهم ، فاذا بنا بعد مسيرة طويلة بين بيوت من اللبن واطئة وبعضها جميل ، قد أشرفنا على ترعة هائلة ذات جسر وقنطرة من الأسمنت والحديد ، على ضفتها المقابلة مجموعة متناثرة من « الفيلات الأنيقة والبيوت المتميزة كأن ثمة مباراة فى التشكيل والتجميل خامت بين أصحابها . ولاحظت فى ضوء القمر ان هذه الترعة الكبيرة التى كان من المقدر لها أن تقوم بارواء عشرات الملايين من الأفدنة التابعة لدائر الناحية ، قد زحفت عليها الطريق من الناحيتين وسقطت بها عشرات الأطنان من بقايا تراب البناء وطوبه المتفتت . وأما الجسر فقد تآكل من كل ناحية وتهدمت أفاريزه ولم يعد يسمح بمرور الأبقار والجمال المحملة ، مع ذلك أدهشنى مأمون بقوله لما رآنى أتأمل وضعه فى حسرة ان السيارات رغم وضعه هذا تمر فوقه بواسطة قضيبين من الحديد المبطط باقيين من أساس الجسر القديم ، ينجح سائقوا عربات الأجرة المنتشرة فى القرية فى ان تستقر كل عجلة على قضيب وبدقة

الا ان عجلة لو انحرفت قليلا تهبط فى الفراغ . أما القنطرة فبعد ان كانت بناء أنيقا متينا ذى باب حديدى بقفل ومفتاح وخفير يفتحه ويغلقه كلما احتاجت القنوات الفرعية للماء ، أصبحت مجرد باب غائص فى الارض ، ويبدو ان الحاجة اليها لم تعد ماسة بعد ان انتهى عصر الفيضان واقبلت عصور التحاريق ، وبعد ان تغير لون وجه النهر فصارت مياهه ايضا فى لون السمك الميت ..

هرولت قليلا نحو جدار القنطرة الصغير المتآكل ، ورفعت اليتى اليمنى وتبولت على الجدار ، وعدت الى مأمون الذى جلس ضاحكا فوق حديد القنطرة . أحس بمدى الحزن فى عينى ، فرفع كتفيه ومد بوزه فى اسف كأنه يقول : « آدى .. الله وآدى حكمته » .. ثم قال :

– « لم يعد هناك من يشعر بمثل هذه الأشياء .. الكل ها هنا يريد ان يأخذ من الملكية العامة قدر ما يستطيع .. لا أحد يريد أن يعطى شيئا لأى شىء . الكل ينشغل بالبناء لنفسه فحسب ، وكل من ينسلخ من هذا السرداب الطينى ويبتنى لنفسه بيتا ها هنا يغلق عليه ابوابه فلا يزور ولا يزار ، لأنه قد صار يخشى حسد الفقراء والنم والقر خاصة من أهله المعدمين .. فى هذه البيوت الأسمنتية الجديدة يسكن مجموعة من نماذج خارقة تنهزم أمامها قدرة أكبر روائى فى العالم .. بعضهم مدرسون سافروا بطريق الاعارة وآخرون أثروا من الدروس الخصوصية .. بعضهم من معاونى الجمعية الزراعية الذين اختلسوا عرق الفلاحين فى الستينيات .. بعضهم من تجار الشنطة والبنائين .. وكل من يسكن فى هذه القرية الأسمنتية الجديدة يتنافر مع الآخر ويتعالى عليه ويتباهى بما عنده من أجهزة وأشياء .. آخر مباراة للتباهى الحاق الأولاد بالمدارس الأجنبية الخالصة رغم ما تكلفهم من مصاريف باهظة وشحططة لا مبرر لها ، أى ان المدارس الأجنبية التى تتسلم الطفل الأخضر فتدرب لسانه على أن تكون لغته الأصلية هى الفرنسية أو الانجليزية حسب جنسية المدرسة ، أصبح بين طلابها من يدعى معاطى وأبو سريع

وبسطويسى ‥ أحلى مشهد تراه لو قدر لك حضـور مناسـبة عائلية اضطرت فيها الأسر الى التلاقى فى مكان ‥ ترى عجبا ٠ تراهم يجلسون مسمرين لأنه فى الواقع لم يعد بينهم وبين بعضهم أى شىء مشترك أو اى موضوع يتحدثون فيه معا ، ولذا تراهم قد نسوا المناسبة التى جاءوا من أجلها ، ونسوا حتى شخصياتهم وأنفسهم وذابوا فى لحظة انتظار لشىء واحد ، أى ابن من أبنائهم سيكون الأنجح فى الرطانة بطلاقة ، والأم تقول بكل استمتاع خفى : لم أعد أقدر على التفاهم مع الواد ، يكلمنى بالفرنسية على طول الخط ، ولم يعد يتذكر أى لفظ عربى فهل يا ربى أتفرغ لتعليمه العربية من جديد ؟ اف ٠ لو كان ذلك ينفع معه لفعلت ٠ اف ‥ واف هذه هى نفخة المتعة التى تتمنى كل أم أن تقولهـا عن ابنها ‥ لقد حضرت بعض هذه المناسبات فكان النكد يحط على كالجبل ، وكنت أبكى من الاحساس بالاغتراب ، ويعلق البعض على بكائى بأنى أستطيع السفر عاما أو عامين أغير جوا ، ويعلق آخر بأننى يجب أن أتزوج لأنجب لى طفلا ‥ وتنساب بكرة التعليقات : العيال اليوم تكلف ، دفعت للولد مائة جنيه ثمن توصيل بالعربة فقط ، ابن أخى قدمنا له فى الليسية فامتحنوا أباه وأمه امتحانا عسيرا واضطررنا الى دفع رشوة لينجح الأبوان فى الامتحان !! ‥ وهكذا ترانى أعيش فى مجتمع من القردة يربى جيلا أجنبيا لينفصل عنه بعد ذلك تماما » ‥

ثم عجز مأمون عن ايقاف دموعه التى أخذت تنهمر بشدة ـ وشرعت أنطق قائلا له فى أسى : ما لدموعك قريبة هكذا يا مأمون ؟ لكنه قال دون أن يجفف دمعه ٠

ـ « لم أعد قادرا على دفع البكاء باستمرار ٠ أحس اننى لم يعد لى صديق فى هذه الديار ‥ الذين لازمتهم ولازمونى طوال سنين الطفولة الصـبا قاطعونى رغما عنهم ‥ بعضـهم سـافر واستوطن بجنسية مستعارة ‥ بعضهم اشتغل سمسار عقارات وتأجير وبيع شقق وأراض ‥

بعضهم ميكانيكى أو سمكرى سيارات ‥ بعضهم سائق عربة أجرة من المحطة الى القرية تجمع فى اليوم الواحد مائة جنيه على الأقل ‥ بعضهم اشتغل مهربا للبضائع من بورسعيد ‥

أطلقت بضع هوهوات رقيقة ترسم على وجهى تقاسـيم الاحتجاج اللطيف كأننى أقول له : أخرج بنا من هذا الجو الكئيب ٠ فاحتوى فكى بيده الحنونة قائلا : هيا بنا ٠

ـ ٥ ـ

فمضينا نحو الجسر فعبرناه فى بهلوانية فصرنا فى القرية الأسمنتية الجديدة التى ابتناها أبناؤها ٠ انعطف بنا مأمون فاذا بنا أمام محل بقالة ذى رصيف عال بسلم أسمنتى صغير ، صعدناه فى قفزتين ثم دخلنا الدكان : مروحة كبيرة فى السقف ثلاجة كبيرة جدا وأخرى صغيرة ، رفوف تزدان بمئات الأنواع والألوان من المعلبات الأجنبية والصـابون والحلويات وأشياء للأطفال لم يسمع بها أطفالهم بعد ، والتى وقفت بتبيع كل هذه الأشياء عجوز عجفاء لا تعرف أى حرف من أى لغة ٠ طويلة كعمود النور صلبة ، بحنيه كحنية عامود النور أيضا لسبب عملى وليس بدافع الشيخوخة ٠ ما أن رأتنا حتى افتر ثغرها عن ابتسامة عريضـة عمياء لطيفة ، ثم رفعت جزءا من البنك الخشبى وفتحت من تحته بابا صغيرا ، دخلنا منه الى جوف الدكان نفسه حيث جلسنا على دكة خشبية مستطيلة عليهـا بعض البضائع ٠ ثم ان العجوز بنصف خطوة فتحت الثلاجة وأتت منها بزجاجة شويبس ـ باعتبارها آخر ما أعلن عنه حسب رغبة السكان هنا ـ فتحتها وقدمتها الى مأمون ، أخذها قائلا : « شكرا يا مرات خال » ٠ ولما لم يكن ثمة من زبائن فى هذه اللحظة فانها وسعت لنفسها مكانا بجوارى على الدكة ثم جلست وصرت فاصلا بينها وبين مأمون ٠

نظر لى مأمون قائلا فى مداعبة : « هذه عجوز أخرى كالتى تركناها فى الدار لكن هذه أقوى وأعتى ، هى الجذع العتيق الحى وباقى الأفرع لم يعد ينفع فى اروائها ماء » · داعبتها ببوزى فى صدرها وكتفها فدفعتنى عنها بخجل أنثوى أصيل ثم عادت فربتت على · وقال مأمون : « انها زوجة أخ جدتى ، يعنى هى زوجة خال خالتى بسيمة » · انتفض حتى الشعر فوق جلدى من الغضب والتحفز ، حيث تذكرت ما كنت سمعته عن هذه السيدة وكيف لعبت دورا فى تشريد طفولة بسيمة فقد سمعت انها لم تكتف بالاساءة اليها لتطفيشها هى وأمها من مملكتها بل عمدت الى تسفية جمالها وتلطيخه فى أنظار أهل القرية حتى تبتعد أنظار العرسان عنها وتتجه الى بناتها هى ، ومن يدرى فلعل مسيرة بسيمة فى الحياة كانت تغيرت لو لم يكن فى حياتها سيدة كهذه ، ثم عدت فقلت فى نفسى ، هل يمكن ان يحاكم الانسان على ذنوب اقترفها من أربعين عاما أو أكثر مثلا ؟ وقلت على الفور ان هذا لا يجوز ، لكننى أحس أنى سأظل غاضبا منها الى الأبد ··

ودخلت امرأة ريفية تحمل على صدرها طفلا نظيفا جدا أغلب اليقين انها خادمته · قالت : « مسا الخير يا خاله جل الخالق · مسا الخير ياس مأمون » فردا معا قائلين : « أهلا يا ست الحسن » · أخذت أهوهو فى اتجاهها مرة وفى اتجاههما مرات وهما ينبهان على قائلين : « انها ليست غريبة ·· انها حماة توفيق أفندى البحراوى المدرس الاعدادى » · وقالت العجوز دون مناسبة : « لولاها عليــه ·· يتركانها مسكينة كالخادمة ولا يعودان الا فى الليل من الدروس الخصوصية · ويتآمران عليها رغم ذلك » · وست الحسن تقول : « كله عند الله يا خاله جا الخالق وأنا أعاود النباح أكثر احتجاجا كأننى أقول : لا شأن لى بهذا ، المشكلة عندى ان ست الحسن اسم مفهوم لدى ، ولكن ما معنى اسم جا الخالق ؟ مأمون بذكائه قرأ أفكارى · فمال على هامسا : أتدرى ما معنى هذا الاسم ؟ انه اسم جميل جدا وصحة نطقه : جل الخالق · فدار رأسى من العبث وقلت لنفسى ان أولاد النفط يحملون الآن أسماء أجنبية لا يعرفون معناها

وها هى ست الحسن وجل الخالق امرأتان من عصور مضت لا تعرفان معنى أسميهما فالأمر اذن لقديم ··

خرجت « ست الحسن » حاملة الصبـــابون والزهرة ، وعادت جل الخالق الى الجلوس بجوارى قائلة لمأمون فى ود عميق : « مارحتش الفرح على طول ليه ؟ » أطرق مأمون ثم شرب جرعة شوبيس ثم قال : « ما أنا جيت أهه كفايه » · ضربت العجوز صدرها متنكرة : « يا عيب الشوم ·· لا ·· لازم تروح الفرح » · ابتسم مأمون : « يمكن يطردونى » · تمهلت : « معقول ؟ » · هز كتفيه : « العريس نفسه لم يدعنى وهو قاطعة منى » · ملست العجوز على كتفيه : « لهذا انت فى غير حاجة الى دعوة ·· انت الذى يدعو الآخرين بدلا منه » · قال مأمون : « لا يا زوجة خال ·· انت لا تفهمين جميل ·· هو صحيح ابن ابنك ولكنك لا تفهمينه » · قالت العجوز جل الخالق فى صدق : « جميل طيب وأبيض القلب كما عهدته ·· لكنهم الملاعين الذين سيطروا عليه فقبلوا مخه ·· لا تغرنك شدته فهو يتظاهر بها لكى يرضى أصحابه أولئك » · قال مأمون بأسف : « الأمر ليس هكذا يا زوجة خال ·· الأمر ان جميل جاد فيما يفعل ويقول ·· انه يعتبرنى أفنديا كافرا ·· وكل شىء أستخدمه وأفعله يراه هو كفرا وزندقة ·· وهو يحرم على كل شىء ابتداء من البذلة حتى الراديو والأقلام والكتب والمدنية كلها » ··

زحف الهم الشديد على وجه الجدة جل الخالق وصارت تبلع ريقها الجاف ثم تنهدت قائلة :

ـ « معك حق يا ولدى ·· لقد سمم عيشتنا وأصبح مصدر نكد لا ينتهى ·· أبوه أصبح مهددا بالموت من جرائه ·· انه يقاطعنا ·· لا يأكل الذبيحة الا اذا كان هو نفسه أو أحد صــحابه قد ذبحها ·· اما غيرهم فغير مسلم فى نظرهم ·· لحم الجزار يابنى لا يطيق وجوده فى الدار ·· أبوه طول الليل يخرف فى حجرته ويقول ليتنى أنجبت فتاة بدلا منه ·· أبوه الذى حج بيت الله أكثر من مرة ، وفعل كثيرا من

الخير لوجه الله ـ يطلع الولد المغموص عليه فيقاطع حياته ولا يأكل معه فى طبق واحد ·· لقد علمناه يابنى وكنا نريد الصرف عليه فى المدارس العليا ولكنه تخرج فى دبلوم الصنايع قسم الكهربا ·· يقولون ان الكهربا تضىء ، فلما علمناه اياها أراد أن يضعنا فى الظلام ·· أول شىء فعله يا ولدى ان قسم البيت الى قسمين بضلع وباب ، هذا للحريم وهذا للرجال ، ولا أحد من أهل هذا الباب يرى أهل هذا الباب الا من كان صاحب حق شرعى ·· سمم عيشتنا يا ولدى وتسلط علينا وكلنا ضعاف أمامه فهو الكبير والوحيد ·· لكنه طيب يا ولدى ·· جميل ابن ابنى طيب القلب فلا تضمر له فى نفسك شيئا ·· أنتم أهل ودمكم واحد ·· وغدا تحتاجه أو يحتاجك فيكون جسر الود قائما بينكما » ··

استوقفها مأمون باشارة من أصبعه ، قال مع ابتسامة :

ـ « والله وحق كتاب الله يا زوجة خال ما اضمر لجميل شيئا فى صدرى غير الحب والمعزة ·· اننى منذ شهور قليلة مضت كنت لا أزال أتصور انها أزمة طارئة وانه سيفيق منها ويثوب الى رشده ·· ورغم انك ، عدم المؤاخذة ، قد لا تفهمين ما أقول لكننى سأعيد عليك ما قلت له بالضبط ·· لقد قلت له : اننا جميعا مؤمنون بالله والرسول عليه الصلاة والسلام ونؤدى كافة الفروض ـ والمسلم منا أثناء أوقات التعبد كلما كان شفافا كانت عبادته أعمق اذ هى توصله الى حالة من الوجد يقربه أكثر وأكثر من الله سبحانه ·· ولذا فان الانسان الكامل ، المسلم الكامل ، هو الذى يؤدى عمله الحياتى بنجاح ، ويؤدى واجبه نحو الله بنجاح ، فتعال نتفق على ان جهود الشباب المثقف والمؤسسات الدينية تنصرف الى تثقيف المسلم الأمى ثقافة اسلامية تهدف الى تهذيبه وتمكين الصدق من نفسه حتى يصير بعد ذلك على قدر من الشفافية يفهم معها معنى فعل الخير فيكون نجاحه فى عمله رد فعل لنجاحه فى أداء الفروض تجاه الله سبحانه ·· هذا ما يمكن ان اتفق عليه معك يا جميل ·· أما ان يتحول كل واحد منا الى مجاهد مستقل عنيف فمعنى ذلك ان كل

واحد منا يريد ان يكون نبيا وحده ·· وهل الجهاد ان نصادر الحياة والمخترعات والتقدم العلمى والتقنى ؟ ·· هذا عمل يؤدى لو فعلناه الى تخريب الحياة والعيش من جديد فى الصحراء القاحلة ·· فهل هذا يرضى الله سبحانه وتعالى ؟ أبدا أبدا يا جميل ان الله خلقنا لنعمر الكون ، وهو سبحانه يريدنا أن نسعى فى مناكبها ونأكل من رزقها أى نحصل على رصيد من الخبرة والمعرفة وانكشاف الأسرار ·· وكلما اكتشفنا سرا جديدا عن الكون والحياة والانسان اقتربنا من الله أكثر يا جميل ، أى اننا سنفهمه أكثر ، ستتجلى لنا قدراته الفائقة فى كل نجاح تحققه سواء كان ذلك النجاح وصولا الى القمر أو الى طفل الأنابيب ·· ان الله سبحانه يا جميل لن يتأثر من أفعالنا هذه لأنه سبحانه · فوق ان يتأثر . فكيف ينزعج شيوخ المساجد ويخطبون الناس بأن هذا كفر والحاد ؟ ·· اننا يا جميل طول عمرنا مصابين بمن يحرم علينا شيئا من أدوات الحضارة ووسائلها ، وكان التاريخ بحركته الدافقة يهزمهم ويقوم الواقع بفرض الأداة أو تمكين الوسيلة ·· اليوم خرجنا نحن يا أبناء البارحة يا من مات أباؤنا وأخوتنا الكبار فى أربع حروب متواصلة ، فاذا بنا قد أصابتنا قوة سحرية تفرض علينا ان نقاطع أباءنا واخوتنا ومعلمينا وتراثنا وفوق ذلك كله ما اكتشفه الانسان على مدى التاريخ ·· كان الواجب علينا يا جميل ان نفكر فى مستقبل بلادنا والى اين هى ذاهبة ، فى أمر مستقبلنا وعند من سنكون خدما ·· كان الواجب ان نصحو لنعرف من نحن من العصر الحاضر ومن الأمم التى تسعى للسيطرة علينا وابادة جنسنا المتخلف ، فمن بالله تراه المسئول عن بعثرتنا هكذا ؟ ·· اننا يا جميل لم نعد مرتبطين ببعضنا أو ببلدنا ، كل واحد الآن يرتبط بداره فحسب ويقول : يلا نفسى ، وهو لا يعلم ان الريح اذا اشتدت فلن تبقى ولن تذر ·· فلمصلحة من يا جميل نرفع سلاح التكفير والتحريم ؟ ثم من أدراك أنت بالذات أو غيرك بالذات ان رأيك هو الصحيح الصائب ؟ هل معك توكيل رسمى من الله سبحانه ؟ من أنت حتى تحكم بتكفير هذا أو تحريم ذاك وانت غير ملم بالسرائر

ولا بما يدور خلف الجدران وتحت الصـــدور ؟ ٠٠ هناك ظواهر يتفق الجميع على سوئها وخروجها عن الحدود فلتعمل على محاربتها ، أما القطيعة فهى غاية العجب ، هل تقاطع مجتمعا برمته ؟ تقاطع الكون كله مثلا وانت جزىء منه لن يتحرك الا بحركته هذه فى نفس هذا الاطار الذى ترفضه جملة وتفصيلا ؟ اننا لو سلمنا بقولكم هذا يا جميل لكان الخلاص من الحياة أكثر اسلاما وأطهر ايمانا ، فهو الحل الوحيد الذى يبقى روحك وجسدك طاهرين » ٠٠

وجرع مأمون آخر رشفة ثم نحى الزجاجة بعيدا فى مأمن ، وعلق فيما تتابعه العجوز جل الخالق بابتسامة بلهاء هتماء لطيفة مبهورة :

ـ « هذه الزجاجة صنعها كافر ٠٠ ولكن الله سبحانه ليس يكره هذه الزجاجة وليس يكره صنعتها ولا انتشارها بين عبـاده المسلمين ، لأنها اختراع انسانى والاختراع الهام ٠٠ والالهام من الله » ٠٠

قالت العجوز جل الخالق :

ـ « كلامك حلو يا مأمون ٠٠ آه لو كان جميل مثلك » ٠٠

ابتسم مأمون كأنه يتوقع منها هذا التعليق ، ثم تهيأ لقول شىء عظيم الخطر ويدرك فى نفس الوقت مدى ما سيكون عليه من سخف ٠ فبدأ وهو ابن العشرينات عجوزا فى الستينات ، جاف الوجه ضــــامر الخدين مجعد الشدقين ٠ لففت أنا حوله ثم تسلقت ظهره ومددت بوزى بجوار رقبته كأننى أقول له : مالك يا مأمون ؟ ٠ فضغط على شفتيه فى تفكير عميق أسيف ممض ، وسمعت رنين الخواطر فى رأسه يقول : لقد كنت أبيت النية على حضور فرح جميل ولهذا أطلت أجازتى حتى اليوم ، فاذا بى أرانى مضطرا للمجىء لا لكى أثبت له اننى علوت على الخلافات الشخصية فحسب ، بل وبالأحرى لكى أبلغه نبأ قدوم جثمان عمة أبيه ، جثة من صلبه ولحمه ، لقد صاح واحد من التنابلة عند رؤية الجثة قائلا : صاحب اللحم يلمه ٠٠ كيف الى احســاس جميل كيف

مرقتلى هذه الكلمة فى كبدى ؟ ٠٠ ان الخبر لابد أن يكون قد وصله بشكل او بآخر فجميع أطفال العب كله كانوا يتفرجون ، والواضح حتى الآن ان جميل مشغول بفرحه ، فكيف أقنعه اننا مبدئيا علينا أن نبادر بلم لحمنا ، ثم ان الأمر يقتضينا ـ انسانيا ـ ان ندعو الى التحقيق فى مقتلها وفيما وراء عودتها هكذا ؛ وان نتابع القضية فى جهاتها المختصة حتى نصل الى الحقيقة ، انه على جميع المستويات يكون أمرا مفيدا وشريفا معا ، أليس من المحتمل ـ وهو وارد ـ أن يكون وراءها ما نستفيد بها كلنا ؟ أو سرا ما ينفعنا فى حياتنا ؟ أيا كان الأمر فاننى واثق من أن التحقيق فى مقتل بسيمة سوف يكشف عن أسرار هائلة ربما غيرت مجرى حياتنا ٠ وواثق أيضا من أن سعينا وراء هذه القضية يكون عملا شريفا جدا ومشرفا جدا ٠٠ بالله كيف أقنعه أن الانشغال بالبحث فى قضية بسيمة والتحقيق وراء مقتلها وعودتها هكذا لهو أجدى بكثير جدا مما يفعلون أو يدعوننا الى فعله والا فلا نحن من صــلبكم ولا أنتم من صلبنا ؟ هم يجعلون العمل استثناء والتعبد قاعدة ، هم يدعون الى تفريغ الذهن على الدوام من كل مشغلة دنيوية والتفرغ لتصور الذات الالهية وعذاب يوم القيامة ٠٠ أريد أن أقول له يا جميل ان آيات الله سبحانه مجسدة فى الواقع الذى تحياه معنا ونحياه معك وما عليك الا أن تستوعب كلام الله سبحانه ثم تلقى نظرة على الواقع لتستوعبه هو الآخر على مهل وبنفس هادئة ، لنكتشف كيف ان الآية القرآنية الفلانية قد تجسدت ها هنا حقيقة ، ان كتاب الله العظيم أنزله سبحانه علينا لا ليكون مجرد تميمة نعلقها فى رقابنا وتحت رؤسنا انما أراده سبحانه أن يصبح لوحا محفوظا فى سريرة كل آدمى منذ البداية حتى اذا ما شرع يمارس الحياة ويتصادم بنقائضها ومفاجآتها ينطق لسانه بالآية فيفهم مغزاها الالهى ومغزاها ان نتعظ أى نغير من سلوكنا الى السلوك الأقوم ٠٠ من شريعة الله أن نبحث فى قضية كقضية بسيمة على الأقل لنستوعب الآية الكبيرة التى ينطق بها لسان الحق فى أفئدتنا يوم نعثر على الحقيقة فيها ٠٠ قضية بسيمة قد تكون معقدة والبحث فيها شاق وعسير ومحفوف بشتى انواع المخاطر ، وقد تضيع أعمارنا دون أن نصــل الى جوهر الحقيقة

كاملة ، لكن يبقى لنا شرف البحث فيها واعطائهـا حقهـا الشرعى من الاهتمام ، فمن المؤكد أننا بمجرد اهتمامنا بالقضية واتخاذ موقف ايجابى منها سوف نجد متعة فى البحث ، ان البحث فى قضية بسيمة هو فى حد ذاته عمل ثقافى كبير فضلا عن كونه شرف وحمية وصـــون للحم الانسانى ، هو طريق من مضى فيه لا يكون خاسرا أبدا ، ان انشغالنا بقضية مقتل بسيمة وتاريخ حياتهـا ليس ترفا ثقافيـا بل هى مسألة تخصنا ، ولكن بالله كيف أنقل لجميل كل هذه الخواطر والأحاسيس وهو رافض للحوار معى أصلا ما لم ألتزم بتشريعهم فى سلوكاتى جميعا ٠

ثم تنهد مأمون من كبد مسحوقة بالألم والعجز والأسف ٠ وقالت العجوز جل الخالق وهى تنهى آخر طلب لزبون : « رحت فين يا ولدى ؟ » فلم يرد مأمون فجلست بجواره وربتت على ظهـره : « طب قوم روح الفرح ٠٠ روح كده اسند قلبه قدام نسايبه ٠٠ دانتوا لحم والضفر ما يطلعش من اللحم أبدا مهما كان » ٠ قال مأمون بأسى واضح : « صح ٠٠ القضية فى أساسها هى قضية اللحم ، لحمنا نحن ، اننا نتألم حين نخلع ضرسا لنا مضطرين ، أو حين نخلع ظفرا ، فما بالك ونحن نخلع جسدا بحاله من جسدنا ، نخلعه تماما ونتركه للكلاب تنهش فيه أمامنا دون أن تصيبنا وخزة ألم ٠٠ نعم هى قضية اللحم يا زوجة خال » ٠

قالت العجوز جل الخالق تخفى سخرية قديمة بينهما : « شاعر ربابة زى جدك ٠٠ صحيح العرق يمد لسابع جد ٠٠ جدك ماجاش الفرح ليه يا واد وجاب الربابة معاه وعمل الشـوية بتوعه ؟ ٠٠ مكسـوف ولا مستعر ؟ ولا مستكبر ؟ ٠ ده أول فرح يتقام فى دارنا بعد سنين طويلة » ٠٠

قال مأمون بصدق : « معك حق يا زوجة خال ٠٠ ما يحدث اليوم يحتاج شاعر ربابة حريف يحكى عما حدث وحدث ٠٠ يعزف على أوتار الألم كيفما شاء حتى يتمزق الناس من فرط الألم ٠٠ لابد من شاعر بربابة يعزف بالقوس على الرقاب » ٠٠

وضحكت العجوز جل الخالق حتى صار فمها كفتحة الطلمبة مفتوحا على الفراغ يصدر خشرجة متواصلة ، ثم قالت : « كلكم متعبون ان انت او هو ٠٠ لسنا نفهم شيئا مما تقولون جميعكم يا أبناء هذه الأيام ويبدوا اننا خلفنا أعداء لنا » ٠ وهنا نهض مأمون واقفا ، فهبطت وراءه ٠ قالت العجوز : « أذاهب الى الفرح » قال مأمون : « لا ٠٠ ذاهب الى الجناز » ٠ ضربت صدرها بيدها فى خوف وذهول « جناز ٠٠ تف من بقك ٠٠ يا ســـاتر يارب » ٠ قال مأمون وقـد غاضت الدماء فى وجهه تماما : « يا زوجة خال ٠٠ أتذكرين ٠٠ بسيمة ؟ ٠٠ خالتى بسيمة ؟ بنت اخت زوجك » ٠ صـاحت كالمأخوذة : « يوه ٠٠ قطعت ولا كانت ٠٠ مالها ؟ » ٠ قال مأمون : « اليوم عادت ٠٠ ولكن جثة مقتولة ومعها ٠٠ » ٠ صاحت بلهفة : « معها ماذا ٠ ثروة ؟ » قال بيسمة أسفة : « وجدوا معها محتوياتهـا القديمة أتذكرين يا زوجة خال ؟ تلك الأشـياء التى كنتم تتحدثون عنها ونحن صغار وتقولون كان معها خرج به كذا وكذا وكذا ٠٠ العجيب يا زوجة خال انها بعد الغياب هذه السنوات كلها عادت لبلدتها بهذه الأشياء فقط ، كأنها كانت ثروتها الوحيدة التى احتفظت بها فى بنك أمين » ٠٠

شردت العجوز جل الخالق شرودا عظيما ، وصارت تبسمل وتحوقل وتردد ، أواردا وتعاويذا غامضة ، ثم قالت : « أين هى اذن ؟ » ٠ قال مأمون : « حملوا جثتها الى المشرحة ثم الثلاجة » ٠ قالت العجوز بخجل سطحى : « كيف هذا ؟ » قال مأمون بخجل عميق : « تصورى يا زوجة خال ٠٠ لم يتقدم أحد من المتفرجين وكانوا أمما ليقول انه صاحب اللحم ٠٠ حتى أنا يا زوجة خال ٠٠ حين أوشكت الفرصة ان تواتينى فى الاقتراب من الشرطة للتحدث باسم الفقيدة مندوبا عن أهلها كنت قد صغرت فى نظر نفسى فجأة ووهنت قواى المعنوية تماما ٠٠ حيث كانت نظرات الواقفين جميعا تسلقنى بلمعان السخرية والاشفاق والاستهزاء وما الى ذلك ٠٠ وكنت أدرك ان بين هذه الأمم المتفرجة على الجثة لابد واحد من أهلنا له صلة قربى بخالتى بسيمة ٠٠ وحط على شعور بازدراء كان دفاعى

الوحيد أمامه أن أتنكر لصاحبة الجثة وأدعى بأننى لا أعرفها .. فانسحبت – تصورى – وعدت مع العائدين » ..

وكانت العجوز جل الخالق تهم بمقاطعته من حين لآخر تود أن تقول شيئا هاما . فلما سكت هجمت عليه وأسرت فى أذنه بفجيج رهيب : « أوعى تجيب السيرة دى قدام جميل ولا حد من زملائه .. اعمل معروف يا ابنى .. خالتك الله يرحمها بقى .. مفيش داعى نصحى الجروح القديمة يا ابنى .. اعمل معروف .. احنا ماصدقنا الناس بطلت تجيب السيرة دى وطلعت أجيال جديدة زيكم معندهاش فكرة عن الحواديت القديمة دى عشان .. خاطرى يا ابنى سيب الطابق مستور .. اعمل كأنك ما شوفتش وما تعرفش .. كان بسيمة دى لا هى خالتك ولا تعرفها .. انت كنت شفتها ولا عرفت شكلها ولا هى كانت تعرفك ؟ .. اسمع كلام جدتك العجوزة .. سيب اللى يعرف وانت مالكش دعوة .. ناس قليلين اللى عرفوا .. شوية عجايز ما يحبوش كتر الكلام حيسكتوا وتعدى الحكاية .. انما أنت لو فتحت السيرة قدام حد حتفضحوا نفسكم من أول وجديد .. الناس حترجع تجيب سيرتكم تانى وتحط راسكم فى الوحل وتعيشوا طول عمركم مذلولين ومناخيركم فى الأرض .. عشان خاطرى يا ابنى فضك من السيرة دى واطلع جرى على الفرح » . ثم قرصته قرصة صاح متوجعا من ألمها ..

ثم انه تأملها لبرهة غير وجيزة لكنه قال بعينيه أشياء كثيرة ثم اعتقل ما فى صدره وقال : « طيب .. اتمسى بالخير يا مرات خال » . فردت صائحة : « على الفرح على طول يا ولد » . فهز رأسه موافقا : « ماشى يا مرات خال » . ثم رفع البنك وخرج ، وخرجت فى أثره متجهين نحو الفرح .

باب الخدم

★ العطب لا يصيب البذور الفاسدة

– ١ –

• قال « مأمون » :

– « كان الحاج محمد عوضين النشرتاوى خال بسيمة يحمل هم أبنائه البنات فى ظل وجود بسيمة ، وهم كرامته ، كشخص تخين فقط وذى شارب ، فى ظل وجود أم بسيمة . ففى ظل وجود بسيمة لن يتزوج من أبنائه أحد ، اذ أن سمعة بسيمة تشوش عليهم . وفى ظل وجود أم بسيمة وهى امرأة شرقانة سوف تظل الألسن تلوك سيرته فى الفاضية والمليانة ..

« كان ذلك قبل الأربعينات بوقت قليل . والحاج محمد عوضين فى الأصل برادعى . شغلته صنع البرادع للحمير ، هى صنعة ورثها عن أجداده فعائلته كلها تحمل لقب البرداعى وان لم تمارس المهنة ، ولذا فهو أيضا صنايعى نظيف . يزور داره علية القوم ممن لديهم الحمير الركوبة ، القادرين على تكليف بردعة منجدة بالقطيفة مثل كرسى الصالون تماما . وهو خبير بأنواع الأقمشة والأحشية وأسعارها ولذا فيزور داره كذلك ناس من غير الموسرين ليصنع لهم برادع متوسطة

القيمة لكنها جميلة رغم ذلك . وكان صاحب مزاج ، يهوى صحن حبات جوزة الطيب فى الهاون مخلوطة بالسكر ، ليسفهـا متلمظا قبل شاى العصارى حيث يفرش الحصير أمام الدار ويكمل تنجيد بردعة ، مرتديا – امعانا فى المعلمة – كامل ثياب الخروج ، يبك الدم من وجهه المربع المكتنز المبتهج دوما ..

« الرجال الذين يزورونه من أجل برادعهم يأخـذون معهم بعض أمزجتهم الخاصة لتحيته كى يجود عملهم ، فقطعة أفيون تخرج منجيب واحد يتم امتصاصها بالشاى فى القعدة ، وقطعة حشيش من جيب آخر يتم تدخينها على الجوزة . وبنات الرجل الثلاث يدخلن ويخرجن بالشاى ، ذلك أن الصبيان يساعدون أباهم فى نفس الجلسـة . وكل الرجال شيوخا وشبانا كانوا ما أن يرون احدى بناته حتى يخرجون عن وقارهم مهما كان اتزان شخصياتهم ، فكلهم بنات ملونات مائسات القد كأنهن القشدة أو كوز العسل . وكان الحاج محمد عوضين النشرتاوى يجد لذة كبرى ومتعة فائقة حين يرى أن بنتا من بناته قد أوقعت هيبة رجل كبير أو أدارت رأس شاب . لكن الرجـال جميعهم شيوخا وشـبانا كانوا لا يتمالكون أنفسهم لدى رؤيتهم لخالتى بسيمة وهى تمرق داخلة أو خارجة ، مما يقبض قلب الحاج عوضين . وقد ظل شهورا طويلة ينتظر أن يطرق بابه خاطب لواحـدة من بناته أو حتى لبسـيمة ولكن دون جدوى ..

« فاصطاد جدى خليل ، وكان فى ذلك الوقت البعيد قد ترك شغلة الربابة بعد انتشار ما يسمى بماكينة الغناء ذات الاسطوانة والنفير عند العمد والأعيان ، واشتغل غرابليا أى صانعا للغرابيل . وواقع الأمر أنه كان يحمل اسم الصنعة فقط أما هو فقد كان منتميا اليها بسبب واحد هو تسقط أخبـار الحمير الميتة فى كل مكان حتى يذهب اليها بسرعة ويسلخها ويدبغها ويوردها لأهل المهنة الذين يقصونها فى خيوط رفيعة يصنعون منها الغرابيل الكبيرة ..

كلاهما – جدى خليل وجدى عوضين – يعيش على شرف الحمير – أى أن القرابة بينهما أصيلة وواضحة ، فماذا لو دعمنا هذه القرابة بعمل كبير يحفظها على الدوام ؟ .. هكذا قال جدى عوضين لجدى خليل قبل ما يزيد عن أربعين عاما وكانا لحظتها يشربان معا سيجارة من البانجو فى مدخل دار جدى عوضين القديمة والقمر طالع . فرد جـدى خليل قائلا : « كيف ؟ » . قال جدى عوضين : لديك عريس ولدى عروسة .. انت رجل غلبان وليس معك مهر تدفعه لأى عائلة .. ولأننا أصحاب فقد رأيت أن أهديك عروسا لابنك لا يحلم بمثلها .. انها بسيمة ابنة اختى .. ونكون أنا وأنت قد عملنا خيرا فى بنت يتيمة .. ما معك ادفعه واتكل على الله » وكان جدى خليل يعرف أن دواعى النسب بينهما ليست مجرد قرابتهما فى الحمير وانما هى سبب آخر تماما ، فالفلاحون فى القرية لا يتزوجون من أبناء الغرباء وان استوطنوا القرية لأجيال ، اذ مهما كان الواحد من الغرباء موسرا بصنعته فهو ليس من البلدة وليس معروف العائلة ثم هو معرض لمغادرة القرية ذات يوم ، فطالما أنه ليس فلاحا يملك أرضا فى القرية فانه لا يبقيه فيها صنعة ولا زوجة ، لا يبقى الانسان مرتبطا بالأرض سوى الأرض نفسها التى يرتبط بها ويملكها وتملكه كذلك لا يزوجون بنـاتهم لأجرى مثل جـدى خليل يعتبرونه – حتى ولو امتلك قصورا – شحاذا بربابة . لكن جدى خليل لم يناقش هذا مع جدى عوضين ، بل لم يضيع وقتا ، بالفعل اتكل على الله وبعد أيام قليلة جاء المأذون وعقد جلسة ، ثم انتقلت خالتى بسيمة الى دار جدى خليل زوجة لهريدى الذى لم يكن راغبا فى البلدة كلها . اختفى الاثنان فى مولد ، حيث انفصل كل منهما عن الآخر فى الزحام ، فذهب كل فى طريق ..

« لم يحزن أحد فى الواقع لاختفاء بسيمة ، انما الحزن كله كان على هريدى . وقد ظل جـدى خليل يقاطع جدى عوضـين ويعتبر أن الزيجة كانت نذير شـؤم عليه أفقدته ولده الوحيد . ولم يكن مقدرا للعلاقة بينهما أن تعود ثانية لولا أن المصـائب تجمع دائما بين أبنـاء

وبنى الأزرق ، ذلك أن زوجـة جـدى أم هريدى قد كتمت الحزن على هريدى فى قلبها فلم يمض عام حتى ماتت ، فجاء جدى عوضين يعزيه ويحنو عليه شهورا طويلة حتى أحس جدى خليل أنه لم يعد يستغنى عن جـدى عوضين • وفى ليلة كانا يدخنان حجرين من الحشيش فى دار جـدى خليل ، فاذا بجـدى عوضين يقول لجدى خليل : « تزوج يا خليل •• الزواج دواؤك •• أنت رجل مطرف وصحتك كالفرس » •

جدى خليل لا يضيع كثير من وقت فى مثل هذه الأمور • ضربها حسبة فى دماغه فتيقن من وجاهة الاقتراح • فلما ألمح جدى عوضين الى نوع العروسة اللائقة صار الاقتراح أكثر وجاهة بل صار مطلبا عاجلا •• وهكذا تزوج جدى خليل من جدتى معزوزة والدة خالتى بسيمة وحماة ابنه هريدى فى مطلع العام الواحد والأربعين بعد التسعمائة والألف • وكان جدى خليل قـويا كالفرس ، فأنجب منهـا ابنته التى أسماهـا « وطنية » ويفسر ذلك قائلا ان البلاد يوم ولادتها كانت على مشـارف الانفجار من الغليان وكانت الأحزاب والفرق قد انتشرت فى كل مكان ومن لم يتحزب يضيع دمه بين الأحزاب ، وبين قمصان زرق وخضر وحمر وما الى ذلك من لعب العيال الذى تشكل فى ذلك الزمن فى فرق ضاعت البلاد بين نوازعها الشخصية الخاصة • وكان الكل يمضى الى عصبيات عمياء تأكل فى بعضها البعض والعدو المحتل يأكل فيهم جميعا بعد أن يكونوا قد طابوا وأصبح لحمهم مستساغا •

« ويقول جدى خليل انه يوم ميلاد ابنته « وطنية » كان لحظتها لبعض المتحزبين الذين يدعون الى التخريب والتحريق : « يا عالم خلو عندكم رحمـة بالبلد شوية » • فقال أحدهم فى غلظة : « يعنى عندك وطنية قوى ياخى ؟ » • لحظتذاك طب عليه خبر ولادة الطفلة فصاح قائلا كان حبل الحديث لا يزال متصلا بينه وبين الآخر : « نعم عندى وطنية •• خلاص يا ولاد •• سموها وطنية •• أهى كلمة حلوه برضه •• الناس يقولولى روح يا أبو وطنية تعالى يا أبو وطنية » ••

« وطنية » هذه هى أمى ، التى خرطها خراط البنات فى سنوات قليلة ليجعل منها ـ كما يقول الجميع ـ صورة طبق الأصل من أختها بسيمة • حتى ان جدتى معزوزة كانت تنظر اليها طوال الليل وتبكى بلا سبب ، وفى النهاية قالت أن ربنا أعاد اليها بسيمة فى وطنية ، فكفت عن التفكير فيها ، وكفت كذلك عن الانجاب فلم تنفع معها بعد ذلك أى وصفة من الوصفات •

ـ ٢ ـ

وقال « مأمون » :

ـ « يرجع مرجوعنا الى جدى عوضين ، حيث أوشكت بنـاته على البوار وهو مع ذلك لا يكف عن الانجـاب والمقبرة لا تكف عن ابتلاع رؤوس متوالية • كان قد بقى لديه ولدان وثلاث بنات أكبر من عرايس • وكان أكثر أولاده معزة هو طاهر ـ والد صديقى جميل الذى نذهب الآن الى فرحه دون دعوة وربما كنا غير مرغوب فينا ـ ومعزته كانت بسبب انه آخر العنقود حيث ولد فى العام الثامن والثلاثين ، وكانت بقايا قنابل الحرب العالمية الأولى قد استنفرت قنابل الحرب العالمية الثانية والجو ملىء برائحة البارود ودخان الرعب والذعر ونكهة اللحم البشرى المحترق والله الخير ••

« العادة فى قرانا أن أعز الأولاد هو الذى يحظى بقسط من العلم ، يصرفون عليه فى المدارس ، وهكذا تشجع جدى عوضين وألحق ابنه طاهر بالمدارس الأولية ثم الابتدائيـــة ، ثم فاجأهم طه حسين بمجانية التعليم فانتشر اسمه فى شـهادات الميلاد فى قرى بنى الأزرق وامتلأت المدارس الابتدائية بالحفاة وأنصاف العراة والمقملين والمبرغتين ليحرزوا تفوقا غريبا فى الدراسة يتقدم بهم الى الثانوية ثم الجامعات • لكن عمى طاهر والد صديقى جميل كان تخين المخ الى حد كبير فلم يفلح فى الحصول

على الابتدائية الا بشق الأنفس ، فألحقه أبوه بمعهد المعلمين العام فى احدى عواصم الديار المصرية المجاورة لنا تدعى « دحدور » ، فمكث به عامين اثنين حصل فيهما على شرف كبير جدا هو عضويته فى أول بعثة تعليمية تخرج من القرية لتتعلم خارج البلاد ، الى جانب شرف الحصول على معلومات أكثر ومعاشرته لكثير من الأساتذة والمتعلمين ورؤيته للحياة المدنية • كف أباه باهظ النفقات وعاد الى القرية طافشا من المدينة التى اتضح له أنها يلزمها دماغ غير دماغه هو ··

« لحظتذاك لم يستطع جـدى عوضين كتمان الشعور بالحسرة • وكان لأول مرة فى حياته قد بدأ يتيه على أهل القرية زهوا وتفاخرا • ثم ان القرية كانت لأول مرة أيضا قد تنازلت عن معتقداتها القديمة تجاه الغرباء والحرفيين بل وتجاه كل شىء ، وبات أهلها ينظرون الى المتعلمين نظرة خاصة والى أهلهم نظرة احترام وتقدير ، وكان يسعده كما يسعد أهله منظر طاهر وهو يمشى بين صحابه المتعلمين مرتديا جلبابه الزفير المقلم ذى الياقة والأساور ويتناقش بعربية فصحى اذ أن المدارس تعلمهم اللغات الأجنبية وعلى رأسها العربية الفصحى ، بفضلها يصـير الأولاد فصحاء وأذكياء واسعى الحيلة فى التفاهم والتخاطب ، ولكن يبـدو أن اللغة العربية الفصحى تصيب من يتعلمها بداء الخطابة واستبدالها بأى فعل • لكن بفضل تلمذة طاهر اتسعت دائرة علاقات الأسرة اتساعا جميلا حتى خيل لجدى عوضين أن الدنيا أوسع صدرا وأحلى مما كان يتصور ، وبدأ شبان كثيرون يحرمون حول دارهم ويتقربون اليهم و « يتكلمون » على البنات ويقرأون الفواتح • وهكذا أصبحت أسرتهم من علية القوم ، وكف أبوه عن شغل البرداع وافتتح دكان بقالة نظيف الى حد يمتلىء بعشرات المئات من الأصناف ··

« ما يحدث فى الدولة المصرية يتكرر عندنا فى الحال ، اذ قامت عندنا الثورة الأزرقية التى تمثلت فى أن يحكم الناس أنفسهم دون ملك ، وبعد دوامة طويلة فى القرى من الترشيح والانتخابات ظهر أن الولد فلان بن فلان قد أصبح يجلس فى مكتب يسمونه الاتحاد الاشتراكى

ويساق اليه ـ حين يشاء ـ كبار القوم مخفورين بالعسكر وتهتز لخطوة الأبدان والأبواب ، وأثر ذلك قد يأمر من معه باقتحام الدكان وتوزيع ما فيه من بضائع بمعرفته ·· وقس على هذا كثيرا مما حدث كتعبير عن الثورة الأزرقية الغراء المباركة ، ولكن يبقى لها الفضل فى أنها غيرت الكثير جدا من مفاهيم بنى الأزرق وعدلت الكثير من علاقاتهم ومعتقداتهم ··

« ذلك الزمان كان البداية الحقيقية الذهبية « لطاهر » والد صديقى « جميل » •

« وكانت المقلقات قد تزايدت فى نفس جدى عوضين لأن ابنه وكان اتصـال طاهر بالمدينة قد أدخل فى حيـاة الأسرة اختراعا جديدا من اختراعات الغرب اسـمه جهـاز الراديو ، يبث فيهم ـ من تلقـائه ـ الأغنيات والاحتفالات بالثورة الأزرقية ، والتمثيليات والخطب والنشرات وأم كلثوم ·· هذا الجهاز الساحر كان بدوره مقلقا لجدى عوضين اذ هو لا يكف عن دلق الأخبار المتوعدة المهددة المنددة المتجددة باستمرار ، حتى خيل لجدى عوضين ان قد وقعنا فى حرب مع الدنيا كلها حتى مع العرب ، حيث لا يكف الراديو عن شتمهم وتهزىء ملوكهم ، وانه قد يدفع ابنه ثمنا لهذه المهاترات الثورية • ولو حدث ذلك فان الدكان يغلق أبوابه لأن طاهر لا يصلح للوقوف فيه بائعا •

« وهكذا كان جدى عوضين قد صلى الفجر فى احدى الليالى متخلصا من هذه الأفكار بصعوبة ، وذهب كالعادة ليفتح الدكان ويبخره ، ولأن الدكان لصق البيت والباب مجاور للباب فانه فى العادة يدخل البيت ليحضر المفاتيح ، فاذا به يدخل ويتمدد على السرير موصيا بألا يصحيه أحد ، وحين طالت نومته اضطروا الى ايقاظه لتناول الغداء فوجدوه ميتا • أ من تلك الأيام • كانت جثة جدى عوضين وهى راقدة فى النعش ـ كما يقولون ـ تدفع النعش بحامليه نحو قرية « الحصة » المجاورة ليزور عمه فى العهد الشيخ رفعت الفرغانى صاحب الطريقة الفرغانية • عبثا حاولوا عدل الجثة نحو مقـابر البلدة • فذهبوا بها راغمين الى مقر الشـيخ

الفرغانى ، الذى قرأ الفاتحة على رأسها وتمتم ببعض التعاويذ ، ثم قال لهم احملوها ، فحملوها فامتثلت لأيديهم ولكنها توقفت عند مقابر الفرغانية وصارت تترجرج وتهدد بالوقوع حتى جاءهم أمر من الشيخ الفرغانى بدفنها فى مقابرهم ، فدفنوها فى مقابر الفرغانية وعادوا يلهجون بذكر الحادث سنين طويلة بغية اثبات طيبة جدى عوضين وكراماته • لكنهم وهم يقولون ذلك كانوا هم أنفسهم فى بعض الأحيان يسخرون قائلين ان الجثة كانت ذكية اذ نجت بنفسها من مقابر الصدقة ـ حيث ان الأسرة لم يكن لها مقابر وهذا دليل عدم أصالتها ـ الى مقابر الأولياء الصالحين ، أى أنها جثة قد اغتربت هى الأخرى مثلما اغترب صاحبها ذات يوم ••

« •• ما أرجلها جدتى « معزوزة » هى أيضا مدربة على الاغتراب مستعدة لمواجهة الحياة وحدها فى أية لحظة • قامت بالدكان وحدها بتبيع وتشترى وتذهب الى مدينة المركز لاستلام التموين وتبصم ، وتجيئها عربات الجاز والدخان والكازوزة ، ولم تكن تجد غضاضة فى أن تقف احدى بناتها لتبيع فى الدكان وفى نفس الوقت تعرض نفسها لمن يريد تأمل جمالها على مهل لعله يتزوجها • الا أن « طاهر » الذى كان مفقودا منه الأمل نشط وصارت له كلمة فى البلد • كانوا فى البداية يراقبونه فى سخرية وهو يتزعم ما أسموه بمنظمات الشباب ، ويمشى فى البلد بجدية يتكلم بطلاقة ويردد الشعارات التى يسمعها فى الاتحاد الاشتراكى من المتكلمين باسم الثورة • فلما فوجئوا بأن طاهر وزملاءه قابلوا الزعيم الخالد ورأوا بأعينهم صورة طاهر يسلم عليه وضعوه فى مصاف علية القوم ، حتى ان أولاد الأعيان السابقين ومشايخ البلد والأغنياء الذين كانوا منذ زمن قليل يتأففون من طاهر وأمثاله من أبناء الأجرية أصبحوا يسلمون عليه فى احترام مشوب بالخوف ، بل انهم تلقوا توصيات من آبائهم وهم سياسيون قدامى وفديين وسعديين ودستوريين وما الى ذلك ـ بأن يتجنبوا طاهر ورفاقه الا بالحسنى والامتثال التام خوفا من أن يكتب فى أحدهم تقريرا يذهب به الى ما وراء الأفق غير المرئى ••

« طاهر » الذى كان ولدا لا تأخذ منه سوى الكلام الفارغ المنمق والمنزحة ، أصبح نجما لامعا فى المنطقة المجاورة كلها • وقد استخدم قدرته على الكلام الفارغ ومحفوظاته من أشعار مجنون ليلى والمتنبى ونثريات المنفلوطى فصار خطيبا مفوها ، وأصبح « طاهر » بذلك اذا انفرد بجماعة من الشبان خلب ألبابهم وانتزع الهتاف من حناجرهم ، حتى الكهول من اهل القرى الذين عاشوا أجيالا طويلة لا يربطهم بالحكام والنواب والسياسيين سوى خطب فى اثر خطب من وراء خطب ، تكونت لديهم عادة التصفيق حتى وان لم يفهموا من الخطبة شيئا أى شىء ••

من خطبة هنا الى خطبة هناك أصبح مشيعا بالتصفيق والهتاف اينما ذهب بأعوامه الثمانى عشر أو أزيد وقتذاك كان يبدو مبشرا بمستقبل باهر فى الأنظمة السياسية بل كان مؤهلا لأن يصبح رئيسا لأى شىء بدون انتخابات لولا أنه كان بلا محتوى سياسى وبلا مضمون وبلا تجربة انسانية وبلا رصيد ثقافى أصيل أو حتى مستعار ، كان فقط مليئا بالعقد والأحقاد تجاه كل الموسرين والناجحين والأذكياء ، ثم انه كان هجاصا لا يتورع عن وضع رقبته فى حبل المشنقة فى سبيل تعبير أحمق يصفق له المتفرجون فى حمق أيضا ••

« فى كل يوم يسافر الى المحافظة ليعقد اجتماعات ويحضر محاضرات ويلتقى بمسئولين فى الحزب واللجنة المركزية • الشعب الأزرقى شعب غريب • انك مع ذلك ربما كنت معذورا أيها الشعب الأزرقى ، اذ أنت تعلم أن السلطة هى كل شىء فى تاريخ هذه البلاد وان من حصل عليها حصل على كل شىء ، وقديما كان ملوك أرضك لا يتركونها الا مقتولين ، من يريد أن يصبح ملكا عليه أن يصحو مبكرا قبل الملك الأصلى حتى ولو كان أحد خدمه الموكلين بخدمته ، هكذا دون محاكمة أو وجع دماغ ، وأنت تبارك كل ذلك ليس لأنك بطبعك شرس مغرم بالظلم وحب الظالمين بل لاعتقادك الراسخ أن من حصل على السلطة حصل على كل شىء وصار هو الأقوى بكل المقاييس وانك صرت بالمقابل أعزل من كافة الأسلحة ، لأنه لا سلاح يجدى مع التسلط القوى ألا تسلط أقوى وأعتى ••

« المعروف أن خير سلاح فى مثل هذه الحالة المستعصية هو سلاح المعرفة ، سلاح البحث والكشف عن اليقين فى الواقع اليومى ، أن تبحث فى خطف طفل كل يوم ، أن تبحث فى تكاتف الثروات لدى البعض دون مبرر منطقى معروف ، أن تبحث فى أخبار المختلسين ، أن تبحث فى مظاهر الأبهة الزاحفة دوما على تجار المخدرات · على أن الشعب الأزرقى لم يقدر لهم سلوك طرق مثل هذه الأبحاث منذ قيام الثورة الأزرقية ، فدائما أبدا هناك قضية أساسية مطروحة على موائد البحث السريع الحاسم من أجلها ننسى الغداء والعشاء والفطور واللباس والايواء · ولهذا فان المناخ صالح دائما لأن يصبح أمثال عمى طاهر ذاك من الزعماء والحكام ··

« لازلت أذكر حكاياهم عنه فى طفولتى · كيف كان يصحومن النوم متأخرا والجماهير فى انتظاره فى المندرة ·· وكيف تقرب اليه الأعيان فتزوجوا من اخوته البنات فى خلال عام واحد ، حيث شهدت القرية ثلاث أفراح على مستوى العاصمة وليس المركز فحسب ، اذ شرف بالحضور رجال من نواب اللجان المركزية والتنفيذية وأمناء المراكز ورؤساء مجالس المدن والقرى ·

« فى غمضة عين أصبح عمى « طاهر » ذاك أمينا للاتحاد الاشتراكى عن البلدة · وكان بين أعيان البلدة كثيرا من المستنيرين وأبنائهم المتعلمين فى رصانة وحسن ذوق ، يعملون فى تجارة المحاصيل أو الأخشاب أو الأقمشة أو الأقطان أو يقرضون بالربا أو يشاركون فى اقتناء الأبقار والماشية مع الفلاحين يستفيدون من لبنها ونسلها على الدوام ، وكانوا جميعا فى أعماقهم يحتقرون عمى طاهر ذاك · لكنهم مع ذلك ـ وياللعجب ـ ساعدوه مساعدة جبارة فى تصعيده من أمانة الشباب الى أمانة الاتحاد على مستوى القرية ثم على مستوى المركز · الأمر كما عرفت أنا باجتهادى الخاص لم يكن فى حاجة الى العجب ، اذ أن هؤلاء الأعيان الأثرياء الذين ساعدوه بكل هذه الأموال والهتاف والمعاضدة ، لم يكونوا يفعلون ذلك

عبثا ، بل هم فى الواقع كانوا يصنعون لأنفسهم مطية يركبونها داخل مقر دار الحكومة الثورية الجديدة فها هو ذا أمين المركز من صنعهم · بأموالهم وأصواتهم ووجودهم جلس على هذا المكتب ، لا لكى يمارس وضعه كأمين ينوب عن أهل الدائرة فى مراقبة وصنع قرارات لصالحهم بل ليكون مجرد خادم لمصالح هؤلاء الذين صنعوه · وبالفعل حين اهتمت بالبحث فى تاريخ عم طاهر السياسى وجدته مجرد خدمات استفاد بها الأعيان وحدهم ، اذ بفضله رفعوا أسعارا وأخفوا سلعا ووضعوا أيديهم على قطع أرض وأمكنة وبضائع وتموين وامتيازات ما كانوا يحلمون بها ·· حتى انهم فكروا جديا فى ترشيحه لمجلس الأمة وامامه ليصرف من جنيه الى آلاف ، لكن ، تأتى الرياح دائما ·· بما لا يشتهى السفن ··

« فحيث كان قد أعد نفسه للترشيح بالفعل تصادف أن كان عبد الجبار فى زيارة للبلدة · عبد الجبار هذا هو أحد أبناء بلدتنا هذه واحد أساطيرها فى نفس الوقت · أبوه وأعمامه لا زالوا يعيشون فى مساكن ملاصقة لبلدتنا أشبه بالمستعمرة يقيمون حول أنفسهم حالة من التقديس الكاذب ··

« لا أحد من جيلنا أو الأجيال السابقة علينا يذكر شيئا عنه · لكن اجيالا كبيرة تحكى عن ذكرياتها معه فى المدرسة · هو الآن شيخ المهندسين وشيخ المقاولين وذو مناصب لا حصر لها · وكان قد جاء الى البلدة فى مناسبة كبيرة ليضع حجر الأساس فى مبنى مركز ثقافى تبرع هو بانشائه فى البلدة على نفقته الخاصة · قبلها بيومين جاء الى عم طاهر واحد من الأعيان بالليل وأسر فى أذنه أن عبد الجبار قد ارسل رجاله فوضعوا أيديهم على قطعة أرض تصل الى عشرة أفدنة من ارض الحكومة فى زمام البلدة وأنهم قد شرعوا فى البناء عليها ، فهل يا ترى كل هذه الأرض للمركز الثقافى ؟ ··

« لو ترك الأمر لعم طاهر لما توصل بذكائه الى أى شئ · لكن الواحد العين سرعان ما صار اثنين ثم ثلاثة ثم عشرا يجلسون مع عم طاهر

تحت جنح المساء يتكلمون فى حرقة وغيظ منبهين الى أن ابن شقيقة عبد الجبار قد تخرج فى كلية الزراعة وأن خاله عبد الجبار قرر أن يقدم له هدية النجاح مزرعة كبيرة حافلة ، وأن عبد الجبار قد وضع يده على قطعة الأرض بالمجان بحجة اقامة مركز ثقافى لا يحتاج لأكثر من فدان مثلا · ولم يكن عم طاهر قد تعود أن يراجع أحدا من الذين يرسلون له الهدايا سر فى لفائف مربوطة ومظاريف مغلقة · فلما أصبح الصباح ذهب ليتحرى فعرف أن الأمر صحيح مائة فى المائة ، وفى اللحظة التى هم فيها بأن يأمر شباب المنظمة بالتوجه الى قطعة الأرض المذكورة وايقاف البنائين فوجىء بأن الشباب يمتدحون له الفكرة بحماس كبير قائلين أن هذه المزرعة تعد مشروعا آخر فوق مشروع المركز الثقافى وانها ستصبح مصـدر اشعاع فى المنطقة تورد الطيـور والدواجن والزهور والعسل وكل شىء ، انها ستصنع رواجا فى الناحية وتقوم بتشـغيل الموظفين والعمال · كاد يجاريهم ويقتنع هو الآخر لولا أنه تذكر أولياء نعمته هو وكيف يكون موقفه أمامهم ·· انه يعرف أن فريق الحكومة لابد أن يغلب ، لكنه يعرف أيضا أن فريق الأغنياء فى بلادنا يكون الأغلب ولو على المدى الطويل ، انهم يستطيعون تغذية أى قوة ضد من لا يعجبهم ، ثم وطن النفس على فعل ما يستطيع فعله حماية لعلاقته بالأغنياء ··

« كان يوما مشـهودا · جاء عبد الجبـار تحفه مواكب الحراس والمرافقين والمسئولين على مستوى المحافظة · وأجريت مراسيم الاستقبال فى أمانة الاتحاد بالبلدة وسط جمع غفير · وأوشك عبد الجبار أن يتقدم ليقص الشريط ويضع الحجر الذى نقشوا عليه اسمه وتاريخه وأفضاله ، لولا أن تمكن عم طاهر من هزيمة تردده وطلب الكلمة للاستفسار عن شىء فلما أعطيت له اذا به يحولها الى خطبة عصماء حافلة بالعبـارات الرنانة الكبيرة ضد الظلم والتسلط والاستيلاء على أراضى الحكومة ، ثم ختمها بأن المركز الثقافى لا يتطلب أكثر من فدان أو فدانين على الأكثر فهل يا ترى تدفع الحكومة ثمن مقر لمزرعة أحد المواطنين ؟ ان أرض

الحـكومة هى فى الواقع ملك للاتحاد الاشتراكى وهو لا يفرط فيهـا الا لأغراض قومية وطنية ·· الخ الخ ··

« وارتفع دوى التصفيق بشكل أرضاه وأثلج صدره تماما ، لكنه لمح فى عين عبد الجبار نظرة حقد مسموم لبرهة عابرة فلم يعبأ بها · وتقدم عبد الجبار فشرح للجماهير كيف أنه أسف لاضـطراره سحب فعل خير أراد أن يفعله · فقد كان ينوى اقامة مزرعة على نفقته الخاصة تكون مصدر رواج للمنطقة وخير لأهل البلدة ·· وقال ان سيادة الأمين ما دام قد اعترض فانه سينزل عند رغبته ويسحب المشروع · وهنا ارتفع نفس التصفيق ونفس الهياج مطالبا ببقاء المشروع هاتفا له ·· فحينئذ تقدم عبد الجبار وخطب فيهم من جديد قائلا انه نزولا على رغبتهم وهم اهله الأعزاء قرر الاستمرار فى دعم المشروع · ثم انهم وسعوا له فتقدم وقص الشريط ووضع الحجر فيما أخذ عم طاهر يفتعل خطبة أخرى يعلن فيها ســعادته بالامتثال لرأى الجماعة تمشيا مع الروح الاشـتراكية الديمقراطية !! ··

« الطريف أن المزرعة أقيمت أما المركز الثقافى فلم يرد له ذكر بعد ذلك · لكن الأولاد كانوا يتندرون كلما مروا بمزرعة عبد الجبار فيشيرون اليها قائلين : المركز الثقافى · وواقع الأمر أن المركز الثقافى لفرط حب البلدة له ولاسمه أطلقوا اسمه على منطقة المزرعة وظلوا يتمسكون به حتى الآن رغم أن المركز لم يقم بتاتا ··

« وفيما كانت جدران المركز ترتفع بسرعة كان عم « طاهر » قد سافر الى المحافظة ليعرف الأخبار حول اسمه المرشح للبرلمان فاذا به يفاجأ بمصيبة ، انه مطلوب لمقابلة مسئول كبير خطير فى المحافظة · فذهب لمقابلته يتعثر فى شكوكه ، فاذا بالمسئول الكبير يلقاه على غير العادة بوجه متجهم وعلى غير العادة أيضا يأمره بالجلوس ، ثم يأخذ فى استجوابه بعد مقدمة طويلة رهيبة عن الشخصية السياسية وسمعتها وما الى ذلك ، أبدا لم يكن عم طاهر يتوقع أن تجيئه هذه الضربة القاصمة

من هذه النافذة التى كانت حتى وقتذاك مجهولة له تمـــاما ، أو كانت بمعنى أصح غائبة عن وعيه . ذلك أن المسئول الكبير راح يستجوبه برهبة حول علاقته بابنة عمته بسيمة ؟ .. ابنة عمته بسيمة ؟ كيف .. من بحق الشيطان أيقظها من رقدتها فى جب النسيان العميق ؟ .. من يا ترى يكون قد رفع فى وجهه هذا المطعن ؟ .. انه لا يكاد يذكر شكلها ، انه لم يرها أصلا ، لقد هربت قبل أن يعى الدنيا ، ثم أنه ليس مسئولا عنها ، انها بالنسبة له مجرد قصة حكاها الناس من حوله فاستوثق من صحتها من أبيه بعد ضنى شديد ، ثم نساها ، وليس له أى علاقة بها ..

عم « طاهر » أفرغ كل هذه الخواطر على مكتب المسئول الذى يعود أكثر برودا فيقول له ما هى علاقتك بشغلهـا ، انهـا تعمل راقصة فى شارع العوالم فى احدى العواصم الأزرقية الكبيرة ، وفى الأفراح ، ولكنها فى نفس الوقت تعمل بالتهريب ، تهريب المخدرات وبعض الممنـوعات الأخرى ، الحق يا طاهر آن وراءها أقاويل كثيرة ووقائع ثابتة وقد جاءتنا أوامر بالتحقيق مع كل أفراد عائلتها ، ولدى فى الواقع أمر ب .. ب .. وهنا عرف عم طاهر أنه قد تم عزله سياسيا ، وخشى أن يتطاير الشرر الى بعيد ، أن تفرض عليه الحراسة مدفوعة بأحد من سببين : ابنة عمته البغى المهربة وعمله كأمين للاتحاد الاشتراكى فى دائرة صغيرة فكون ثروة كبيرة فى أعوام قليلة . لكن المسئول رفع له قلبه الى موضعه حين طمأنه أن الأمر لا يتجاوز حدود العزل فحسب .. نطقها المسئول الكبير دون أن يسأل هو بشكل مباشر اذ أنه بخبرته فى الثراء من خلال المنصب أدرك هموم عم طاهر ومشاغله المباشرة ..

« وهكذا انزوى عم طاهر الى ركن بعيد من الحيـاة واسـتهدف الكسب والثراء المتزايد . فركز جهـوده مستخدما علاقاته القديمة فى التسهيل مقابل المنفعة المجزية ، فكان بذلك أول المنتقلين الى البناء فى هذه القرية الأسمنتية الجديدة ببناء على الطراز الأجنبى محاطا بحديقة عجفاء . وكان قد تزوج ابنة أحد الأعيان السابقين ، فعلمته كيفية الحياة

المدنية الرقيقة وأنجبت له فى العام الثامن والخمسين بنتا ، ثم بنتا ثم ابنا هو صديقى جميل ، ثم بنتا ثالثة كأنها صفة ورثها عن أبيه ..

« كأنما الظروف كانت تلعب لحساب عم طاهر من وجه اذ قلبت له ظهر المجن من وجه آخر .. اذ ما كاد ينسى حلاوة الأضواء والتصفيق والهتاف والسير بين الناس كمشروع زعيم من زعماء المستقبل ، اذا بأخيه عم صادق يموت فى حرب السادس والخمسين وقد حزن الجميع على عم « صادق » الطيب الوديع الا عم « طاهر » فقد شخط فى الجميع محذرا من الحزن على موت الشهيد ، وكان يصفق مع فايدة كامل فى نشوة بالغة مغنيا : عاد السلام يا نيل يا شعب حر أصيل . وحقيقة الأمر انه كان سعيدا اذ خلصه الله من مشارك له فى الميراث ..

« لك ان تعجب حين تعرف أن بنات عم طاهر الثلاث وأخوهم جميل لم يكونوا يعرفون عن أمر عمهم « صادق » الا النذر اليسير ، كان مجرد اسم يتردد فى بعض المناسبات » ..

« اتسعت تجارة عم طاهر فلم تلتفت اليه قوانين المصـــادرة أو التأمين ذلك أنها اتسعت فى الزمن الملائم حين زحف عقد السبعينـات مقتديا بالتقدم المصرى الهائل مهللا لحرية رأس المال والامتلاك ، يزف الملاك والسماسرة بموكب بهيج كأنهم الأبطال الفاتحون . وبعد أن كنا نعانى ضائقة مالية بسبب النكسة وندبر أمورنا كيفما اتفق ، اذا بالأموال تخرج فجأة من تحت البلاط وترفع قامتها تريد أن تشم الهواء هى الأخرى بعد طول تكدس تحت العفن ..

« هكذا كانوا يقولون تعليقا على أموال عم طاهر التى اكتشفت فجأة وتمثلت فى أراض زراعيـة يشتريهـا ، وجرارات وعربات أجـرة ومحاريث ومكن ميـــاه . لكنهم اسـألنى عنهم ـ لا يعنـون ما يقولون أبدا ، انهم حين يقولون لعم طاهر : « طلع الى تحت البلاطة » ، فانما يقولونها بلهجة ذات معنى كأن عبارة « تحت البلاطة » هذه مجرد رمز للمصدر الذى جاءت منه الثروة أيا كان وضـعه ، انهم لا يريدون أن

يقولوا له انت لص أو سفاح أو مكتنز ، بل يخلقون بديلا لهذا المعنى فيقولون له انت شاطر أنت جدع انت ناجح ·· غير أن عقدا شفويا مجهولا تم توقيعه بينه ـ كأى ناجح من هذا النوع ـ وبينهم ، يقضى بان يكون كل منا مقتنعا بزيف ما يقال ، يكون هو مقتنعا بأنه ابن ···· قواد وأنهم منافقون جيدون لا خطر منهم ··

« لديه كما تعلمون ثلاث بنات يقلن للقمر : قم لنجلس مطرحك والعجب أنهم كن يعبرن بقرب الشبه بينهن وبين خالتى بسيمة ، ولكن سبب الغيرة كان هو نفسه سبب الفتنة · ثلاث أقمار فوق ثلاث أبدان منحوتة من القشدة تكاد الأعضاء البارزة تندلق أو تنثال على بعضها ثم تعود فتنفصل وتستقل استقلالا فريدا ، حتى صغراهن ابنة الثانية عشرة من عمرها كانت تلهب فوق الشباب رجالا فى الخمسين · وبقدر ما كان يضرب بجمالهن المثل فى البلدة كانت أحزان صديقى جميل ونحن فى المدرسة الابتدائية اذ ينطوى هو على نفسه انطواء شديدا ، وكنت أضبطه متلبسا بالنظر اليهن تارة فى حقد وفى انبهار تارة أخرى ، فلما يرانى قد رأيته يكتسى وجهه بالدم ويزفر فى هم مقيم ، فاقول له : مالك ·· فلا يرد ·· لكنى كنت أعرف سر أزمته ، انه يحبهن بشدة ويغار عليهن بشدة ، وينفر من الصداقات مهما كانت نوايا الأصدقاء تجاهه طيبة ، ظنا منه أنهم جميعا يصاحبونه من أجل البصبصة لاخوته البنات ، وكان يريد أن يجنبهن فرصة أن يلوك سيرتهن أحد ، مع أنه كان من بين من يودون مصاحبته أولاد أنقياء شرفاء قد لا يعرفون أخوته ، وكان يصدهم عنه فى خجل وحياء وأدب ··

« أراحه أبوه من هذه الأزمة · وكان الأب ـ عم طاهر ـ قد توصل الى اقتناع تام بفسولة المتعلمين والجامعيين بل وفكرة التعليم من أساسها ، فماذا سيفعل الولد بالتعليم ؟ انه لن يوافق على توظيفه فى الحكومة بسبعة عشر جنيها فى الشهر ، هل يعلمه ليصبح شحاذا مرتشيا يعيش فى الحضيض ؟ لا ، ان أعماله هو تحتاج اليه ، ومعظم أعماله آلات كهربائية ، وهو قد مال الى المتاجرة فى الآلات الكهربائية

الزراعية منها خاصة ، فليكن ابنه جميل مديرا لكل شركاته ، اذن فليدخل مدرسة الصنايع قسم كهرباء ليدرس الكهرباء دراسة تنفعه فى ادارة شغله ·· وبهذا لم يختلط جميل بأوساط طلابية عريضة أى أنه لم ير المجتمع الأزرقى على حقيقته ·· ثم ان عم طاهر قد تصيد تاجرا سعوديا كبيرا فى الخمسين من عمره لديه أموال طائلة ، ما أن رأى البنات حتى تربع فى جلسته وصار يغدق من العطايا والهدايا ما يفوق التصور ، وعم طاهر يبلع بقوة الأرض الشراقى ·· فلما سافر السعودى أرسل كل هذه الجرارات هدية باسم احدى البنات ـ التى قدمت الطعام لهم ـ ثم تفاقم الشوق وتفاقم الانفاق فحضر العجوز يطلب يد الفتاة بأى ثمن ·· فطلب عم طاهر شركة باسمها وعمارة فى المدينة وأرصدة فى البنوك ووصايا ففعل العجوز كل ذلك دون مقاومة ثم أخذ الفتاة وحولها الى أميرة فاجرة عاهرة فى الخفاء وربما العلن · وبفضل « سوسن » تعرفت أختها « ايفا » ـ شف الأسماء العجيبة ـ على أمير كويتى فتزوجته رغم عدم بلوغها السن القانونية ··

« بذلك أصبح عم طاهر يمتلك هذه القطعة كلها من أرض البناء التى كون بشأنها شركة بناء قامت بالتقسيم والبناء وادخال المرافق ، ولا تزال تمارس البيع والبناء فى أرض كانت للأسف من أجود الأحواض الزراعية وأخصبها فى البلدة كلها · وتحول عم طاهر الى امبراطور يخدمه عشرات الخدم ويتزلف اليه عشرات من الموظفين الغلابة طالبى الشقق أو الحاجات · مع ذلك لم يلغ دكان البقالة ، بل تركه ليكون على الأقل مجرد مستودع لاحتياجات أسرته من المواد الغذائية ، فاحاله كما رأيت الى « سوبر ماركت » يدوس فيه الدهماء ويخرجون كما دخلوا فى غباء يستبشع أسعار الأشياء قبل أن يكتشف غرابتها ··

غير أن العطف كان قد أصاب صديقى جميل فجأة وفور تخرجه من مدرسة الصنايع · هذا ليس تعبيرى ، انما هو تعبير أبيه نفسه الذى صار يقوله فى حسرة ، انه ابنه الوحيد ، وأرث كل هذه الثروات ، يقاطعه ويعتبره كافرا ، ويزهد فى كل شىء ، ولا يستخدم من مقتنيات أبيه أى شىء ، شاب يفعل هذا لابد أن يكون أصابه العطف ··

وكان عم « طاهر » يسعى الى الانفراد بى فى ذلك الوقت على غير العادة وهو الذى كان اذا اضطر الى العطف على بهدية صغيرة يبعثها مع جميل أو مع جدته معزوزة الى دارنا ، وكان يتحاشى الانفراد بى ظنا منه أننى قد أطلب مساعدة ــ ألست يتيما وابن شهيد ٠ فلما سعى هو الى الانفراد بى ما طلته وأعطيته ميعادا ثم ذهبت متأخرا ٠ وحين دخلت عليه جلست دون استئذان ثم وضعت ساقا على ساق كأننى رجل يناده ٠ فراح يسألنى عن أحوالى ومستقبلى وأوضاعى المادية وما الى ذلك ، فافهمته بلهجة مقتضبة ان كل الأمور بالنسبة لى على خير ما يرام ، وليس من أى عائق يعوقنى فى الحياة سوى اضطهاد « بعض الجهات » لى ولكننى لا أعبأ بها ، وضغطت على عبارة « بعض الجهات » هذه كما كنت أسمعها دائما من بعض السياسيين الكبار ، لكى تصورنى فى نظره رجلا ذا رأى وعلى قدر من المسئولية ٠٠

« كنت أعرف أنه كان يتمنى فى أعماقه لو ان ابنــه جميل كان أعلى مستوى فى التفكير من مستواى ، وأنضج علميا ، بل كان يتمنى فوق ما يتمنى الا أكون أنا وأمثالى من حثالة القوم والمجتمع أصدقاء لابنه جميل ٠ كان دائما يقرب ابنه « جميل » من أبناء ذوات القرن العشرين ، الملاك المسافرين دوما الى أوروبا للتفاوض على توكيلات ينهبون من خلالها دماء الشعب الأزرقى ٠ كما كان يثير قرفة من أشكالنا ومصاحبتنا اذ نحن من أمثالى عيال فاقدين ليس وراءنا شىء نخاف عليه أما هو فوراءه ممتلكات ومملكة بحالها تنتظره ٠٠

« يحكى لنا جميل ما كان يدور بينه وبين أبيه من مناقشات حادة حول مطالب يفرضها عليه ولا تجد استجابة فى نفس جميل ، فحتى التوصيل بالسيارة الى المدرسة رفضه جميل فى أول الأمر درءا لسخرية الأولاد من أبيه البقال البرادعى الذى أصبح يصل الى المدرسة بسيارة ٠٠ ثم بعد ذلك جاءه الاقتناع الكامل بتكفير كل هذه الوسائل ومن ثم تحريم استخدامها ٠٠

ابوه لا يزال يتصور أن « جميل » فيه بعض الأمل ، وان الأمر لله يرجع الى أن « الولد » قد تربى تربية دينية ــ شــوف الفجر ــ محافظة ، انه من نسل طيب ، أليس جده هو الحاج عوضين النشرتاوى البرادعى الذى اقتاد مشيعى جثته الى حيث أراد أن يدفن جميل ذى اظهار الدين : أكان جرما ان ظللت أحدثك عن جدك البرادعى باعتباره أحــد الاولياء ؟ أتراك تأثرت بكلامى عن جدك باعتباره وليا صالحا فأزمعت توصيل الحبل بينك وبينه من جديد لتصبح بدورك عما وحولك المريدون يأخذون العهد على يديك ؟ أم تراك تأثرت بذلك الشيخ الذى كان سجينا باعتباره من الاخوان المسلمين وأفرج عنه ليخطب فى المساجد محرضــا الجميع على كل شىء يمت الى الثورة المدنية بصلة ثم جمع حوله رهطا من الشبان الصــغار وأنت منهم ؟ هل يأمرك الدين بأن تعصى والديك وتمتثل لأمر رجل آخر كأنه الله ؟ ٠٠

•

« لكن جميل لم يكن يعبأ بهذه الثورة أبدا ٠ يقول كان يقابلها بكل برود وتأكد للأب ان ابنه ليس فحسب عضوا فى احدى الجماعات الدينية بل هو ربما يكون قطبا صغيرا ٠٠

« يعتقد اعتقادا راسخا اننى أصل البلاء فى العطب الذى أصاب ابنه الذى لم يكن « له فى السياسة » أو فى مثل هذه المسائل ، واننى قد جرأته على ذلك وفتحت عينيه على كتب وروايات وطرق مســدودة لا تؤكل عيشا أو تبنى مستقبلا ٠ كان دائما يقول ذلك لجميل الذى ينقله الى ليستثيرنى فأبتعد عنه ، ويقول ان أباه لم يعد يقتنع أن السياسة ــ ولو كانت صحيحة ــ هى الطريق الصحيح الى أعلى المناصب فى بلد لا تعرف القراءة والكتابة ، انما الطريق الوحيد الى السلطة هو التجارة ورأس المال ، ان رأس المال يصنع لنفسه الحكومة التى تعجبه ، ان طاقم الحكومات فى السنوات المقبلة سيكون من قلب التجار وأصحاب الشركات وخبراء الاستشارات والمهربين ٠٠

المدهش أن « جميل » انشق على فجأة ونبذنى خوفا منى اذ أصبح يعتقد أننى الشيطان مجسدا فى بشر ، ثم نبذ الجميع بما فيهم أهله .

« يوم ذهبت الى عم طاهر حسب طلبه أراد أن يدخل فى الموضوع ليعرف منى تقريرا غير مباشر عن أسرار جميل الخفية . فبدأنا بالحديث عن السياسة وأراد أن يوهمنى بأنه متفق معى فى الأفكار الثورية المتطرفة فقال دون مناسبة أنه شرع يكتب مذكراته ليظهر مدى الظلم الذى وقع عليه فى عهد الزعيم الخالد . فسخرت فى سرى سخرة ارتفع صوتها رغما عنى غير اننى حولتها الى تسليك أنف ، وبصقت فى منديلى بثقة وثبات . ثم اننى تجاهلت حديثه ذاك تماما ، وقلت له اننى لست أعرف اى شىء عن جميل منذ تحاشى لقائى عن عمد ، منذ أن أنذرنى بالقطيعة فى رسالة ان لم أغير من كافة أفكارى وأعود الى « حظيرة الله طائعا مختارا عبدا ذليلا رافضا لكل شىء أنجبته المدنية طوال تاريخها وأشياء أخرى غريبة . وقلت له أيضا اننى لست عضوا بأى جماعة أو تنظيم او حتى نقابة أو اتحاد . فاعتدل ساخرا قائلا : فماذا أنت اذن ؟ فقلت ساخرا أيضا اننى أنا أنا ولا شىء غير ذلك ..

« الليلة لابد أن تكون أسوأ ليلة فى تاريخ حياة عم طاهر . اذ أن ابنه الوحيد جميل قد توج انعتاقه منه بالزواج ، من عروس لم يذهب أبوه لخطبتها بل لم يقبل أهلها ذلك ، عروس أنا لم أرها ولم تكن من جيلنا ولكنهم يقولون انها تشاركه نفس الاحساس ونفس المعتقدات ونفس الجماعة . ها هى ذى جدتى « معزوزة » تقول انه نائم فى البيت مريض ، وانه كان طوال الليل يهذى فليهذى كيف يشاء ويمرض كيف يشاء فان جميلا لن يعود اليه بعد الآن » ..

- ٣ -

توقف مأمون عن الحديث . وكنا قد ودعنا مساكن القرية الأسمنتية ومضينا نحو غابة جميلة بحق مهيبة بحق ، شكلها ممتد فى رحابة ،

والقصر ينتصب فى وسطها بسقف جملون على الطريقة الأجنبية ، وثمة خفراء حوله يتجولون . ورغم ان الزمن الذى نعيشه هو نهاية القرن العشرين الميلادى الا أن منظر القصر كان ينقلنى الى أقدم العصور أمام قصر كاردينال أوروبى ..

كل الخفراء الذين قابلناهم فى الطريق قالوا لنا فى ود : « اهلا سى مأمون اتفضل » ، وقال لهم مأمون فى أخويه : « عشت عشت » . ثم انه توقف بنا عند الباب الرئيسى . لا يوجد ما ينبىء عن وجود فرح . صفق مأمون بيديه وقال : « يالى هنا » .. لحق بنا خفير يمشى فى سرعة قائلا : « سا الخير يا سى مأمون .. دا الفرح من الباب التانى .. اللى بيسموه باب الخدم .. الأستاذ جميل حلف مالوش دعوه بالأبهة بتاع الجناح ده خالص .. ومانع أى طبل أو زمر أو كلام من ده .. أمه يا عينى وأخواته كلهم كاتمين الفرحة فى أنفسهم وكاتمين الحيرة إرضه . أصله ما عبرش أبوه خالص وقال اذا كان عاوز يحضر أهلا وسهلا مش عايز هو حر .. أبوه كما حلف ما هو رايح ، وأهو نايم فوق ومعاه الدكتور .. كل شويه أم الأستاذ جميل تتسحب من جنب الراجل وتنزل تبص على الفرح وتقدم للناس الشربات فى السر » .

فسأله مأمون : « جميل موجود ؟ » ..

قال الخفير : الأستاذ فى صلاة العشاء .. أصلهم بيقعدوا يصلوا العشا ساعتين ثلاثة .

قال مأمون : « عجايب حتى يوم فرحه .. دا عريس الليلة » .

قال الخفير : « ما هو حيطلع من صلاة العشا هو وزملاؤه ييجوا على هنا يكتبوا الكتاب ويقوم واخدها وداخل على شقته اللى بناها فوق الجراج دى .. الفقايرى خالص دى » .

نظر مأمون الى الشقة وقال : « لا فقايرى ولا حاجة » ، وكانت الشقة مهيبة وحدها فوق الجراج الملاصق للقصر كأنها برج أو معبد صغير جميل

أنيق . وقال الخفير : « الأستاذ جميل بعت لك دعوه ؟ » . قال مأمون وقد نشف ريقة : « لا والله بس أنا يعنى مش عايز دعوه » . قال الخفير بحرج كبير : « ما أظنش ياسى مأمون .. أنا بس عامل عليك انت .. أنا سمعته بودنى بيقول : اللى أنا دعيته بلسانى هو اللى يحضر » قال مأمون : « على كل حال أنا فاهم جميل وبأخذه على قد عقله » ، ثم بدت عليه الحيرة . نظر فى ساعته ، ثم فى الخفير قائلا : « على كل حال أروح أصلى العشا هناك معاهم لحد ما ييجوا » . قال الخفير : « وماله » . قال مأمون : « أمال مين اللى جوه ؟ » . قال الخفير : « شوية نسوان من العيلتين » . قال مأمون : « والعروسة ؟ » . قال الخفير : « مستخبية » . قال مأمون « على خيرة الله » ..

ثم مضى بى على شاطىء قناة صغيرة خلف القصر ، فاذا بأنوار مبهرة تنكشف على البعد فوق مئذنة أنيقة كمسلة فرعونية . واذا بنا بعد مسيرة قصيرة أمام مسجد جديد لامع باهظ التكاليف حقا . كان محتويا من الداخل على بضع عشرات من المصلين يتركعون وشخص يبدو أنه الامام يتركع وحده فى الأمام . ثم اذا برجل يقف ويقيم الصلاة بالصيغة المعتادة الغنائية ، على أثره وقف الجميع واصطفوا فى عدة صفوف ثم نوى الامام وكبر فرفعوا أيديهم بجوار أذانهم وكبروا وراءه ثم شرعوا فى الصلاة ..

دخل مأمون يجرى فتوضأ بسرعة وجاء يجرى أيضا لاحقا بالصفوف وهى تشرع فى السجود صائحا : ان الله مع الصابرين فتأنى الامام فى سجدته فتأنوا بالتالى حتى تمكن مأمون من أن ينوى الصلاة ويسجد معهم . أما أنا فلم أجرؤ على الدخول لسبب تلقائى بل أقعيت على باب المسجد أتأمل أجمل وأورع مشهد يمكن أن تراه فى حياتك ، مشهد الصلاة الجماعية وما تضفيه على الأفئدة من خشوع حقيقى ..

على اننى فوجئت بشبان ملتحين يدخلون فى أثر بعضهم دون أن يبدو عليهم اللهوجة ، بل انهم يتركون الصلاة والمصلين ويتركعون فرادى فى أماكن بعيدة مزورة عن الصفوف ، ثم انهم يسلمون على بعضهم بعضا

كلما تلاقوا فى الطريق . كان يبدو أن ثمة رابطة خفية تجمع بينهم وتربط عرى المودة فيهم . فظلت عينى تلاحقهم وأنا أحاول التكهن بشخصية جميل بينهم فلم أستطع لانهم كانوا جميعا على نسق واحد بنفس اللحية ونفس الملامح التى تحس ان صاحبها قهرها بنفسه لتكون خاشعة هكذا ، ونفس الخطوط ونفس التمتمة .. حتى اذا ما انتهى الامام من الصلاة وسلم ذات اليمين وذات الشمال شرع أهل الصفوف الخلفية يختمون الصلاة فرادى ، ثم انهم صاروا ينصرفون واحدا وراء الآخر ، وكان الامام آخر المنصرفين . وخرج مامون هو الآخر بعد الصلاة ولبس حذاءه واعتلى صدغ الباب الرخامى المؤهل للجلوس ، وراح يتابع معى من بقوا فى المسجد .. فاذا بهم ينهون تركعهم الفردى ويقبلون نحو بعضهم فيتصافحون فى التحام وود هادىء . واذا بشاب تبارك الخلاق فيما خلق ، يتهادى بخطوة الرزين ووجهه الابيض المشوب بحمرة يصنع من لحيته الطويلة السوداء هيبة كأنه وجه الحسين بن على كما تتخيله ريشة الرسام فى الرسم الايرانى الشائع . نظرت فى ملامحه وملامح مأمون واستحضرت ملامح كل من الجدة معزوزة والجدة الثانية فاكتشفت رتوشا واضحة جدا فى ملامحهم جميعا وكلها تذكرنى بدم بسيمة وملامحها فعرفت ان هذا هو جميل وان هؤلاء هم رفاقه . لكننى لم أعرف لماذا هم قاطعوا صلاة الجماعة وأدوا الصلاة وحدهم كأنهم قوم آخرون ذوو دين مختلف وعقيدة مختلفة . على أن مأمون قال لى انهم يفعلون ذلك باعتبار انهم هم الجماعة الأصلية ومن عداهم خارجون مارقون . فبين صفوف المصلين من هو متعلم أو موظف فى الجمعية أو تاجر أو شيخ من حملة العالمية ، وفيهم تومرجية وسائقوا جرارات وكلهم مستنيرون الى حد التعامل مع أدوات المدينة الغريبة التى أنتجها الكفار . وكلهم تبعا لذلك يراعون حق الله فى العبادة بالشكل الذى يرضى الله ومن الصعب الحكم بأنهم قوم كافرون .. ألا ما أغرب ما يدور فى عقول الشباب . انه الفراغ والجهل وسوء التربية ، ليس منهم بالطبع ، بل من آبائهم الذين بعثرت الثورة الأزرقية ما بقى فى نفوسهم من كيانات انسانية زعزعها الاستعمار على مدى التاريخ .

ثم ان مأمون .. قطع حديثه وقد شعر بما يشبه الغثيان وأشار الى بالانصراف ثم دلق نفسه على الأرض بملل ، ومضى بى خلف المسجد الجامع لنرى فى ضوء القمر القرية الأسمنتية رؤية شاملة فاذا هى مدينة آخذة بدورها فى التضخم . أشار اليها « مأمون » قائلا : « غدا تصبح هذه المدينة متحفا يضم ناسا لا هم بالرجال ولا هم بالنساء ، لا هم بالأزارقة ولا بالأجانب ، بل نفوس بزرميط ومجتمع متنافر لا ينتج شيئا لهذه الأرض .. غدا يصبح الوادى الأخضر أرضا مسفلتة يشتريها من يكون قادرا على طرد سكانها منها الى حيث لا مكان » ..

وكنت أظن اننا سنودع القرية ، لكننى وجدت « مأمون » قد لف بنا حواليها عدة مرات ، ثم اتخذ طريقه الى القصر من جديد وقد صمم على أن يؤدى واجبه نحو صديقه مهما كانت الأسباب ، فاذا كان الطرف الآخر يرفضه فانه هو شخصيا لا يصح ان يقصر فى واجبه نحوه ، انه سيظل يؤمن بالدم ، بان الدم لا يصير ماء ، وما فى عروقه من دم هو نفس الدم الذى يجرى فى عروق جميل مهما كان الأمر ..

صرنا أمام القصر من الناحية الخلفية ، فسمعنا لغطا حادا يتصاعد من الداخل ، فعرفنا ان المجموعة قد انهت صلاة العشاء على طريقتها الخاصة ثم عادت لتكتب الكتاب ويتم الدخلة على طريقتها الخاصة أيضا . صفق « مأمون » بيديه قائلا : « ياللى هنا » . فلم يجب أحد . فصاح مأمون بأعلى صوته : « ياأستاذ جميل » . فخرجت سيدة بضة ريفية الطابع لكنها أفرنجية المظهر تماما ، ترتدى أفخر ثياب كصوفيا لورين فى كل شىء . عرفت من شكلها ان هذه العروس الهيفاء المتينة البنيان الرقيقة هى أم جميل ، فقلت لنفسى ان منظرها بالفعل يورث الفتنة وان العين لابد أن تهرب منها خوفا من الاستجابة لنوازع الشيطان .

نزلت الينا درج رخامى ، وصوت كعب حذائها المعدنى يدق الرخام بايقاع هوانمى رصين . سلمت على « مأمون » قائلة : « شرفت يا أستاذ

مأمون » ثم همست فى أذنه انها سمعت صوته فخرجت اليه مسرعة قبل ان تضع على كتفيها غطاء وعلى وجهها ستارا وها هى تسلم عليه دون أن تلف يدها بجلباب وهذه جريمة كبرى لو علم بهـا جميل . فطمأنها « مأمون » باسما انه لن يقول لجميل . ثم أنها درجته ان يصعد اليه ويحاول اقناعه بتركهم يفرحون ولو قليلا . فيارب هل هى محزنة ؟ ابنها الوحيد يتزوج وهى فى ليلة دخلته لا تجد نفسها قادرة على الفرح ؟ . ثم غمزت « مأمون » فى ذراعه وانحرفت الى الحديقة لتدخل الجناح الآخر من القصر تلقى نظرة على زوجها المريض المأزوم ..

صعد « مأمون » درج السلم حتى صار أمام الباب . طرقه عدة طرقات متوالية حتى خرج اليه « جميل » من داخل الدهليز . عاجلة مأمون : السلام عليكم . ومد يده ليسلم مبديا استعداده ليعانق . غير أن « جميل » لم يمد يده بل تحاشى السلام عليه وقال فى اقتضاب : « عليكم السلام » — لم انتظر كأنه يقول : أى خدمة ؟ فغاضت الدماء وجه « مأمون » وقال له فى دهشة : « ما توسع أما أدخل » . فقال جميل : « هه » ، ثم وسع قليلا كانما رغما عنه ..

دخل « مأمون » على حذر واستياء قاصدا الحجرة الداخلية فاذا بجميل يسبقه اليها ويدخل هو فى أثره . فلما دخل وجد المجموعة التى كانت تصلى وحدها فى المسجد ، فقال : « السلام عليكم » . فردوا السلام بدون زيادة .. فتقدم منهم ومد يده ليسلم ، لكن أحدا منهم لم يقم ولم يمد يده ، بل كانوا جميعا يهزون رءوسهم فى بلاهة قائلين : « أهلا وسهلا .. أهلا وسهلا .. معلهش .. معلهش » ..

وكنت أوشك أن اعترض على هذا السلوك وأنبح فى مأمون طالبا ان يتركهم وينصرف الى شأنه دونما حرج أو ندم ، لكنه ابتسم مذكرا اياى بأنه على وعـد مع خبر لن يخلفـه .. أما التهنئة بالفرح فقد قدمها ولكنها لم تقبل منه .. أما الخبر فانه لابد ان يقوله ، ان ملك التنازل عن

حقه فلن يملك التنازل عن واجبه ، لابد ان ينقذ كرامته ولو بشىء من القسوة ، ليظهر لهؤلاء جميعا انه جاء لخبر هام بصرف النظر عن التهنئة ٠٠ فقال لجميل : « تسمح يا جميل عايزك فى كلمتين مهمين » فنهض جميل على مضض ٠ ثم عاد فجلس قائلا : « استنى شويه » ٠ وانتبه مأمون الى أن المأذون قد بدأ يكتب الكتاب ، فجلس مأمون على طرف كرسى بجوار الباب ، معطيا للجميع نصف ظهره ونصف اهتمامه ، وبدا ساعتها مسكينا وحيدا معذبا ٠٠

فلما انتهى المأذون من قولة مبروك انشق السكون المطبق فجأة عن زغرودة رنانة فى هذا الموات كأنها دوى القنابل ٠ وهنا انتفض الجميع واقفين باستثناء المأذون ، كأنما أصابهم مس من الشيطان وركبت العفاريت شابا كان متواريا بجوار المأذون يأمر وينهى فصار يشتم ويلعن ويوبخ ويستنكر ان يحدث هذا الكفر فى بيت جميل بالذات ، وكان « جميل » يعتذر ويتوسل اليه ان يقبل اعتذاره ، لكنه من فرط الغضب كان ينتفض ، وكانوا جميعا ينتفضون لانتفاضه ، فعرفت ان هذا الشاب لابد أن يكون هو أميرهم أو كبيرهم أو سلطانهم ٠

فى الحال خرج جميل الى الطرقة ، فوجد مجموعة من النساء يقفن كأشباح من الفوضى المذعورة ٠ صرخ فيهم كأنه يلفظ أنفاسه : « مين اللى عمل العملة السودة دى ؟ مين ؟ ٠٠ مين ؟ ٠ فقالت أمه بكل عشم وثقة : « أنا يا جميل ٠٠ أنا اللى زغرطت » ٠ صرخ فيها بقوة : « تبقى كافرة ٠٠ أنا قلت مش عايز كلام من ده ٠٠ قلت ولا لا ؟ » قالت أمه : « طيب حتى زغروطة واحدة مفيهاش حاجة يا جميل ٠٠ مش لازم نفرح بيك ياحبيبى ؟ » ٠ صرخ والدماء تقفز من وجهه : « مش عايز ٠٠ مش عايز » ٠ قالت الأم لتدارى كسفتها : « طب ماتزعقش كده ٠٠ حاسب علينا شويه » ٠ فصرخ بعنف وشراسة : « اطلعى بره » ٠ فشوحت فى وجهه واستدارت خارجة وقد بدا عليها انها لن تدخل عليه ثانية الى الأبد ٠٠

ودخل « جميل » ثانية وهو يخفى توتره بابتسامة اعتذار للموجودين الذين تقبلوا ذلك شاكرين سعداء جلس بينهم برهة ثم نهض ثانية وقال لمأمون : « أيوه يا مأمون عايز تقول ايه تعالى » ، ثم تقدمه خارجا ٠ فظل مأمون يمشى وراءه حتى الباب الخارجى ، وعنده وقف جميل ففضل مأمون ان يقول خبره من خارج البيت فتقدم خارجا وهو يقول فى صدق حقيقى ودون أى شبهة خبث : « أنا آسف يا جميل لازم أقول لك الخبر مهما كانت الظروف غير ملائمة ٠٠ لأننا لازم نتصرف وأنت بالذات لازم تكون معاية فى التصرف ده » ٠ قال جميل فى استنكار وتوجس : « خير فيه أيه ؟ ٠٠ » ٠ فاقترب مأمون من أذن جميل وهمس له بالخبر ٠ فاذا بوجه جميل يصير كالاوطاية الطايبة ، واذا هو يصرخ فيه بلهجة حاسمة لا تقبل المراجعة : « اطلع بره ٠٠ مش عايز أشوفك » ٠ وكان مع ذلك يوشك ان يبكى من فرط التأثر ٠ لهذا نظر مأمون اليه باشفاق وصـــار يبتعد عنه فى اشمئزاز ٠٠

فلما صار خارج السور بصق من قرف على ما تخيل انه زهور مفيقة فاذا بها نبات من فساء الكلاب ٠ وحين استدار ناظرا الى الخلف من جديد رأى جميلا يتهاوى فى وقفته فيسند رأسه على حافة افريز الشرفة وينهمر فى بكاء مكتوم ٠٠ فأحس مأمون بشىء من الفرح الغريب ، ثم توقف فى مكانه يمارس الشعور بالفرح على هزيمة جميل التى أخذت شكل انتصار الكبرياء ، ولم يستأنف السير الا بعد أن رأى جميل يجفف دمعه ويختفى داخل القصر من جديد ٠

٤

امتد الصمت أمامنا على الطريق الزراعى ٠ وكان منظر « مأمون » وهو يمشى أمامى يذكرنى بمشية خالته بسيمة ، حتى تكوينه الجسدى قريب الشبه جدا من تكوين جسمها مع فارق حاسم بين الذكورة والأنوثة ٠ وكان

ثمة بناء كبير يقترب، بدأ سوره الأسمنتى العالى بجوارنا وظل يمتد عشرات الكيلومترات • وكنت أظن أننا سنمشيه كله لكن مأمون انحرف الى طريق جانبى •• فبعد خطوات صرنا فى مواجهتها ـ المزروعة •

أهذه اذن هى مزرعة عبد الجبار ؟ • قال مأمون ان الأرض المحيطة بها كلها ومساحتها ثلاثمائة فدان قد أصبحت ملكا للمزرعة ، تنتج لخدمة المزرعة • منظر المزرعة يوحى كأنك أمام مشروع قومى شاهق مثل مصانع المحلة مثلا أو كفر الدوار فى المدن الصناعية بالديار المصرية الشقيقة • توقعت لذلك أن يكون ها هنا مساكن لعشرات الآلاف من العمال • لكن « مأمون » سخر من خيالى قائلا ان أحدا من القرية أو القـــرى المجاورة لم يشتغل فى هذه المزرعة ولم يستفد منها ، فكل رجالها وعمالها خبراء أجانب يقبضون بالعملة الصعبة وتنقلهم السيارات وتردهم فى ساعات ، وكذلك منتجاتها تخرج هى الأخرى فى السيارات الكبيرة الى حيث لا يعرف أحد ، وعلى فكرة ـ هكذا يقول مأمون ـ فان اقتصار كل من يعمل فى المزرعة على الأجانب الخبراء جعل أهل القرية والقرى المجاورة يشيعون أن المزرعة تزرع أصنافا من السميات المجهولة أو القنابل أو ما الى ذلك ، وزعم اننى ضحكت من خيال العامة حين يريد الانتقام على طريقته من كل شىء يجهل تفاصيله ، الا اننى أدرت قولهم فى عقلى فوجدته يشير الى احتمالات شديدة الخطورة لو درسناها ••

ثم أضاف مأمون قائلا ان مثل هذه الشركات الاستثمارية المتعددة الجنسيات هى فى الواقع نوع من الأمراض الطفيلية تعيش على حساب البيئة لاتغذيها بشىء ولاتفيدها بشىء بل هى تستنفدها•• نعم نعم ان أهله من بنى الأزرق فيهم خصلة لا أدرى ان كانت فضيلة أم رذيلة لكنها أصيلة فيهم ، تلك هى اعطاء الثقة بلا حدود للأبناء وللأهل والأقارب المتعلمين •• يقينى أن ذلك يعد تعبيرا عن حبهم الكامن وتقديرهم الأصيل للعلم وأهله باعتبارهم رجال الحكمة والمعرفة •• ولهذا قيل : لا تعلموا أولاد السفلة

العلم • وقول كهذا من رسول عظيم كسيدنا محمد لم ينطق أبدا عن هوى ، امر جدير بالنظر والاعتبار ، بل انه بمثابة تشريع يقوم على رؤية مستقبلية شديدة العمق والنفاذ ، لكأن رسول الله محمد صلواته عليه قد رأى منذ ما يصل الى ألف وخمسمائة عام ان ابتذال العلم لابد يؤدى الى كارثة تنذر باقتراب الجحيم ، مع ملاحظة ان العلم الذى يقصده رسولنا العظيم هو معرفة اسرار وكنه الأشياء ومنطقها ، ذلك ان السفلة أن عرفوا هذه الأسرار الجليلة انحطوا بها الى دركهم واستخدموها لمصلحتهم الخصوصية الشخصية ضد الآخرين وهم عزل من سلاح المعرفة •

باب الحــديد

★ القضبان والنقرزان ونشأة الطغيان

قال « مأمــون » :

ـ « لست أدرى أمن سوء الحظ أم من حسنه ان أولد فى نفس القرية التى ولد فيها من قبل عبد الجبار · لكننى واثق ان اهتمامى بظاهرة عبد الجبار كان سيدهمنى حتى لو كنت من دولته المجاورة ·· فما بالك وأنا أسير كل يوم بل كل لحظة بين آثار طفولته وحكايا صباه التى تناقضت بشكل لم يسبق له مثيل أبدا ، ذلك أن ازدواج الشخصية أصيل فى شخصيته من قديم ·

« الخال والد كما تقول أمثالنا · ووالد عبد الجبار الحقيقى هو خاله · أما أبوه الأصلى فرجل لايزال موجودا حتى الآن فى نفس بيتهم القديم لم يطرأ عليه أى تغير أو تبدل مظهرى رغم ان عشرات القواديس تصب أموالا فى خزائنه · الشىء الذى تغير فيه وينمو معه باستمرار هو الغطرسة والنتانة · يضن عليك بالقاء السلام ان كنت من صفوف الدهماء ، وكل البلدة فى نظرة تقريبا دهماء بما فيهم نقطة البوليس والمحكمـــة والمدرسة ، ويبخل عليك برد السلام ان كان مدخلك لا ينبىء عن منفعة له · لا يضيع وقته فى شتم أو توبيخ أو عراك ، انما الأمر ينتهى عنده بنظرة ، أو شخطه ، أو زومة صغيرة ، وربما بصقه ·· ولهذا فله خدم خصوصيون

يحتملونه ، هم جميعـــا من أولاد بنـــاته المتطوعين بدافع من أمهـاتهم فى كشف سر من أسرار ممتلكاته يبقى فى حسبانها عند تقسيم الميراث ذات يوم ·· لهذا أيضا فرغم صلفه وقبح تصرفاته وبنو ألفاظه الجارحة الفارسة فان الأولاد يتبارون فى تلبية أوامره والاستئثار بحبه ورضاه ، أولاد الخالات يبدو بينهم الأمر طبيعيا ودودا ، لكنه يخفى تيارات تحتيته من الأحقاد لاسبيل الى محوها بعد ذلك مطلقا ·

***

·· « كان فقيرا ذات يوم لاتزال تحفظه ذاكرة بعض المعمرين فى البلدة · وكان يعمل تمليا فى بيت مفتش الرى الانجليزى · التملى درجة أدنى من النفر ومن الأجرى فى قرانا القديمة · فاذا كان النفر يعمل عندك بأجر معلوم لزمن محدود ، واذا كان النفر أو الاجرى يتطلب وجوده ان تبعث أنت فى استدعائه للشغل فى عمل يتطلب أياما تحت اشرافك ان كان نفرا ، أو لقضاء حاجة وقتية سريعة ان كان أجيرا ، والاتفاق مع كليهما بشكل ما ، فان التملى شخص يتطوع بالخدمة المجانية الشاملة دون ان تكلفه انت بذلك ، ولا يطلب منك أجرا محددا على عمل بعينه ، انما بالبركة ، وانت تجده أمامك فى كل لحظة من البيت الى المكتب الى توصيل الأولاد ، الى توصيل الخطابات الى غسيل الركوبة الى ما شئت من أعمال ، وانت تراه جوهريا بالنسبة لك فتتعلق به ، وتراه محتاجا للطعام فتطعمه ، وللكسوه فتكسوه ، وللحب فتعطيه له خالصا كخلوص نيته وأكثر ·

« لكن مفتش الرى الانجليزى لايفهم فى مثل هذه العلاقات الأزرقية الأصيلة انما هو يراه مجرد خادم من أمة ذليلة تحتلها بلاده ، وانه من المفروض عليه أن يفعل · ويقول أصدقاؤه العجائز ان المفتش الانجليزى اكتشف ان الرجل كان يفعل ذلك لا لكرم فيه بل لخسة أصيلة فى طبعه ، اذ كان يكشف عن أطماع صغيرة دنيئة فقرر المفتش أن يقسو عليه فى المعاملة

والا يعطيه سوى ما يسد الرمق ، فان أظهر تمردا اغراه بالقليل ثم عاد فقتر عليه ، ولم يكن والد عبد الجبار ليتمرد رغم الهوان ، ذلك انه كان يتكسب من وراء مفتش الرى بطريقته الخاصة .. فيكفى ان يلمح لبعض المخالفين لقوانين الرى من المزارعين وأصحاب الأراضى بأن المفتش قد علم بالمخالفة وزعل منها آخر زعل . حينئذ تدخل الخشية الى قلوب المخالفين، فتحرك فيهم دوافع الشفقة أو نوازع الخوف فيمنحونه بقشيشا » .

« شيئا فشيئا تطاولت رءوس هذه المعاملة فى نفس الرجل الخسيس وأخذت تبحث لنفسها عن وسيلة ما ، تحولها من بقشيش خاضع لمزاج الشخص الى اتاوة رسمية واجبة السداد ؟ فكان بقدمه الحافى وجلبابه المتهرل لا يتورع عن طرق باب أحد الأعيان الكبار فى الليل فيصحيه من النوم هامسا فى أذنه ان سعادة المفتش قد علم الآن بأن أولاده قد ارتكبوا مخالفة كبيرة أو انهم بسبيل ارتكابها ، فى الحال يتذكر الرجل صاحب الأرض ان أولاده بالفعل يقومون الليلة بالرى فيقول « طب وبعدين ؟ » . فيقول والد عبد الجبار : « على العموم أنا هديته بكلمتين وفهمته انكم ناس ولاد أصول بس هو مصمم يطسكم المخالفة بأى شكل يظهر ان جماعة فلان الفلانى هيه اللى زقاه عليكم عشان تعطلكم والعيال يقعدوا لهم يومين فى الحبس .. هو ناوى يقطع الميه بعد عشر دقايق .. بس أنا قلت له مفيش داعى أنا حاروح أجيب لك قرشين واجى » .

« وهكذا يجد صاحب الأرض نفسه مرحبا كل الترحيب بالهدية الصغيرة أو حتى الكبيرة بدلا من التعطيل ومناطحة الحكومة . وهكذا أيضا لم يسلم واحد فى العب كله من عملية ابتزاز رهيبة قام بها والد عبد الجبار حتى أطلقوا عليه فيما بينهم اسم النقرزان ، وكانوا يقرنونه بالظروف الغبراء وبالفلس وسوء الطالع فيقول الواحد منهم اذا دهمته مصيبة : « بس وطب على النقرزان نص الليل » ، أو يقول عن مبلغ صرفه فى شيء طارىء غير متوقع : « جانى النقرزان خدهم قلت عليه العوض » ، ذلك ان

النقرزان — أى والد عبد الجبار — كان يريد ان يضفى على شخصيته سمة مميزة ، فلم يكن يطرق بقبضة يده على الباب أو الشباك كما يفعل الدهماء ، بل كان يقف بعيدا ويمد عصاه التى هى فى الأصل عود لبلاب غليظ ، ثم ينقر بها نقرا خفيفا متقطعا أول الأمر ثم متواصلا ، ولابد لمن يكون فى الداخل أن يخرج عن نفسه فى الحال قبل أن يشرع النقرزان فى التواصل والا فقد يصيبه الجنون » .

« الهدايا المبعوثة لمفتش الرى الانجليزى يكاد يشكل من نوعياتها سوق قرية متكامل ، فغير النقود الصريحة كان النقرزان يتسول للمفتش مقادير من القمح والأرز والذرة والسمن واللبن والزبد والخرفان المذبوحة واقفاص الفاكهة من حدائقهم . ولذا فان «النقرزان» ملم بأيام أسواق كافة القرى المجاورة . فى يوم كل سوق فى كل قرية بعيدة لابد ان يزوغ من بيت المفتش ويرحل لساعات قليلة . وربما التقاه أحد من أهل بلدته ، فانه يسلم عليه ولا يسأل عن مجيئه اذ لابد انه جاء لغرض ما يخص حضرة المفتش . لكنه فى الواقع يكون يباشر أولادا راحوا يبيعون له ما جاء به وهو واقف الى بعيد » .

« أما الأولاد الذين يقومون بالبيع له فانهم طائفة من كافة القرى اتخذوا من ذلك مهنة يستخدمون فيها مواهبهم الخاصة فى البيع والاقناع بوسائل وأشكال وطرائق متعددة ، ابتداء من بيع فيل وجاموسة الى بيع ساعة مسروقة تجد عيالا أولاد حرام يصنعون للشيء قيمة ويأتونك بثمنه ربما فى لحظات نظير عمولة يسمونها العرق . والثقة فيهم من الجمهور البائع والمشترى تصل الى حد الموافقة على انتظارهم فى البيت أو فى المقهى بالنقود ، وخد تصل بالكاد الى حد الوقوف بجواه من بعيد لبعيد . وكان « النقرزان » فى الأصل واحدا من هؤلاء الأولاد قبل ان يرمى بجثته على بيت مفتش الرى الانجليزى » .

« ويقولون ان أولادا من أولئك السماسرة قد أثروا من وراء عمولات النقرزان فما بالك بما جمعه النقرزان ؟ » .

٠٠ « فى ذلك الزمن كان النقرزان قد تزوج من « مبروكة الشيالة » ، كانت ست بيت بحق ولكنها حملت لقب العريانة لأن آباها كان شهيرا بالعريان وكانت جميلة الى حد ما ، ولكن أجمل ما فيها بالتأكيد كونها رضيت بالزواج من النقرزان واحتمـــال الحيـــاة معه · ولم يكن قد دفعه الى الزواج منها سوى كثرة الأموال التى سألت بين يديه بلا انقطاع فانخدع بها وتصور ان الزواج هو مجرد القدرة على دفع مهر ومؤخر صداق وتكليف جهاز · أيام العزوبية كان يقضيها بأى شىء · أما وفى رقبته زوجة فانه مطالب بالصرف ، وانه لقادر على الصرف ولكن أخشى ما يخشاه ان تظهر النعمة عليه ، ان النعمة ان ظهرت عليه فلابد ان يصل خبرها الى حضرة المفتش ويقول له من أين لك هذا ؟ أو يصل الى الذين يدفعون الهدايا باسم المفتش فيشكون فى أمره ويعمدون الى فضحه · وهكذا تعلم النقرزان كيف يرى الحاجة الى الصرف ماسة ومع ذلك لايصرف ، ربما كانت زوجته أو ابنه فى حالة احتضار وهو من فرط تعوده على تمثيل دور المفلس المعدم قد اندمج فى الدور اندماجا باطنيا متينا ، وقد يلهمه الله فى آخر لحظة فينهض زاعما انه سيقصد باب الله فى محنته هذه ، فيقول ويختفى وقتا يقصر أو يطول يعود بعده زاعما ان رحمة الله الواسعة قد أدركته بسلفة من صـــديق » ·

« مع ذلك فان مفتش الرى الانجليزى قد علم بما يفعله النقرزان فى الخفاء على حسابه · فجاء به ذات ليلة ووبخه وضيق عليه الخناق وهو يمعن فى الانكار · ودعاه النقرزان الى منزله ليرى بنفسه فلبى المفتش الدعوة فى استفزاز ولكنه اشمأز من وساخة الدار وفقرها فخرج متأففا وأمره بألا يريه وجهه فى القرية مرة أخرى والا سلمه للشرطة · وهذا هو السر فى ان عائلة عبد الجبار قد استوطنت هذه المنطقة البعيدة عن مساكن القرية القديمة ، اذ أن النقرزان كان قد نزل عند انذار المفتش وجمع حوائجه وزوجته واختار هذه البقعة البعيدة وفرض نفسه خفيرا عليها ، ففرح به صاحب الأرض فتركه يقيم لنفسه عشه ينام فيها ، فاذا به بعد سنوات

قليلة يضطر الى ان يبيعه قطعة الأرض كلها ، اذ مرض فجأة مرضا خبيثا صرف فيه كل مدخراته ، وحين فكر فى بيع هذه القطعة من الأرض لينفق ثمنها على عملية جراحية فى الخارج ، ـ على الأرجح فى مصر ـ فوجىء بأن الكثيرين يهربون من شرائها لكى تقل قيمتها المادية خاصة وان المبلغ المطلوب فيها كبير ، وفى اللحظة التى يئس فيها صاحبها من بيعها طب عليه النقرزان وفى جيبه مبلغ حدده بنفسه لنفسه ثمنا للأرض كلها ، رضى به صاحبها على مضض ، ودفعه أجرا للعملية الجراحية ومات بعدها بقليل ـ وكانت هذه القطعة من الأرض هى النواة الأولى لثروة النقرزان » ·

« لكن « النقرزان » رغم تنامى ثروته وتحرره من المفتش الانجليزى لم يستطع الخلاص من مرض البخل الذى أصابه ، فكانت الخلافات بينه وبين أولاده تصل دائما الى عنان السماء ، وتتدخل الوسائط لفضها فى الوقت المناسب · وكانت ولاتزال أربح تجارة بالنســبة له هى تجارة المحاصيل الزراعية والتقاوى والبذور وكل ما يمكن تخزينه فى زمن المواسم لزمن القحط أو الاحتياج ، أو تخزينه لصنع القحط واستغلاله ·

« من هذا الأب النقرزان انحدر عبد الجبار الكبير · ولم يكن مقدرا له أو لأحد من اخوته أن يدخل المدارس أو حتى يصير أفنديا أصلا · بل ان الأب كان يتعشم ان يستريح على حسابهم وان يجىء اليوم الذى يرى فيه ابنه ماشيا جواره بالمكيال حيث يفرش فى السوق ويشترى الحبوب نفسه ولوحده · وكان الطفل عبد الجبار قد امتثل لهذا الأمر بالفعل وتمرس طفلا بطلوع الأسواق ومساومة النساء اللائى يبعن كيلات القمح ليتسوقن بثمنها أشياء أخرى ، بل ومساومة رجال كبار على شراء أردب وأردبين ، مقلدا فى ذلك شقيقه الأكبر منه الذى صار مؤهلا لذلك دون غيره من المهن » ·

« الأخ الأكبر وحده هو الذى فاته قطار التعليم فكان يختلف الى كتاب القرية أحيانا حتى تعلم فك الخط وقراءة الجرنان فصار بذلك وريثا لمهنته التجارة عن جدارة » ·

« على أن مبروكة العريانة كانت قد اكتفت بانجاب ابنه الأكبر ، لم يتسع صدرها ولا صبرها فتركت له الدار ولحقت بأبيها الذى ترقى بنفسه بائعا سريحا فى البندر ، فزوجها من عربجى حنطور صديقه ، ووجد كل منهما فى الآخر ونيسا وأصبحت مبروكة الشيالة بفضله تلبس المخرق وتجيد الردح وفرد الملاءة كأحسن ما يكون . واما النقرزان فانه بعد ان استراح منها غير مظهره وأصبح يلبس النظيف ويأكل الثمين ، وطلع الحجاز، وطلعت له زبيبة الصلاة فى جبهته بسرعة ، ودفع قدرا من المال رمموا به مسجد القرية وجددوه ليحتل منه ايوانا مستقلا يصلى فيه أوقاته كلها حاضرة ، وحين يصلى ينزوى مشمئنطا كأنه وحده الجدير بالوقوف أمام الله . ثم انه قرر أن يصاهر من المدينة نفسها ، فخطب الآنسة دولت ابنة محمد أفندى خلاف الذى كان موظفا بالدائرة السنية ومات ، وأخت صلاح الدين أفندى الذى يركب عربة ملاكى فى مشاويره باعتباره ــ كما يقول عن نفسه دائما ــ من رجال الأعمال » .

« حقيقة الأمر ان صلاح الدين أفندى خلاف ، خال عبد الجبار ، لم يكن من رجال الأعمال ولا حتى من الرجال أصلا . عجيبا غريبا من السمسرة أو من التهريب أو الخسة قل ما شئت فى وصفه . كان مثل صهره تماما فى النوعية والنمطية وبلا أدنى اختلاف سوى المظهر من ناحية والطبقة التى هو موضوع فيها من ناحية أخرى .

« صلاح الدين أفندى خلاف يعمل والآخر تمليا ولكن على مستوى أرقى وفى معية الجيش الانجليزى المحتل لأرض الازارقة فى ذلك الزمن ، واحدا ضمن عشرات المئات من التملية أمثاله فى نفس المعية على درجات ومستويات متباينة .. فهو اذا كان ضمن فريق مهمته ــ التى لم يكلفه بها أحد ــ السعى فى الأسواق والحارات والأماكن والطرقات يقضون طلبات لأعضاء هيئة الجيش تخص حياتهم الشخصية ومنازلهم ابتداء من توصيل الطفلة الى المدرسة وانتهاء بتوصيل المومس الأزرقية الى الشقة

التى يديرها أيضا لحضرة الضباط أو سيادة اللواء أو سعادة المندوب .. فئة أيضا من تكون مهمتهم ــ التى لم يكلفهم بها أحد كذلك ــ التفاوض باسم شخصيات كبيرة جدا فى الجيش المحتل ، مع زعماء الأحزاب والسياسيين اللامعين وبعض المسئولين الكبار ورجال العائلات الكبيرة المؤثرة فى الرأى العام أو عدد الأصوات .. يتفاوضون معهم على حلول معينة او لمشاكل ملحة أو لمسائل مطروحة . ولأنهم وجوه مألوفة فى المحيطين معا ، ولأنهم وضعوا أنفسهم من الأول فى خدمة هؤلاء بعينهم واشتهروا بذلك فى الأوساط الاجتماعية ، فان ذلك يعطيهم جواز المرور الى المجتمعات العليا والمجتمعات المغلقة وبين الدوائر .. كما يعطيهم الجرأة العظيمة فى أن يجلس الواحد منهم معك فى مكتبك الرسمى وأنت دولة الزعيم مثلا فينادك واضعا ساقا على ساقا مثلك ومدخنا أمامك سجائر ربما أفخر من سجائرك وأغلى ، ذلك انه قد امتلأ بالثقة فى انك سوف ترتهب من شخصيات عديدة تعرف انه يعمل فى خدمتهم وانه تبعا لذلك حماية . بل ان الجرأة الحقيقية ليست فى هذا ، انما هى ان يميل مثل هذا الصعلوك كأنه صديقك الأكبر منك ، ثم يهمس فى اذنك قائلا بكل بساطة انه يستطيع أن يحل لك الأمر الفلانى أو القضية الفلانية أو المأزق الجماهيرى الفلانى مع المندوب السامى مثلا مثلا ــ اذا انت تنازلت عن كذا وكيت .. ثم انه هو وشطارته معك بعد ذلك ، لأنك بالتأكيد ستعتدل فى جلستك فورا وتتهيأ للتفكير الجدى فى اقتراحه الجرىء البسيط ، وحينئذ تكون قد وقعت فى قبضته ، ان كان ولدا مرقعا فان حجم تنازلاتك سوف يتزايد حسب لباقته وقدرته على اختيار الزوايا المناسبة للتحدث فى الموضوع هكذا ــ ثم بعد أن يتأكد من موافقتك يأخذ فى التدبير للانفراد بالمسئول الكبير الذى هو يملك الحل والربط أو هو الطرف الجوهرى ، وباعتباره أحد خدمه المخلصين الأمناء فانه يحكى له على هيأة نكتة : كيف التقى بفلان باشا فى مكان ما وكيف جاءت سيرة الموضوع الفلانى فحدث له كذا وكيف ابدى الاستعداد لكذا وكيت ــ الطرف الجوهرى قد يضحك للنكتة وقد

لا يضحك ولكنه سوف يتوقف بالتأكيد عند حجم المكاسب التى قد تؤول اليه اذا ما تحولت هذه النكتة الى واقع » ·

« وهكذا فان المرسال يبدأ رحلة ما تسميه اليوم فى عصرنا برحلة المكوك لكنها فى الخفاء ، بين محتلين وبين ناس فقدوا الوشيجة السحرية التى تربطهم بأهلهم وبأرضهم ففقدوا تبعا لذلك شرفهم وصاروا يبيعون فى السر مالا يملكون ليستمروا أوقاتا أطول يتملكون · وكم طابت للمراسيل أكلات هنيئة دفعت الأجيال تكاليفها الباهظة جوعا وحرمانا وتشريدا ·

***

·· « صلاح الدين أفندى خلاف كان يتطلع الى مثل هذه المستويات الشاهقة من التملية الكبار ، الذين اخترعوا للمهنة أسماء جديدة براقة تصلح وحدها سببا للتضحية بكل المقدسات · ولذلك لم يكن يعطى عقله أجازة فى السلب والنهب ، كان شحاذا يرتدى القبعة والفراك المخلوع عن أجساد أسياده الانجليز ، يمسك العصا الأبنوس مثل الباشوات ، تنطوى ملامح وجهه الرقيقة اللطيفة على دماء باردة جافة ، يستدرج الضابط الانجليزى الكبير الى سوق المدينة أو شوارعها أو حواريها الجانبية ، يمشى الى جواره مستعرضا نفسه حتى يتأكد الجميع من انه صديق لسيادة الضابط ، ثم يستدرجه أيضا ليزور به بعض الأصدقاء والأعيان ، يعرف بهم فى طريقة ملفوفة لا يفهم الضابط مغزاها انما يفهمها أهل البلد ·· ثم أنه بعد ذلك يصبح من حقه أن يمر على السوق فيتسوق ما يشاء لحضرة الضابط ، أو على الأعيان وكبار التجار ليقترض مبلغا بسيطا فكة لحضرة الضابط ريثما يذهب الى الدار ويعود ·· ثم انه أيضا كان يضع يده على نقطة الضعف فى ضابطه ليتاجر بها كيفما يشاء ، فان كانت الانحراف فدواؤه الرشوة يجمعها له ولا يعطيه منها سوى نسبة ضئيلة ، وان كانت النساء فانه يعيث على حسه فسادا بين بنات

الناس وحريمهم والضعفاء اللائى لا حول لأهلهن ولا طول · ولا يورد له مع ذلك الا احدى السناكيح بعد ان يكون قد باعها لعشرات الجنود السكارى والطلاب أبناء المدارس الأجنبية ·

« صلاح الدين أفندى خلاف ضحك على أحد الضباط وأخذ منه سيارته الملاكى الفيات ذات الرفارف وكابينة تشبه مبنى النقطة الثابتة ، مقابل امرأة ريفية كانت تعمل فى خدمة أبيه فتنازل له عنها نهائيا · صلاح هذا كان فاجرا منعدم الخلق الى أبعد الحدود كما تروى عنه الحواديت والأساطير فى قرانا · كان يعرف تفاصيل مخازن التموين الخاصة بالجيش الانجليزى فى معظم المعسكرات ، ويعرف محتوياتها وما قد وصل اليها وما قد خرج منها · وكان الى ذلك يعرف شبكة من اللصوص الأشقياء ذوى المظهر النظيف ·· فيبلغهم بأمر المخازن أولا بأول ·· ويضع لكل منهم خطة دقيقة لكيفية الهجوم على المخزن وتهريب ما فيه من سلع · وباعتباره صاحب كل شىء فانه يأخذ حقه على الناشف مقدما ، ففرق اللصوص تثق فى خططه وفى نتائجها من حيث كل شىء · وكل أهله وأصدقائه المقربين حين يضبطونه متلبسا بفعل كهذا يلومونه برفق فيرد قائلا انه يفعل ذلك فيهم لأنهم محتلين كفرة سرقونا وليس حراما أن نسرقهم فهى بضاعتنا ردت الينا !! ·

« ولو ان الأمر هكذا فحسب فلربما انخدع فيه بعض أصدقائه وصدقوا ان سرقاته هذه نوعا من المقاومة ضد المحتل الأجنبى · لكن صلاح لم يكن بالذى يضيع فرصة للكسب فى الوجه الآخر لفعلته ، اذ هو يذهب فى اليوم التالى للسرقة ، ويختلى بالمسئولين ، ويتباحث معهم فى أمر المسروقات ، ويرسم لهم ـ متطوعا كاقتراح ـ خططا للقبض على مجموعات من الأولاد ليكون اللصوص الفاعلون من بينهم · ويتم بالفعل القبض على المجموعة التعيسة التى تأكل علقة تشرف بها على الموت يعترف على أثرها اللصوص · وكان أصدقاؤه المقربون اذا ضبطوه متلبسا بمعاملة كهذه يقول لهم قبل أن يلوموه انه لم يشأ أن يخالف ضميره ، فهو يعرف ان هؤلاء الأولاد لصوص ، واللصوص يجب أن يأخذوا جزاءهم !! ·

« وكان اذا نجا من اللصـوص أحد والتقاه صدفة بادر هو بلوم اللص على ضعفه واعترافه ، ثم ان اللص لن يكون قد تطرق الشك الى نفسه فى صلاح لأنه ليس من الذكاء الشيطانى بحيث يربط بين الخطة المحكمة والتبليغ عنها من مجهول محكم ٠ لذلك فمن المرجح ان صلاح أفندى خلف سيقنع اللص ان ذلك المجهول لا بد أن يكون الولد فلان أو الولد علان من أصدقائه المنشقين ٠ المرجح كذلك ان اللص لن يجد غضاضة فى التعامل مع صلاح مرة أخرى وثانية وثالثة والى ما لا نهاية ٠

« كان لصلاح بيت فى عزبة الخولى ، عزبة هى كلهـــا عبارة عن البيت وحوله دمامل وخراريج على هيأة دور وأكواخ ، من أعمال المدينة ، يصلون اليها بالركائب وهو بيت تنازلت عنه الدائرة لموظفها الوفى فأقام فيه صلاح وجعل منه تقليدا ساذجا منسوخا لبيوت الباشـوات ، وكل محتوياته مخلوعة من بيوت سابقة وعليها بصمات ناس كثار وأمراض ناس كثار وعرق ناس كثار وذكريات ناس كثار ٠٠ حتى ان صلاح أفندى خلاف كان يتشكل تشكيلات نفسية عجيبة كلما تنقل من حجرة الى حجرة بل من ركن الى ركن فى بيته ذاك ، فقد يفرض عليه هذا الكرسى ان يجلس جلسة باشا أو زعيم وقد يفرض عليه هذا الصالون ان يجلس فى دبلوماسية متخيلا نفسه مع ناس من علية القوم ، وقد تفرض عليه المرآة شكلا معينا والسرير نوما معينا والشرفة أن تطل على الجمـاهير خطيبا أو يقف مناديا على الخدم ٠

ورغم انه فى الأصل خادم ابن خادم فانه كان يستعير فى حديثه دائما صوت الارستقراطية ولهجتها وخنفتها ولثغتها ، التكلم من الحلق والأنف والرقة المبالغ فيها والغطرسة ٠ غير أنه لم يكن ينجح تماما فى أى من هذه المشاهد ، لأن شكله كان رغم الفراك والقبعة شكل الخدم وسلوكه رغم التحفظات الشديدة سلوك الخدم ٠

***

٠٠ وعلى الرغم من أن النقرزان والد عبد الجبار قد صار من كبار الملاك فى الناحية وتكومت فى خزينته أموال تشترى ضياعا ، الا انه كان يشعر دائما بالضعف كلما وطئت أقدامه بيت صلاح أفندى خلاف أو كلما تحدث مع أحد من أهله بله أن يتحدث مع صلاح نفسه ٠ ذلك ان النقرزان لا يستطيع ان ينسى أصله أو ينسى انه تطلع الى أهل هذا البيت ودفع أموالا كثيرة وساق وسائط كثيرة لكى ينتمى اليه ، ولا ينسى كذلك انه أخذ أربعا وعشرين ضلعا تمثلت فى الست دولت ، التى نظفته ونجرته وقومت من سلوكه وجعلته رجلا محترما ذا مهابة ، وعلمته الأدب حقا ٠ وكان ابناؤه كلهم يميلون الى أمهم ويحبون رؤية خالهم ويحبون تقليد لباسه وكلامه ولهجته وعنطزته الفارغة ٠

وذات عام ذهبت الست دولت هى وأبنائها وزوجها لقضاء العيد فى بيتهم لدى أخيها صلاح أفندى ٠ فلما انتهى العيد وتهيأوا للعودة كان عبد الجبار وهو ابن العاشرة تقريبا قد تعلق بخاله وتعلق به خاله ، ولم تجد الأسرة مفرا من العودة بدونه ٠ فرحت الأم ان يبقى الولد مع خاله لكى يكون ذريعة ترسل بسببه لأخيها كثيرا من الأشياء التى يحتاجها فى وحدته بعد ان تخلى عن خادمته وأهداها للضابط الانجليزى مقابل الاستيلاء على سيارته والتنقل بها دون ملكية رسمية ٠

ألحقه خاله بالمدرسة الابتدائية فى البندر ، المدينـة الواقعة على ضفة فرع للنهر الأزرقى ٠ طول النهار هو فى المدينة ، يخرج من المدرسة ليذهب الى خاله على المقهى حيث يرافقه اينما ذهب ٠ يكتشف الولد ان خاله يرتاد مجتمعات غريبة ، من بيوت الأسر حيث يخترقها بعشم زائد عن الحد ، الى مقار أحزاب يتسقط أخبارا أو يذيع أخبارا ، الى منزل الحاكم العسكرى الانجليزى للمدينة حيث يؤدى خدمات بيتيه من قبيل سقى الحديقة بالخرطوم أو تشذيبها ، أو الاسراع هو بالقهوة للبيك ، أو الاسراع الى الصيدلية لشراء دواء الهانم الصغيرة ٠٠

يجد عبد الجبار نفسه بين مجتمعات عدة يحس خلالهـــا بدونيـة أصله • وفى كل مكان يقدمه خاله للناس قائلا فى تفاخر : « ابن أختى •• فى الابتدائية » فيتطوع الناس بمجاملة خاله فيمتحنون عبد الجبار فى الانجليزية ويخاطبونه بها فى تحد متمرين لسانه ••

فى يوم كان عبد الجبار قادما من المدرســـة ، وكان يتسكع فى شوارع المدينة منجذبا الى المحلات بأنواعها غير المألوفة لديه •• أدهشه والذه ان يجد ان كافة الأشياء لها محلات فى المدينة • يحلو له ان يقف ويتأمل ويرى أهل بلدته والبـلاد المجاورة وهم يدخلون هذه المحلات ويشترون منها أشياء ومنقولات وأثاث وعطارة • كان يحلو له أن يقف هو الآخر ويشترى ، ليس هذه الأشياء الثقيلة ، بل يشترى أى شىء ، المهم ان يشترى • ذلك أن رفاقه فى المدرسة وفى الشوارع طول النهار يمارسون الشراء ، وكم وقف طويلا أمام عربة « الكانتين » يتفرج على أطبــاق المهلبية التى تنهال بين يدى الأولاد جميلة الشكل يسيل لهـا لعابه ، كم تاق الى شراء قلم رصاص أو كراس من المكتبة التى تحوى أشياء يشتريها الأولاد • ولم يكن يجد فى جيبه قرشا يدفعها رغم بذلته الكاملة ببنطلونها القصير وطربوشه القصير الغامق وحذائه الأستك • وكان موقنا من ان أباه الذى يستهجن فكرة التعليم فى المدارس لن يقتنع أبدا بأن يرسل له مصروفا لليد فى المدينة ، بله ان يؤجر له مسكنا • لكنه كان يعرف أن أمه ترسل لخاله سرا بعض الأموال التى تدخرها من بيع الدجاج والبيض تربية يدها فضلا عن الطعام الناشف • وكان يفكر وهو عائد فى آخر المساء مع خاله كل يوم أن يسأله عن بعض قروش سلف ، فكان خاله يرد عليه من حلقه وهو يقود العربة : « عايزها تعمل بيها أيه ؟ انت حتتعلم الفســاد ؟ » ، فقال : « لا •• عايز أشترى أدوات هندسية وشوية حاجات » • فقال خاله صلاح : « بس كده ؟ الصــبح نتصرف » ••

وفى الصباح ركبا السيارة معا ، وقبل ان ينزله عند المدرسة كما تعود ذهب مباشرة الى بيت الحاكم العسكرى للمدينة الذى كان قد التحق

بخدمته • فدخل السراية بالسيارة ثم نزل فنزل الصبى عبد الجبار • ومشى فمشى وراءه فى انزواء خجل نحو باب المسكن ، وكانوا بالكاد قد تهيأوا للفطور وشمس الصباح فى لون التمر هندى تنسكب من نافذة مقابلة للباب حيث أطلت الزوجة الانجليزية الحمراء التى انعكست عليه انعكاسات الشمس فطار لب الولد • قالت : « هالو بنجور كامن » • فدخل خاله وقال : « تعال يا عبده » فدخل « عبده » يتعثر والزوجة تحييه قائلة : « أبدو •• أو •• أبدو •• ازيك يا أبدو » ، وهو ملخوم لا يعرف كيف يرد قال خاله مستخدما الاشارة بأصبعيه : « ابن أختى » ، ففهمت الزوجة وأحمر وجهها أكثر وابتسمت قائلة : « آ •• ها » ، واشارت اليهما ان يدخلا • فتقدم الخال يتبعه الصبى والزوجة تقول : « اين كنت بالأمس ؟ • كان الرجل يسأل عنك كان لديه بعض الأصدقاء واحتاجوا لزجاجات الجعه فى آخر الليل » •

فقال صلاح وهو يجلس مباشرة على مائدة الطعام انه ـ والله ـ أحس بحاجة الرجل اليه بالفعل فى لحظة معينة من الليل ، وكان يوشك ان يجىء من تلقاء نفسه ليرى ماذا عساه يكون طلبه له ، غير أنه خشى ان يطرق عليه الباب فى آخر الليل •• ثم شرع يأكل مع الأطفال دون ان يدعوه أحد فبدا ذلك شيئا طبيعيا ، وقال : « تعالى كل يا عبده •• اقعد افطر » ، وعلى استحياء قليل تقدم « عبده » ثم عاد فنظر فى وجه خاله فلم يجد أى أثر للخجل أو لأى شعور آخر ، فنسى هو الآخر ملامح وجهه وشرع ينهل من أشياء كان يراها فى دكاكين المدينة واكتشف فجأة انها موجودة فى البيوت أيضا ، والأولاد يفضــون عنها الأغلفة الأنيقة الثمينة ويأكلونها فيفعل مثلهم ولكنه يستخسر الغلاف الثمين فيبقيه فى يديه برهة ثم يتخلى مضطرا ويذوق الشىء فاذا به طعم جميل من الجبن والزبد واللبن ، وآخر اذا به حلوى تشتعل منها فروة الرأس لذة ، وثالث ورابع ، وعسل نحل وعيش يصلح غموسا لعيشهم فى البلد . كل هذا وحليب بعده شاى ثم قهوة ثم فطائر ثم فوجىء « عبده » انه مطلوب منه القيام ومغادرة هذه الجنة •• يومها كاد يبكى من الغيظ . ولولا طوله

وبذلته وابتدائيته لضرب الأرض بقدمه صائحا : « أنا حافضل هنا » لكنه سلم أمره لله وشرع يمشى ، فاذا بخاله صلاح يتذكر فجأة فينظر الى الهانم الصغيرة قائلا لها ان عبده محتاج لأدوات هندسية وبعض الأقلام والمساطر ٠ فدهشت الهانم الصغيرة وبدأ عليها الحزن من أجله ، وقالت انها ستهديه أشياءها وتشترى بدلا منها ، ثم نهضت فى الحال وتفافزت نحو غرفتها ، وكان عبده يهم بأن يعترض او يتشكر أو يفعل أى شىء لكنه نظر فى وجه خاله فتذكر أنه يجب أن ينسى هو الآخر ملامح وجهه ، ينساها حتى وهو يراه فى المرآة أمامه ، وكان فى أعماقه مرحبا غاية الترحيب بهذا الخاطر بالذات ، اذ ان شكل وجهه كان فى الواقع ــ ومن ناحية أخرى ــ لا يسره أبدا ٠٠

ومدت يده بقليل جدا من التردد ، ثم بحماس مفاجىء أخذت الأدوات الهندسية فاذا هى كثيرة وجميلة ومتينة ، فاستبد به الفرح ٠ وكان الرجل الكبير قد خرج من الباب الجانبى فلحق به خاله يجرى فى حين تخلف عبده ، اذ لمح فى عين الزوجة الحمراء نظرة تقول له : « استنى يا عبده » ٠ وفعلا ائمر تلكؤه اذ ان السيدة غابت قليلا ثم خرجت مطبقة اليد على شىء غمزته به فى يده ، فاذا به ورقة نقود ٠ فارتعشت أوصاله وهم بالجرى ، فنزعت هى قطعة بسبوسة كبيرة لفتها فى ورقة وأعطتها له ، فأخذها واندفع يهرول حيث وقف الرجل الكبير يملى على خاله بعض الأوامر ، وخاله متهدل الجسم فى وقفته يهز رأسه بين الفينة والفينة قائلا : حاضر ٠٠ حاضر انتهى الرجل من أوامره ثم مضى نحو السيارة التى ينتظره بها السائق فى مدخل باب السور ، لكنه عاد فالتفت ناظرا الى عبده ثم لوى شفتيه فى اشمئزاز باسم ثم مضى ، وحاول عبده أن يفهم معنى لعوجة شفاه الرجل الكبير ، ولكن لو تذكر صورته كأفندى صغير يرتدى بذلة وطربوشا وحذاء ويمسك كتبا وكراريسا وبيده الآخرى قطعة بسبوسة يحرص عليها حرصا يضاعف من لخمته ــ لو أنه تذكر صورته هذه لحظتذاك لما احتاج الى معاناة فى التفسير ، لكنه كان ساعتها قد فقد الاحساس بالمرآة ٠ وحين ركب بجوار

خاله فى العربة الكحيانة نظر اليه مبتسما وقال : « مبسوط يا عم ؟ » فهز رأسه من فرط الامتنان ٠

ثم انه قد عشق زيارة هذه السراية سواء مع خاله أو لوحده ٠ صار يتطوع بالتكفل بالبكوات الصغار ، يلف بهم فى الشوارع وعند الكورنيش وفى المنتزهات ، يفرجهم على القرد وعلى صلاة الجمعة وعلى المراكب والصيادين ، يملأ بطونهم من سخام الشوارع الذى يباع فوق العربات على هيأة حلوى ومرطبات ومشروبات ، يشترى لهم كل ما فى نفسه ، كان يقنعهم بأن المصروف لو بقى فى يده هو لكان أفضل ، والا فهو غير مسئول عما يحدث لهم من العيال الأزارقة الأشقياء ، سوف يضللونهم ويغررون بهم ويسلبونهم ، أنه يعرف العيال أبناء هذه المدن المحدوفة فى البرارى ، أشقياء ولصوص ومتشردين ، نفس العبارات التى قد سمع خاله يقولها لأحد الشبان الأجانب ، وقد تذكرها وأعاد ترديدها للصبية ، اذ أنه رأى الشاب الأجنبى يوافق خاله ويعطيه قيادة سياحته ٠ وأيا كان الأمر فقد كان الأولاد مسرورين وغير معطين لمسألة المصروف بالا ، فان يكون معه أو معهم أمر لم يطرأ على بالهم ٠٠ انما هم مندمجون فى الفرجة على ما يثير خيالهم ٠٠

ثم ان عبده لم يكتف بأن يكون سميرا ونديما للأولاد متقربا الى عقولهم بما يدرسه فى المدرسة الابتدائية من لغة وعلوم ورياضة تجعل منه خادما مستنيرا يسهل تكليفه بمهام كثيرة ومتنوعة ، ويعيش بذلك على حسابهم ، يلبس من ملابسهم المخلوعة ويأكل من فضلاتهم ، بل انه انتمى الى البيت تماما وصار لا يراه خاله الا لماما ٠ وكان على صغره قد أصبح ولدا « أوروبا » ، كأنه عجوز ، فالسنوات القليلة التى قضاها فى المدينة علمته الصياعة واللف والتطفل على كل شىء يسأل فيه وعنه وعن أسعاره لا لشىء الا ليقيس بالسعر بعد الشىء عنه أو قربه منه ٠ الست هانم تريد اصلاح سور الحديقة يا أبدو ٠ يكون تحت قدميها ٠ ثم ينطلق الى مكان بعيدا جدا ليأتى لها بواحد من المتخصصين فعلا فى أسوار الجناين

والأسلاك الشائكة ، واذ هو يقول للصنايعى منذ البداية ان الست هانم هى التى تريد ، فانّ الصنايعى بكل صراحة يقول له : « الحديد بكذا ·· والسلك بكذا ·· وعرقى فى التركيب أو البناء كذا » يحسبها « عبده » فى نفسه ويذهب ليسأل فى دكاكين الأسلاك الشائكة والحديد عن أسعار الأمتار والوحدات ، فيجد أن الصنايعى قد بالغ فى رفع السعر وفى تقدير عرقه · مع ذلك يأخذ الصنايعى من يده ويذهب به الى الست هانم ليتفق معها وجها لوجه ·· من هنا لهنا يتكلفوا كذا ·· خلاص ؟ ·· هاتى الفلوس يا ست هانم · الست هانم تعطى التكاليف لعبده وتتركه يشرف على العملية · يقبضها فى جيبه ثم ينطلق مع الصنايعى الى الخلاء لشراء الحديد والأسلاك · وعندما يبتعدان تماما عن البيت يفتعل « عبده » خلافا بينه وبين الصنايعى ، كأن يدخل على الاتفاق تعديلا لم يكن واردا ، يزعم ان المطلوب عشرين حديدة لا عشر ، ويصر على ذلك ويتشبث برأيه ، حينئذ يزهق الصنايعى ويرى ان العقاب الصالح له ان يتركه ويمشى رافضا الشغلانه من أساسها · وهذا عين ما يريده « عبده » · شقى هو ابن شقى ، يتصنع أنه لاص ، وأنه غاضب من انسحاب الصنايعى ، وان هذا أقسى عقاب يوقعه عليه ، كل ذلك ليثير حمية الصنايعى كى يمعن فى الانسحاب نهائيا · ثم اذ يرى الصنايعى قد اختفى بالفعل يتخذ طريقه الى محل الحديد والأسلاك · فيشترى بنفسه الحديد والأسلاك التى حددها الصنايعى ، ثم يستأجر عربة بخمس قروش تنقلها الى البيت · وحين تطل الست هانم من الشرفة وترى الأشياء قد وصلت بدون الصنايعى يعاجلها قائلا ان الرجل طلع ابن ······· ، رجع فى كلامه فى السكة وطلب كذ وكذا وتملعن قائلا كذا ، وفاعلا كذا ، وأنه تركه وانصرف بعد شراء الأشياء · فتلوى الست هانم شفتيها أسفا من هذه الورطة · فبكل رجولية يدخل هو قائلا : « ملعون أبوه » ·· أنا اللى حاعملها بنفسى ثم يدخل فيخلع هدومه ويبقى بالفانلة والسروال ، ويتحول الى عامل يفحت بالمنقرة ويدق الحديد ، وكلما رأى أحدا من أنفار الحى أو رجاله أو عياله يقول : « بايدك والنبى معانا » · ينبت فى الحال بين المارة

المدعوين للعمل من هو أكثر خبرة بدق الحديد أو تشبيك الأسلاك - وبعد وقت قصير يكون قد أسلم العمل شيئا فشيئا لناس تفهم فيه ، وينخلع هو ، ويروح يهنكر حولهم ويشجع ويلاحظ ، وبالمرة يدرس وجوههم ، فوجه هذا الجدع ينم عن أنه شهم وقد خدم لوجه الجدعنة فمقداره الشكر بجدعنة ، وهذا وجه ، ينم عن انتظار لكنه ذكى خجول فمقداره الايهام بالصداقة ـ نخدمك فى الأفراح يا فلان ، وينطق اسمه مجردا ـ وهذا وجه ينم عن الحاجة والا فالسراية عرضة للتلبيخ الغوغائى المزعج ، فخمس قروش تجعله يرقص طربا · ثم ان الست هانم بعد ساعات تجد ان السور قد تجدد بالفعل كأحسن ما يكون فيزداد ، اعجابها بعبده . فيقول لها أنه لولا الرجال لما فعل شيئا ، انهم كل شىء وقد نفحتهم جميعا أجرهم ومشوا مبسوطين ، كم دفعت يا آبدو ؟ ·· خلاص يا ست هانم كم دفعت يا آبدو ؟ ·· خلى علينا يا ست هانم ·· كم دفعت يا آبدو ؟ ·· كذا ·· وأى رقم ينطقه تعطيه له باسمة ·

***

اكتشف « عبده » وهو طالب فى الثانوية أنه لا يحب ، ليس له محبوبة تشغل باله وخياله ويتحدث عنها لرفاقه · ولم يكن يعرف انه قد ألغى هذه الناحية من حسابه منذ البكور ، فاعتبر ان الشبان زملاءه أغبياء موهومين · وكان قد عجز عن اكتشاف بنات تحبه طالما أنه وهو طالب الثانوية المحترم لا يتورع عن الجرى وراء الست هانم كالجرو الصغير ، ويفتح لها الباب وينظف لها زجاج السيارة ، ويمسح حذاء الولد ، ويذهب ليشترى الأشياء نيابة عنها وعنهم ، ذلك ان عادة الشراء بنفسه قد تأصلت فيه وأصبحت تمنحه متعة عظيمة ، ان يشترى حتى بحساب الآخرين للآخرين · وليس مصدر المتعة ارضاؤه لنزعة الشراء كتنفيس عن عقدة قديمة فحسب بل من كونها تدر عليه دخلا كبيرا حتى اصبح وهو طالب فى الثانوية يستطيع الاستغناء عن مصروف أبيه بل

يصبح هو نفسه ذا مال ولو الى حد قليل لكنه لذيذ فائق اللذة · ليل نهار لا يكف ولا يضيع فرصة · زملاؤه من فريق الكرة يريدون ملابس معينة ، ينط هو ، يشتريها بمعرفته ويسمسر من كل ناحية وبشكل سحرى ·· أصبح شريكا فى الكانتين · تجيء الأجازة فيذهب ليستريح فى قريتهم كطالب · تراه القرية فتزداد انبهارا به · انه بهدومه النظيفة يستنكف الجلوس فى القرية معتمدا على نفقات أبيه الرأسمالى بل هو ما شاء الله متعلم يتكسب بعلمه وذكائه وها هو ذا ـ يا حلاوة ـ قد اشتغل فى الأجازة فراح يعمل كاتبا للأنفار فى الوسية بماهية كالموظفين ··

وكان أبوه يرى هذا فيزداد زهوا ويشجعه قائلا : « الشاطر اللى يكسب بجدعنته ·· لا عيب سوى قلتهم فى الجيب ـ يقصد الفلوس ـ كده أنا مبسوط منك قوى يا عبده ·· على الأقل الواحد يقدر يستلف منك ·· مش دلوقت يعنى دا لو ربنا والعياذ بالله حوجنا » · الواقع ان أحدا منهما لم يحتج الى الآخر احتياجا ماديا · لكن الأب النقرزان هو الذى عادت عليه شطارة ابنه بكثير من الراحة والزهو · فمنذ سنوات والست هانم لا تستغنى أبدا عن آبدو ، ولذا فقد استغنت له عن حجرة فى حديقة البيت بجوار الجناينى ، ثم استأجرت له شقة من غرفتين وصالة بشرفتين على الشارع آخر أبهة ، تدفع هى ايجارها شهريا بضع برايز فى الشهر ، وفرشتها له بمخلفات من عندها · عبده لا يبيت فيها الا لماما ، اذ هو طول النهار اما فى المدرسة أو لدى الست هانم وكثيرا ما يمسى به الوقت فى خدمة الرجل الكبير فعند خروجه يمر على الجناينى ليمكث معه ساهرا حتى الصباح يشربان الشاى ويتحدثان ويلعبان الورق ويحششان ويبيت معه فماذا يفعل بشقة كهذه ، فليؤجرها ، ولكن هل يؤجرها بملاليم أو بضعة برايز ، مبلغ ما أتفهه ، يستطيع أن يأخذه من ورائها فى جمعة واحدة أو ربما ليلة أو ليلتين ، وذلك لا يكلفه الاتصال بسمسار أو وسيط ، ولماذا سمسار ؟ ان السمسار قد يكون غبيا أو فى وجهه بعض دم فيخفض سعر الشقة ويبتذلها أو يسوىء

سمعتها ، أنه هو نفسه أحسن سمسار ، الأمر يحتاج فقط الى مشية على كورنيش النهر ساعة أو بعض ساعة ، حتما سيقابله ضابط أو مهندس أو تاجر أو طالب ابن ذوات بيده صيد يبحث له عن مكان ، ابتسامة فسلام فكلام فتلميح فعندى لكن صاحبها يؤجرها فى الليلة بكذا لمدة ساعة أو ساعتين مع ضمان الحراسة والتأمين ، ربما لا يمر أكثر من ربع ساعة تكون بعدها العربة الحنطورة قد أقبلت تقرع الأسفلت بايقاع بهيج ، لينزل ثلاثتهم على مبعدة قليلة من البيت ثم يتقدم هو ليفتح الشقة ويرتب فرشها ثم يقف بالباب فى انتظار الضيفين ، اللذان يتقدمان الى الداخل وقد امتدت يد الضيف بالمبلغ المتفق عليه ، يتلقفه عبده ثم يغلق الباب عليهما بالمفتاح ويمضى ليغيب ساعتين أو ثلاث يقضيها لدى الست هانم فيضمن أكلا وشايا وأدوات مذاكرة بالمجان ، ثم يعمد الى التأخير فى العودة · فلعل البغى تخاف من العودة آخر الليل وحدها فتقبل المبيت معه هو حتى الصباح بدون أجر فى مقابل ان يلعق ما تبقى فيها بقية المساء ، رغم ثقته بأن ذلك حين يحدث صدفة فدائما ينتهى بغم ونكد ، اذ دائما تنقلب المرأة عليه فجأة من الميل الى الصد ومن الترحيب الى الرفض وبغلظة ، دائما يتوقع ان تستاء المرأة حين يبدأ يجامعها فاذا هى تستاء فعلا دون أن يدرى لذلك سببا ، لكنه دائما يحاول ولا يزال يعتقد أن هناك من سترضى له بسلاسة اذا ما صار قادرا على دفع النقود بسخاء ··

***

لقد كان لتلك الشقة المدنسة صيتا عظيما فى قريتنا وكانوا يحجون اليها فى مناسبة · ذلك ان النقرزان كان يمشى فى القرية مزهوا مفاخرا يتوكأ على العصا يدخل دكان البقالة ليشترى ورقة دخان ويقف ليفرطها ويلف لنفسه سيجارة ، يجلس على رصيف دكان القماش ليلعب الطاولة مع القماشى أخ شيخ البلد ، فان تطرق الى سمعه من هنا أو

هناك حديث عن ناس سيذهبون الى المدينة لسبب من الأسباب فانه يرفع رأسه فى عظمة متواضعة ليقول بهدوء الفلاسفة : خير ؟ • فيقولون : خير • فيقول كأنه يصدر فرمانا بالحرية : « اذا عاوزين أى حاجة من البندر ابقوا فوتوا على الواد فى البيت •• اعتبروه بيتكم يعنى بدال ما تكلفوا نفسكم لوكانده » ، ثم يستأنف ما كان فيه وينسى تماما انه قال هذا •• لأنه كان اذا تصادف وسافر هو الى ابنه فى المدينة يوم خميس ووجد أحدا من أبناء القرية عنده فانه يقيم الدنيا ولا يقعدها • ويقولون أنه ذات يوم طرد خالتى بسيمة من شقة ابنه فى المدينة • يا لها من سنين • لقد ظلت السنين الفائتة قائمة على الدوام أجيالا طويلة من خلال هذه الحدوتة فقط التى يحكونها عن طرد خالتى بسيمة من شقة عبده ، أو جبار كما تعود الناس على مناداته تيمنا بأساتذته الذين قال انهم ينادونه هكذا • حتى لقد ألف الناس فى تلك الواقعة أغنية عاشت سنين طويلة :

« دارك فـين يا بســيمه   داری دار عبد الجبــار »

« رايحه فـين يا بســيمه   رايحه أزور عبد الجبـار »

« رايحه تزورى ولا تحطى   رقبــة أهلك للجــزار »

هذه الأغنية ظللت أسمعها وقتا طويلا فى الأفراح وفى الغيطان ولم أكن أعرف ان المقصود ببسيمة هذه خالتى بسيمة • لا أحد يتصور مدى سعادتى وتعاستى فى نفس الوقت يوم علمت هذه المعلومة ، اقشعر منها بدنى ووقف شعر رأسى ، ثم ان الآلام حطمتنى بعد ذلك •• ذلك ان معرفتى لم تكن كاملة وهذا أشد أنواع المعرفة خطورة ، انها نوع من المعلومات التى لا يرحب الانسان أبدا بأن يعرفها بل أن يكون سعيدا بمعرفتها يكفى اننى عرفتها صـدفة ، اذ كنت مع جدى فى فرح أحـد أصدقائه من بلدة مجاورة ، وكان ليلتها فى أعلى مزاج ، ورحب بنا أهل الفرح وأكرمونا ، وتوهجت المغنية وغنت : « رايحه فين يا بسيمه » ،

فاذا بالجمهور كله يشرع فى التراقص معها والمشـاركة فى الغناء واذا بجدى الذى كان فى أقصى درجات الفرح قد انهار باكيا بحرقة ، واذا بناس كبار يلتفون حوله « مالك يا خليل ؟ » • شاركتهم الدهشة ، فان غنى احد أغنية رايحة فين يا بسيمة أمر مألوف جدا وعادى ، وأنا نفسى قد أردده بينى وبين نفسى فى اعجاب ، فهل بكى جدى خليل من كثرة المشاركة فى الانفعال مع الفرح ؟ •• هكذا تصور البعض لكن جدى خليل كان متوترا عصبيا يرعد بصوت مكتوم قائلا : « أبدا •• هما عارفين ان انا هنـا وقاصــدين يهزأونى » •• هما مين اللى يهزأوك ؟ •• عيلة النقرزان « •• يهزأوك ليه عيلة النقرزان ؟ » •• « أهو ما أعرفش •• لكن هما اللى موصيين البنت المغنية تغنى الأغنية دى بالذات عشـان يكبسونى بيها !! » ، ثم يعتصر نفسه باكيا حتى خفت عليه واحتضنته وغادرنا الفرح منكسرين • وفى طريق العودة كان لا يزال منفعلا متوترا وضعيفا ، فاستطعت ان أجمع خيوط معنى يقول ان عائلة عبد الجبار كثيرا ما يداعبون جدى خليل بهذه الأغنية التى يعرفون معـا مناسـبة تأليفها ••

العجيب اننى بعدها لم أنجح مطلقا فى استدرار شىء جديد عن تلك الواقعة بل انه نسى انها حدثت وراجعنى ، ثم انه تسلح بالطرش المفاجىء • كل ما تمكنت من جمعه من معلومات حول مناسبة هذه الأغنية ان النقرزان بعد عودته من احدى سـفراته لابنه جلس يلعب الطاولة على الرصيف ويلف السجائر فى الدكان كالعادة ويحكى متفاخرا كيف انه أنقذ الولد منها ــ أى من خالتى بسيمة ــ حيث انها كانت كما هو واضح ــ يقول ــ تعرفه من مدة وتسرح به وتضحك عليه : تصوروا هذه البنت الشيطانة وجرأتها وفجرها حيث انتقته ولدا يستأهل مثل ابنى ولولا ستر الله وحضورى فى اللحظة المناسبة لسيطرت على الولد وأحكمت شباكها حوله • فيقول من يسمعه من الجالسين : « ولكن هل ضبطتهما معـا متلبسين يا حاج نقرزان ؟ » • فيقول مشوحا فى غطرسة : « ان الله حليم ستار » •

فيدققون ، ويقررونه ولو بالعافية ، كأنهم جميعا يريدون مجامعة خالتى بسيمة من خلال الواقعة ·· الواقعية التى حدثت بالفعل وتحققت ··

ثم انهم بعد تلك الواقعة ينسجون بأخيلتهم حواديت وأساطير حول خالتى بسيمة فى شبابها وصباها ، تؤكد كلها ان فلان الفلانى جامعها ، والولد علان أكلها ، والولد ترتان رافقها من وراء زوجها هريدى ، وقائع يحكونها تشبه الحقائق التى كأنهم رأوها بأعينهم · لكنهم دائما كانوا يستدركون قائلين : « والله أعلم ·· يمكن محصلش ·· الظلم حرام برضه » · ذلك ان كلا منهم كان يتمنى أن يهتبلها لنفسه فى عز شبابه ولذا فهو يتخيل نفسه فى صور الآخر الذى يختاره ليحكى عنه على أساس ان ذلك الآخر ربما كان أكفأ منه مظهرا أو خلقا أو مركزا · وكانوا يخلصون ضميرهم بعد الخوض فى لحمها بقولهم الله أعلم ، اذ هم فى أعماقهم يدركون انهم يحكون مجرد خيال أو اشاعات متنامية ·· فما بالك وهذا رجل كبير المقام والسن يحكى فى الدكاكين كيف طرد هذه البنت الملعونة من شقة ابنه فى لحظة خطيرة ؟ · لكن النقرزان لم يزد عن قوله ان الله حليم ستار ، وظن انه بذلك قد أرضى الله واستغفر من الذنب ·· فتكفل خيال الجماعة بما يتكفل به عادة حين ينشغل بمسألة ، تكفل باحياء الواقعة وتكميلها على النحو الواقعى المنطقى ·

كان من الممكن أن أنسى خالتى بسيمة أنا الآخر وأتجاهلها كما فعل غيرى من أهلها · لكن كل من نساها دفع فى المقابل ثمنا باهظا جدا ·· فهذا عمى طاهر اقتنع ببغائها واعتبرها عارا عليه أن ينساه ، لكنه نسى مع نسيانه ان سبيل النجاح الوحيد لنسيان العار هو انك تتصرف من منطلق التسليم بالعار ، أى أن عمى طاهر تيقن من أن أحدا فى الدنيا لن يصدق شرفه ومن ثم صار الشرف فى نظره عملة زائفة تصرف كأن العار لاصق به لا محالة ، وكان ان أصبح لا شىء هناك يعز عليه أو يثير انفعاله أو نخوته أو خوفه سوى شىء واحد هو نقصان الرصيد أو ازدياده ، صار حيوانا ماديا يجمع النقود بكافة الوسائل ، يجمع ما لن يستفيد به سوى الأغراب وأبناء السبيل ·

اما جدى خليل فقد انكسرت صلابته فقوى على لحمها لحاما صلبا من طاقة الصبر عنده · لكنه لحام يسيح عند اشتداد الحرارة فيخلخل الكسر وتصبح نفسه أجزاء متناثرة من الصعب جمعها ثانية ، لكنه يجمعها ، اذ يغيب عن الوعى ساعات بارادته حسبما يحتاج اللحام من برودة يتصلب معها من جديد · وأما جدتى فانها فقدت صلتها بكل شىء تقريبا الا بالله سبحانه وقرآنه ، كأنها رأت أن تعتذر له مدى الحياة عن خطيئة تسبب فيها جمالها البائد ، لقد خلقها سبحانه جميلة الجميلات ، لم خلقت سبحانك ـ هكذا تردد جدتى دائما فى صلواتها ـ ابنتى جميلة جمالا مشتعلا بالنار صنع فيها وفيهم وفى الجميع ما صنع : سبحانك جلت قدرتك أنت جميل ولا تحب غير الجميل ، فان كانت بسيمة قد حادت بجمالك نعمتك عن جادة الصواب فسامحها يارب دنيا وآخرة ، فهى فى النهاية بعض جمالك وبعض ما تبدعه فينا من صنع وصنيع · سبحانك أعطيتها الجمال ولكنها يارب مسكينة لم تقو على رد الوحوش والغيلان ·· أكل ذنبها يارب انها كانت آية من آياتك فى الجمال ؟ ·· مسكينة لقد قاومت على قدر ما قاومت ، ولابد انها بذلت أقصى ما فيها من قوة ، فان كانت قد انهزمت ووقعت فى الأوحال فاغفر لها انها ظلت تقاوم ، واغفر لها انها وحيدة ويتيمة وغلبانة ·· وأنت وحدك تعلم ان كانت لا تزال على قيد الحياة أم صعدت روحها اليك ··

وهكذا وهكذا خذ من صلوات جدتى ما تشاء دون ملل ، شغلتها تسبيحها ، نذرها بقية عمرها ان تظل تصلى وتستغفر عن ذنبها يوم فرطت فى دم ابنتها وألجأتها الى الهرب ، ان تظل بقية عمرها تصم الأذن عن كل مكروه حتى يرضى عنها الله ويسامحها ويسامح ابنتها التى لم تعد تعرف عنها خبرا أى خبر منذ سنوات وسنوات ··

هذه المعاناة وهذا العناء كنت أستطيع أن أدفعه من عمرى لو أنه سيوصلنى بالفعل الى خالتى بسيمة أو يعرفنى شيئا حقيقيا عنها وعن مصيرها بحقائق دامغة · الزمن وحده كان يستطيع أن ينسينى مسألة خالتى بسيمة الى الأبد ، لولا سببين قويين لم أكد أستطيع مقاومتهما ،

هذه الأغنية ·· وملامحى ، فالأغنية لا تزال تعيش كأنها تتحدانى وحدى · كذلك كلما ذهبت الى مكان فيه أقارب لى يطلع دائما من يقول لى : على فكرة انت شبه خالتك بسيمة تماما ··

اندهش قليلا ثم امتعض ، فكل أقاربى الكبار يؤكدون لى ان فى وجهى كثيرا جدا من دمائها وبعض رائحتها وخيلائها · حتى أمى أنا ، هى الأخرى كانت قد أحبتنى كما تقول ـ لهذا السبب نفسه مع انها هى نفسها لم تر أختها خالتى بسيمة ، انما جدتى قالت لها وهى تهشكنى اننى صورة طبق الأصل من خالته بسيمة · ولقد نشأت عندى عقدة قديمة خاصة بعد ان عرفت بشكل أو بآخر الوجه السيىء من سمعة خالتى بسيمة وأتوقع ان كل من يرانى حتى من الغرباء سوف يقولون لى : انت شبه خالتك بسيمة ··

لكن الطريف اننى ذات يوم ليس بالبعيد جلست أشرب شايا فى بوفيه الكلية فى العاصمة ، فصاحبتنى فتاة لطيفة وجلست معى ، ثم راحت تتأمل فى ملامحى بامعان حتى خشيت ان تنطلق بالجملة المعهودة ، فاذا بها تنطق قائلة : « على فكرة انت فيك شبه كبير جدا من الفنانة رشا الخضرى ·· انت تقرب لها ؟ » · صعقتنى المفارقة فقلت ضاحكا : « لا والله ·· ولا تربطنى بها أى صلة ·· حتى أغانيها لا أحبها ·· وحتى صورها فى المجلات المصورة الملونة لا أحبها لما فيها من خلاعة وافتتان ·· ولا أظن اننى ساحبها فى يوم من الأيام » · ثم اننى ظللت أضحك شهور طويلة على حس هذه النكتة ، متخيلا اننى فى المستقبل قد التقى بمن يقول لى : انت شبه مارلين مونرو أو جاكلين كيندى ·· أليست هذه مصيبة ؟ من سوء بختى لا يشبهوننى الا بالنساء ··

أترانى قريب الشبه بالنساء فعلا أم انها لعنة خالتى بسيمة ؟ · أغلب اليقين عندى اننى رجل بكل ما تحمله الكلمة من معنى · والتصاق شكلى بشكل خالتى بسيمة ليس معناه اننى نسائى الملامح والسلوك حتى يكون الشبه متطابقا الى هذا الحد ، بل ان معناه الحقيقى اننى دون الآخرين

قد انطبع على وجهى وعلى صدرى صليب خالتى بسيمة ، لقد كتب على الى الابد أن أظل أبحث فيها وفى قضية تشردها ثم عودتها مقتولة على هذا النحو ·

ـ ٢ ـ

واستطرد مأمون :

ترى هل يتذكر عبد الجبار اليوم هذه الأغنية ؟ انه لابد أن يكون قد سمعها من قبل ، فقد ألفت هذه الأغنية ابان فترة طلبه للعلم فى الثانوى أو فى الجامعة تقريبا · كان ذلك فى أواخر الأربعينات ، وهو على الأرجح كان طالبا بكلية الهندسة ، التى دخلها بواسطة من الست هانم وكان يسافر ثلاث أو أربع أيام فى الاسبوع الى الاسكندرية ، ويعود الى شقته فى البندر ليبقى بعض أيام تحت امرة الست هانم وطلباتها التى لا تنفد ··

اننى فى الواقع قد عجزت عن التحقق من تاريخ ميلاد الأغنية ، هل الفت بعد هرب خالتى بسيمة مباشرة ؟ أم بعده بكثير ؟ أم فى أثناء بقائها فى القرية ؟ · لكن المرجح عندى انها ألفت وتداولها الناس بمناسبة هرب خالتى بسيمة واختفائها عن الأنظار · هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان كثيرا من العقلاء والكبار الذين جذبوا احترام ، الناس ، كانوا اذا جاءت هذه السيرة صدفة بادروا بتصحيح تاريخ جوهرى ينفى عن عبد الجبار أى صلة له بالأغنية ، ويؤيدون ذلك قائلين ان عبد الجبار طول شبابه وصباه لم يعرف مسألة الحب والغرام هذه مع أى انسانة ، وانه كان شديد الأدب لا يرفع عينيه فى واحدة ، ويصلى الفرض بفرضه ، واما الحادثة المزعومة التى رواها أبوه النقرزان فهى كذبة من قبيل التفاخر والفشخرة الكذابة ، أو هى زلة لسان ، والدليل على ذلك ان

النقرزان نفسه قد سئل بعد ذلك فى تلك الواقعة فنفاها تماما وأنب الذى ساله تأنيبا كاد يصل الى حد الضرب وقال : كيف يمكن أن يكون ابنى دنيئا الى هذا الحد ؟ ··

ومن ناحية ثالثة فان أدب عبد الجبار وحسن سلوكه مسألة يعترف بها الجميع من معاصريه وزملائه ، بل انهم يضربون به المثل فى الأدب والحياء اللذان يؤديان بالضرورة الى هذا النجاح وهذا التفوق · ولا يذكر أحد منهم أبدا انه سمع عن عبد الجبار كلمة سوء أو عرف عنه سلوكا يغضب الله ·· الكذب خيبة يا جماعة ··

معنى ذلك أن شبهة وجود علاقة غرامية بين عبد الجبار وخالتى بسيمة فى زمن الصبا ، شبهة ضعيفة جدا ، أنا شخصيا لا أصدقها ولا أتصورها ، لسبب بسيط هو أن عبد الجبار منذ تخرجه فى كلية الهندسة وحتى سنوات قريبة كان يعيش حياة مكشوفة للجميع وخاصة نحن أبناء قريته ، اذ أنه حين يريد أن يفعل شيئا بالغ السرية فانه يلجأ الى استراحته السرية فى قريتنا وهى على بعد عشر كيلو مترات منها ولا شىء حولها سوى حدائق وأسوار من داخلها حدائق وأسوار ··

والمرجح طبقا للواقع والمنطق أن تكون خالتى بسيمة مجرد حدث عارض مر به فى الطريق دون أن يترك فيه أو فيها أثرا ولكن خيال الجميع هو الذى حولها الى ملحمة ينفس بها عن أشياء خاصة بهم · على أية حال فلست معنيا بالبحث فى أمر هذه العلاقة الآن ، لثقتى من أن خالتى بسيمة وعبد الجبار قد ذهب كل منهما فى طريق يصعب فيه التلاقى ·· فها هو ذا عبد الجبار يفتتح الطرق والكبارى والمنشآت ويعاشر ملوكا وأباطرة ·· وها هى ذى خالتى بسيمة قد عادت كما ذهبت وجثتها ترقد الآن فى الثلاجة · أما مشوار خالتى بسيمة الذى قطعته طول حياتها فاننى غير ملم به ولا أعرف عنه أى شىء على الاطلاق · أما مشوار عبد الجبار فهو نار على علم ، وقصة حياته وكفاحه انجيل يحفظه الأولاد · أنت لا تدرى مقدار الفرح فى البلدة يوم تخرجه ، حتى أبوه فى تلك الليلة

بسط يديه لأول مرة فى حياته ودفع نفقات من أجل الاحتفال بحصول ابنه على البكالوريوس ـ كلمة تدرب على نطقها كثيرا حتى أصبح له مذاق خاص فى نطقها ـ ولكن يقولون انه جلس ليلتها بجوار ابنه بين المحتفلين يعيد على رأسه صداعا : دفعت كذا لفلان تصور ؟ ·· وصرفت كذا فى كذا فتخيل ؟ ·· حتى هب فيه عبد الجبار كأنه يوبخ رجلا لا يعرفه : « يا أخى صدعتنا ·· اللى صرفته خده ع الصرمة ومتفلقناش » · فيعتذر الأب بكل كلاحة قائلا : « لا ما أقصدش · أنا بس باوريك معزتك عندى » ··

لكن عبده ـ وقد لقب بالباشمهندس من قبل تخرجه بسنوات لم يعد محتاجا لأحد من ذويه ـ ثم انه لن ينتظر الشغل يجىء لحد عنده ، سوف يذهب هو الى الشغل أينما كان · الغريب انه مع ذلك لم يسع الى الشغل أبدا ، لأن الشغل كان دائما يجىء لحد عنده بالفعل · ذلك انه قبل تخرجه بسنة كان ذاهبا الى تفتيش الوسية فرأى الناظر يساوم أحد البنائين على ترميم الاسطبل · فدخل بينهما ، وطرد البناء برفق شديد ثم اختلى بالناظر فأقنعه ان الاسطبل كله فى حاجة الى اعادة بناء على الطريقة الحديثة ، وراح يكلمه بالأمتار والمقاييس والمصطلحات الأجنبية البراقة التى يموت الأزارقة فى جلدهم عند سماعها ، حتى ارتعت الناظر ووافق راضيا · فاحتسب له التكاليف الشاملة ، ثم قبضها كاملة ، فهو مهندس شاب لا رأسمال لديه وهو سيخدم فقط · وظل الناظر ينتظر أن يجىء عمال ليهدموا الجدران كلها ليبدأ مكانها بناء جديد · ولكن ذلك لم يحدث ، كل ما هناك ان اثنين من عمال البناء حضرا بصحبة عربة أو اثنين من الطوب ، وفهم الناظر فى الحال ان الباشمهندس ضحك عليه واستغفله حيث قبض ثمن عملية بدون عملية · لكنه بعد صباحين أو ثلاث فوجىء بأن الاسطبل قد تغيرت كل معالمه بالفعل واتخذ شكلا جديدا ومدخلا جديدا وفراغات جديدة ، حيث قد أضيفت أبواب واختصرت شبابيك وبنيت أضلاع اتصلت بأضلاع ثم طلى

كل ذلك بالأسمنت والجير · فسافرت سمعته بذلك الى كل التفاتيش فى كل البلدان ٠٠ -

وفور تخرجه كانت صـفقة من الجيش الانجليزى فى انتظاره ، عمليات فى جميع الوحدات ، والجيش فى حاجة دائما الى أبنية من جميع الانواع والأحجام والأسعار وغرف المراقبة الى جانب انشاء طرق وتعبيد أخرى ورصف غيرهـا وهكذا من مقاولات لا تنفد · وكان للست هانم وزوجها دخلا كبيرا فى تعبيد الطرق أمام عبد الجبار فلم يشاركه أحد فى جميع احتياجات الجيش ومقاولاته · وحيث كان المفروض انه مهندس فحسب وانه سيحتاج لمقاولين يفهمون فى جزئيات التنفيذ واقتصادياته وأسعار مواده اذا به يدخل مهندسا مقاولا معا فى نفس الشخصية فى نفس الصفقة · وليس معنى ذلك ان العمليات التى قام بها لم يحتج الى مقاولين غيره من أهل المهن المتخصصة ، بل ان كل خصيصة قام بتنفيذها مقاول ما له أنفاره النوعين الخصـوصيين ، لكنهم جميعا مقاولون من الباطن ، من باطنه هو ، يكلفهم باعتباره صـاحب العمل الأصلى ، أى بشخصية الجيش الانجليزى ، أى ان جميع الأجور وأسعار المواد تدفع ناقصة نسبة مخيفة وبطرق مبتكرة فى التهديد والتلويح بالقوة ٠٠

شاطرا كان مخيفا ، لكأنه الشيطان تجسد فى حركات مادية لكنها لفرط ذكائها ودربتها وسرعتها تبدو مجرد اشـارات لاسـلكية يبعثها ويستقبلها لتتحول بعد برهة الى ناس تهد أو تبنى أو تحفر أو تسفلت ، انه بارع فى خلق عمل يكدح فيه الجميع كدحا ويحصل هو وحده على أجره · ومشهورا كان الى حد النجومية فى جميع وحدات ومعسكرات الجيش الانجليزى على امتداد طول البلاد وعرضها ، وربما كان اتصاله برجال الثورة الأزرقية قد جاء من هنا اذ انه حسبما يشاع خدمهم فى أمر ما ٠٠

لم يكن غبيا ليتجاهل ما حوله من حركات اجتماعية تناهض المحتل · لذلك فانه أراد أن يضرب المثل فى الوطنية · فجاء ذات يوم من بعثة

عمل خارج البلاد فى مدينة السويس ، كان رغم دمامة وجهه جميل الهندام لامع الشخصية ، هناك نمط فى بلادنا يلمع من بين ذوى الوجوه الدميمة او العاهات ، فكثيرا ما ترى وجها دميما جدا توطن النفس على ألا يكون لك به صلة ، فاذا به حين يحدثك تكتشف لباقة وجمالا مغريا بتقليده وتقليد حتى نواقصه فى النطق أو عاداته المصاحبة للكلام وان كانت بدينه · هكذا كان عبد الجبار حين دعى كل شبان البلدة فى دوار بيتهم · يومها نظر فى الشباب الحضور وأحس بسـعادة فائقة اذ وجد بينهم شبانا من الوفديين والاخوان المسلمين ومن هم بلا انتماء ، فى الحال جمع ذهنه ، واستحضر خطبة يثق انها تعجب شبان الوفد كما تعجب شبان الاخوان ، آمّا الآخرون فان أى شىء سوف يعجبهم · وبالفعل صفق له هؤلاء وأولئك بكل حماس ، ذلك انه ردد كل شعارات الوفد والاخوان واضاف اليها شعارات جديدة براقة يرفعها نفر من الوفد الجديد ومصر الفتاة والماركسيين · فتعالى الهتاف يشق الفضاء الساكن · واذا هدأ الهتاف شرع هو فى طرح اقتراحه : بتكوين جمعية من الفدائيين تعمل لحماية الوطن واقلاق راحة الغزاة ، ولم يجىء بسيرة الانجليز أبدا رغم انه كرر كلمات الغزاة والمحتل الأجنبى والاستعمار وما الى ذلك من الفاظ كانت مستحدثة فى قاموس الحياة والكلام اليومى ٠٠

واذا كان المفروض ان مثل هـذه الجمعيـات يدفع أعضاؤهـا اشتراكات فان جمعيته لن يكون مطلوبا من أعضائها ثمة اشتراكات ، لأنه - سى عبد - سيتكفل بوضـع رأسمال للجمعية من جيبه الخاص · فيتعالى التصـفيق والهتاف مرة أخرى لبلدهم · ثم انه بدأ فى الحال فافتتح باب الانضمام وتطوع ولـد من أقاربه بتحضير كشف امتلأ عن آخره بأسماء الأعضاء · وهنا وقعوا جميعا على أوراق ولوائح وقال لهم عبده ان هذه الجمعية التأسيسية وانهم بعد ذلك يجب أن يضعوا شروطا وقيودا للانضمام تمنع عن الجمعية أعدادا من الانتهازيين والتافهين فأحس الأعضاء بزهو كبير جدا ونفخوا صدورهم من الفرح ٠٠

اشتهرت الجمعية فى نطاق المديرية كلها وأصبح الانضمام اليها بين شباب القرى نوعا من الشهادة بحسن المستوى فى فهم النضـــال والعمل السياسى المثقف ، الذى ينبذ شغل العصابات والتخريب ويميل الى فلسفة الشغل البناء ، ان فلسفة الجمعية وشعارها المسجل : « اعمل فى وقت فراغك ·· حتى لو لصالح عدوك » ، والمذكرات التفسيرية لهذا الشعار يحفظها نجباء الأعضاء من الشبان القياديين ويطنبون فى مدح عقيدتهم التى هى فى الأصل تقديس للعمل الذى يحبه الله خاصة وان المستعمر سوف يجلو ذات يوم من البلاد فتئول ملكية هذه الأبنية الينا · وعلى هذا فقد انضم الى الجمعية شبان من الأعيان والخياطين والنجارين والبرادعية والتجار ··

ثم ان الأمر سار بعد ذلك على نحو طريف ، حيث قسمت الجمعية الى فرق بحسب نوعية الصناعة والمهنة ، أطلق على كل فرقة اسم له معنى سياسى ، فهذه فرقة دك الاستعمار أى الفلاحين ، وهذه فرقة تنفيض البلاد من غبار المستعمر ــ أى البرادعية والمنجدين ، وهذه فرقة مسح اللوح من قدم الدخيل ــ أى النجارين · وهكذا وهكذا ثم عين عبد الجبار لكل فرقة قائدا أعطاه سلطاته العليا بحيث لاراد لكلامه أو ابطاء فى تنفيذ أوامره ·· فنحن لا نلعب ، انما نحن نعمل عملا خطيرا يتعلق بالمصير · شهورا وراء شهور من التنظيمات والانتخابات زاط فيها الأولاد واحلو منظرهم وقد اندمجوا فجأة فى جدية رجولية رصينة غير مازحة ، ويدعون لأنفسهم ويتناقشون بعبارات فصيحة براقة ويخلبون لب الأباء ويمارسون الاحساس الجميل بالانشغال ولمعان النجوم فى الآفاق ··

بعد أن تهيأ كل ذلك أذيع ان عبد الجبار سوف يجىء ليجتمع بهم لتوزيع خطط العمل الفدائى عليهم · وكانوا وخاصة قوادهم وهم ينشرون خبر مجيئه لهذا الغرض يحسون بارتجافة القلب لخفقة سريعة عميقة كلما شعروا باقتراب اللحظة الفعلية التى تتحقق فيها كلمة فدائى هذه ببريقهـا المتوهج فى خيالهم ، يحسون وكأنهـا لحظة الموت واقفة فى

انتظارهم حيث هم يسعون اليها بظلفهم ، لكنهم سرعان ما ينسون هذه هذه اللحظة حتى لا تهتز شخصياتهم أمام الآخرين بعد كل هذه الدعاية والخطب ·· يا الهى كم حمل هذا الأثير من خطب تنوء بحملها الجبال ··

المهم ان عبد الجبار جاء بعد أن رسم لنفسه المقدمة المناسبة التى ابتدعوا لها تسميات أجنبية جديدة كأن يسمونهـــا « البرستيج » · ومعناها أن يأخذ النجم وضعه اللائق به من تكريم الجماعة واستقبالهم · وعبد الجبار نجم سابق من صغره ، ابتداء من كونه يتعلم فى الخارج ، مرورا بكونه يستغنى عن ثراء أبيه ، ويضع لنفسه ثراء وهذه ميزة وكل الأباء يشجعون عليهـــا ، وانتهـاء بحادثة خالتى بسيمة التى أشاعهـا النقرزان ، وفى ذلك الوقت ساهمت فى شهرته كأنه من أبطال الحواديت الغرامية ، نعم فلقد كانت هذه الأغنية قد ساهمت بقدر كبير فى تهيأة الشباب كلهم للاقتداء به وتقليده على الرغم من أن مغزاها الأصلى هو وصم عبد الجبار بسوء السلوك ، الا أن الأغنية ــ رايحة فين يا بسيمة ــ غطت هذا الجانب فظهر عبد الجبار فى خيـــال أولاد قريته كأنه نجم أسطورى من نجوم المواويل · أليس غريبا وطريفا ان الأغنية التى ألفت للتنديد بسلوك فتاة خاطئة مارقة ، بهدف تبشيع فعلتهـا وفعلته فى أنظار كافة البنات والصبيان ، أليس من الغريب انها تضفى على عبد الجبار نوعا من النبل رغم نذالة موقفه ، وتخلق منه مثلا يلوذ به الشباب ؟ ··

أيا ما كان الأمر فان عبد الجبـــار خطب فى الأولاد يومهـا خطبة رسمت وجهة نظر الجمعية وطريقة تنفيذ عملياتهـا · ان فلسفة العمل فى الجمعية هى ــ بعد تقديس فكرة العمل أولا : « اعرف عدوك » ، وبناء على هذه الفلسفة فان طريق العمل يكون : التسلل الى قلب العدو والعمل من داخله · ولهذا فقد قرر وضـــع خطة بأن تقوم كافة فرق الجمعية بالانتشار بين أضلاع العدو وفى أحشاء حياته ، لكى يتجسسوا عليه ويجمعون أخبارا ومعلومات معينة يبلغونها لرئيس الفرقة الذى يبلغها بدوره لرئيس الجمعية أولا بأول ، كى يتولى ــ بناء عليها ــ وضع خطط لابادة جنود العدو واثارة جنونهم ··

حينذاك أحس القواد بفرح عظيم انبسطت له أساريرهم وضاعت الخفقة القلبية المفزعة حيث اتضح لهم أن العمل الفدائى ليس بالعنف الذى كانوا يتصـــورونه ، فأكدوا له أنهم وفرقهم تحت امرته فى كل لحظة · فوزع على كل قائد مبلغا من النقود السميكة المخزخشة فى بهجة وقال لهم ان هذا هو تموين الفرق وعلى كل قائد أن يطعم به فريقه طوال أيام العمل ، وانه قد حسب جيدا حجم النفقات التى يمكن أن تصرفها كل فرقة فى الأكل والشرب والدخان والفسح ، وازاد عليه ما يفيض بعد النفقات ، ومع ذلك فان احتاجـوا لشىء آخـر فليتصـلوا باحد رجاله فى أى مكان ··

وهكذا بدأ العمل ، اذ جاءت عربة جرار فأقلتهم جميعا ثم وزعتهم على أماكن متعددة متباعدة جدا · ثم ان كل فرقة منهم فوجئت بأنها جاءت لتعمل عملا بحق وحقيقى فى معسكرات الجيش الانجليزى ومنشآته ، وبغاية القسوة ، حيث يتأمر عليهم جنود وضباط وناس لا هم بالجنود ولا بالضباط ولكنهم يشوطون فيهم بالشلاليت وبنفس البذاءة يشتمون أمهاتهم · وفى البداية قالوا لأنفسهم انهم لو كانوا يعملون هذا العمل فى غير هذا المكان بالأجر لما رضـوا بالصبر على هذا الظلم ، فشحنهم القواد بأن العمل الوطنى ليس لعبة وأن عليهم أن يصبروا فى سبيل جمع معلومات وأخبار تفيد قضية الوطن · فاستأنفوا الصبر · وعـاد الطلاب منهم الى مدارسهم ثم رجعوا ثانية فى فترة الأجازة اذ هم على الأقل يأكلون ويشربون ويشاهدون أشياء جديدة تنسيهم بعض الشىء قسوة العمل ··

لكن الصبر طال وطال · وفوجئوا جميعا ولكن على حد بأن قسوة العمل وعرقه تهد حيلهم وتحيلهم الى خرق بالية ترتمى على الفراش فاقدة الوعى لا هى جمعت معلومات ولا هى مؤهلة لجمع شىء ، ثم ان المعلومات التى بهرهم فى الأول انهم يعرفونها ويدخرونها لابلاغها مصاغة الصياغة المناسبة اكتشفوا بطول البقاء انها ليست تدخل فى نطاق المعلومات أصلا انما هى تفاصيل واقع يومى كبير وعات · وحتى الأذكيـاء منهم الذين

جمعوا بالفعل ما يسمى بالمعلومات أنســاهم الارهـاق جميع المعلومات والمعارف التى حصلها طول حياته · الا أن الزمن كان قد طال بهم على حبلين ينفتلان على المدى البعيد فى حبل واحد ، فالشعور بالخطأ والتمرد يأخذ وقتا حتى يقتنع الفرد باعلانه اذ هو موهوم لا يزال بقضية الوطن · ومعنى تمرده على العمل ها هنا انه يبيع قضية الوطن ويفرط فيها · ولابد أن يمر وقت طويل حتى ينتقل نفس الشعور من فرد الى فرد ومن فرقة الى فرقة ، اذ انهم كشراذم متباعدة يظلون موهومين ببطولة الآخرين · ثم ان الشعور بأنهم لا يجدون الأكل فى الخلاء المدنى كانت تغذية فى نفوسهم أخبار وافدة تقول بأن البلاد لم يعد فيها عمل ، لم يعد فيها خير ، لم يعد فيها انسانية ، وكان ثمة قوة اعلامية مجهولة تريد أن ترسخ فى اعتقادهم ان البقاء فى هذه المنافى هو أعظم اختيار بالنسبة لهم ·

لكن الثورة المصرية المباركة حين قامت اشاعت فى الشرق الأزرق نورا وحرية ·· وأراحت اخواننا من اعلان التمرد على عبد الجبار والتنكر لقضية الوطن· اذ ما لبثت الثورة الأزرقية أن قامت فى اثرها · وبفضلها عرف اخواننا هؤلاء ان عبد الجبار لم يكن فى الواقع زعيما وطنيا كما أوهمهم ، انمـا هو مجرد مقـاول للأنفار ، عرفوا ذلك من الثورة التى اشاعتها الثورة المصرية فى المنطقة ، فجرائد كثيرة تفضح العملاء وكتب زهيدة الثمن تنقل المعلومات والمعارف الواسعة واذاعات توصلهم بالعالم عبر مؤشر كعـود الكبريت · ثم ان الزمن أخـذ يجرى كالاكسبريس لا يتوقف أمام صـغار المحطات ، وفى كل يوم أنبـاء جديدة متجددة وأحداث مهولة واقعة ، وجبابرة تنهزم فى لمح البصر ، وعائلات كبيرة متسلطة تنخلع أظافرها ، وقد نسى النـاس لبعضهم البعض كثيرا من الأحقاد والثارات ، ومن بينها ثأرهم لدى عبد الجبار الذى باعهم للعدو خدما أذلاء وقبض هو ثمن المقاولة ·

على ان البعض كان يستبد به الحقـد فيفكر ، فى الانتقـام من عبد الجبار ، فيظل عمرا طويلا فى حالة جنونية دنيكشوتية · ورغم ذلك كان ثمة من يرى هذه الحالة منتشرة ويظل هو الآخر يسير اليها بالتهديد

المتواصل والصوت المرتفع · ذلك ان ثمة أملا فى الواقع كان يداعب خيالهم ، اذ يتوهم الواحد منهم ان صوته وتهديده قد يبلغ أذن عبد الجبار فيطلبه ويعينه فى عمل مريح كما فعل مع معظم قواده ··

« ما يدير الرأس حقا أننى التقيت بواحد من قواده السابقين يعمل فى وظيفة كبيرة جدا فى احدى شركات سى عبده ، وجاذبته الحديث بلطف متوقعا أنه يعرف عبد الجبار حق المعرفة ويلتقى به كثيرا ، فاذا به ـ وهو فى عمر أبى ـ يقول لى بنبرة صادقة أن عبد الجبار لا يعرفه ، اذ أنه لم يره منذ ذلك التاريخ الذى مات واندفن ، وأنه عين فى احدى شركات بواسطة من أحد رجال الثورة الأزرقية ،وانه فى المرات العديدة التى التقى به فيها رفض عبد الجبار أن يتذكره أو يتذكر أنه كان يوما واحدا من قواده » ·

ـ ٣ ـ

ابتعد مأمون كثيرا حيث راح يسرع فى خطوه وأنا ألهث خلفه كأننى أبحث عن خيط الحديث الذى انقطع · وكان ايقاع نبض مأمون قد ارتفع فجأة فيما هو يغز السير عدوا · فنظرت حولى فعرفت أننا قد سرنا مسافات شاسعة كفيلة بافساد موتور عربة فيات ٢٨ ، حتى لقد غادرنا القرية وعديدا من القرى وصرنا فى البندر حيث يوجد مركز الشرطة · أخذت أهوهو ، وناس تقذفنى بالحجارة دونما سبب فأعود ، والشمس كالبيضة فقست على أديم السماء فتناثر صفارها وأطل منه رأس الكتكوت مشتعلا · رغم أننى مشيت منزويا مهزوما فان طائفة من الكلاب الطائعة هرولت نحوى بأقصى سرعة ناشرة عدوى الحماس بين الآخرين ، فاذا هم يحيطوننى وينهالون على تمزيقا وتلطيشا ، وصوت عوائى لا يبلغ اذن مأمون ، الذى ابتعد عنى كثيرا بل دخل فى مبنى متميز الشكل ··

من فضل الله يوجد دائما من يظهر فى لحظات النهش النابحة ليقول : « امشى ·· بس يا كلب منك له » ثم يفض الاشتباك بطوبة أو ببوز حذائه أو بشومة غليظة · فما أن حدث هذا حتى اندفعت أجرى مهيض الساق أرفعها من الألم · ولقد استغربت من فرط الألم أن يوجد الى هذا السرب من الكلاب الضالة فى هذه البقعة وحدها رغم أننا لسنا فى منطقة سوق مثلا تكثر فيه العظام والنفايات · لكننى بعد أقل من برهة عرفت السبب الذى جمعهم ها هنا · ثم ضحكت ، اذ وضح لى أن لقيهم على شونة ، ولسوف يظلون هكذا بجهلهم يحرسون وهما بولائم قادمة عما قليل ، والوهم مبنى على هذه الرائحة التى تسللت الى خياشيمى وهى ذات نكهة ليست فقط فاتحة للشهية بل للشراسة والسعار ، تلك هى رائحة الجيفة ، التى توجد ها هنا مبطنة برائحة ما أعرف أنه عقار اسمه الفورمالين ··

مع عادتى وليس لى خيار فيها : أن أنجذب بدورى نحو هذه الرائحة انجذابا أين منه انجذاب المتصوفة ، يسيل لعابى ويحدونى الشوق الى الخيال البديع فى أكلة دسمة تاريخية · لم يكن ثمة بيوت كثيرة فالمدينة الحقيقية لا تزال تظهر صغيرة من بعيد · عند بيت معين يقف فى الخلاء بعيدا توقفت وقد أسكرتنى نكهة الرائحة تماما · فقفزت داخلا ، فاذا ببوز حذاء حديدى يشوطنى فى فمى ، فاندفعت أصرخ من الألم واندفعت اجرى فزعا بدون وعى · حتى اذا ما صرت بعيدا بعض الشىء هويت أعوى واتاوه وأبكى ، واذا بكلب عجوز لطيف الشكل يهرول نحوى · فقدرت ان منظرى فى محنتى سوف يرد عدوانه عنى · لكن الكلب العجوز كان لطيفا بحق ، اذ راح يتشمم جرحى ويلعق بعض ما يسيل من دم · وكان حريا بأن يواصل اللعق بلذة فائقة ، أما وقد اكتشف أنها دماء كلب مثله فقد اشمأز ومسح لسانه فى الأرض وفى فروتى ، ثم رفع أماميتيه وربت على ظهرى فى رفق قائلا بحنان أبوى : « أصل مفش ·· غبى ·· جاى مندفع كده منتاش عارف انت داخل فين ·· دى المشرحة يا حمار ·· الى بيخزنوا فيها جثث أسيادنا الآدميين ·· ع العموم تعيش وتاخد

غيرها .. قوم » . فأخذت أحاول النهوض والنار تلسعنى فمكث العجوز يتأملنى برهة طويلة مشفقا على ثم أومأ لى بالانتظار حتى أستريح ..

وفيما أنا ألهث وأتأوه رأيتنى فجأة أنتفض حيث شممت رائحة الأسطى حسنين وروائح أخرى أعرفها جيدا . اعتدلت جالسا أترنح ، يقف شعرى ، اذا بى أرى الجد خليل بذات نفسه ـ جد مأمون ـ يلف حول مبنى المشرحة ، ويتلكأ ، وبيده جهاز تسجيل ، وصوت أحمد عدوية يلعلع قائلا : سلامتها أم حسن .. وخلفها مباشرة جملة من غناء سيف الماوردى ، فما يكاد سيف يستطرد مغنيا حتى تركب عليه رشا الخضرى ، كأن يدا تلعب بمؤشر المحطات . لكن الجد خليل كان يتلفت حواليه كالمطارد ، ويحاول الاختباء عن عيون تراقبه فى الخفاء ، ثم اذا به يختفى فجأة كأن الأرض انشقت وابتلعته . بعدها بلحظات طويلة ظهر مأمون خارجا من المشرحة وهو يجفف دموعه ويبدو أنه مهان حتى النخاع . فأخذت أعوى فى طلبه ، فانتبه الى ، فجاء يعزينى فى بلواى . وجلس يتفحص فكى ويجفف الدم بمنديله ، وأنا ألوى بوزى صائحا ليس من الألم ولكن لأنبهه الى أن الأسطى حسنين الذى أحضر جثة خالته بسيمة قد مر من هنا الآن وها هو ذا يمشى بصحبة بعض المخبرين وضباط الشرطة . لكن مأمون كان مستغرقا تماما فى تطبيب جرحى ..

ثم أنه أشار لى فتبعته الى مبنى المشرحة من جديد حيث يقف مأمون مع تمورجى عجوز فينفحه سيجارة سوبر لم يجد فى العلبة غيرها لنفسه فرماها وزعم أنه معه علبة أخرى . وكنت أحس كأنه يرشو هذا الرجل الطيب لكى يترفق بجثمان خالته فلا يعرضها للامتهان . وهو لم يقل هذا طبعا ، لكن التمورجى فهم من تلقاء نفسه ما يسعى اليه مأمون بواسطة السيجارة فصار يطمئنه على جثة المرحومة ويزعم أنها فى الحفظ والصون كأنها أخته . وهنا بكى مأمون لا أدرى لم ؟ فقال التمورجى وهو يتجاهل بكاء مأمون أن عليه ان كان يريد استلام الجثة حقا ودفنها على مسئوليته فى مقابر العائلة فعليه أن يسرع فى اتخاذ الاجراءات والحصول

ل التصاريح اللازمة والا فبعد ساعات قليلة سيؤمر بدفنها فى مقابر الصـــدقة فبكى مأمون من جديد ولكن فى تشنجات متقطعة جارفة . وينزرد وجهه الجميل ويزداد حمرة ، وتمتلئ عيناه الجميلتان ـ الجميلتان ـدا ـ بدموع تسبح فى خـوف وضعف واسترحام واستيغاث . وهنا ـــوح التمورجى قائلا : « يوه بقى .. ما تخليك راجل امال حتعمل الحاجات دى كلها ازاى ؟ .. مش تفوق كده وتروق ؟ » . ثم استدار وانصرف ..

وقف مأمون حائرا عاجزا ، وقال من بين شهقاته المكتومة انه ذهب الى مركز الشرطة فلم يجد به أحدا فماذا عليه أن يفعل الآن ؟ ..

ثم انه اتجه الى مبنى يقع فى نفس الاتجاه الذى تقع فيه المشرحة ولكن الى بعيد قرب مدخل المدينة فاذا به مركز الشرطة . دخلنا نركض على حذر فى طرقة مظلمة كابية مليئة بالحجرات المكتوب عليها أسماء رتب شاغليها . توقفنا فى حجرة النوبتجى القصـــير ذى الشـــوارب المتراقصة دوما . وكان يتهيأ لغفوة حين دخلنا ، فأشار الى مأمون فى احترام أن يأتى . فذهبنا اليه ، فقال له : « يابنى لا تتعب نفســك اليوم . فالجميع ها هنا مشــغول اليوم باعداد المراسيم لاســتقبال عبد الجبار بيك .. اليوم لن تجد أحدا يعاونك على تحقيق أو استصدار تصاريح النيابة والطبيب الشرعى وما تعرفه من ذلك .. اتكل على الله يا ولدى » ..

وكان لابد لمأمون أن يتكل على الله وينصرف تاركا لدموعه العنان . لكنه ارتد خطوة وسأل الشـــاويش النوبتجى عن سبب هـذه الزيارة المفاجئة التى يقوم بها عبد الجبار فى المنطقة ؟ . فنظر اليه الشاويش النوبتجى فى استنكار كأنه يتهمه بالجهل ، وفعلا نطقهـا ولكن بلطف قائلا : « انت حضرتك منتاش عايش فى البلد ؟ .. عبد الجبار كل يوم والثانى هنا بيفتح مشاريع استثمارية تخدم المنطقة تخدم خطط التنمية .. وتقول ما المناسبة ؟ .. انه لا يمر اسبوع الا ويزور المنطقة لسبب من

الأسباب » • ثم اهمل مأمون كأنه سحب تقديره السابق له • ومرة أخرى وقف مأمون عاجزا لا يملك حتى السيطرة على دموعه ••

ـ ٤ ـ

قال مأمــون :

ـ « قلت لك أن فتاة من زميلاتى فى الكلية فاجأتنى ذات يوم قائلة أن فى شبها كبيرا من المطربة رشا الخضرى • أقول لك الحق ، يومها كدت أوافق الفتاة لعل ذلك النسب يكون سببا فى علاقة حلوة أقيمها مع الفتاة فأنا من فرط الجفاف الذى أعيشه وانعدام الأصدقاء فى كل مكان أصبحت أشتاق لمثل هذه العلاقات ، ويا حبذا لو كانت فتاة سمراء خمرية مثل هذه • لكن أقسم بأننى اغتظت من تشبيهى بواحدة كرشا الخضرى • يومها تأملت فى وجه الفتاة برهة اقتنعت خلالها بأن النعيم كله يمكن أن يتواجد لى بجوارها • وخطر لى أن أكذب ، الا أنفى ، والا أؤكد ، لكننى استنكفت •• رشا الخضرى ؟ •• تلك المهربة التى صنعوا منها مطربة لأنها مجرد خادمة سرير لأحد رجال الثورة الأزرقية ؟ ••

« لكن الفتاة لم تقتنع برفضى • فعادت مرة أخرى وسألتى • وكنت أحس أنها دبرت لاصطيادى فى البوفيه وحدى ، وكان احساسى بذلك يسعدنى ويشعل نار الشبق فى نفسى • فوطنت النفس على الاحتفاظ بها • ورأيتنى رغما عنى ورغم احتقارى لشخصية رشا الخضرى وللانتماء اليها بأى سبب ، أحاول الغاء المسحة الفلاحية الخشنة عن مظهرى ليكون انتسابى لرشا الخضرى قابلا للتصديق ثم اننى طلبت للفتاة قهوة رغم عدم تأكدى من اكتمال ثمن القهوتين فى جيبى ، ودعوت الفتاة للجلوس قائلا : « أظن حضرتك وجهت الى هذا السؤال من قبل » • ثم ابتسمت هى الأخرى ودققت النظر فى عينى بعينين ساحرتين متشككتين فى كل

ما سأقوله مقدما • ثم قالت : « مفيش داعى للانكار •• تنكر ليه ؟ •• انا عارفه الحساسية اللى عندك •• لكن مهما كان الانسان مايتنكرش لقرايبه » • انجعصت بقهوتى كالرجال المهمين قائلا : « معناه ايه الكلام ده ؟ » فتلعثمت هى قليلا ، ثم انطلقت فى الحديث بكل سهولة وجرأة قائلة ان موقف رشا الخضرى من بعض رجال الثورة الأزرقية وموقف رجال الثورة الأزرقية من بعضهم البعض فى الآونة الأخيرة ثم ما يشاع عنها من اشتغالها بالتهريب لصالحها ولصالح بعض المهربين الكبار من تجار المخدرات أو المتاجرين بمناصبهم ، كل ذلك يشكل حساسية خطيرة اى نعم ولكننا ـ هى وأنا ـ جيل آخر ليس علينا أن نحمل وزر ومسئولية جيل أكبر خاصة اذا كانت شخصية انحرافية ••

« ارتعشت ، حتى لقد خيل الى أننى قريب لرشا الخضرى بالفعل • وكلام الفتاة الجميلة وصدق لهجتها فيهما قدر كبير من الجاذبية • ولقد انجذبت اليها بالفعل فتركتها تنساب فى الحديث وأنا أومىء بالموافقة او التأييد المؤقت من حين الى حين كأننى فى موقف أقارب رشا الخضرى بالفعل • ثم أن الفتاة الجميلة شربت آخر رشــفة فى الفنجان وهزته وقلبته فوق الطبق ثم نظرت فيه بانفعال عميق ثم قلبته على وجهه ثانية ونهضت قائلة كأنها تأمر خادمها : « قوم » لكنه أمر رقيق حتى ليرحب الانسان أن يكون خادمه بالفعل • أحسست بوجهى ركية نار ولسانى يخرج منها منسلخا : « يعنى ايه أقوم ؟ • قالت بابتســامة خطيرة : « عايزاك » • ما أجمل هذه الكلمة بل ما أسعدها • قلت : « حاضر » ونهضت واقفا أعدل فى بنطلونى الكتان المتقيح عند الركبتين ، وأضع يدى فى جيبى وأتركها تروح وتجىء بحثا عن القروش والملاليم • وركية النار تصاعد ألسنتها الى رأسى فتطلق لهبا خارقا ••

« قالت الفتاة باسمة ساخرة فى براءة : « انت بتعمل ايه ؟ » • فلم أرد ، انمــا أوهمتها أننى انتهيت من البحث بأن أمســكت ورقة الحساب وتقدمت نحو الآلة الحاسبة التى تتركنى فتاتها أشرب أولا ثم

أدفع بعد ذلك • امتدت يد الفتاة الجميلة على كتفى كالخساية وسحبتنى من قفاى قائلة : « رايح فين؟ » التفتت ركية النار اليها بعينين ملتهبتين ولسان يقول من حلق جاف : « حادفع الحساب » • فامتدت يدها وعدلتنى فى مواجهتها • ورغم أنى فكرت فى الثورة عليها بغضب فاننى ما أن واجهتها حتى أسعدنى كل السعادة أن تلعب معى هذه الصبية الفائرة الناضجة الثمينة كما نلعب فى الحارة طفلين سعيدين • قالت : « اللى يقعد معاية مايدفعش حسابات •• انت نايم ولا ايه ؟ » كان المزاح فى عينيها وملامحها الجميلة السمراء ، لكننى نظرت ثانية لعاملة الآلة الحاسبة فقالت لى : « الحساب وصل » فاغتظت ، واتجهت اليها قائلا : « وصل امتى بقى •• لا لا أنا لازم أدفع •• أنا اللى عازم » • قالت عاملة الآلة وهى تميل على أذنى ان هذه هى الآنسة « راندا » ، وهى صاحبة كل شىء ها هنا لو عزمت الجامعة كلها فلن تدفع ، ان رأسمال البوفيه كله من تبرعها ، فضلا عن التأسيس ، أما بقشيشاتهم فلها معدل آخر ••

« ظننتها تمزح هى الأخرى وأننى وقعت ضحية لفتاتين شقيتين تريدان الهزء بى كفلاح متواضع انما هو طالع فيها حبتين كما يقولون •• لولا أننى واثق من عاملة الآلة فهى صديقتى الحميمة التى تحدثنى كلما انفردت بى عن نفسها وأهلها وزملائها حديث العارف الخبير كأنها وكالة أنباء كاملة • وأكدت عاملة الآلة انها لا تمزح ، واننى من الآن لن أدفع شيئا ثمنا لأى شىء أطلبه من البوفيه طالما ان قد ظهر أننى من أصدقاء الآنسة « راندا » وما أقلهم • وقفت مذهولا لبرهة • وكانت الآنسة « راندا » قد سبقتنى متقدمة ببطء نحو الباب واضعة يديها فى خاصرتيها ، فبدت كأن الله يستهدفنى بابداعه المذهل يريد أن يصرعنى قتيلا فى الحال ، وكل هذه الفتنة الدسمة العميقة لم تبلغ العشرين من عمرها بعد • قلت : « لحظة واحدة من فضلك يا آنسة راندا » ، واستدرت أنظر فى المرآة المجاورة لعاملة الآلة وهى تتابعنى بوجه جميل أيضا لكن نصفه حاقد ونصفه مسحوق ، ثم تقول لى فى همس ينبىء

عن كثير من التمنى : « حضرتك ماتعرفهاش ولا ايه •• دى بنت أخت عبد الجبار بيك •• انها الوحيدة اللى عايشه معاه على طول •• حتى ابو راندا عايش معاهم فى نفس البيت •• أصل عبد الجبار بيك ميأمنش حد على نفسه غيرها » • وبعد أن أطلت مدة تسريح شعرى قليلا ريثما تنتهى عاملة الآلة من حديثها الهامس استدرت مجيبا اياها بهزة رأسى وابتسامة كالعادة ، ثم مضيت خلف الآنسة راندا كأننى ارقص فوق أرض من الفلين ••

« مضيت بجوارها صامتا كالمقبوض عليه فى سرقة غسيل الجيران • تمنيت لو أن عاملة الآلة لم تقل لى شيئا عن راندا • لقد استأت جدا من هذه المعلومات ولذلك فقد صدمت وأحسست كأن سعادتى أصبحت محدودة جدا ، وكل الطرق فيها مسدودة • على اننى رحت أختلس النظرات الى جسد « راندا » كأننى أبحث عن تصور لشخصية أمها التى أسمع عنها فى قريتنا من قديم كأنها أسطورة هى الأخرى ، فأم راندا هى اسعد أخوتها جميعا خاصة البنات لأنها ولدت فى زمن توقفت فيه الأم عن الولادة وظنت أن قدرتها قد انتهت ، لذلك حينما ولدت « فهيمة » أم « راندا » كان الخبر قد اخضوضر فى كل أنحاء الأسرة وصاروا يسعدون بأى قادم جديد يشاركهم كل هذا الهناء والنعيم • وقد تسلم عبد الجبار شقيقته فهيمة تلك وهو على مشارف النجومية لتتولى شئونه ، فأحضر لها المدرسين والضيوف من علية القوم حتى جعلوا منها سيدة بمعنى الكلمة • فلما تزوج عبد الجبار لم يكن قد اكتشف أن اخته « فهيمة » قد أصبحت منه بمنزلة الأم أو أكبر ، اذ هى فى نظره أهل من رأى ومن عاشر فى حياته ، هى الوحيدة التى تفهمه على حقيقته ولا تؤنبه ولا تشيل منه ولا تلوى بوزها ، الوحيدة التى تفهم طلباته ومزاجه ولغته وسلوكه ، وتتعامل معها بكفاءة عالية حتى أصبح وجودها أمرا جوهريا فى قلب داره ، لدرجة انها تزوجت واحدا أليفا طيبا من نفس العائلة يعيش معهم فى نفس البيت ومنصبه أنه تقريبا شبه حارس لعبد الجبار فى سفرياته ••

« وصيت « فهيمة » أم « راندا » يدوى فى قريتنا ليل نهـار من خلال عائلتهم الكبيرة المتسعة باستمرار · فنسمع من حين الى حين أنها أمرت ببناء كذا وفعل كذا ، وأن عبد الجبار حين عرضت عليه الوزارة ذات يوم رفضها لولا أن فهيمة أقنعته بالموافقة فى آخر لحظة ، وهكذا وهكذا · هذه اذن هى « راندا » بنت « فهيمة » ؟ ·· أى خيال هذا ؟ ·· لكنه مع الأسف خيال سقيم اذ أنه سيهوى بى من حالق بعد لحظات قليلة مصطدما بصخور الواقع · اننى مستعد لدفع عمرى كله دون قيد أو شرط اذا كان ذلك فى جوار الآنسة راندا ، الوديعة الرقيقة المشعة بالسحر · ها أنذا أمشى بجوارها والكل يرانى سائرا بجوارها فيقذفوننى بنظرات ثاقبة مستطلعة مندهشة حاقدة متشككة مراقبة · وأنا أنتهز أى فرصة فأرسل التحيات والسـلامات وأبتسم خجلا كأننى أقول علنا : لا تحسدوننى على شىء فأنا فى سراب واضـح المعالم وكذبة مبنية على افتراء محض ·· ان الآنسة راندا أيها السادة أقامت جسر الود معى متوهمة اننى أحد أقارب المطربة المبتذلة الشهيرة رشا الخضرى وأنا ليس يرضينى هذا الشرف · ثم استطرد فى نفس ساخرا : ماذا تكون صورتى بعد هذه الحفاوة لو علمت الآنسة راندا اننى ابن واحد من دهماء قريتهم التى لم ترها هى تقريبا فى حياتهـا بل ماذا لو علمت اننى من عائلة بسيطة التى لا شك سمعت أمها بسيرتها أو سمعت على الأقل بالأغنية المشهورة ومناسبتها ··

« كنت فى دوامة عميقة شـديدة الدوار · فرغم أننى من زوار البوفيه باعتبارى ريفى مغترب الا أننى لم أكن قد لاحظت الآنسة راندا أو سمعت عنهـا قبل أن تقتحمنى هى أول مرة · وها أنذا أرى اننى سأسمع الكثير بعد ذلك فى البوفيه وفى المدرجات عن سيرتى ·

« تجاوزنا سـور الكلية ، واكتشفت أن « راندا » طوال الطريق تحيينى وتبتسم لعشرات ينحنون لها تبجيلا · فما أن صرنا على رصيف الكليـة من الخارج حتى هرع المنادى مهرولا نحو سـيارة مرسـيدس تمساحة صار يمسح زجاجها ويطوقها بالفوطة ثم فتـح الباب فتقدمت

« راندا » وهزت رأسها شاكرة ثم ركبت فيما هى تشير لى أن أركب · ففتحت الباب وركبت بجوارها وقد ارتفعت فروة رأسى واقشعر جلدى من فرط اللذة برائحة الأنثى فى العطر الفاخر ورائحة مقاعد السيارة · علب من السجائر الآجنبية متناثرة فى اهمال حول الكراسى · أخرجت علبتى السوبر التى تفعصت وتكرمشت وأخرجت منها سيجارة كالدودة متكرمشة معووجة ، وأخذت أقوم اعوجاجها وقطع الخشب التى بداخلها توخزنى فى أصابعى وتخرق الورقة فأكتئب ، لكننى مع ذلك أشعلتها وبقيت صامتا · فلما استوينا على طريق الصحراء نظرت الآنسة نحو سيجارتى فى اشمئناط جميل ثم مدت أصابع يمناها وأخذتها قائلة : « تسمح ؟ فتركت السيجارة ، فاذا بها تطوح بهـا فى الشارع وتقول آمرة : « قدامك السجائر النضيفة ·· تسيبها ليه وتشرب القرف ؟ » · ثم دفعت بيدها احدى العلب فى اتجاهى قائلة فى بساطة : « بطلوا العقد دى بقى » · ففهمت من هذه العبارة وحدها أن الآنسة « راندا » تقصد جماعة الذين يزعمون الثقافة الرفيعة ويتحدثون عن حقوق الانسـان والعدالة الاجتماعية والديموقراطية ويسمونهم بالماركسيين ظلما وعدوانا ـ على الماركسية لا على الزملاء بالطبع · ولابد أن الآنسة « راندا » رأتنى ذات مرة أتناقش بحماس وأردد عبارات كبيرة فظنتنى منهم ·

« لذلك ابتسمت من تعليقها وتناولت العلبة ببساطة وأشعلت منها سيجارة فقالت هى : « ولع لى واحدة » : فأشعلت سيجارة أخرى على الفور أشعلت بدورها كل كيانى لمجرد شعورى بأن شفتى احتوتا نفس المساحة التى ستحتويها شفتاها بعدى ، ففعلت حركة كوميدية أطلت بها سيجارتها باقية بين شفتى لبرهة ثم قدمتها لها ثم عدت فجذبتها ووضعتها بين شفتى مرة أخرى ثم سلمتها لهـا ضـاحكا · فضحكت هى الأخرى ضحكة قصيرة ووضعت السيجارة بين شفتيها وتفرغت للقيادة · قلت لها : « حضرتك بتدخنى ؟ » · قالت : « أحيانا » · فأشرت الى العلب قائلا : « ما هو باين » ثم ضحكنا ·

توقفت عند كازينو فى قلب الصحراء . ما أن يدخله الانسان حتى يفقد شعوره بالمدينة . يجلس فيه طوائف كثيرة من ناس فخام متعجرفين ، أجانب « مصريين وسعوديين وكويتيين ، وبعض الأزارقة المنتمين اليهم بسبب أو بآخر ويبدو مع ذلك كأنهم الأسياد الحقيقيين . وكان من الواضح أن الآنسة راندا معروفة ها هنا الى هذا القدر الكبير من التحية والاتيان بالبرتقال دونما طلب ، وبعده فطائر وشاى كأنهم يستعرضون ما عندهم ولنا ان نأكل أو لا نأكل طالما أننا سندفع نفقات هذا الاستعراض » ..

وقالت راندا :

ـ « أستاذ مأمون .. اذا لم تكن ابن رشا الخضرى فأنت ابن أختها أو أخوها أو ابن أخيها .. المرجع يا أستاذ انك شقيقها ان لم تكن ابنها من أب قديم مثلا اعتبرته هى ماضيا كريها فتنكرت له كما يحدث عادة بين مثل هذه الفنانات .. نعم .. فنفس العينين ونفس الدم وسحبة الوجه بل نفس العود والروح .. أنت ابنها حتى لو لم تلدك أو أخوها حتى لو لم تكن من نفس الرحم قد نزلت .. أنا للعلم رأيتها كثيرا جدا يا أستاذ مأمون .. دعوناها كثيرا جدا يا أستاذ مأمون .. دعوناها كثيرا فى أفراح لا نهاية لها بمبالغ كبيرة .. هى على فكرة انسانة طيبة جدا ونقية جدا وانسانة الى أقصى ما تتصور ، ورقيقة أرق من أرفع نساء البيوتات فى المعاملة والذوق الفطرى .. لذلك هى تصلح أن تكون صديقة لى ، لكننى أؤجل ذلك الآن لأسباب .. أستاذ مأمون .. أنا آسفة .. أعرف أنك ممن يسمونهم باليساريين ، وأنت على شىء من الثقافة والموهبة ، أظنك تكتب أغنيات أو مقالات أو ما أشبه .. أنت حر طبعا ، ومن حقك أن يكون لك رأى معارض للحكومة لكل شىء .. ليس هذا مما يعنينى فى شىء .. كل ما فى الأمر اننى أريد أن أقول لك كلمة بهذا الشأن : لا يكون يساريا حقا من ينكر صلته بأحد حتى

لو كان هذا الأحد سىء السمعة .. وعموما فأنا ألمح فى عينيك شعورا بالموافقة على كل ما أقول .. وأدرك كم أنت مستاء لأننى ضيقت عليك الخناق وقدتك الى الاعتراف بأنك من لحم ودم رشا الخضرى .. لهذا فأنا سعيدة .. وأشكرك على هذا الصفاء الذى تبديه ، انه هو الآخر دليل وحده على قرابتك المتينة برشا الخضرى ان نفس الصفاء يطل من نفس العينين بنفس الدهشة الفلاحية المتطلعة .. وأستطيع أن أؤكد لك انك لو حرصت على هذا الصفاء معى فسوف لا أنساك أبدا بل ربما ساعدتك على اجتياز أى عقبات فى حياتك العملية فيما بعد » ..

ارتعدت مفاصلى من الخوف . قلت لها :

ـ « أرى انك يا آنسة راندا مشغولة بأمر معين .. ولا شك أننى لو كان .. » .

قاطعتنى بسرعة :

ـ « أعتقد أنك فى امكانك الكثير ولكن أرجوك لا تقاطعنى ودعنى أكمل كلامى .. اننى فعلا مشغولة بأمر معين .. ولست وحدى .. أن أمى تحمل هى الأخرى هذا الأمر وأمنيتى أن تساعدنى فى اعادة الراحة الينا من جديد ، على الأقل بصفتك أديب ذو نزعة انسانية محضة كما يقال عادة .. » ..

قلت مندفعا وراء فضولى :

ـ خير يا آنسة ؟ .. ما هذا الأمر ؟ ..

تحول الجمال الرائع العظيم فى ملامح وجهها الى موجات حقد دافقة بالشر والتوعد ..

وقالت الآنسة راندا :

— « ان المطربة رشا الخضرى تسلط أسلحتها الفاتنة ، على خالى .
وهى تدعى أنها لا تعرف ·· وقد عمدت أمى الى دعوتها على عدة أفراح لأقارب لنا ثم جالستها قبل الغناء وبعده ، ودحلبتها فى الحديث مرات عدة وبطرق متنوعة ، فاكتشفت أن رشا الخضرى ـ التى يعشقها خالى عبد الجبار ـ يخلو ذهنها تماما من أى شىء عن خالى عبد الجبار ·· لم تسمع عنه الا أطيافا تجىء وتختفى من ذاكرتها ·· وان كان ذلك صحيحا فان رشا الخضرى هذه سطحية العقل بل متخلفة عقليا ·· فهل يعقل أن مطربة شهيرة ذائعة الصيت ولها صلات كثيرة بكثير من رجال الثورة الأزرقية وأذنابهم وأذيالهم ، لا تعرف عبد الجبار أكبر شخصية اقتصادية فى الشرق الأزرق ؟ ·· أستاذ مأمون ·· لا تندهش ·· ان أمك هذه أو شقيقتك أو عمتك لا تفكير لها مطلقا ولا تعرف فى أى مدارس تعلمت أو فى أى عصر تعيش هذه الغافلة ·· أتراها مجرد قطة فلين يحتضنها الموج فى عليائه كلما صعد ؟ ·· أنا بنفسى جالستها وبعثت لهـا النقوط مجزية وانفردت بها بحجة أننى من هواة الطرب ·· ثم ناقشتها فى كثير من الأمور السياسية والثقافية والفنية والاجتماعية ، ففوجئت أن رصيدها من كل هذه المعارف ضئيل ضئيل رغم أنها تحفظ الألحان بسرعة فائقة وتؤديها ببراعة ودربة تهيج أعصاب الجمهور ·· فى البداية ـ آسفة يا أستاذ مأمون ـ قلت انها من أصل فلاحى واضح ، وأنها مكارة تدعى الهبالة على العبط ، ظنا منها انها بذلك تنجو من القيل والقال وتتفادى الرعب الذى أحدثته الثورة الأزرقية فى البلاد بتخوينهم وتجريمهم وما الى ذلك ·· لكننى صاحبتها فترة ليست بالقصيرة ، أكلمها فى التليفون كثيرا وأدعوها للعشاء وتدعونى لحفل وننفرد ببعضنا أوقاتا لا بأس بها ، وأوجه لها امتحانات كثيرة دون أن تدرى فأكتشف انهـا مسكينة الى أقصى ما تتصور ، غلبانة رغم أن شكلها يوحى بالفجر ، لا تعرف شيئا عن أى شىء الا الذين يعاشرونها وتعاشرهم وتتعامل معهم بشكل مباشر ، هؤلاء فقط هم الذين يرسخون فى ذهنها ، حتى أنا ، تصور ، وأنا ابن شقيقة عبد الجبار التى التقت بها كثيرا فى مناسبات

عدة كنت أضطر فى كل مرة الى تذكيرها باسم خالى ، الذى لم يكن فى ذهنها أبدا أكثر من كونه أحد الأثرياء الكبار وهو تارة اسمه عبد الجبار وتارة عبد الواحد وأخرى عبد الوهاب وهكذا ·· انتظر من فضـلك يا أستاذ مأمون ·· اننى أطمع فى أن تساعدنى فى فهم شخصيتها نظرا لخطورة الأمر ·· ان وجودها فى حياة خالى سوف يثير حولى كثيرا من الشوشرة ووجع الدماغ ·· لهذا فأمى قلقة ·· ولقد فكرت أمى فى حل ، لكن ظهر بطلانه ، اذ فكرت أمى لو كانت رشا الخضرى طامعة فى ثروة خالى وتدبر لنهبها بشكل أو بآخر فانها ـ أمى ـ على استعداد لأن تدفع لها مبلغا ثمينا بشرط أن تخرج من حياته نهائيا ·· وكان أمامنا مشكلة هى : كيف نتفاهم مع رشا فى هذا الأمر ؟ اننا غير متأكدين من أنها على صلة ـ من جانبها ـ بخالى ·· ونخشى أن ساومناها فى هذا الأمر بصراحة ومن وراء ستار أن نبهها الى نقطة ضعف فينا تدأب على استغلالها بعد ذلك ·· وأننا لفى حيرة شديدة ·· الا خالى عبد الجبار فانه لا يقيم للأمر وزنا فى الظاهر ولا يشغل باله بأى شىء » ··

وجدتنى مضـطرا للدفاع عن رشـــا الخضرى · وقلت فى غضب واستياء :

— « ما ذنب رشا الخضرى ها هنا بحق الشيطان ·· اسمحى لى فأنا فى هذا الأمر بالذات مضطر الى الدفاع عن رشا الخضرى ·· فها أنت قد اكتشفت انها متخلفة عقليا ، وأنها بلا دائرة معارف ثقافية أو اجتماعية أو سياسية أو تاريخية أو ما شاكل ذلك ، وهذه محنة الأميين والأزارقة لأنهم لم يجدوا من يربيهم ·· وقد وضح لك بشكل قاطع أن رشـا لا تنوى حتى أن تتذكر اسم خالك على الحقيقة ، وليس بمعقول أن تفتعل الى هذا الحد وتمثل الى هذا الحد ··· كون خالك لمواخذة من مجانين رشا الخضرى ـ أقصد عشاقها ـ الى حد يدفعه ـ مثلا مثلا ـ الى اقتناء شرائطها وصورها وما الى ذلك من أمور فهذا ليس ذنب رشا الخضرى أبدا » ··

ظهر الاستياء الشديد على وجه الآنسة راندا لأننى صورت خالها على هذه الصورة . لكنها سرعان ما نسيت ذلك وبدا عليها الضعف والرجاء وقالت :

– « آسفة .. لست أحب أن نتبادل التجريح .. وأنا فى الواقع آسفة مرة أخرى .. فربما أكون من الانفعال قد تحدثت عن قريبتك بشىء مزعج .. ولكن لكى تقدر أسفى حق قدره ، استمع الى هذه القصة ...

قالت الآنسة راندا :

– « كانت أمى عروسا حين رأت نفسها مسئولة مسئولية كاملة عن خالى عبد الجبار .. وكانت تحب خالى عبد الجبار أكثر من حبها لأى مخلوق آخر ، حتى ذلك الذى من المفروض أن يكون زوجها فى يوم .. وكنت أنا فى طفولتى أحار فى سلوكها نحوه .. فلما دخلت الجامعة ودرست الآداب اكتشفت التفسير الحقيقى لموقف أمى .. اكتشفت أن هناك عقدة يسمونها عقدة اليكترا ، ومنشؤها – على ما أذكر – تلك الأسطورة العالمية المسماة بأوريست ، حيث ثبت من موقف شقيقته اليكترا تجاهه أن الفتاة يمكن أن تحب أخاها حبها لحبيبها الآخر ، أو الذى مفروض أنه آخر ، المنفصل عن لحمها ودمها .. وعموما فان هذه العقدة ليست ترجع الى تلك الأسطورة بل هى ترجع الى بدائية الانسان حين كان الرجل يحب أخته الشقيقة فيتزوجها .. ان ما يسمونه بعقدة اليكترا هو بقايا ذلك السلوك البدائى فى الانسان .. لست أدافع عن أمى ، فليتنى فى عظمتها .. لقد لاكت الألسن سيرتها فى محيط الأصدقاء والمعارف ثم انتشر ذلك فى بعض الأوساط .. ومصدر توترهم جميعا هو تلك السيطرة الكاملة التى فرضتها أمى على خالى ، ومدى الضعف الشديد الذى يعتريه تجاهها : هو طفل أمامها لا يملك أى حراك ، وكان ذلك عن حب شديد شديد .. الحاقدون الموتورون من المحيطين بنا – الى كل يوم قاعدين فى بيتنا

ويطلعوا يجيبوا فى سيرتنا – لا يعرفون شيئا اسمه عقدة اليكترا ، ولا يفهمون فى هذه المسائل .. ان أمى فى نظرهم – بكل وضوح – « تعشق » خالى عبد الجبار وربما كانت تعاشره معاشرة الأزواج .. أقولها لك قبل أن تسمعها من الآخرين .. وحقيقة الأمر يا أستاذ مأمون ان أمى قد أغدقت من حبها على خالى ما جعلنا كلنا حتى نحن أولادها نغار من خالى ونكاد فى بعض اللحظات نكرهه ونحقد عليه لأنه يأخذ كل عنايتها وكل عواطفها ..

.. « فى يوم تركتنى أبكى حتى انقطع نفسى ، وهى فى حجرته تطيب له نفسه وجراح أصدقائه ، لم تخرج من عنده الا راضية النفس متوردة بالنشوة لأن خالى قد رضى وهدأت جراحه ونام .. لم تتذكرنى الا بعد وقت .. لكننى بعد أن كبرت يا أخ مأمون فهمت كل شىء وتحررت من كثير من المعتقدات البالية .. وعرفت أن المسألة كلها تنحصر فى أن أمى مصابة بعقدة اليكترا .. وهى لا ذنب لها فى ذلك ولا تملك الشفاء من عقدتها مهما احتوت خالى عبد الجبار احتواء تاما وعرفت كل صغيرة وكبيرة من أسراره ان كان له تجاهها أسرارا ..

.. « جبارة هى أمى كما يقولون يا أستاذ مأمون .. قد تندهش كما اندهش الآخرون اذا عرفت انها عقل مدبر من أكبر العقول الرياضية ، لا يباريها أحد فى الحساب والوصول الى النتيجة فى لمح البصر ، تتعامل مع جيوش جرارة من الأرقام تضربها فى بعضها وتجمعها وتطرحها أين منها الكمبيوتر ، ان الكمبيوتر هو مصدر المراجعة الموثوق منه عند خالى لحظة التحاسب وأمى هى مصدر المراجعة الأعلى من الكمبيوتر .. هى قد اضطرت لأن تكون كذلك من فرط حرصها البالغ على متابعة ثروة خالى وملاحقتها بالمليم فى كل مكان فى أى دولة .. ثمة مبالغ فى بنوك معينة لا تصرف الا بتوقيعها هى ، وهكذا .. ثم انها يا أستاذ مأمون ترسم مشاريعا تبدو لك جنونية ، لكنها تبتسم فى استهتار قائلة : « وايه يعنى ؟ .. عبد الجبار حينفذها » .. وبالفعل ينفذها خالى .. ان رسم المشروع فى نظرها ليس الهندسة ولا المسائل

الفنية ، انما هى ترسم طريقة للايقاع بشركات كبيرة وتدخلها شريكة معها بنسبة معينة فى مقابل قيامها بتصميم الشىء الفلانى أو تنفيذ الشىء الفلانى ·· فى العادة ينجح خالى فى ضم أى شركة تتعاون معها وجعلها جزءا من شركاته ·

·· « منذ أن علمنا أن أمى بالنسبة له كل شىء وهو بالنسبة لها كل شىء تغاضينا جميعا عن كل شىء ، طالما أننا مباح لنا فعل كل شىء والاستمتاع بكل شىء فى الحياة كما نهوى ونرغب ، بشرط أن نضع لأنفسنا القواعد الأخلاقية المناسبة والقوانين التى تحفظ الكرامة وتحميها ·· طالما وجدت من يحمى ظهرك بأمواله وقواه فأنت آمن ، هكذا نعتقد يا أستاذ مأمون ، ونعتقد أن غير ذلك من الاعتقادات مجرد فلسفة لا تصلح لسد الرمق ·· لا تراجعنى فأنت حر فى رأيك ·· المهم أرجو أن أكون قد دافعت عن موقف أمى بما فيه الكفاية ·· أقصد أنه ليس دفاعا ·· لكن أقول قد وضحت موقفها بعض الشىء حتى تكون انت على بينة من شىء قد تفاجأ به فيما بعد ، فأنت تعرف أن الشخصيات الاجتماعية الكبيرة معرضة دائما للخوض فى سيرتها خصوصا الشخصيات الهامة جدا ذات العلاقات الدولية المتشعبة مثل خالى · أنت تعرف أنهم أشاعوا عنه الكثير والكثير فى السنوات الماضية ·· قالوا انه ابتنى الفلل والمساكن الفاخرة للحكام بالمجان ، وحقيقة الأمر انه أخذ تكاليفها فحسب ولكن من بعض الجهات الرسمية واعتبر أنه لا يجب أن يتاجر على رجال عظماء ، وحقيقة الأمر كذلك ـ كما لعلك أن تعرف يا أستاذ مأمون ـ هى أن الألسن الشيوعية المنحلة تقف لخالى بالمرصاد وتشنع عليه أسخف التشنيعات ، غير أن خالى لا يقيم لهم وزنا ، بل لا يهتز من روسيا نفسها ، انه واثق أنه لو سلط عليها أمى فسوف تهزمها ··

·· « هم قوم منحلون كما تعرف يا أستاذ مأمون ·· ولكن الله دائما يقف مع خالى ان لم يكن من أجله فمن أجل المشاريع القومية العظيمة التى لولاها ما كانت الحياة فى وادى الأزرق ·· وقد تعودنا

ان نستمع الى كافة التشنيعات على كل لون وكل مستوى ·· تصور يا استاذ مأمون اننا من كثرة تعودنا على الاشاعات كنا فى كثير من الاحوال يختلط علينا الأمر ، بين الواقع والاشاعة ·· فمعظم الاشاعات عشناها كواقع ، ومعظم الواقع عشناه كاشاعات لذيذة ·· الا أن يقولوا ان امى « تعشق » خالى عبد الجبار عشقا من ذلك النوع الذى فى دماغهم ·· ليكن ·· حتى هذه الاشاعة أرادوا لها أن تتحول الى واقع ، ثم انها قد جرحتنا وانتهى الأمر ولم نعد نبالى ان كانت واقعا أم هى مجرد اشاعة تستند على شىء من الواقع ·· ثم اننا واثقين فى نفس الوقت من شرف أمنا وخالنا وأهل أسرتنا جميعا ·· ان خالى كما تعرف ليس بالذى ينحدر الى مستوى الحيوان وهو يملك أن يكون « دون جوان » القرن العشرين ـ بفلوسه ومركزه ··

·· « آه لقد تشتت ذهنى يا أستاذ مأمون ويبدو أننى منفعلة لأسباب كثيرة ·· اشرب قهوة أخرى معى ·· اسمع ·· ليمون ومعه قهوة ·· ليكن ·· دخن من هذه السجائر ·· دخن ·· لقد أنست اليك يا استاذ مأمون ·· أنت فعلا فيك شىء يجذب النفس اليها ويدعوها الى التصريح والمكاشفة ، كأننى أتوقع أن تكون أنت أيضا وراءك مثل ما ورائى من حكايات مثيرة ·· أنا للعلم محدودة الصلات كما تعرف ، لكننى بارعة فى اكتشاف معدن الناس الحقيقى مهما دهنوا وجوههم بطلاء من الذهب ·· دخن ·· أحب أن تتعامل معى كأختك ، نساعد بعضنا بعضا فى حل أزماتنا النفسية ·· أنت بالطبع محتاج الى صديقة تؤاخيك أنا أيضا محتاجة الى صديق يؤاخيني ، أى يشعر بما أنا فيه ·· فليس لى من اخوة صبيان ·· كل اخوتى بنات صغار ·· ورغم أننى حرمت من الأمومة الحقيقية فاننى ـ شىء غريب ـ أحمل فى أعماقى نفس ام كبيرة ·· ما أسعدنى وهم يقولون اننى دفعت مبلغ كذا ليستفيد ناس ·· تقول أمى اننى سأكون من رواد الحركة النسائية الحديثة وتقصد الحركة التى تدعو لأن يحكم النساء العالم بعد أن جرب الرجال دورهم ففشلوا وملأوا الكون بالدمار والحروب ·· لكن تحدثنى الأم التى

فى اننى لن احصل على حبيب يحبنى حقا ، بقدر ما سيكون من نصيبى الوقوع فى طفلٍ أحبه أنا لمجرد أنه يغذى فى نفسى مشـــاعر الأمومة بنجاح ، وسيكون على حينئذ أن أتحمل سخافاته وأتجرع أمراضه ومرارة مذاق شخصه على الدوام وبلا ضجر ، ألست أنا التى اختارت ذلك دون أن تدرى ؟ ..

.. « اشرب يا أخى مأمون .. الغريب كل الغرابة يا مأمون يا أخى اننى رغم احتقارى لأمى ـ أقصد رغم أنه من المفروض حسب الاشاعات القوية أن أحتقر أمى لعلاقتها بخالى واهمالها لأبى تماما حتى أصبح ونحن معه نعانى الكثير من الجفاف .. فاننى مع ذلك أحبها وأحنو عليها ، فلعلها هى الأخرى قد حرمت الأمومة من صغرها مع أنها تهيأت لممارسة دور الأم فأدته كما ينبغى .. مهما كان الأمر فاننى حين احتوى رأسها الكبير بين ذراعى فى حنان أراها تنهمر باكية وتتحول الى طفلة وديعة وأرانى مدفوعة بشعور من اللذة يأخذ فى التنامى والتسامى كأننى قد صرت أمها الحقيقية فأدعوها الى طرح مشاكلها الخاصة بكل صراحة ، وأسألها عن تعلقاتها ، ولكنها تنهمر باكية ولا تحكى أى شىء ، وبهذا يظل الحاجز القائم فاصلا بينها وبين أمومتى .. بل اننى فى اللحظة التى تتصل الأمومة فى بالابنة فيها وتشرع هى تحكى بعض همومها الخاصة بالخوف من تمرد خالى عليها ، لا تجاوز القشور السطحية الواشية بأشياء مثيرة ، اذ هى تدعى فى الحال لمقابلة خالى ، ان مجرد وجوده فى البيت يجعلها قائمة على قدم وساق حتى يخلد هو الى النوم ، وتكون هى دائما آخر من يراه قبل النوم بعد أن تستأذن زوجته الاستئذان الأخير متجهة الى حجراتها الخاصة ..

« أنت مثقف يا أخ مأمون ومتحرر الفكر ولهذا فأنا أتحدث أمامك بلا حرج عن مثل هذه الأمور ، وأنا واثقة أنك لن تحتقرنى بل ستزداد منى اقترابا وتشاركنى فى موقفى .. أنا لست غبية أو مبتذلة .. أنا اخترت ولدا مثقفا لأفضى له بحقيقة مشاعرى .. أخ مأمون .. ان كان

فى امومتى مطعن أو شرخ فيكون فى نقطة ضعفى التى لا أملك التغلب عليها ابدا .. تلك هى أننى أشفق على أمى وأعيش تجاهها موقف الأم بكل حذافيره ، فان كانت لم تفلح فى أداء الدور نحوى فسوف أفلح أنا فى ادائه نحوها .. انها فى نظرى مسكينة لم تعش حياتها أبدا .. ان عمق المسئولية وحجم التوتر الذى تعيشه فوق ما يحتمل البشر .. لا اظن مطلقا مانحة معطاءة هكذا على الدوام دون أن تأخذ أو تفكر فى الأخذ ـ لا أقصد الأخذ المادى ـ انها تحرق نفسها دون أن تدرى فى سبيل أن يحيا كيان انسانى معين ، وقد نسيت نفسها ودب الشيب فى رأسها وصارت تقضى أوقاتا طويلة أمام المرآة بل صـــارت تزمع مباراتى فى الشباب وتكثر من الانفعال على ومحاولة كسر أنفى حتى لا أتيه عليها جمالا ..

.. « لا أدرى سر موقفها العصبى منى حين أكون متألقة الجمال .. ان قلت انها وهى على مشـــارف سن اليأس قد بدأت تغار من أنوثتى ونضجى فى صورة خوف مبالغ فيه على وعلى عرضى وشرفى وسلوكى حتى لتحملنى مسئولية جمالى .. ان قلت ان ذلك وضع شبه طبيعى بالنسبة لأى امرأة فى سن اليأس ، يبقى شىء واحد أراها مبالغة فيه الى أقصى حد ، ذلك أنها لا تكون مسرورة أبدا حين ترانى فى لحظة صفاء مع خالى عبد الجبار .. هذا شىء حرت فى تفسيره يا أستاذ مأمون .. لا اعرف كيف صرت ألتفت لهذا الأمر ، ولكننى كنت مجبرة على ملاحظة ان أمى دائما أبدا تؤجل طلباتى لمواعيد اللقاء بخالى فى لحظة مناسبة .. حتى ان التليفون ورددت أنا بالصدفة تتركنى هى برهـة ثم سرعان ما تقبض على السماعة لتكمل الرد .. وكنت ألجأ الى محاولاتى الخاصة فاتصل بخالى فى أى رقم وأدعوه للمقابلة الضرورية : « عايزاك يا خالى .. وماله يا حبيبتى الساعة كذا خليكى سهرانة لحد ماارجع » .. وكنت افعل .. فاذا أمى ينتابها غضب الى حافة الرغبة العميقة فى التدمير لولا أننى أحتويها فى الحال .. ثم اننى بدأت بعد ذلك ألاحظ أنها غير مرحبة على الاطلاق بأن انفراد فى جلسة مع خالى الا لدقائق معدودة

وتحت رقابة خفية ٠٠ أنا أقرأ روايات كثيرة يا أستاذ مأمون ، ولكننى أبدا لم أجد نموذجا فى غرابة أمى ، ولهذا فأنا مدينة للروايات بتهيأة عقلى للتوازن وملاقات الأمور ببساطة وبداهة ٠٠ الا أمى فهى عقدة عويصة فى حياتى وسوف تظل كذلك حتى بعد أن تموت بعد عمر طويل باذن الله ٠٠

٠٠ « تزعم أن خالى مرهق الذهن والبدن ولا يزال أمامه واجبات الزامية حيث يلتقى بأولاده ومشاكلهم التى لا تنضب وشواغل مستقبلهم وحيث يلتقى بزوجته ، وحيث يكون قد بقيت فيه حياة لتصفية ختامية فيكون مع أمى ٠٠ انه بالفعل شيء يرهق البدن بل يهد الجبال ، أن يظل المرء طول اليوم يجتمع بناس ويحضر جلسات ويسافر ويفتتح ويناقش ويفض منازعات ويبقى فيه بعد ذلك متسع لأى ممارسة ٠٠ انهم بالفعل لناس جبابرة يا أخى مأمون أليس كذلك ؟ ٠٠ يخيل الى أن جيلنا ليس بهذه القوة أبدا ٠٠ اننى أدوخ من فرط تخيلى لحدوث هذا ، فما بالك بالممارسة ؟ ٠٠ جملة اعتراضية اسمح لى بها ، تلك هى أننى واثقة أيضا من أنك سوف تقدر موقفى على خير وجه ، سوف لن تتوهم أن علاقة حب أو ما شاكل ذلك من العلاقات الشبابية أو الروائية يمكن أن تقوم بيننا ٠٠ فمبدئيا لن يقوم بيننا زواج لسبب بسيط هو أن طرق العشق والغرام مسدودة بيننا ٠٠ وأنا واثقة من أنك تعلم هذا ، ليس لأسباب طبقية وما الى ذلك ، بل لأنك مثقف ناضج ولا تؤمن بعصر الحواديت ٠٠ انتهت جملتى الاعتراضية ٠٠ هات سيجارة ٠

٠٠ « هذه أول مرة فى حياتى أشعر فيها بالانطلاق والحيوية ولهذا أحب التدخين الآن ٠٠ قد لا تعلم أننى حدست هذا من أول ما رأيتك ، فمن النظرة الأولى وضعتك تحت الاختبار وعلمت من كافة مصادرى أنك طيب نقى وفى حالك بقدر ما أنت مستنير ، وأنك تميل الى العزلة والسرحان المطلق حيث يتجهم وجهك وتتقلص ملامحه كأنك تحمل هم عار خطير أو هم كسوة الأولاد فى العيد ٠٠ فلما بلغتنى هذه الصورة

هناك ضحكت كثيرا وحدست نوع الهم الذى يكون شاغلك ، لعلك لا تعرف اننى جلست فى مواجهتك من بعيد أنا ومجموعة الصحاب نضحك ضحكا مكتوما ونفعل حركات لطيفة تهدف بها الى ايقاظك وأنت غير موجود على ظهر الأرض ٠٠ أنا الوحيدة التى أحسنت تفسير حالتك هذه الدائمة ، انت أيضا تعيش فى مأساة عميقة تطفو همومها على وجهك وتسلبك من المكان والزمان ٠٠ هكذا قلت لنفسى طبعا ثم اننى عرفت أن هذه المأساة لابد أن تكون رشا الخضرى التى لا تستطيع أن تهرب من شبهها ٠٠ لقد تأكدت من مراقبتى لك انك تعانى ، وقدرت أن سبب المعاناة هو رغبتك الدفينة فى الانسلاخ عن المطربة رشا الخضرى لسوء سلوكها ولكونها عار عليك فى وسط طلاب سليطى اللسان انك فى أعماقك تحتقرها وتنفى كل صلة لك بها ومن المؤكد أن لها اسما تحمله شهادة الميلاد غير اسم شهرتها الفنى ٠ انت كما يبدو لى قد وطنت العزم على أن تتبرأ منها ، ولبسك هذا الدور فصرت شبه مقتنع بأنك لست قريبها هنا ٠٠ لكن ليس على أنا ٠٠ ها أنذا أجرك الى الحديث عن نفسك فاكاشفك بالحديث عن نفسى ولكنك ثقيل بحق ٠٠ ان ذكائى لا يخيب ٠٠ هكذا تقول عيناك ، وحدسى لا يكذب ٠٠ ولسوف أظل بك حتى أجعلك من فرط الحرارة ترمى عن جسمك هذا الغطاء ٠

٠٠ « اشرب قهوتك ٠٠ اشعل سيجارة لى ٠٠ هكذا يجب أن تبتسم والابتسامة مقدمة لازاحة الغطاء ٠٠ خذ راحتك واعتبر نفسك فى حضرة أخت شقيقة مأزومة مثلك ٠٠ ان القلق يتعاظم لدى أمى ٠٠ صدقنى يا أخ مأمون ٠٠ اننى كثيرا ما أترك صفحات احدى الروايات وأتأمل وجهها وحالتها فجأة فيخيل الى أنها تذوى من فرط القلق على نفسها وعلى خالى من جراء قريبتك ٠٠ ان كان فى حياة أمى خطر يهددها أو نقطة ضعف قاتلة فهو استمرار شبح قريبتك فى أفق حياتها كأنه حدأة ستهبط من السماء فجأة ذات لحظة معينة لتنقض عليه فتخطفه وترحل محلقة فى البعيد اللامرئى ٠٠

.. « تقول فى نفسك ـ لا شك ـ انه مرض نفسى أو نوعا من التوهم الشاذ .. أقول لك : لا .. بل انه واقع جاثم بالفعل مع الأسف يا أخ مأمون .. ياربى .. أتـدرى ؟ .. ربمـا كان على أن أعتـرف بالواقع .. وحينئذ ـ ومع كل الأسف ـ سأكون مرغمة على التسليم بالصورة التى رسمتها أنت لخالى حين قلت انه من مجانين رشا الخضرى .. انه بالفعل لا وصف له سوى هذه العبارة .. فرغم أن خالى يؤكد قولا وفعلا أنه لا علاقة له بهذه المطربة ولم يتشرف برؤيتها شخصيا ولا يعنى بجمع أى معلومات عنها ، ورغم أن أمى تحاصره حصارا دقيقا حتى عند سـفره الى الخارج تكون هى بنفسها فى تسعين فى المائة من رحـلاته الخارجية وبقية الرحلات تكون هى ملمة خلالها بتحركات رشا الخضرى .. ألم أقل لك أنها جبارة ؟ ..

.. « ولكنها يا قلبى قد باتت لا تحمل من كثرة المسئولية والجهد والقلق المتواصل ، وسبب القلق الرئيسى عندها أنها قد وثقت وعن يقين لا يقبل شكا أو مكابرة أن خالى عبد الجبار يموت فى جسد رشا الخضرى وتعتريه رجفة وجد صوفى مفاجىء يتحول خلالها الى حيوان شبق غاضب ممتلىء بالرغبة فى الافتراس والانتقام ، حتى انه قد يردد ألفاظا من بين أنيابه قبيحة جدا تحار أمى حين تضبطها وتتساءل هل دافعها الشبق الجنسى أم الرغبة الحادة فى الانتقام والثأر ؟ لكن الهيام والوجد كان هو الأغلب ، أن رآها تغنى فى التليفزيون تركزت عيناه على مواضع معينة فى جسدها ، ويظل يركز ويتعمق فاقدا الاحساس بمن حوله فيغمغم ويصبح كالحيوان الهائج المتهيج ثم ينقلب فى الحال ـ حين ينتبه الى الموجودين ـ الى ما يشـبه الوحش الكسيح ينذر بالغـدر والانتقام .. تقول أمى من بين القشور التى ترميها على صدرى فى لحظات الصفاء وما أندرها ، أنها سمعت خالى مرات عديدة يغمغم لنفسـه قائلا بكل وضوح « هى .. هى بعينها .. بس ازاى .. حكمتك يارب » ..

.. « هى لا تخجل ، لذلك فاجأته بالسـؤال عن معنى التعلق الغريب ؟ .. فأحالها باسما الى حكاية تلك البنية المجهولة التى كان

يحبها وهو طالب ثم أكلهـا الزمن منه فلم يعد يعرف عنها شيئا .. لكن أمى ليست عبيطة ، انه كثيرا ما أستشير فى مناسبات عديدة فى امر فتيات يريدون تزويجه منهن ، فكان يرد بقوله : انها جميلة ولكن عيبها انها تشبه فلانه فى كذا ، ولو انها تشبهها فى كذا لرضيت بها .. ورغم أن أمى فكرت أيامها طويلا فى معنى قوله هذا لدى رؤيته لأى فتاة مقترحة للزواج أو حتى للحب ، فانها لم تصل الى تفسير لترديده ، ولم تعرف أن كل ذلك الشبه المعين الذى فى دماغه مرفوضا أو مقبولا ؟ .. ففى ذهن خالى شبه معين لفتاة معينة عجزت أمى عن تخيلها على الوجه الصحيح لتذهب بنفسها وتخطبها له بأى ثمن .. غير أنه هو نفسه كان حائرا نفس الحيرة .. فلما تعبوا معه أراد يريحهم فتزوج آخر واحدة عرضوها عليه ، وهى ذات حسب ونسب وارث كبير وقد استطيبناها كلنا ، ولم نر منها أى مشاكل أو اعوجاج ، ثم انها قبل كل شىء وبعد كل شىء تخضع خضوعا مطلقا ودون تذمر لسيطرة أمى على كل من فى هذه المملكة الكبيرة الواسعة الخيالية التى لا يسعها الا عقل جبار كعقل أمى ..

.. « والواقع يا أخ مأمون .. هل سئمت ؟ .. عفوا .. الواقع ان امى تلك المرأة المتيقظة لمملكتها على الدوام لا تغفل برهة ولا ينـام عنها حتى وهى تخطف لحظات نومها ، لم تنم عن حكاية هذه الفاتنة المجهولة رغم أن خالى قد تزوج وأنهاهـا .. ولكنه أنهاهـا كمشكلة قائمة .. وتربصت به أمى ، فاكتشفت أنه لم يقطع علاقته بفاتنتـه المجهولة حيث دأب على لعنها فى المنـام وفى لحظات استغراقه الجنسى التام .. عرفت أمى ذلك من خـلال زوجته المطيعة الطيعـة .. عقل أمى رياضى وعقلية خالى عقلية مقاول موهوب لا أكثر ولا أقل .. ولقد تأكدت هى من وجود امرأة معينة بلحمها ودمها فى حياة خالى ، ان هذه الملعونة المجهولة كسرت فى خالى شيئا عزيزا عليه جدا ، غاليا جدا ، كسرت فيه رجولته على الأرجح ، وأنها ـ الملعونة تلك ـ كانت ذات فتنة خارقة وعلى الأرجح من بيئة وضيعة أو بمعنى أصح أقل من ناسه هو

وأهله هو ، أو بمعنى أدق كان تودده اليها يعتبر نزولا منه وحطا بنفسه لم تفهمه ولم تقدر قيمته فصدته صدا غير انسانى حطم كبريائه تماما وكاد يدمر نفسيته ٠٠ أمى ليست عبيطة ٠٠ لقد جمعت هذه الحقائق على مهل وأصرت ليس فقط على علاجه بل على معرفة من تكون على وجه التحديد هذه المجهولة الملعونة لتأتى بها أيا كان وضعها أو مركزها ، وتضعها فى الأسر وتظل تبصق فى وجهها وتضربها بالصرمة القديمة كلما آن الطعام ٠

***

واصل مأمون حديثه :

ــ « انتهت الآنسة « راندا » من حكايتهــا واعتدلت فى جلستها معطية ظهرهــا للحائط بعــد ان كان وجهها فى مواجهتى تمــاما عبر الترابيزة ٠ وحط علينا صمت ، كنت خلاله مشغول الذهن أدبر للخروج بلطف من هذه الورطة التى صرت فيها طرفا أصيلا دون أن أدرى وبدون ذنب ٠ لكن « راندا » مسحت شــفتيها الجميلتين بمنــديل من الورق وبطريقة أثارتنى ، وسألت نفسى متحسرا على ما فى الدنيا من حرمان : هل يستوى النعيم مع الشرف ؟ أقصد هل يتأتى للانسان على ظهر هذه الدنيا الغريبة ان يقبل مثل هذه الشفاه ويحتضن مثل هــذا الجسد ويمتلك كل هذا البذخ وفى نفس الوقت يكون محتفظا بطهارته كانسان شريف لا تشوب ثروته أى شائبة من السرقة أو النهب أو اســتغلال الآخرين ؟ ثم سمحت لنفسى بالتسرع فى الحكم وقلت ان هذا ــ تقريبا ــ مستحيل ٠٠

رمت بالمنديل كله فى سلة المهملات ٠ أما أنا فحين أردت مسح شفتى مــن أثــر الجيلاتى صعب على المنديل كله وهو ثلاث راقات فوق بعضها ، فنزعت واحدة مسحت بها شفتى وأصابعى ثم رميتها ٠ ونظرت

منى نحوى ضاحكة فى صفاء واستغراب وأنا لا أدرى لضحكها ســببا ٠ لكننى توقعت ان يكون المنديل هو السبب فقلت لها اننى هكذا تعودت ولهذا فالعلبة تكفينى لبعض الوقت ٠ فعلقت تسألنى اذا ما كنت أرمى العلبة الفارغة فى النهاية أم احتفظ بها ، فضحكت قائلا اننى فى العادة اجمعها وأبيعها للشركة بالجملة ٠ ثم أردت اشعال سيجارة فامتدت يدى بطريقة تلقائية الى علبتى فى جيب الصدر وأخرجتها ، فانقضت عليها « راندا » ونزعتها من يدى وطوحت بها فى الشارع بعيدا ثم اعتدلت جالسة كأن شيئا لم يكن ٠ فالتهبت ركية النــار حول أذنى ، لكننى ابتسمت فى شيء يشبه السعادة ، ومددت يدى نحو احدى العلب ، فاذا بيدها الذهبية بغير حلى تمتد معترضة طريق يدى قائلة فى احتجــاج : « من فضلك ٠٠ دى علبى أنا ٠٠ عندك الراجل أهه اشترى منه » ٠ فصارت ركية النار ترعى فى كيانى ، وهممت بالنهوض غاضــبا فى صمت ، لكنها كانت أسرع منى ضاحكة قد تناولت رأسى بين كفيهــا فدعكته برفق أطار لبى من السعادة والاسترخاء ، ثم أشعلت السيجارة بنفسها وقدمتها لى بنظرة تقطر صفاء وبراءة ، وقالت ان فيهــا بعض الشقاوة البريئة وعلى أن أغتفرها لها ان كنت فعلا أرحب بصداقتهــا ، وانها قد افتعلت هذه الدعابة البريئة لتختبر احساسى نحوها هل هو طبقى حاقد كما تكتشف دائما لدى من يزعمون صــداقتها خاصــة ممن يصبغون سلوكهم وحديثهم بألوان يسارية ٠٠ أم ان احســاسى تجاهها عادى وبرىء وصاف ؟ ٠٠

فلما قرأت هى فى عينى تلهفا لمعرفة نوع احساسى تجاههــا كما اكتشفته الآن ، قالت أنه طيب وجميل وأننى لو كنت كذابا دعيا لانفجرت فيها وأفرغت ما على صدرى من صدأ ومن عبارات حاقدة تجاه الأثرياء ٠٠ الخ الخ ٠٠

قلت لها اننى بكل صراحة يا آنسة راندا ٠٠ مش قدك ٠ وأضفت اننى لا امتلئ بأى مضمون طفيلى ٠٠ ان مضمونى هو نفسى ، هو تجربة

حياتى وما قرأته وتعلمته لا أعتنق منه الا ما يضيء لى تجربتى الملموسة ، واننى لا أرفع أى شعار ولا أنتمى لأى جماعة ، بل اننى ناقم على كافة الجماعات وكافة فصائل اليسار نقمة تكاد تقتلنى ، أحيانا يا آنسة « راندا » أتخيل اننى أعيش لكى أفضح خراب من سميناهم باليساريين فى تاريخ الثورة الأزرقية ، وكثرة النصابين والمحتالين بينهم الى حد لم يتوفر فى أى مكان فى أى زمان ، كذلك كل الجمعيات التى تلبس اقنعة دنسة أو اجتماعية أو فئوية أو رياضية ، وأعتبرها جيوبا تؤنمط الشباب وتشغلهم طول اعمارهم بقضايا فرعية تافهة ، وطالما انها جمعيات وجماعات وفصائل متشرذمة ومتضادة ومتعادية ومتنابذة ، فاننا بهم وبتفشيهم سوف نصبح عما قريب عشرات المئات من المجتمعات لا مجتمعا واحدا ·· أصبحت يا آنسة راندا اكتشف فى كل يوم هياكل ورقية كانت مصورة لنا كآلهة عظمى ، ولأنهم جميعا انفراديين فرديين فانهم بلا محتوى ، ولذا فها هم يتفرغون للتفسح والهزء بالقيم ، أطراف تتبادل النصائح ، فئة تنتقم من فئة ، ناس تجرم ناسا أو تكفرهم ، مفكرون يعتذرون عن أفكارهم السابقة طول حياتهم فى كلمة صغيرة ، ثوريون يتنكرون لأدوارهم العظيمة ، مظلومون يتنازلون عن حقوقهم جهلا بالطريق اليها ، آخرون يسلبون لأنفسهم حقوقا وتعويضات ، والأبرياء من الشبان أمثالنا الذين جاء بهم نصيبهم الأسود فى مرحلة الانقلاب من النقيض الى النقيض ، يصيبهم الآن وباء الهجرة أو الانحراف أو الابرام أو التطلع الى السلطة بأخس الوسائل ، لقد شبنا ونحن نفهم الأمور على نحو معين فاذا بنا فجأة نكتشف ان الطريق مسدود ببحر لا نهاية له وعلى من يريد السباحة منا فليسبح معتمدا على نفسه ·· ذلك اننا يا آنسة راندا قوم من الدهماء تتفشى الأمية بينهم وأردنا من جسارتنا أن نقلد الدولة المصرية فى ثورتها دون أن يكون لدينا ما لدى دولة مصر الشقيقة من امكانيات ، صحيح ان كل ثورة تقلد الأخرى كثيرا ، وان الثورة المصرية قلدت الثورة الفرنسية ، ولكن مصر فى النهاية صاحبة اعرق حضارة على وجه الأرض عمرها أكثر من سبعة آلاف عام ،

ومهما كانت نسبة الأمية فيها كبيرة فان أهلها جميعا مستنيرون ويمارسون الديمقراطية كسلوك قويم عريق ·· اما نحن يا دولة بنى الأزرق فما هو تراثنا الثورى وما هى حضارتنا لكى نقوم بثورة ؟ · لقد كان مضحكا بالفعل ان تنبرى الفرق المثقفة عندنا وتروح تكتب وتنظر وتفلسف كأنها بين الشعب الفرنسى مثلا ، ويستريح ضميرها ببساطة شديدة اذا هيأت الجماهير لأمر أو اذا وافق الجماهير على شيء كأنهم كانوا متأكدين ان جماهيرهم ملمة الماما كافيا بهذه القوانين وهذه الصياغات وهذه النظم ·· وكان الاجدر بهم لكى تكون مسئوليتهم على مستوى الضمير المستريح أن يتفرغوا أولا لتثقيف الجماهير ومحو أميتها · لكن من يثقف من ؟ لم يكن هناك وقت للثقافة يا آنسة ، نسيت الثورة نفسها وامتدت الى الخارج ، خيل اليها ان اللحاق بايقاع العصر معناه توسيع مناطق النفوذ وفرض الزعامة على منطقة أوسع · وهكذا فان النظم التى وضعتها الثورة الازرقية فى الداخل على وجاهتها كان لابد ان تفشل وان يسرق الكبار مناصبهم ويسرق الصغار مقاعدهم ويتبجح الدهماء ·· اننى يا آنسة راندا انتمى الى جيل جديد يرى أن الأمور يجب ان يعاد فيها بالنظر من جديد ·· اننا بحاجة الى اعادة دراسة التاريخ المعاصر وفرزه لكى ننتخبه أو نرفضه ، نبحث فيه بلا حرج ونتقبل رائحة نتنه ونواجه عار آبائنا وأجدادنا بالشجاعة ونعترف به فى قوة ، وشرفنا أننا قد نرفضه ، وبرفضه نمحوه ، لكى نكون على يقين بأننا نرفض ما وجب رفضه ونبقى ما استحق البقاء ·

استمعت الآنسة راندا الى كلامى بكل دقة وانتباه وهدوء · ثم قالت باسمة تعليقا على خطبتى الطويلة الجوفاء : « هذا كلام ثورى » · قلت باسما بدورى : « لكن ·· ولكننى لن أشتغل بالسياسة طول حياتى » · قالت : « لماذا ؟ » قلت : لأن الانسان يستطيع أن يخدم الناس والأهل كلهم عن طريق العمل الثقافى بشكل أفضل من العمل السياسى ، ان الشعب الازرقى فى حاجة الى من يبصرونه بالتاريخ على حقيقته ، ومن ينيرون له ظلام المعلومات وتكاثفها وشراستها ، ومن

يخلصون له للمعلومة ، الشعب الأزرقى محتاج الى مثقفين من نوع خاص لا يشغلهم العمل السياسى ولا ترهبهم قوة البطش السياسى مهما كان .. ثم ان العمل الثقافى المخلص للأمة وللناس والأهل كأهل اذا ســار بسلامة فانه يهيىء عملا سياســيا عظيما ، اذ أن أرض الثقافة المستنيرة تطرد من ساحة السياسة كل مدع ســفاح . ثم قلت : وعلى أى حال يا آنسة راندا فاننا لا نزال فى مرحلة التحصيل ولسنا ســوى جهلة بسطاء يتحدثون بقامة مرتفعة .

ابتسمت « راندا » وقالت انها كانت بالفعل قد فهمت شخصيتى على حقيقتها قبل هذا الاحتكاك واننى كما توقعت لا أشغل نفسى بالعمل السياسى وأنها اطمأنت الى وهكذا .. ثم استطردت قائلة اننى بعد هذه الاندماجة اللطيفة السريعة يجب أن أكون وسيطا جيدا بينها وبين الفنانة رشا ـ واحسست أنها تطلق عليها هذا اللقب مجاملة لى ـ ثم فوجئت بالموضوع من جديد وقلت بتلقائية : « مالى وهذا الموضوع ؟ » . فنظرت لى باسمة كأننى شجعتها ، فاستطردت تحكى .

قالت الآنسة راندا :

ـ لقد وصل الحال بخالى الى درجة تهديد بالانهيار ، اذ انه صرح لأمى ذات ليلة قريبة انه يفكر فى الزواج من رشا الخضرى .. كادت أمى تصفعه بالكف على وجهه .. فبكل ضعف قال لها انه فكر طويلا فلم يجد مفرا من الاستحواذ عليها ، انه لن يستريح فى حياته الا وقد امتلكها بين يديه « يفعــل » بها ما يشــاء ، وهذا التملك لن يكون الا بالزواج ، على الأقل الزواج بشكله الرســمى المظهرى الذى يضعها تحت أمرته تحت سيطرته تحت ارادته .. لقد فكر انه يستطيع ان يفتح معها ملف العشق والوصال بأى ثمن ، ولن يكون باهظــا مهما بهظ ، لكن ذلك لن يمتعه ولن يريحه لأنها ستكون طليقة تفعــل ما تهوى .. و .. وقعت أمى صريعة مريضة من يومها .. أصابها الهزال يا أستاذ مأمون ، وأصبحت عصبية ، فامتنع خالى عن ذكر السيرة مرة أخــرى ،

ولكنه أصبح عصبيا بدوره متوترا على الدوام ، بل تؤكد أمى ان شخصيته قد تغيرت تقريبا ، وان ثمة حجاب سقط بينــه وبينها وبين الجميع ، ثمة أشياء غامضة قد أصبح يخفيها ، ثمة أسرار فى عينيه وفى انشغاله وتشتت ذهنه لا يريد ان يفضها .

.. تقول أمى انها كلمــا صرحت له بذلك لوى شــفتيه قائلا : « هذه حال ليست غريبة على وانت تعرفينهــا جيدا » .. وترتعد أمى ارتعادا ، لأن هذه الحالة لم تكن تعتريه فى العادة الا قبيل الاســتعداد لشيء كبير خطر كامتحان الليسانس مثلا أو دراسة مشروع كبير أو الخلاص من ازمة مادية أو سياسية خطيرة ، حيث كان يصل الى درجة من الانعزال داخل النفس والتقوقع والانكماش كأنه يتجمع لينفرد أو لينقض .. استغربت أمى المسكينة أنه كان قد تخلص من تلك العادة فى سنوات الازدهار ، حيث استقامت شخصيته وسلست وأصبحت كمن تحققت لها كافة الأمنيات .. أما الآن فان الوقت طال عليه بهذه الحالة الغريبــة وأصبح كالبائس المسجون بأمنيات كثيرة لم يحققها بعــد .. تصــور ان أمى بطولة لسانها قالتها له ؟ .. قالت له : « من يراك مهموما هكذا يتصور أنك لم تحقق شيئا فى الحياة » .

.. أتتصور ماذا قال لها يا أستاذ مأمون ؟ .. وقف مسمرا فى مكانه أمام المرآة ، ناظرا اليهــا فى تصــميم ملىء بغضب مكتــوم . « كل الامنيات تحققت بالنسبة لى الا أمنية واحــدة .. اذا لم تتحقق .. فكأننى لم أحقق شيئا » .. قالت له أمى فى توتر : « دى لازم امنية خطيرة جدا ياعبد الجبار » .. فاذا به يقول فى بساطة شديدة : « نعم خطيرة بل فى منتهى الخطورة .. على الأقل بالنسبة لمستقبلى أنا وشخصيتى أنا .. ان كل النجاح الذى حققته فى حيــاتى لم يفلح فى مداواة جُرح فيها ، جرح اتضح لى الآن انه غائر فى نفسى ونافذ الى العمق فى الداخل .. اذا لم اداوى هذا الجرح بعملية جراحية فســوف أظل طول حياتى أحس اننى مجرد آلة بشرية حسنة الحظ أوتيت فرصا كثيرة

المكسب فكسبت .. بكل أسف ـ وليغضبكم هذا القول أو يجعلنى صغيرا فى أنظاركم ـ لم أحس أبدا اننى سعيد فى حياتى .. اننى أحس ان ثمة أمر كبير جدا كان مؤجلا فى أعمق أعماقى ، واننى ادخرته عن عمد ونسيته عن عمد حتى أستطيع أن أشق طريقى فى الحياة ، ولأنه أمر كبير فان مشاعرى كلها كانت هى الأخرى مؤجلة حتى انتهى من هذا الأمر ، حتى أصفى حسابه فى نفسى .. وكنت أعرف عن يقين ان اليوم سيجىء لمقابلة هذا الأمر ، وكنت أظن انه حين يجىء سيرانى واقفا له فى العراء أنتظره لأطبق فيه ابطا لابط .. فاذا به حين جاء وأصبح سهلا أرانى فى أوضاع متغيرة تماما ، وأفاجأ اننى أسد حبيس فى قفص من الذهب لا يملك الخروج لملاقاة هذا الأمر » .

.. لحظتها قالت أمى فى تسليم : « عبد الجبار .. عايز تتجوز رشا الخضرى اتجوزها اتجوزها ياخويا .. محدش حايشك .. بس لما تجرجرك فى تهم وتمرمط بشخصيتك فى الأرض تبقى ساعتها تعرف انك نزلت بمستواك برغبتك ومرغت نفسك فى التراب بارادتك .. لما تنزل بنفسك لمستوى يتلعب بيك الكورة ساعتها تبقى تفوق وتلوم نفسك بنفسك .. انما دلوقت عايز تخطبها أروح أنا أخطبها لك ياخويه » .. وهنا انكسرت نظرة خالى على رباط العنق ، وفكه من جديد بعصبية شديدة ، ولهث قليلا ، ثم ارتدى سترته بدون ربطة العنق ، وتقدم نحو أمى فى ضعف قائلا كأنه يعتذر عن انفعاله : « مع الأسف ان كلامك صحيح يا فهيمه .. صحيح ميه الميه .. وأنا مش ممكن حاتصرف من غير ما آخد رأيك فى المسألة دى بالذات .. بس أرجوكى قدرى الموقف اللى أنا فيه .. معلهش .. أنا حا عالج نفسى بنفسى .. عن اذنك » .. فربتت أمى على خده فى حنان ، وعدلت له رباط العنق فامتثل لها كالطفل ، ثم ربتت من جديد على ظهره قائلة : مع السلامة ياخويه » .. فخرج خالى بعد أن طبع على وجهها قبلته اليومية .

***

قال مأمون :

ـ ثم ان الآنسة راندا كفت عن الحديث وبدا عليها الانفعال ، وكانت غريزتى كمشروع كاتب روائى قد انساقت وراء راندا وانستنى ما أنا فيه وما سيطلب منى بناء على كل هذه الحكايات المؤثرة المؤلمة . وانست الى صمتها قليلا ، واستقل ذهنى لبرهة اقنعنى فيها بأن مسأله ان اكون روائيا هذه مسألة جنونية ولسنا نحن قدها ، واننى لن أوتى من القدرة والخيال ما يوازى واقعا كهذا وتجربة كهذه . ثم فوجئت براندا تمسك يدى الاثنين وتحتويهما فى جنان قائلة :

ـ « اعمل معروف يا مأمون يا أخى .. ساعدنى .. أنا عاوزه اساعد ماما .. تبقى أنقذت رشا .. وأبقى أنقذت ماما .. صراحة اذا اتضح ان قريبتك بتحاول تتصل بخالى ، أو اذا هو اتصل بيها وهى رحبت وفتحت له صدرها . يمكن تحصل حاجات مش كويسه .. يمكن يموت فيها ناس والعياذ بالله .. عايزاك تفهمها انها ما لهاش أى دعوه بخالى .. ولو هو حاول الاتصال بيها خليها تصده .. فيه اشاعات قوية بتقول انها اتطلقت من جوزها الاخرانى وفيه اشاعات بتقول لا » .

فقلت أنا :

ـ « وفيه اشاعات بتقول انها اختفت من الحياة الفنية خالص » فصاحت هى بسرعة :

ـ « الخوف من هنا .. أنا أيضا أريد أن أعرف منك هى راحت اين واخبارها ايه بالضبط .. يمكن يكون ده اللى خلانى أصمم أقابلك باى شكل وأعرف منك .. أين اختفت أين راحت ؟ أرجوك قل لى . الخوف أن يكون خالى وراء اختفائها هذا .. أن يكون قد اتصل بها واخفاها .. ان جميع أرقام تليفوناتها لاترد .. ولكن خادمتها ردت على مرة وقالت انها فى الحجاز تؤدى ـ الفريضة » ..

قلت : « جايز .. كل شيء جايز » .

وكادت المسكينة تقوم وتقبلنى وتفعل كل ما أريده فى سبيل ان أحكى لها شيئا عن رشا الخضرى . كدت استخدم النذالة قليلا فى سبيل أن تزداد هى رجاء فتحضننى . لكنها حين أوشكت أن تفعل ذلك بالفعل اقشعر بدنى ودفعتها عن نفسى خوف الوقوع فى عار مجهول ، وقلت برفق : « من فضلك .. اهدئى .. واستمعى الى فقد تفاجأين بمفاجآت غير ســاره » .

اذا بها تعتدل كالمنهارة . وقالت مطوحة أصبعها الجميل فى وجهى بإنذار شديد اللهجة لطيف : « بس من فضلك .. حذار أن تنكر قرابتها والا قتلتنى .. قد لا تدرى ماذا يمكن أن يحصل لى » . أشــفقت منها عليها . أغمضت عينى وقلت تصميمك على ايجاد صلة قرابة بينى وبين شخصية أنا لم أرها فى حياتى أبدا ولا تربطنى بها أى صلة على الاطلاق ، حتى صلة الاعجاب ليست موجودة » .

قالت راندا وقد غاضت الدماء فى وجهها :

– « ماذا قلت ؟ .. تنكر صلتك بها ؟ » ..

قلت بهدوء وتصميم :

– « أقسم بالله العظيم يا آنسة راندا .. وبكل المقدســات اننى لست من أقارب رشا الخضرى ، وان الأمر كله مجرد التشابه القوى كما تقولين .. وهذا شيء تملكين وحدك الحكم عليه لأنك شاهدت رشا بعينك وجلست معها أما أنا فلم يحدث لى هذا الشرف عدم المؤاخذه .. الواقع يا آنسة راندا أننى صرت أخشى من عقدة على وشك ان تصيبنى من كثرة تشبيهى بناس كلهم سيدات .. فلست أنت وحدك الذى يلاحظ الشبه .. فهناك من شبهنى بخالتى بسيمة التى لم أرها ولم ترنى فيا له من توافق عجيب .. هل أنا صاحب شكل نسائى يا آنسة راندا ؟ » .

لكن الآنسة راندا لم تكن موجودة وان بقى جسدها متماســكا ، الا انى نظرت فى عينيها أبحث عن رد فلم أجد حتى عينيها ، انما وجدت عينين منطفأتين من السواد الفاحم تسبحان فى صغار بيضة مقلية . ولم أجد ملامح وجهها ، انما وجدت سطحا شاحبا على وشك ان يتشقق . مع ذلك كانت لاتزال تتشبث بأهداب حياة فى الأمل ، بل حاولت الابتسام قائلة بصوت شاحب مهزول : « اذن فأنت لست حقــا من عائلتها » . هززت رأسى فى تأكيد وأخذت أتأتىء وأضيف : « ولا من عائلة تعرف عائلتها ، ولا أعرف حتى ان كانت لهــا عائلة أم انها نبتة شيطانية » . فتراجعت بذقنها الى الخلف باسمة فى شحوب قائلة فى استحياء باسم : « تحلف على المصحف ؟ » . فبكل جرأة مددت يدى وسحبت المصحف الذهبى الكبير المستقر بين مفترق الجبلين على صدرها ، واطبقت عليه قائلا : « وحق هذا المصف الشريف أننى لا أمت بأى صلة قرابى لوشــا الخضرى » ، ثم تركت المصحف ، فدبت الحيــاة فى عينيها وقالت : « لا .. المصحف ده ما ينفعش .. ده مجرد تمثال صغير .. المصحف الحقيقى أهه » ، ثم أخرجت من حقيبة يدها الصغيرة مصــحفا صغيرا مجللا بالذهب ، قدمته لى ، فاستغرقت فى الفرجة عليه مبهورا من شكله ودقة تكفيته بالذهب ، ثم وضعت عليه يدى قائلا : « وحق هذا المصحف الشريف اننى لا صلة لى برشا الخضرى من قريب أو بعيد » ، ثم أعدت اليها المصحف وأنا فى غاية الاشــفاق من الصدمة . وضعت مصحفها قائلة فى هزال شديد : « خلاص يا مأمون .. أنا مصدقاك .. متشكره انك سمعتنى على أى حال .. وأنا مهما كان تحت أمرك .. اعتبرنى صديقة تلجأ اليها فى كل أزمة تتعرض لها » . شكرتهــا من اعماقى وأشعلت سيجارة من علبتها ، وبقينا صــامتين لوقت طويل . ثم انها تثاءبت ونظرت فى ساعتها فقلت : « نمشى ؟ » : فأشارت للنادل، والى ان جــاء كانت هى قد رمــت على الترابيزة ورقتين من فئــة العشرين جنيه . ثم مضت فمشيت بجوارها صامتا .

فلما ركبنا السيارة لاحظت ان يدها ترتعش قليلا ولكنها تتماسك. وطلعت السيارة فى سلام واستمرت على الطريق فى زحف رزين كأنها هى الأخرى حزينة معنا . ثم أشعلت سيجارة بولاعة العربية وقالت :

ـ « على فكرة يا مأمون .. أنا لست نادمة على أى شىء حكيته لك .. أبدا .. كان يمكن أن أندم وأحس انى بقيت عريانة قدام واحد متطفل وفضولى .. لو انى حكيت لواحد غيرك .. أما أنت يا مأمون فلا .. بالعكس لقد استرحت وهدأت أعصابى .. لا أحس انى خسرت بل كسبت صديقا عزيزا » .

انفشخت أنا مبتسما فى خجل وقلت : « اشمعنى أنا يعنى .. .. ما يمكن أكون زى أى واحد » .

فلم تنظر الى ، بل رفعت يدها وصارت تهز أصبعها فى الهواء نافية قائلة : « لا لا لأ .. أبدا .. أنت مختلف يا مأمون .. لو كنت شخصا انتهازيا أو نصابا أو رخيص المعدن كنت وافقتنى على انك قريب رشا الخضرى ، وربما كنت اختلقت قصصا توهمنى بها .. انت انسان جدير بالصداقة فعلا يا مأمون » .

ثم أردفت بعد برهه : « طريقك فين يا مأمون ؟ »

فقلت لها : « باب الحديد »

نظرت لى مندهشة : « تسكن هناك ؟ » .

قلت : « لا .. أنا أمكث فى العاصمة يوما أو يومين أبيتهما عند بعض الأصدقاء المحبين للأدب والقراءة مثلى ، أو فى احدى اللوكاندات ان ساءت العلاقة بيننا وهى كثيرا ما تسوء بسبب اختلافنا فى الآراء وكل منا يعتبر نفسه أكبر موهبة من يوسف ادريس .. أنا فى الأصل موظف صغير فى مدينة البندر ..وأزوغ من العمل ثلاثة أيام فى الاسبوع أمارس فيها التلمذة .

وطوال كلامى كانت الآنسة راندا لا تنى تنظر الى مندهشة تارة ومعجبة تارة أخرى ، واذا بها تقول فى نبرة صادقة : « طب .. انت مرتبط بميعاد معين .. قطر مثلا أو حاجة ؟ » . قلت : « لا فى الواقع .. ولكنى أستطيع الرجوع فى قطار الحادية عشرة مساء وأبيت فى البندر فى حجرة استأجرها هناك أنا وثلاث من زملائى فى العمل .. وأسافر الى قريتى مساء كل خميس لاعود مساء الجمعة أو صبيحة السبت » . فابتسمت هى بكثير من التقدير ثم قالت : « مش حنتأخر كتير » .

ـ ٥ ـ

توقف مأمون عن الحديث برهة وقفز ، فقفزت وراءه ثم نظرت ورائى فوجدتنا قد تخطينا قناة عريضة نوعا . ووقف « مأمون » مستندا الى جذع شجرة وصدره يعلو ويهبط وأنا أتابعه نبضه لاهثا مدليا لسانى من فرط الشعور بثقل الحمل الذى ألقاه مأمون على كاهلى ، فما بالك به ؟ . وكنت أخشى ان يضيع منا حبل الحديث وهو شديد الاهمية ، فأخذت أحاصر مأمون وأتقافز أمامه قاطعا عليه الطريق ، أحمحم وأتمسح فيه مطوحا ذيلى الى أسفل كأننى أرجوه ألا يتحرك من هاهنا قبل أن يلحم خيط الحديث الذى انقطع بنا فى سيارة الآنسة راندا .

فقال مأمون :

ـ ثم ان السيارة انحرفت عن الطريق الى طرق جانبية خرجت منها الى طرق عمومية أخرى .. أشرفنا على منشأة شبه جديدة لكن أكوام القدم متراكمة حولها . توقفت السيارة أمام عمارة جميلة هائلة يقشعر منها البدن . وزمرت ، فجاء بواب يجرى منحنيا يقول : « أهلا ست هانم » . قالت : « المعلم فلان موجود ؟ » . قال البواب : « أيوه ياست هانم » . قالت : « انده له » . فانطلق البواب يجرى

مهرولا ثم غاب فى الداخل حوالى خمس دقائق جاء بعدها المعلم يهرول ويكمل ارتداء ثيابه البلدية الفضفاضة . نظر فى السيارة فاشخا حنكه بما أظن انه ابتسامة عريضة ، قائلا : « أهلا ست هانم » . ثم فتح باب السيارة قائلا : « اتفضلى ياست هانم » . فترددت الآنسة راندا قليلا ثم نظرت الى قائلة : « طب اتفضل معايه » ففتحت الباب ونزلت صاغرا ، ولففت لأسلم على المعلم الذى استعد لى بيد عريضة كأنه ينوى أن يضعنى فى جيبه .

رأيتنى أنا والآنسة معلقين فى كفيه وهو يتقدم بنا سائرا نحو العمارة ، حتى اذا ما دخلنا فوجئنا بحجرة كبيرة مفتوحة كمندرة ريفية قصد بها ان تكون مكتبا فصارت متحفا عبيطا لمقتنيات هبلاء المنظر . دلفنا اليها ثم جلسنا وجاء البواب حاملا صينية عليها زجاجتين من السينالكو ساخنتين . وقال المعلم فلان وهو يشير لنا ان نتجرعها : « خير يا ست هانم .. داحنا زارنا النبى » . اعتدلت راندا فى جلستها وعزمت على المعلم بسيجارة « دانهل » فاعتذر قائلا انه يشرب الروثمان ولا يغير ولكنه مع ذلك سيأخذ منها سيجارة ، ثم انه أشعل لنا جميعا . وكنت ألمح وراء نظرة عينيه ثمة خوف من أمر مجهول خطير ، وكان يتعجل أن تفصح الآنسة عن غرضها من هذه الزيارة المفاجئة . أخيرا قالت الآنسة راندا : « عايزين شقة صغيرة أو حتى أوضه بمنافعها بس تكون حلوة زى حضرتك كده » . استراح وجه المعلم وقال : « عشان مين يا ست هانم ؟ » . أشارت نحوى قائلة اننى أحد زملائها وأحد أقارب والدها ــ من البلد ــ ولهذا فهى جاءت بنفسها من أجلى . وهنا نظر المعلم نحوى فى تأمل طويل ثم قال : « أهلا وسهلا .. عينى .. هات عقد ياد » . فبعد برهة وجيزة دخل الولد فاذا به أفندى يريد فى كل خطوة ان يقول أنا فى الثانوية أو أنا جامعى ، قدم للمعلم عقدا ثم جلس بجواره شاهرا قلمه . ونظر المعلم نحوى ثانية وأخذ يتأملنى قائلا : « اسم سعادتك ايه » ، فامليت اسمى الثلاثى بتلقائية ، ورأيت على وجه راندا كأنها تفاجأ به لأول مرة وتتشرب ايقاعه وحروفه .

ثم ان الولد الأفندى قدم لى العقد لكى أوقع عليه مشيرا لى على موضع التوقيع فوقعت باسمى كاملا واضحا . ثم اذا بالولد الافندى يبرز دفتر ايصالات ويأخذ فى الكتابة ثم يتوقف ناظرا للمعلم الذى يتردد هو الآخر ناظرا لى من بعيد ثم الى الآنسة ، ثم انه مال نحوها طالبا أذنها فقدمتها ببساطة فظل يكور شفتيه ويفتحهما ويكح وينفس عن غضب فى هيئة مزاح ومزاح جوهره غضب ، فى حين ترد الآنسة على كل ذلك بهزة رأس او نأنأة أو غمزة نفى . حينئذ بدأت أفيق من الحلم وأنتبه الى المأزق . فطلبت الكلمة ، فأسكتتنى الآنسة بتشويحة حاسمة . ثم امتثل المعلم ومال نحو الولد الأفندى مبرطما بكلام كتبه الولد الأفندى ثم نزع الايصال وأعطاه لى فأخذته ونظرته فاذا هو محرر بمبلغ عشرين جنيه ايجار شهرين احدهما تأمين فظهر التردد على وجهى وتحسست جيوبى وحاولت التكلم لكن الآنسة عادت فهدأتنى بحركة يدها قائلة : « شيل الوصل فى جيبك » فوضعته فى جيبى ، فقالت : « تقوم تتفرج عل الشقة ؟ » . قلت : « نعم » . فنهض الرجل وأشار لى فتقدمت وراء الولد الافندى بجوار الحجرة التى نجلس فيها الى الداخل فى ممر بينها وبين السلم والأسانسير . ثم توقفنا عند باب فتحه الولد الأفندى فاذا به حجرة بها سرير وترابيزة وكرسيين وقطعة كليم رخيص ، ولكن الحجرة نظيفة مدهونة بالزيت ، وملحق بها حمام ومطبخ ودورة مياه جدرانها كلها من القيشانى الأبيض . قال الولد الأفندى : « مش قد المقام لكن اهو بقى .. ده الموجود » . قلت : « فل خالص آخر فل » . واستدرت عائدا ، فنزع المفتاح وأعطاه لى قائلا : « عشرة خير ان شاء الله » . فابتسمت وهززت رأسى شاكرا ومضيت . وفى اللحظة التى دخلت فيها الحجرة كان المعلم ملخوما فى قراءة شيك انتهت راندا من توقيعه ، ولما رآنى دسه فى جيبه مشوحا بالأمر لله ، ففهمت ان الآنسة راندا قد اعطته هذا المبلغ على سبيل خلو الرجل .

ثم بدأ الفار يلعب فى عبى . ورغم اننى غادرت العمارة وبيدى مفتاح شقة فى عاصمة بنى الأزرق دون أن أدفع شيئا وفى زمن يدفع فيه

الناس أعراضهم مقابل مأوى أو مخدع فانني رغم ذلك لم أكن سعيدا ، لم أكن أريد اقناع نفسى بأخذ الأمر مأخذ الجد . ولما ركبت السيارة بجوار راندا لتوصلنى الى باب الحديد نبهت على بألا أفتح أى كلام حول هذا الموضوع وألا أحاول تفسيره بأى تفسير . والواقع اننى لم أكن مستعدا لهذا أو لذاك فبقيت صامتا الى أن دخلت بى السيارة ميدان باب الحديد فسلمت على الآنسة راندا بكثير من المودة والتقدير ثم نزلت متجها الى المحطة لأركب القطار الى البندر كأننى لم أعد الا ضيفا بالنسبة له .

أقول لك الحق اننى لم اهدأ من الصدمة الا فى قريتنا حيث ذلك الرجل المجهول الهوية الذى تعود ان يدس رأسه بجوارى على السرير ويقرصنى فى كل شىء قرصات موجعة لكنها تنير بصيرتى بعد ذلك . واذ التقيت بهذا الرجل المجهول وهو الوحيد الذى يشبهنى فى كل شىء علمت منه ان الأمر ليس خالصا لوجه الصداقة أو حتى الحب . ان مثل هذه الرومانسية لم تعد موجودة فى الدنيا فقد انتهى زمنها ، فما الذى تهدف به الآنسة راندا من وراء كل هذه التضحية من أجلى ؟ صحيح انها فى حسابها لا تعتبر أكثر من صفر ولكن لماذا ؟ ربما تريد ان تشتريك لتصمت عن اللغو ببعض ما حكته لك ؟ أو ربما هى تدبر لاستغلال شبيهه برشا الخضرى فى أمر جلل ؟ .

لكن كل هذه الخواطر لم تكن ثقيلة الوطء على ، انما كان الهم الأكبر فى نظرى لحظتها هو : كيف أقبل فى النهاية ان أعيش فى مسكن أجرته لى فتاة ودفعت ايجاره من حر مالها ؟! .. انها ليست أى فتاة والظرف ليس أى ظرف ، أى اننى لابد أن أكون مأجورا أو مباعا على أى وضع .. وهكذا قررت فى الحال فسخ هذا العقد الذى أرى انه سيكون فى حقيقة الأمر تعاقدا على ما هو أكبر من شقة ، والأمر ببساطة يمكن ان يتم بالتليفون لصاحب العمارة . ثم عدت فتألمت من الوضع ، هذه تكون اهانة لراندا التى عاملتنى بشكل كريم ، ولابد أن يكون الفسخ معها هى والا كنت جلفا بلطجيا خسيسا .

كان الأمر عصيبا وصعبا ، فلما تذكرت ان فى جيبى ايصال شهر هدأت نفسى قائلا اننى خلال هذا الشهر أكون قد استطلعت جلية الأمر وبانت لى النوايا ، ثم أترك الشقة آخر الشهر على أية حال ولكن بعد ان أكون قد اقنعت راندا بعدم احتياجى الحقيقى للشقة .

غير ان الشهر جر شهرا والأخير جر أشهر طوالا ، حتى انتهت شهور الدراسة والعجيب اننى لم أر الآنسة راندا خلالها أبدا ولم أجرؤ على البحث عن تليفون لها وان وجدته فلست أجرؤ على طلبها . وكانت ندرة اللقاء بها قد دفعتنى الى المبيت فى الشقة ليال كثيرة متواصلة علنى أجدها أو أسمع أخبارا عنها ولكن دون جدوى .

لكننى لاحظت ظاهرتين عجيبتين جدا ، الأولى هى فرح البواب وأهله بتواجدى فى الشقة مهما كان معى من أصدقاء وزملاء ، حتى ليخدمنا البواب وأولاده وأحيانا الولد الأفندى خدمات كبيرة وبصدر رحب ودون انتظار لبقشيش . الثانية هى ادعاؤهم الدائم بأنهم لا يعرفون كلما سألتهم عن الآنسة راندا . حتى أوهمونى فى بعض الأحيان أنهم يسمعون اسمها لأول مرة . وسرعان ما اكتشفت اللؤم وراء هذا الادعاء ففهمت انهم لا يرحبون بأى حديث عن الآنسة راندا لا من قريب ولا من بعيد . اما الظاهرة الأولى فلم أفهمها الا بعد حين ، اذ فوجئت مرة بالولد الأفندى يركب نفس الأتوبيس الذى أركبه كل مرة وأنه ينزل فى نفس المحطة التى أنزل فيها وان ذلك يحدث من فترة سابقة . ثم فوجئت مرة بزوجة البواب تنظف لى الشقة كالعادة وتسألنى عن أخبار رشا الخضرى بشكل غير مباشر وأحيانا ببساطة الواثقة من اننى أحمل أخبارها ، كذلك فوجئت بأن ابنة البواب الصغيرة تفتش فى أوراقى الخاصة بسذاجة مريبة جدا . كذلك فوجئت بالمعلم نفسه يتصيدنى من حين الى حين ويدعونى لشرب حجرين على الشيشة فى المكتب ، فألبى الدعوة ، واكتشف أن الحجرة من الداخل مرسومة بشكل غريب ، اذ أن حوائطها

مجوفة من نواح كثيرة بأشكال الايوانات والنوافذ على شـــكل نوافذ المساجد . فلما شربت الحجرين مع المعلم أول مرة كان الحشيش فيها زاعقا وقويا فبدأ التنكيت من أول نفس ، وسألت المعلم ان كانت هذه الحجرة قد انتزعت من مسجد قديم هى الأخـــرى كما انتزعت هذه الاشياء ؟ وهل اشتراها من المزاد مثلا ؟ . فضحك المعلم ضحكة تقول ان نكتتى سخيفة ، ثم هز يده البضة أمامى مشوحا ، شارحا لى كيف انه صمم الحجرة فى الأصل باعتبارها مسجدا يمنح العمارة امتيازات كثيرة ، فلما اكتملت العمارة وجد ان ثلاثة أرباع سكانها من الأجانب أصحاب شركات الاستثمار لا يؤمنون بالصلاة ، والربع الباقى من السكان يفضل الصلاة فى عمله حيث انهم لا يعودون أبدا ولابد انهم مهاجرون فى الداخل أو فى الخارج ، فعلام المسجد اذن ؟ . هكذا سأل نفسه ثم أبقاه معلقا فترة طويلة فلما لم يسأله أحد أو يستفسر منه أحد حوله الى شقة هى التى أجرتهـــا وحجرة هى هـــذه التى نجلس فيهـــا أفليست فائدة بزمتك ؟ . ثم انه عبر كثير من الأنفاس بيننا جاء بسيرة رشا الخضرى عشرات المرات وسألنى عن عمارتها الفلانية ماذا فعلت بها وعن محلهـــا التجارى الفلانى ماذا بشأنه وعن شركة السيارات هل باعتها أم لا تزال تبحث عن مشتر .. الخ هذه الموضوعات التى أفاجأ بأننى آخر من يهتم بها أو يشغل نفسه بأمرها ..

قل أننى فوجئت بأنى محاصر بجيوش تقودها رغبـــة دفينة ملحة فى الكشف عن مدى صلتى برشا الخضرى ، مفترضة مقدما اننى قد أمكر بها وأنفى قرابتها وأنجح فى تمثيل ذلك . وقد حدث ان حيانى البواب ذات مرة فى ابتسامة كبيرة قائلا : « شفتك معاها يا بيه .. مش كان واجب تنزل تشرب قهوة ؟ . لكن دى ست طيبه قوى يا بيه والله العظيم .. أنا باحبها ومن عشاقها قوى قوى » . فتسمرت واقفـــا أقول له : « هى مين يا جدع انت ؟ » . فقال ببساطة صفيقه : « الفنانة رشـــا الخضرى يا بيـــه واحنـــا تايهـــين عنهـــا ؟ » . صحف فيه بعنف : « امتى الكلام ده ؟ » . فقال : « امبارح يا بيه ساعة ما كانت يتوصلك

بالعربية . فاذا بى انفجر ضاحكا فى جنون ، حيث تذكرت ان معيدة فى الكلية تسكن على امتداد هذه المنشأة وان الصدفة وحـــدها أوقفتنى بجوارها قليلا حتى جاء زوجها ليأخذها بعربته ، فباعتبارى فى طريقهما رأيت فتكرم الرجل بتوصيلى الى مدخل العمارة ، ثم ان هذه الزميله المعيدة لم يكن يربط بينها وبين رشا الخضرى أى شبه على الاطلاق ، مع ذلك فان البواب لم يرها هى بل رأى رشا الخضرى . المهم اننى بعد ان دمعت عيناى من الضحك المؤلم حاولت افهام البواب بحقيقة الأمر فكان يهز راسه مرددا : « هيه .. أيوه » ، ولكن شيئا راسخا فى عينيه يقول انه ان يتنازل عن اعتقاده بأن رشا الخضرى بنفسها أوصلتنى بعربتها لحد البيت ..

فى اليوم التالى قررت الاختفاء تمـــاما من عاصـــمة بنى الأزرق برمتها . لكن قدرتى على ذلك استمرت أسبوعا واحدا اضطررت بعده الى زيارة الشقة لعشرات الأسباب الحلوة التى ربطتنى بها كمركز ومقر جميلين ، وكنت بفضلها قد ارتبطت ببعض جهات أترجم لهـــا أوراقا ورسائل وقوائم وفواتير نظير مبالغ لطيفه ، وجهـــات لا تستنكر حين القدم لها كقاص وروائى ناشىء ، ويسهر معى فى الشقة ناس وأصدقاء يجىء بهم أصدقاء فأتعرف على ناس باستمرار أنتفع من علاقتهـــم بما يسمح لى بدفع ايجار الشقة شهريا ..

بعد ذلك الاسبوع مباشرة تصادف ان ذهبت الى الكلية فوجدت الآنسة راندا هناك فى حجرة يبلغنى صوتها وضحكها ، فلم أقو على مغادرة المكان دون ان أراها وترانى . فتقدمت نحو حجرة العميد وسللت رأسى من وراء الحاجز القطيفى فوقعت عينى على عينها . فاستمهلتنى بيدها ثم استأذنت وجاءت مسرعة فى رشاقه . فلما خرجت سلمت على فى شىء من القلق غطته بقبضة يدها حول يدى وقالت مندفعـــة : « خـــير .. فيه أيه ؟ .. حصل ايه ؟ » قلت : « أبدا .. فيه ايه .. تقصدى ايه ؟ » . قالت دون تدبـــر : « فيه حاجـــة حصلت لك لا قدر الله ؟ » . قلت :

« لا » · قالت : « أصلك غايب عن الشـــقة بقالك أسبوع » فقلت :
« مفيش حاجة كنت فى البلد » · ثم ذعرت فجاة ، اذ كيف علمت بالخبر وهى منقطعة الصلة بى منذ شهور ؟ · وحينئذ أدركت انها فى الواقع على اتصال تام بى عبر جيش من الخدم الرعاع ، وان الآنسة راندا هذه ليست طفلة بريئة كما كنت أتصور ، انها مؤسسة كاملة من الجواسيس والعيون والعلاقات لا قبل لأمثالى بصدها أو الزوغان منها ، وان الآنسة راندا هذه الجميلة الفاتنة الى حد مذهل هى أيضا شريرة الى حد مذهل ، أين منها عشرات المعلمات البارزات من أمثال رشا الخضرى أو بمبه كشر أو ما شاكل ذلك من شهيرات النساء ، كل أولئك تفاية بالنسبة لها ، انها لغادرة وفاجرة ، لم تصدق يمينى لها على المصف ، وكانت بالتأكيد ـ وهى بهذه الصورة ـ تستطيع أن تستطلع شهادة ميلادى حيثما كانت وتأتى بكل صغيرة وكبيرة عن أهلى ، لكنها فيما يبدو أرادت أن تضعنى فى أحد سجونها تحت المجهر لتستخدمنى فى عرض ما فى لحظة ما · ترى ما الذى تديره لى هذه الداهية الكبيرة ؟ · اننى وكنت قد ختمت بأصابعى العشرة أن أمها أدهى شخصية على ظهر أرض البلاد ، أعود الآن فأسحب هذه الثقة لأضعها طائعا فى ابنتها راندا فأقول انهـــا أدهى بكثير جدا من أمها ··

وهكذا قررت أن أنتقم من نفسى لنفسى ، أى ان أواجـه الموقف بشجاعة فأنتزع نفسى من السجن غير مبال بما قد يصيبنى الانتزاع من جروح وفروح ودماء ، هى جروح أو قروح لابد ان يشفيها الطبيب ذات يوم ، أما البقاء فى مثل السجن ـ هذا السجن بالذات ـ فان قروحــه لا تداوى وليس ثمة من شفاء لها ··

ثم جذبت الآنسة راندا برفق قائلا : « عايزك فى موضـــوع مهم » · فانجذبت معى بسهولة ثم استدارت عائدة بسرعة فحيت العميد وارتدت عائدة فى حماس كبير · حدست انها قد داخلها بعض الأمر فى أن أكشف عن سرى وأنتهى وأعترف اننى أنسلخ بالفعل من جلدة رشـــا

الخضرى وبناء عليه فالأمر كذا وكيت ، وكنت ألمح ذلك الأمل قائما فى عينيها وهى تغرينى أثناء المسير بسهرة هنا أو أخرى هناك ، فان أعصابى فيما يبدو على غير ما يرام ، وان شيئا لابد قد أصابنى وكدرنى ولهذا فهى اول من يعنى بالوقوف معى كما وعدت ، وتسهيل وتيسير كل ما أراه معقدا · اقتراحات بسهرات ترددت فى رحابها أسماء أماكن كبيرة خياليه أسمع عنها فى الجرائد ، وهذا المكان يتميز بكذا وذلك يتميز بكيت واننى أستطيع أن أختار ما يوافق هواى ويرضى أعصابى المضطربة مهما كان الثمن ··

الحق لله كدت أحس اننى بالفعل مضطرب الأعصـــاب وفى أزمة رهيبة تحتاج لمثل ما تقترح هى بل اننى دلست على نفسى قائلا لهـــا ان ما أريد قوله يحتاج لواحد من هذه الأماكن · لكننى وهى تضع يدها فى يدى كأننا خطيبين انتابنى رعب هائل هائج لمجرد احساسى بأنى قد أسلست قيادى لراندا · وأدركت اننى ان جلست فى واحــدة من هذه السهرات المقترحة فاننى لن أسلوها أبدا ، ومن ثم لن أستغنى عن انفاق راندا ، وبناء عليه قد أضطر الى بيع نفسى على الدوام حتى يرخص قدرى شيئا فشيئا فأصبح بلا سعر ولا قيمة · فتوقفت عند السيارة قائلا فى اضـــطراب :

ـ « آنسة راندا ·· أنا آسف ·· الموضوع اللى أنا عايزك فيـــه ما يستاهلش الاهتمام ده كله ·· أنا بس عايز أقول لك ·· انى خلاص معدتش محتاج للشقة ·· خسارة تفضل فاضيه ·· ان كان حضرتك تقدرى تستفيدى بيها فآدى عقدها ·· لأنك فى الواقع صاحبتها الحقيقة حتى لو كان العقد باسمى ·· أنا أشكرك ·· الأجـــازة خلاص حتبـدأ وانا ربما انتقل للجامعة بتاع المحافظة اللى احنا تبعها ·· فألف ألف شكر يا آنسةراندا ·· أنا مش عارف أودى جميلك فين » ··

ثم سربت يدى بالعقد من النافذة نحوها ، وكانت هى قد أومأت لى باسمة وتركتنى أتكلم بل وتركتنى أضع العقد فى تابلون السيارة ،

ثم دخلت هى وفتحت مسوجر الباب ايذانا لى بأن افتحه وأدخل · هى لم تصوب لى أكثر من نظرة ، فهمت منها أن تصرفى هذا خشن وغليظ ويخلو من كل ذوق · أبدا لم يكن للانثى فى عينى قدرا يماثل قدر التعنيف والاقناع بأننى يجب ان اعتذر عما حدث على الأقل بركوبى السيارة · وهكذا ركبت وانطلقت السيارة ، وأخذت أحس شيئا فشيئا ان الجلوس بجوار راندا فى سيارة خاصة تقودها هى أملة كبيرة جدا لأمثالى ممن يعيشون فى الحوارى والقرى التى تشبه الى حد كبير صناديق النفاية وهكذا أيضا لم أنطق بحرف طول الطريق · لكن أجمل شىء اننى تخلصت من العقد كأنه وثيقة الاتهام ··

وكانت السيارة متجهة الى مكان ما فى الصحراء الشرقية البعيدة · لكن نظرة ذكية شقية مذهلة لمعت فى عينى الآنسة راندا فجأة ، وبدأ كأنها تذكرت شيئا هاما وخطيرا جدا · طرقعت بأصبعيها قائلة فى مرح عظيم : « بس ·· هى ·· على النعمة هى » · قلت فى فضول : « هى ايه ؟ » · قالت وقد تحولت الى بسمة كفتحة النهر : « السهرة الجميلة ·· افتكرتها ·· حتسهر سهرة بقى ياد يا مأمون ·· ياد يا أستاذ مأمون ·· عمرك ما سهرتها فى حياتك ·· وعلى فكرة ·· لو ماكنتش عزيز على يا مأمون ·· ماكنتش وديتك هنا · بس أنا اتفقت معاك على أننا حنعيش أصدقاء ·· وأنا التزمت ·· لأن أخلاقى وتربيتى تحتم على الالتزام بوعدى ·· وحافضل فى موقف الصديق المستعد للتضحية المقدور عليها ·· أما اذا الطرف الآخر أراد أن يركل هذه الصداقة برجله ويتنكر لها فهذا شأنه ، ولست أظن ان أخلاقياته تسمح له بذلك » ··

وقشعر بدنى · أحسست اننى لست فقط فى سجن بل قد دخلت تقريبا فيما يشبه الرحم ، وها أنذا فى محتوى رطيب حنون لا مثيل لمناخه · فهل يمكننى الخلاص ؟ وكيف ؟ · قلت فى نفسى : « اصبر على الأقل هذه السهرة لكيلا تكون نذلا فى نظرها ، ثم انقطع بعد ذلك

قليلا فشيئا عنها الى ان يفصلكما الزمن من تلقائه · وهكذا ظللت صامتا حتى وصلنا الى جبل المقطم · للعلم فجبل المقطم هذا اسم مستعار ، باستعارته عاصمة بنى الأزرق من قاهرة المعز على سبيل التقليد الساذج الأعمى ، ولما لم أكن قد زرت فى حياتى مقطم قاهرة المعز فاننى أعترف أن مقطم عاصمة بنى الأزرق ليس رديئا وليس ساذجا بل هو جميل جدا الا اننا دائما هكذا يا أولاد بنى الأزرق : نسفه من أحيائنا القومية كما نسفه من أشيائنا الخاصة تجاه النموذج الذى نقلده ··

وقالت الآنسة راندا ونحن ندخل الحى الجميل انها مدعوة لحفل عيد ميلاد احدى صديقاتها العزيزات جدا وهى من المحتمل ان تكون زميلتى فى نفس المدرج وسوف آراها على أية حال ، ثم أضافت قائلة : « وسوف ترى أمى ·· نعم فهى مدعوة هى الأخرى ولابد أن تذهب » · ثم أضافت بعد برهة تنبهنى الى أنها كانت ستضحى بهذه المناسبة المهمة فى سبيل ان تقضى الوقت معى فى أى مكان · ثم أقبلت علينا بناية مزدانة بالنيون ، وكانت طلائع المساء تهل محملة بأريج العطور والزهور والثراء السائب ··

***

ركنت الآنسة راندا بجوار الباب ثم نزلت وتركت السيارة مفتوحة ، وقالت للبواب : « مساء الخير » · فانحنى لها · ثم صعدنا سلما مواجها فصرنا فى بهو مستطيل عريض تطل عليه الستائر المخملية المفتوحة ، الذوق مرتفع جدا ، الى درجة تشى بأرستقراطية قديمة مستنيرة · أنا دائما ـ والحق يقال ـ لا أنزعج من المظاهر ولا من الثراء المادى الا بين أيدى الاخساء والبلطجية ومنعدمى الضمير حتى ولو كان المال ورثهم من أجيال بعيدة ، لأن المظاهر عندهم تكون فشخرة كذابة والثراء المادى سفه · انما يعجبنى حقا ان تكون مظاهر الثراء ليست مجرد مظاهر للثراء بقدر ما هى تمثيل لقيم ومعان وأبعاد ومراكز يتمتع

به أهل هذا البيت أو ذاك · ويعجبنى الثراء حين اكتشف أنه حرية فى الافاق على الأثر العظيم بلا حدود ··

الحق ان المظهر خدعنى وتصورتنى فى ضيافة أسرة أزرقية أصيلة قديمة ، بالفعل قرأت لافتة نحاسية كبيرة على الباب عرفت منها أننا فى بيت أسرة يشتهر من بينها أسماء عديدة فى جميع الوجـوه والأنشـطة تقريبا وعلى مدى أجيال طويلة ، فمنهم الوزير ورئيس الوزراء والشاعر الكبير والممثل الشهير وفيها أيضا البائس العظيم والمتمرد الحلو ··

ومن أول ما دخلنا بدأنا جدول ترحيب وسلام وأشواق اسـتمر ما يزيد عن نصف ساعة · فما كدنا ننتهى من أهل البيت وحدهم وهم كما بدا لى أكثر من عشر أسر تقريبا تحت اسم كبير ، حتى استأنفنا من جديد القيام والاستقبال · جاءت صديقة راندا وجلست بجوارنا ، ونظرت راندا الى كل منا وقالت : « هل أنا محتاجة لتقديم كل منكما الى الآخر ؟ » · وقالت نظرة صديقتها لنظرتى أننا بالفعل نعرف بعضنا ولكننا فى حاجة الى التشرف بمعرفة الأسماء فحسب ، اذ أننى وصديقتها طلبان فى سنة واحدة فى قسم واحد وكثيرا ما آراها وترانى · هزت صديقتها رأسها اللطيف وعينيها العسليتين كأنهما صـدفتين فى كل منهما لؤلؤة ، ثم قالت بلباقة : « انا باهى » · فابتسمت راندا قائلة لها : « ما تنصبيش عليه بقى ·· قوليله اسمك الحقيقى » · ورنت ضحكة شارك فيها كل من حولنا ، وقالت « باهى » متحدية : « قصدها تقول لك ان اسمى بهيه ·· واحنا مختصرينـه لباهى ·· على كل حـال مش مشكلتى ·· انتو اللى اختصرتوا ·· ان كان على أنا شخصيا أموت فى اسم بهية ·· ده اسم جميل وشيك وله معناه · بهية » · فعلق ولد شاب مقلدا محمد العزبى : « بهيا ·· ا ·· ا ·· ه ·· وعيون ·· و ·· و ·· » · وضحكنا جميعا فى مرح ، ثم قلت : « أنا أشاركك الاعجـاب باسم بهية ·· ومع ذلك فاختصاره الى باهى جميل أيضا ·· أما أنـا فاسمى مأمون » · ورحبوا جميعا بنبرة صادقة : « أهلا وسـهلا ··

شرفتنا يا أستاذ مأمون » · فبدأت ارتبك لشعورى بأننى صرت مهبط الأنظار ، فلابد لأى شاب يجئ مع رانـدا فى حفل كهذا ان يـكون مهبط الأنظـار ··

بدأت كذلك أغرق فى خجـلى · وخفت من الانعزال فحاولت الاندماج بأى شكل · استجبت لدعوة على كأس رغم تحريمى للشرب على نفسى ·· ماشى · ولم أشرب غيره ، لأن الدنيا انقلبت بعده مباشرة ولم يعد أحد مسئولا عن أحد · هاجت الدنيـا وماجت فى هذا المربع الصغير ، حيث انزاحت ستارة فى مواجهتنا وظهر من خلفها منصة مسرح أنيقة مفروشة بالسجاد العجمى · وظهرت فرقة موسيقية كاملة لا تدرى من اين دخلت وجلست تداعب الأوتار · لكن لو دققنا النظر خـلال ممر صغير بين ستارتين لوجدنا طرقة تتصل شرفاتها العريضة بشرفات بيت خلفى كبير · وتذكرت اننى كنت اقتيدت الى هذا البيت الخلفى السحرى منذ ساعات حيث تناولنا العشاء على مائدة ولها عشرة أمتار فى عشر صفوف متوازية فيها من الخرفان الى العصافير وقلاع الحلوى · وكنت افتقد راندا لأوقات كثيرة ، انظر أحيانا فافاجأ بها جوارى وأحيانا فافاجأ بها غير موجودة · « النمر » أخذت تتعاقب فوق المنصة : « هانى شاكر ، ليلى جمال ، على عليوه ، نبوت الغفير ، أحمد بلطية ·· أكل ذلك من أجل عيد ميلاد « باهى ؟ » ·· ياله من شئ غير عظيم ·· يجب ان اسحب تقديرى لهذه الأبهة وأغير نظرتى للقوم ··

لكن الدوامة الاحتفالية تفاجئنى بأشياء كثيرة لا أفضل رؤيتهـا · من صور فاضحة على هيأة رقص ولعب وتفاريح ، وسكر بين ، ومجتمعات صغيرة مكثفة فى هذا المربع الصغير ببراعة فائقة ، ناس تمارس الرقص المتهتك ، بجوارهم آخرون يتكلمون فى العملة وأسعارها ، بجوارهم شاب وجيه ينصب على امرأة ثرية لكى يوقعها فى غرامة ، بجوارهما طالبتان فقيرتان من زميلاتنا فى الكلية يرددون ألفاظا وتعبيرا خارجـة لم يكن مظهرهما ليوحى بها أبدا ، والمغنى ينزل متجـولا بين الصفوف الثملة

المسلخة مرددا : « حبه فوق وحبه تحت » ، وبتلقى النقوط بسخاء كأنه صندوق النذور ٠٠

ثم حدثت موجة من الانتباه المفاجيء تنقلت بين الجميع ، اذ تبادلوا الهمسات قائلين لبعضهم البعض : « وصلت ؟ ٠٠ وصلت » ٠ ثم ارتدت الموجة من جديد قائلة : « بس مش حتغنى ٠٠ جـايه تهنى بس ٠٠ مش عامله حسابها على المغنى » ٠ قلت لنفسى ان هذه الحفـاوة يليق بواحدة كفايزة أحمد أو وردة أو نجاة من بقايا مطربات الديار المصرية الشقيقة ٠ ولم استبعد ان تكون احداهن صديقـة لأهـل هذا البيت أو مستفيدة بشكل من الأشكال ٠ وفى تلك اللحظة كان الولد الواقف على المنصة قد فقد كل الحواجز الناصلة بين الأشـياء ، بين ما يقـال وما لا يقال ، فراح يهدر بنكات يشمئز منها البدن ، لكننى لاحظت ان كل من هاهنا لا يشمئز لأنهم جميعا فى قلب الاشمئزاز غارقون ، أنهم بعض هذا الاشمئزاز ٠٠

وصل بى القرف الى حد لا أحتمله ، كأنما المطلوب منى ان أخرج من هدومى بل من شخصيتى كلها ٠ من حسن الحظ تلفت جوارى فرأيت راندا جالسة تغمرنى قائلة : « تعالى » ٠ فقمت معها فى الحال ٠ قالت فيما نسير بين الحشد : « حنقعد بعيد عن الزيطه دى شوية ٠٠ جوه » ٠ قلت : « أحسن » ومضيت وراءها ٠ سرنا طويلا جدا بين أبواب ومداخل وسلالم كأننا نمشى فى شارع لا ينتهى ٠ ثم هبطنا سلما ومضينا فى طرقة صغيرة رفيعة ٠ ثم عدنا فصعدنا سلما فى نهايتها ومضينا فى بهو مربع ذى نافذة على اليمين ، نظرت عبر ستائر هذه النافذة فرأيت نافذة مشابهة تماما فى كل شيء وأشباح الحفل تبدو خلفها ٠٠

حودنا الى اليسار وسط أضواء هادئة تنبعث من أماكن شبه مجهولة فى الجدران المبطنة بالخشب الثمين ٠ وكان ثمة لغط احتفالى فى كل الحجرات المطلة على البهو المربع كأنما جاءت المدينة كلهـا تحتفل بعيد ميلاد « باهى » فكرت اننى حين ألقاها بعد ذلك سأقول لها : « يا بهية

وخبرينى على حقيقة الأمر » ٠ فى آخر حجـرة وهى أكبـر الحجرات كما يبدو كان ثمة صالون كبير جد. فاخر جدا يجلس فيه رهط كبير من المحتفلين ميزت فيهم « باهى » ، التى نهضت واستقبلتنى مرحبة من جديد لتجلسنى مكانها بجوار السيدات الفاتنات ، وقدمتنى قائلة اننى صديقها وزميل دراستها الأستاذ مأمون عكاشة واننى من لوامع الزملاء بنشـاطى الأدبى والطلابى ٠٠ الـخ ٠ فهتف الجميع فى نبرة ودوده : « شرفنا » ٠ فرفعت يدى بالتحية مارا برأسى فى اتجاههم جميعا ٠ وكان اول شعور يعترينى بين هذه الكوكبة نساء وشباب وصبيان وعجائز هو شعورى بأننى قد صرت محط الأنظار حقا ٠ الجميع يبحلقون فى كأنهم يتفرجون على نجم ، وكنت كلما ركزت النظر فى عين تبحلق فى ابتسم صاحبها فى صفاء وقال : أهلا وسهلا فأقول : أهلا ، ثم أغوص فى خجلى من جديد ٠٠

مررت بنظرات سريعة لعدة مرات على أوجه جميع الجالسين وفى كل مرة اكتشف شيئا جديدا فيها ٠ وكان بصرى يعود من جولته ليتلكأ دائما عند السيدة الجالسة قبالتى ، فأحس ان بصرى قد استراح قليلا ووجد فى وجهها ما يغرى بالتأمل ٠ بعـد تلكؤ طويل ووسـط بعض التعليقات الغامضة تيقنت من أنها « فهيمة » أم « رانـدا » ٠ سررت اذ وجدت شيئا يشغلنى ، فأخذت أدرس ملامحها وأتخيل ما حكته راندا عنها ٠ لكن راندا قطعت على الخيط مشيرة الى أمها قائلة : « والدتى ٠٠ اطن واضح » ٠ قلت : « واضح » ، ثم أنزلت ساقى عن الأخرى وهممت بالنهوض قائلا : « أهلا يا أفندم » ، فلما استجابت لحركتى هى الأخرى نهضت بالفعل وذهبت اليهـا فوقفت فى احترام شـديد وسلمت على بحرارة ، ثم عدت الى كرسى خجلا لا أرفع وجهى عن الأرض ٠ جلست فى مكانى ، وقد لاحظت أثناء عودتى أن جلستى محصورة بين سـيدتين ٠ جاءتنى الصينية عليها كافة المشروبات ، فاخترت فنجان قهوة ٠ وقالت راندا : « عايزين نسمع حاجة » ٠ وقالت « فهيمة » أمهـا : « بيقولوا الأستاذ مأمون شاعر وأديب ٠٠ يسمعنا حاجة تحية لباهى » فضحكت

بصوت عال وقلت دون ان انظر فيها اننى لا أكتب الشعر ولم أكن أعرف المناسبة من قبل . وقالت باهى ناظرة تجاهى : « احنا كلنا طمعانين فى صوت الفنانة رشا » . وهززت رأسى موافقا أنا الآخر ظنا منى ان بينهم هاوية للغناء اسمها رشا . لكن صوتا أليفا استمع اليه كثيرا فى الراديو والتليفزيون انساب من جوار اذنى مباشرة يقول : « اسـمحوا لى .. أنا متأسفة خالص .. صوتى تعبان وواخده برد » . لويت رقبتى فى اتجاه الصوت فاذا بهذه التى تجلس لصقى مباشرة هى المطربة الشهيرة رشا الخضرى ، ثم اننى ظللت معووج الرقبة تجاهها لوقت طويل جدا وهى تحاول الاعتذار من جديد عن الغناء وتبتسم من شدة بحلقتى فيها . وجاء الولد الذى كان قد علق على اسم بهية فى الأول ، وبلهجة مسرحية قال لى : « ما تيجى نقعد هنا عشان يبقى الوش فى الوش وتعرف تتفرج كويس » . فأردت تسخيفه فقمت بالفعـل واتجهت الى مكانه بجـوار فهيمة أم راندا فجلست فصرت فى مواجهة رشا الخضرى مباشرة ..

ثم ابتسمت فى خجل ، اذ اكتشفت سر الأنظار التى كانت مركزة على ، هى اذن كانت مركزة على اتجاه رشا الخضرى . هذه اذن هى رشا الخضرى . كان وجهها ملفوفا فى ايشارب بنفسجى غامق وجسـدها ملفوف فى معطف من الفرو الثمين ، يبدو وجهها منه كزهرة البنفسج ، كانت ثمة ظلال من هموم ومشاغل ومآسى عويصة تبدو من بعيد جدا فى خلفية هذا الصفاء . هى بالفعل جذابة جدا لدرجـة اننى لم أعـد مستريحا فى جلستى منذ تركت جوارها ، لقد كان اشعاعها اذن هو الذى طوقنى وجعلنى أكن وأهدأ . الآن تمنيت ان يرجع الولد فى كلامه ويعود الى مطرحه ، فى عينيها الرهيبتين شىء بل أشياء كثيرة جـدا لا يبرزها التصوير أبدا ، ان جمال وجهها وعينيها أبرع بكثير جدا من أبرع مصور فى الوجود ، حقا لقد عجزت الكاميرات الحساسة عن التقاط هذا الدفق من الحيوية والجاذبية يجرى ليس فقط فى وجهها بل وفى وجوه كل من تقع عينيه عليه . حينئذ أحببت رشا الخضرى حبا جارفا ابن ساعته . فنهضت واقفـا وأشرت الى الولد ايـاه قائلا بلطف :

من فضلك .. خذ مطرحك وادينى مطرحى » . فضحك الجميع فى سعادة وقال الولد بغمزة لم أفهم لها معنى : « ليه بقى ما كده كويس » . قلت له : « لا ياعم .. أنا مش حاقدر أتفرج على وش الفنانة رشا أكثر من كده » . فتغامزت نساء عرفت من غمزهن انهن عاهرات لا شك ، وقالت احـداهن بعهـر : « ليـه يا قلب امك .. أنت ما تعرفهاش أول كده ؟ » . قلت فى تحـد غـير مقصود : « أبدا والله العظيم .. أبدا ما بتصدقوش ليه ؟ .. دى أول مرة أتشرف فيها برؤية الفنانة رشـا » . وابتسمت رشا فى خجل وامتنان وقال الولد : « لا يعنى عايز للبد » . قلت : « الله أعلم بالسرائر » . قالوا جميعا : « معلوم » وجلست أنا قائلا : « أهلا يا مدام رشا .. دى فرصة سعيدة فعلا . أنا باشكر الآنسة راندا والظروف الطيبة » . هزت رأسها قائلة فى اقتضاب : « شـكرا » . ثم لاحظت أن الجميع قد انتظر برهة عميقة محاورة ، وكنت أبادلهم خلالها النظر مستغربا بل منتظرا أنا الآخر ..

تدخلت « باهى » فى ذكاء ، وأشارت بيديها فى حركة مسرحية وشرعت تغنى احدى أغنيـات رشـا الخضرى ، فغنى الجميع معها ، ثم رددوا وكرروا ، فاضطرت رشا الى الاندماج معهـم فى مرح جميل يغفر للاغنية ابتذال معانيها وعدم أصالة لحنها ، وصوتها رغم ضعف امكانياته حزين ملىء بالشجن المبكى . فى الحقيقة استغربت جدا ان يكون الميكرفون هو الآخر بقلل من حلاة هذا الشجن المبحوح ؟ أتـراه يبرز حقا أم فضح عيوب صوتها فضاعت نبرته الجميلة ؟ أتراها تكون مجرد مغنية خصوصية تغنى لواحـد بعينه فقط ؟ . لكننى عبرت عن رضائى قائلا : « ما شاء الله .. ايه الحـلاوة دى » . وقالت باهى : « مش فكرة يا مدام رشا . الأستاذ مأمون مكانش معجب بصوتك .. من محاسن الحفلة أنها كسبت صوت » فكأنما ألقت فى الجو صـاعقة ، لكن لكنه كسب الصوت سرعان ما فجرت ضحكة كبيرة ..

وهنا نظرت رشا الخضرى فى عينى نظرة ثاقبة كادت تصرعنى نظرة توحى كأننى أعرفها من قبل كأننى تلقيتها من قبل كان لغـ مشتركة تقوم من قديم بينى وبين هاتين العينين ، انهما على التحديد عينا أمى أنا بلا زيادة ولا نقصان سرقتهما هذه الفنـانة المتبرجة المبتذلة سلطت عينى فى عينها كأننى أبحث فيهما عن شىء يخصنى ، فاصطدمت بنفس هذه النظرة المرهقة التى كثيرا ما وجهتها أمى لى فى لحظات الشعور بالمأساة . ثم اننى تذكرت الشبه المزعوم بينى وبينها فوجدته فى العينين أكثر وأعمق وأشد رهبة .. فعلا ان لهؤلاء جميعا الحق فى الفرجة على بدهشة للمقارنة بينى وبينها . أقول الحق أننى نظرت نحو الآنسة راندا باسما وقلت لها : « فعلا يا آنســة رانـدا .. معاكى حق .. أنا لو مطرحك مش هاصدق غير كده » . فابتسمت راندا وهزت رأسها وكنت أريد ان أضيف قائلا لهـا ان التشابه الحق ليس بينى وبين الفنانة رشا الخضرى .. بل بينها هى وبين أمى ، نفس النظرة نفس البروفيل نفس الرقبة ونوع الشعر ونفس الصـدر والقوام وكل شئ فى جسدها كأنها نسخة طبق الأصل منها .. أكاد أظنها هى لولا تأكدى من موتهـا ..

ثم اذا بى أميل نحو الفنانة رشا الخضرى قائلا فى صـدق وصراحة : « أمال حضرتك منين يا مدام رشا ؟ » . وهنا انتبه الجميع كأن على رؤوسهم الجراد . وقالت الفنانة رشا أنها ـ كما سمعت من أمها ـ ليست من الجنس الأزرقى انما هى من أب تـركى وأم حبشية أما هى نفسها فقد ولدت فى احـدى قرى الصعيد الأعلى لنهر الأزرق فاعتبرت نفسها أزرقية خاصة أن أباها وأمها مدفونان فى قريتهم بالصعيد الأعلى لنهر الأزرق . فهز الجميع رؤوسهم موافقين ، وقال الولد الذى تبادل معى المكان : « وحضرتك منين يا أستاذ مأمون » . الحقيقة خفت لبرهة ، فلو قلت اننى من قرية كذا بالوجه البحرى لعرف الجميع اننى بلديات عبد الجبار بيك وتهتز صورتى فأصبح واحدا يلتمس القربى

من عبد الجبار . لكننى اخترت اسم البندر الذى تتبعه قريتى وزعمت انى منه هو نفسه . فلم يعلق على ذلك أحد ..

انتبهت فجأة على صينية كبيرة من الفضة المزخرفة مطروحة أمام رشا تتعاقب فوقها الهدايا من مظاريف بها أوراق نقد الى بعض التحف الثمينة . وراقبتها رشا الخضرى فانفرجت عنهـا أزمة البرد وانطلق صوتها مغنيا كما لم يغن من قبل ، وبدت فى أعلى درجات المرح البرى، الضاحك ..

وبعد أن استراحت قليلا وشربت عصير الفراولة باللبن ، اعتدلت « فهيمة » أم « راندا » قائلة :

ـ « شوفى بقى يا ست رشا .. احنا بصراحة بنشكرك قوى قوى وانتى نخدمك فى الأفراح .. بس احنـا بقى .. لينـا خـدمه عنـدك » ..

رفعت رشا عينيهـا عن صـينية الهدايا قائلة فى ترحيب مبتذل رخيص :

ـ « قوى قوى .. دانا خدامتك .. انتوا تأمروا بس » .

وقالت فهيمة هانم : « أصل الولد ابن سلفى .. ما شاء الله كان فى أوروبا بيدرس مزيكة .. ومتخرج من معهد الموسيقى العربية .. وله نشاط .. ونفسه يسمعك لحن من تلحينه .. اذا عجبك نبقه نشوف اذا كان ممكن يعنى تغنيه وتشجعيه واحنا عنينا لأى تكاليف يتكلفها » . وقالت رشا الخضرى والكذب واضح فى عينيها : « ليه لا .. دانا حتى ما بيهمنيش الأسماء .. كان الأول .. دلوقت ممكن أغنى للملحنين شبان .. بس على شرط يكون لحن شيك ويخيش » وهنا تقدم الولد المذكور ، فاذا به قصير القامة أكرش دميم الوجه منساب الشعر فى اهمال متقن

على جبهته . بيده عود ثمين . ونظـــر لى مستأذنا فى احتلال مكانى فلم أجد مفرا من التنحى عنه . وقالت راندا : « تعالى مكانى » ، وذهبت هى الى جوار أمها وجلست أنا مكانها فغصت فى لهب عظيم .

احتل الشاب بعوده مكانى . وقال وهو يرفع فخده على الكرسى ليريح العود فوقه ، أنه لم يتفرنج فى ألحانه ولم يتأثر بالأشكال الأجنبية انما هو سيأخذ الأعمال الفولكلو.ية العتيقة ويجلوها ويوزعها بمقتضيات لحنية جديدة . وقال كذلك أنه تطبيقا لوجهة نظره سوف يسمعها هذا اللحن الذى أخذه من أعمق أعماق التربة الأزرقية فى قراها البعيدة وخلق منه عملا فنيا رشيقا وجميلا ومضمون النجاح . قالت رشا وقلنا جميعا : « نسمع » . فأخذ صاحبنا يد وزن أوتاره ثم يبـــدأ فى عزف مقـدمة موسيقية مبهجة جدا وجميلة جدا اذ هى مألوفة لى جدا ، بدليل اننى أترنم مع ايقاعها دون أن أستطيع ترجمته الى كلام مع ان كلامه كامن فى ذاكرتى ، ثم اذا باللحن يذهلنى ويخدر أعصابى بأول كلمة نطق بها ، اذ راح لفرط ذهولى يردد :

« رايحة فين يـــا بســيمة رايحة أزور عبـــد الجبـــار »

« دارك فين يـــا بســـيمة دارى دار عبـــد الجبـــــار »

« رايحـة تزورى ولا تحطى رقبـــــة أهلك للجـــزار »

« ولا حتيجى وجايبه العـــار ؟ رايحــــه فين رايحــــه فين »

صفق كل الحاضرين فى حماس شديد الا أنا ، حتى رشا الخضرى صفقت هى الأخرى من فرط الاعجـــاب ، وقالت : « تأليف مين الكلام الحلو ده ؟ » . فقال الملحن : « تأليف واحد غلبان كده بيتردد على معهد الموسيقى .. يظهر أنه كان حلاق ولا مانى عارف بس موهوب وطيب » . قالت رشا : « اسمه ايه » قال الملحن : « اســـمه حسن أبو غلفه » . ضحكت قائلة : « عجايب .. دا واد بيعرف يألف اهه .. دأنا ماكنتش

مقدمة بيه » . فاستأنف الملحق عزف المقدمة من جديد وما كاد يدخل فى الغناء حتى كانت رشا قد بدأت تردد معه اللحن كلمـــة كلمة حرفا حرفا ، وصار هو والجميع يغنون معها ثم يستخف بهم الطرب فيرددون : يا عينى .. يا سلام . وفى المرة الثالثة رددت رشا اللحن وحدها وهو يصاحبها بالعود . ثم قالت ان اللحن جميل جدا وانها سوف تظل طول عمرها تغنيه لنفسها اعجابا به ، لكنه ليس من لونها ، أنها لاتريد تقديم هذا النوع الريفى المحض لكيلا تدعى احدى المطربات الأقل منها مستوى انها تقلدها فى لونها ، الا أنها ـ هكذا قالت وهى تتهيأ للنهوض ـ سوف يسعدها أن تتلقى ألحانا جديدة من سيادته وأنها سوف يسعدها أن تغنى له لحنـا فى القريب . ووقفت ، ووقف الجميع وسلمت على بعضهـــم وتجاهلتنى ثم مضت ، فاذا بالآنسة باهى تغطى الصينية الفضية بايشارب جميل فاخر وتمضى به وراء رشا . ثم اذا برشا تتوقف بعد خطوة وترتد عائدة الى قائلة فى اعتذار ساحر : « آسفة .. ما سلمتش عليك .. أنـا سعيدة قوى الليلة دى .. حاكون سعيدة أكثر لو سمعتنى صوتك فى التليفون .. أهلا وسهلا » . ثم سلمت على بحرارة فأحسست ان قلبى يستكين فى يدها بهدوء . لكننى نظرت فى حاجبيها الرفيعين المتأهبين المتراقص فى فجور فعاودنى الاحساس بشىء من الاشمئزاز وسحبت يدى مؤكدا لصاحبتها كذبا اننى سوف أتصل بها بلا شك ..

وكانت « باهى » قد انتهزت الفرصة وهبطت بالهدية الى عربة رشا ووضعتها فيها وأغلقت الباب . ثم ان رشا غابت وودعوها فى حفاوة . وقلت لراندا اننى يجب أن أنصرف فهل تأذن لى ؟ قالت نعم ، ثم مالت على اليها وتهامست بعض حوار ، ثم عادت الى قائلة : « تفضـــل » . فقمت وسلمت على الســيدة فهيمة وعلى الباقين ومضيت وراندا فى أثرى . ثم قدمتنى هى الى السيارة .

***

كنت مدووشا جدا من كثرة ما دار ، فلم أنبس بحرف • وفوجئت بأن السيارة تقف بى عند العمارة ، وبأننى أنزل شاكرا ومع السلامة وتصبحى على خير • ثم تقدمت وفتحت شقتى وارتميت على السرير كأننى أغوص فى بحر من رغوة الصابون ذى الرائحـــة الجميلة ، فها أنذا قد استرحت من حمل ثقيل ، ها هى ذى ـ راندا قد تأكدت اننى لست من عائلة رشا الخضرى ولا أمت اليها بأى سبب ، فماذا يكون مصـــير هذه العلاقة ؟ • وقلت ان الأمر الآن يسمح لى بقبول السكنى فى هذه الشقة ، وأما راندا فان مسار كل منا فى الحياة سوف يتباعد عن الآخر دون ريب ، ثم نمت • وظللت نائما عدة أسابيع لا أحتمل التفكير فى هذا الموضوع • ولم تتصل بى الآنسة راندا ولم أتصل بها •

***

ثم ان الدراسة قد بدأت من جديد وصرت ألتقى براندا كل يوم تقريبا فنكتفى بتبادل التحية الباسمة الودودة وينصرف كل منا الى حال سبيله • وكان الله قد أكرمنى بأعمال يتجمع من ورائها ايجـار ومصروف لا بأس به يسند المرتب الحكومى • وكانت الشقة قد أكسبتنى رونقـــا وأبهة بين الطلاب • وأصبحت شقتى لا تخلو على الدوام من زملاء أصدقاء وأثرياء وآخرين فقراء ولكنهم جدعان • وأصبحنا نبيت فى ندوة لنصحو على ندوة ، ويتبارى الشعراء والقصاصون فى قراءة أشعار لهم وقصص ، وينبرى لها نقاد من بيننا متعرضـــين لها برءوس موضـــوعات كبيرة وقضايا مهولة ••

الى أن ظهر فى شقتى هذه من يدير شرائط سيف الماوردى ويدعو لها ويكتب دراسات عنها • فداخلتنى فرحة كبيرة وقلت للتخلص منهم ان سيف الماوردى هذا هو خالى ولكن من أم أخرى • فقالوا كيف • فقلت متفاخرا : أقسم بالله انه خالى ، واسمه الحقيقى ليس سيف ولا ماوردى •• اسمه هريدى خليل هريدى » ثم ندمت بعد ذلك على نطقى بالاســـم

الصحفى حتى لو كان ذلك لصديق • ثم قالوا : اذن فهيا بنا اليه • انهم يحضرون مجلسه جماعات دون أن يكونوا معروفين لبعضهم البعض ، فجماعة تأتى بجماعة وهكذا ، لكنهم جميعا يأخذون معهم بعض الهدايا من مأكولات ومشروبات وفواكه ، وقد يتركون فى يده بعض الجنيهات مكافأة له على جرأته وموهبته التى سخرها للمعارضة السياسية بواسطة الغناء • قلت لهم وأنا جد آسف اننى لا أعرف مسكنه واننى منذ سنوات طويلة لم أره لظروف خاصة • قال واحد من خلصائى أنه يعرف مسكنه ومستعد لتوصيلنا • قلت اننى مستعد للذهاب معهم اليه لمشاهدته على الأقل • فقال صديقى هذا : ما رأيكم لو دعوناه الى شقتنا هذه لنحتفل فيها على راحتنا ويكون هو ملكا لنا وحدنا نسجل منه ما نشاء ونكرمه أهل كرم حتى يجود بأحلى ما عنده ؟ • وقال صديق آخر من المشهورين بينما بالخبث ـ والعجيب انه موهوب ـ ان شرائط سيف الماوردى تدر الآن دخلا عظيما لبعض المحترفين ، وانه آخـــر من يستفيد من عائدها المادى • قلت : كيف ؟ • قال لأن سيف الماوردى شخص بلا شخصية فى الواقع وانه فوق ذلك جاهل تمام الجهل وليس يعرف من أمور التعامل مع المثقفين أو التجار شيئا ، كما لا يعرف لغاتهم ، وذلك انه قد تعود على تلقى المنح التى يخيل له دائما انها أكثر مما يستحق ، فلم يعد قادرا على تحمل نفسه بتنظيم حياته واستثمار مواهبه الرائجة ••

ازدادت دهشتى وقلت لهم أن شرائطه نادرة وغير موجودة فكيف تكون رائجة ؟ • قال الخبيث ان مثل شرائطه تروج فى الخفاء كالمخدرات ، ولذلك فان الشىء الوحيـــد المتوفـــر فى البلاد بكثرة هو الشىء الممنوع أو المحرم ، ومن يبيع شرائط سيف يأخذ فوق ثمنها ثمنا آخـــر ، ثمن لأنها ممنوعة ، والمشترى يشعر بفداحة ثمنهـــا فيشعر بعظم أهميتها وخطورتها فيستمع اليها ربما فى السر وحده أو مع أصفياء ، ولا يعيرها والا ضبطت باعتبارها منشورات سياسية تشجع على قذف النظام الأزرقى بالطوب والحجارة بغية هدمه أو تشويهـــه حتى يصبح آيلا للسقوط • وأضاف الصديق الذى يعرف مسكن سيف ان الحكومة هى التى تشجع

على ترويج شرائط سيف الماوردى لأنه يمتص غضب النـاس وولعهـ
بالانتقاد ، وان شرائطه متوفرة فى كل مكان لكن معظمها سىء التسجيل
وميزة ان ندعو سيف الماوردى للغناء هنا أن نحصل على تسجيلات نقية
صافية لا يشوبها هياج أو لغط • فقال الصديق الخبيث بلهجة ذات معنى
ان هذا مطلوب بالفعل لكى يجد المشترون نسخة تستحق الدفع الثمين !!

قلت أنا ان الأوساط جميعها يمكن أن يتواجد فيهـا من يتاجر بأى شىء غير صالح للتجارة • لكننى أوقن ان الأشياء دائمـا لا تأخذ وجهها الصحيح أبدا نتيجة لوجود التجار والمقامرين الكبار ، انهم فئة طاغية باغية تحترف المتاجرة ولو بمصائر الشعوب بأكملها ، ولأنهم أذكياء وأقوياء بشكل ما فانهم ينجحون فى تغيير وجه الأشياء بألعاب جهنمية ، وعلينا نحن يا من نؤمن بدور الثقافة أن نتبصر أمر هؤلاء قبل كل شىء ونبصر الناس بهم • فلم يعلق أحد • فقلت : هل تدهشون اذا قلت لكم اننى لم أعد معجبا بأغنيات سـيف الماوردى ؟ • قالوا فى تشكك : ألهذا لم تتصل به من قبل ؟ • قلت : ربما ولكننى لم أعد معجبا بأغانيه ولا بشخصيته نفسها ، لقد استمعت الى الشرائط التى عرضت علينا الآن ، والى غيرها فى مناسبات سابقة كثيرة جدا ، وآخـر كلام أستطيع أن أقوله بشأن هذه الأغانى انها لم تعد تبهرنى كما كانت وقد أجدنى منساقا الى ترديد بعض أنغامها ، ولكن من قبيل استحلاء النغم أو الايقاع ، وهذه نصوص متناثرة كما نعلم ، بعضها ردود فعل لعصر سابق ، وبعضها تعبير عن العصر الحالى ، فلا نجد سوى كلاما مزبلحا زبلحة شعبية فى صورة فنيـة لطيفة ، وهذه الزبلحـة ـ أى تشايه الجميل المتسق بشىء دخيل اقتضته الضرورة ـ لها أسماء كثيرة فى قاموسنا العامى اذا أردنا ترجمة غير حرفية أو مدلولا قريبا الى الذهن قل انها من الردح يجوز ، نوعا من التريقـةُ يجوز ، نوعا من تلعيب الحواجب وتطليع اللسان يجوز ، انه غنـاء الزعر المنسحقين المنحطين غناء من تحت عقب الباب ، غناء الخدم الذين يستنجدون بأى قوة

يعرفون مقدما أنها لن تهب ـ اذا هبت ـ لنجدتهم بل للتسيد عليهم ، فليس فى الأرض قوة تهب لنجدة المظلومين أبدا أبدا أبدا ، هذه حقيقة يجب أن تكون فى وضـوح الشمـس يستظل بها الكافة ، ان العواء والصراخ حتى وهو يتحول الى غناء كهذا الغنـاء يصبح اغراء للقوى الغارجية المتحفزة ، يصبح جذبا ، يصبح هو الصـوت الشجى لذى يناديها قائلا : تعالى واركبينى وطوحى ساقيك على مؤخرة أبائى وأجدادى وامهاتى •• ما هكذا يكون الغناء أبدا •• ان ما بهرنى فيه سابقا هو الشعور ان للغناء ثمة دور حاسم يسمو به عن الترفيه الرخيص •• لكن قدرة المؤلف والمغنى وقفت عند هذا الحد فحسب ولم تتقـدم ، ولأنهما ليس وراءهما ثقافة عظيمة توارى الدور فان تيار الاعجاب ـ وهو تلقائى دهمائى خشن ـ جرفها بلذة فائقـة الى التنفيس عما فى صدور الجماهير من آهات مكبوته ، مثلهما كمثل الخبير بمواضـع الآلام فى جسدك فيروح يهرش لك فيهـا وأنت تتلذذ ، وهو يهرش وأنت تتلذذ ، وسوف ترعى فى جسدك البثور والدمامل والغرغرينات ويؤوب جسدك الى جده أيوب من جديد ولكن بدون سيادة أو عظمة • صحيح ان الأغنية الشعبية فى تاريخ الشعب الأزرقى كانت فى معظمها نوعا من المعارضة أو الاحتجاج ، ولكنها كانت قبل هذا وفوق هذا تحمل مضمونا انسانيا محسوما وقويا ، ولم تكن تستهدف أشـخاصا بعينهم للتنديد بهم أو فضحهم •• وانى لاحتقر دور كل هذه الأغنيات الماوردية الى حد الازدراء • وأعتبر أن مثقفى بنى الأزرق مجرد دهمـاء فى حقـل الثقافة ، فرغم أسمائهم الكبيرة وسمعتهم الرنانة يشجعون ظواهـر ومعتقدات وأوضاع وأشياء من شأنها دائما تثبيت الشىء وترسـيخه بل وخلق وضع له دون أن تدرى ، أو لعلها تدرى فيحق لنـا حينئذ أن نعتبرهم جميعا خـونة للشعب ولأنفسـهم •• لكل هذا فأنـا ـ اسمحوا لى ـ ضد كل فن أو أدب أو كلمة تساهم فى اشـاعة مناخ الهزيمة والضعف ، ضد كل فن أو أدب يسـاهم فى تجهيل النـاس أو خداعهم ، وضد ـ بالأحرى ـ الأدب والفن الذى ينتجه المذهبيون

من شـــيوعيين ودينيين وعقائديين وما الى ذلك وأمقت الذين ينتجونه لأنهم سخروا مواهبهم فى توسيع رقعة التحيز لأفكار بعينها أو عقائد بعينها أو عصور بعينها أى أنهـــم أجرموا ليس فقط فى حق أنفسهم بالحكم عليها بالانحصار والترقع والتخلف ، بل فى حق الناس الذين تأثروا بفنونهم وآدابهم فاستضاءت فترات وتعتمت فترات ، وسادت أفكار وماتت أفكار ، وخطـــر ذلك انه يؤدى الى تجزىء الانســـــان وتمزيقه ·

وكانت هذه الخطبة الانشائية التى تخلو فى نظرى من كل معنى قد خلبت لب الأصدقاء فعرفت أنهم غـلابة الى حد ما ، ليس لمحدودية ثقافتهم فحسب بل لأن نصف مواهبهم تضيع فى الكيد بعضهم لبعض ، وافتعال فصول ونوادر شيطانية للتسفيه من قيمة بعضهم بعض ومن أصل بعضهم بعض ، مجموعة أحس عن يقين رغم اجتماعنا فى شقتى اننا لم ولن نجتمع فى يوم من الايام على شىء حقيقى ·· أفليس مثلهم الأعلى أغنيات على هذه الشرائط كتبت ولحنت خصيصا لشتم واحـــد واتهامه بالخيانة ، أليس طريفا وفوريا انهم يبالغون فى الاعجاب بهذه الشرائط وما عليها ، دون أن يلاحظوا ان أســـماء بعض الشخصيات اللامعة وردت فى بعض الأغانى باعتبـــارها المثل الأعلى فى الثورية ، ووردت فى أغنيـــات أخرى حديثة باعتبـارها شخصيات زرية خائنة وضيعة ؟ فاذا كانت الأغنية الأولى قد أعطت الدليـــل المقنع على ثورية هذا الشخص فى حين قدمت الأغنية الثانية الدليل المقنع على خيانتـــه وانحطاطه فأين الحقيقة تكون ؟ ان سـلاح الفن لا يصلح الا للتمجيـــد فحسب ، ولهذا فالواجب أن نختار قيما نجسدها ونصنع لها تمثالا ، وليست قيمة الفنان فى انه يعرف كيف يتفنن ، انما قيمته فى مدى وعيه بخطورة السلاح الذى وهبه الله ·

ان مأساة جيلنا انه لم يجد له أخوة كبار يؤنســـون وحشتـه ويبادلونه بث الأسرار والمعـارف ، فوجئنا بأن علينا أن نتصـــل رأسا

بالآلهة ، المسيطرين الكبار من جيـــل الخمسينات ، فكيف نستطيع الوصول اليهم أصلا وهم فى عليائهم بله أن نقترب منهم ، انهـــم آباء فرضوا علينا فرضا وليس ثمة من معابر أو قناطر بيننـــا وبينهم حتى ويقف الماوردى يعتبر نفسه الها متواضعا يسير بين البشر · وأكبر اثر تركه فينا صراع جيل الخمسينات مع جيـــل الستينات هو أن كثرت بيننا عيوبهم المتورمة ، التحمس بلا ثورية حقيقية وبلا مضمون سياسى عقلى وبلا مبادىء حقيقة ، القسوة والعنف فى معاملة بعضهم لبعض ·

ثم أنهيت كلامى قائلا : اننى مع ذلك موافق على دعوة خالى سيف الماوردى الى شفتى ، والتعرف عليه ان أمكن ، اذ اننى ـ تقريبا ـ لم أعد اتذكر شكله الا من خلال حكاياهم عنه فى بلدتنا يوم زارها خلسة فى أواسط الستينات ··

ويبدو أننى قد أثرت فضولهم ، اذ رأيتهم جميعا يهتفون برغبة الذهاب اليه فى نفس الليلة ، ليس برغبة توجيه الدعوة اليه ، بل بحب استطلاع مما يمكن أن يحدث بيننا لحظة اللقاء ··

★★★

عاصمة بنى الأزرق تحمل ملامح كثيرة من قاهرة المعز ، فهذه الأخيرة هى الأعرق والأقوم · لكن المساوى والمهاوى التى يحفل بها النموذج المقلد ـ بفتح اللام ـ لا يتحمل نتيجتها الباهظة فى العادة الا النموذج المقلد ـ بكسر اللام ، ولهذا فان الأحياء المملوكية منتشرة جدا فى عاصمة بنى الازرق ، مجرد ديكور قديم ، فاذا كانت قاهرة المعز هى التى رأت هذا التاريخ وعاشته أحداثا واقعة ، فان عاصمة بنى الأزرق تعيش التاريخ تاريخا تمعن فى تقليده واعادة تمثيله من جديد فترة وراء فترة وبأمانة الراهبين فى الابقاء على هذا التاريخ العظيم حيا قائما ··

وهكذا دخلت مع الأصدقاء حيا مملوكيا قرأت أسماء الكثير من لافتاته الزرقاء فى كتب التاريخ ، الحى حافل بالباعة والبضائع والأموال على الأرض والأرصفة متناثرة · عن يميننا ميدان المشهد الأزرقى · وعن يسارنا حى الكرابجية الذى قيل انه كان يستوطنه جماعة تحترف صنع الكرابيج التى يحضر لشرائها سياح من جميع أنحاء البلاد ··

دخلنا فى حارة أفضت بنا الى حارة ثم عطفة ثم حودة ثم اختراق بوابات ودهاليز ، حتى صرنا فى حارة طويلة عريضة يخيم على جوها ارهاب خفى غريب ، والناس تتحرش ببعضها ، والمطاوى مشرعة على الدوام ، وثمة ترابيزات متناثرة عليها قطع الحشيش بأصنافه والأفيون بأنواعه · فذعرت ، وهمسوا فى أذنى قائلين أننا فى حى تجارة الحشيش ومركزها الرئيسى فى البلاد ، وان علينا أن نسير مؤدبين وفى حالنا دراا للحكومة أو للبلطجية · وهكذا أغلقنا الآذان عن كل الدعوات التى وجهت الينا ونحن سائرون قائلة : « اتفرج يابيه ·· عندى حشيش طازة حلو ·· شوف واتفرج ·· زيت ما اتخاطش لسه ·· اتفضل يابيه ·· احنا عندنا مبدأ ترجيع الحشيش اللى ما يعجبكش حتى بعد ما تشربه كمان » · فلا نلتفت الى أحد أى التفات ، وان كانت نوازعنا قد تمنت أن يحصل كل منا على قطعة · وحين مال الولد الذى يعرف المسكن قائلا ان علينا ــ على فكرة ــ بشراء قطعة حشيش كبيرة نحيى بها سيف الماوردى ، وجد ترحيبا عظيما واستعدادا لدفع الفلوس فى الحال · ووجدنا ان جميع الناس تتوقف وتتفرج وتقلب وتختار وتشترى بكل بساطة · وقفنا نحن أيضا وتفرجنا واشترينا ربع أوقية وقطعة أفيون صغيرة لزوم السهر بثلاثين جنيه · ثم رجبنا جميعا ــ ولأول مرة ــ أن تظل هذه الأمانة فى حوزة الصديق ليقدمها حين الخروج من منطقة الخطر ··

غير انه دخل بنا فى حارة جانبية قذرة جدا · تنتهى نظافتها عند بيت على زاوية لتبدأ فى الحودة بيوت عبارة عن هياكل بنائية فقط ، بعضها يميل على بعض ويتمرد · بدأت أفقد الثقة فى أن يكون ثمة بشر ها هنا

يسكنون . اذ هبطنا صحن دار مظلمة تماما وشرعنا فى صعود سلم متآكل ذى كئيب ، وصديقى حامل الحشيش يصيح بنا فى ذعر : حاسب ·· شمالك ·· فيه بسطة فوقك ·· حنجود ·· يمين ·· شمال على طول ·· يمين تانى ·· أيوه ·· اطلع ·· شمال وانزل ·· أيوه ·· وطى راسك شوية » · وهكذا حتى اصطدمت رؤوسنا عشرات المرات كأننا مجموعة من الديدان تزحف بين فراغات الصخور الجوفية · فلما انفتح أمام طرقاتنا باب قميء نظرنا فى الضوء العليل المنبعث من لمبة جاز نمرة خمسة فى الحجرة التى تواجهنا على بعد خطوتين فى ممر تمشى فيه بجنبك فقط . وعشرات من الأفندية المثقفين والطلاب والصحفيين يجلسون فوق بعضهم كيفما اتفق · اذ لا أثاث فى الحجرة سوى سرير حديدى سفرى مفروش بطبقة من العرق المتجلد المتصلب ، يجلس فوقه سيف الماوردى بعوده وبجواره المؤلف الحلو ، ومجموعة من الرجال والنساء ، وتناثر الباقون على الأرض فوق جرائد مفروشة ودكك خشبية خشنة ··

بهرت · لايمكن أن يكون هذا سيف الماوردى · لقد سمعت انه يعيش فى شقة لطيفة عيشة نظيفة كريمة ، ولم أكن أتصور أبدا أن يعيش هذه العيشة المنحطة · وكدت أبكى من الشعور بالانسحاق · وقال صديقى حامل الحشيش ان سيف الماوردى قد طرد من جميع الشقق التى استمعت له فيما قبل لأسباب متعددة · وكانت الحكومة قد طار لبها مرارا وسجنته مرارا . وضيقت عليه خناق الزوار ، فصار لا يجد حتى قوت يومه . وهذه الحجرة التى يقيم فيها ليست حجرته انما هى حجرة ولد من هذه الحارة ورثها عن أمه وليس له شغلة ولا مشغلة فى الأصل سوى السمسرة بريزة او شلن من وراء ربع قرش يشتريه لك ، ولما جاء ناس يسألون عن حجرة لهذا الرجل الغلبان سيف تلقفه لعله يعيش من ورائه ، وبالفعل فوجئ بأن سيف الماوردى هذا مهم وله جمهور غفير يجيء بالخير ، ولكنه يجيء أيضا بالحكومة فى كل لحظة لتأخذهم الى الحبس فى المعتقل شهورا ·· على ان الزوار سرعان ما مسحوا مخ الولد وأوهموه أنه فنان حقيقى ذو قضية

لمجرد انه رسم أمامهم زخرفة يدارى بها شكل دولاب الحائط القبيح ، فاذا به قد رسم لوحة كما قالوا ، واذا بهم ينشرونها فى الصـحف ، ويتكلمون عنه باعتباره فنان ، واذا به يطلق العنان لخياله الأهوج المعوق فيرسم تخاريف لامعنى لها ولكنهم يعاملونها باحترام هازىء ويشترونها منه ببعض نقود .. فأصبح يتقبل الاعتقال ويسعى اليه سعيدا ، وصار مرافقا لسيف الماوردى أينما ذهب ، وعمرت حقيبته بالبقشيشات وعمر ذهنه بالالفـاظ والتعابير البراقة التى يرددها بلا وعى أو قصـد أو ارادة ..

حينئذ قلت للصديق اذ روى لى ، اننى أرجوه ألا يجىء بسيرة قرابتى لسيف حتى لا يعرضه ذلك للحرج أمامى .. نعم لست أحب أن يعرف سيف اننى ابن شقيقته الآن لأنه لا يود أن أراه فى مثل هذه الحالة المنحطة . وأنذرت صديقى ان هو قدمنى بهذا الاعتبار فسوف أكذبه . فوعد الصديق بعدم فتح هذه السيرة .

★ ★ ★

أخذنا نعد الترتيبات اللازمة لزيارة سيف الماوردى لشقتى . كنت أحس بخوف عميق لمجرد انتشار الخبر بين الزملاء . حتى ذلك الشاب الذى كان قد علق على اسم بهية مقلدا محمد العزبى ، التقيت به فاذا هو شقيق بهية واذا هو ملم بالخبر . ودعوته على الحضور ، وقلت له ان سيف الماوردى سوف يحضر الى شقتى ليس باعتباره المغنى المدعو للغناء بل لانه أحد أقاربى سيجىء لزيارتى فحسب . ودعانى هو على شرب « حاجة ساقعة » فى مكان ما فرحبت على الفور ..

انطلق بسيارته الى مكان بعيد ساحر فى سفح احدى الهضاب الجبلية الجميلة . وأخرج من حقيبة السـيارة كراسى حديدية كالأسرة مطبقة كالحقيبة وتنفرد بفرش من المشمع المتين . كما أخرج أيضا ثلاجة صغيرة

وزجاجة ويسكى وبعض المأكولات المعلبة . شربنا وأكلنا واستمعنا الى الموسيقى الأجنبية بل ونسينا الغرض من اللقاء ان كان ثمة غرض آخر . وواقع الأمر اننى خلال اللقاء حصلت على اجابات شافية لعديد من الأسئلة التى كانت تدور فى ذهنى ، أهمها ما ثرثر به حول حفل عيد الميلاد .. يا .. كان ولدا لطيفا حقا ، ولو ان شخصيتى فارغة فراغ شخصيته لأصبح من أعز أصدقائى . لقد سب الحفل وأصحابه وكل ما جرى فيه ، حيث قد كلفهم الحفل مبالغ طائلة حرمتهم من مصروف جانبى كثير ، والسبب أمه ، فهى صديقة لأم راندا ، وهى تسعى دائما لكسب صلة هذه السـيدة باستمرار معتقدة ان أخاها عبد الجبار بماله من سلطات داهمة يعتبر ثروة اضافية بالنسبة لهم . ولأن أمه فوق ذلك تعرف الفنانة رشا الخضرى اذ هى جارة مباشرة لهم وتعرف عنها كثيرا من المضايقات ويحدث بينهما الكثير من المجاملات لهذا فقد تلقت أمه وعدا من أم فهيمة بالحضور اذا حضرت رشا الخضرى ، وهذا معناه أن ينفق أبوه كل هذه المبالغ ويدفع لكل هؤلاء المطربين والراقصات لكى يكون الحفل مشرفا يليق بحضور رجل كعبد الجبار . قلت من فزع : « هل حضر عبد الجبار الى الحفل ؟ » . قال الولد اللطيف : « نعم .. أكنت نائما يومها ؟ » . ثم أضاف وهو يزغدنى بكأس :

ـ « لقد حضر وحضر .. وجلس برهة انهار فيها وفقد توازنه وصار يضحك ويدمع .. ويفعل حركات كالأطفال الأشقياء .. كل ذلك ـ تصور ـ بمجرد رؤيته وجه رشا الخضرى من بعيد وعبر فتحة بين ستارتين .. فما بالك لو جالسها ورآها كاملة ؟ .. المسكين تلقى الأمر بالانصراف من همسة جاءت بها راندا .. فمضى زاعما ان موعدا مع ضيف هام قد حان .. لكنه قبل أن ينهض .. كانت رسالة منه قد أعطيت للفنانة رشا الخضرى وبقية المشاركين فى الحفل .. أما الآخرون فانه أعطاهم نقوطهم عينا بعين عبر أمناء .. أما رسالة رشا الخضرى فقد أخذتها أنا لتوصيلها وكانت .. أتدرى كم ؟ .. عشرة آلاف جنيه .. باعتبارى ابن الأسرة الأمين فانه قد

اصطفانى فى السر على جنب وأوصانى بأن أختلس لحظة انفراد بالفنانة رشا الخضرى وأعطيها هذا المبلغ كهدية خاصة من عبد الجبار بك ·· من كثرة الفرح شهقت يا أخى يا مأمون ·· قال لى سيادته وهو يسلمنى اللفة الكبيرة فى جرنان استخرجه من شنطة السيارة : ماتنساش ياليم ·· اوعى تنسى تقول لها تتصل بى ·· قلت له : حاضر يا أونكل ·· اطمئن يا اونكل ·· تأبطت اللفة ·· اختفيت بها فى حجرتى الخاصة ·· فككتها سقط منها خطاب عليه عدد من النمر السرية لتليفوناته الخفية ·· الذى جعلنى أفتح اللفة أصلا يجعلنى أفتح الخطاب ·· فلما قرأته قررت اختلاس الأمانة كلها نكاية فيه ·· لكننى تنازلت عن بضع مئات منها وضعتها فى نفس اللفة الكبيرة ثم دخلت فوضعتها على الصينية بين الهدايا وهمست فى اذن رشا همسة مضغمة لا تقول أى شىء محدد ·· فهزت رأسها وقالت شكرا ·· وبهذا قد أشهدت الجميع على أننى سلمت لرشا لفة جرنان كبيرة واننى همست باسم صاحب الهدية الذى عرف الحاضرون بالايحاء انها من البيك الكبير ·· فنظروا الى فهيمة وراندا نظرة ذات معنى ثم ابتسموا » ··

جرعت الكأس كله كأننى سكير أصيل ، وجذبت « ليم » من ذراعه قائـــلا :

ـ « انتظر ياليم ·· أنت قلت الآن انك فتحت الخطاب ·· فما الذى كان فيه ·· ان ما فيه لهام جدا بالنسبة لى ·· نعم قل لى بربك ماذا كان فى الخطاب ؟ » ··

فشوح « ليم » بذراعه الرفيعة واكتس وجهه الدقيق المسمسم حمرة قانية ، ثم قال :

ـ « مراهقة عجوز متهتك لا أكثر ولا أقل » ··

قلت بحماس يقرب من الغضب :

ـ « ماذا قال بالتحديد ·· بالحرف الواحد ان أمكن ؟ » ··

تفكر « ليم » بعض الوقت · ثم صب لنفسه ملحق كأس جرعه وأشعل سيجارة · وكان مضطجعا على الأرض ببنطلونه الجينز الفاخر والقميص على اللحم ، وقال كأنه عجوز حكيم يدلى بأوصاف طفل تائه :

ـ « كلام من قبيل ياحبة القلب ، يالؤلؤة العين ، ياجوهرة الفؤاد ·· أهديك أغنية أنا من ضيع فى الأوهام عمره ·· اننى أنتظر لقاءك على أحر من الجمر ·· فبادرى بالاتصال بى ·· سأنقلك الى دنيا من الأسرار لو قبلت الارتباط بى ·· أقيم لك شقة فى أمريكـــا ، فى سويسرا ، فى القمر لو أردت ·· الخ ·· الخ » ··

ثم شد نفسا عميقا من السيجارة فهمت منه انه فى غاية الضيق من هذه الأسرة وهذه العلاقات غير الطبيعية وهؤلاء البشر المرضى بأمراض يصعب علاجها فقلت له :

ـ وهل أعطيتها الخطاب يا ليم ؟

قال ملتفتا الى فى استنكار شديد :

ـ « لا طبعا » ··

ثم أضاف مبررا غضبه :

ـ « لقد كنت أتحرج من توصيل الأمانة لشبهة أن يكون فيها جانبا من القوادة ·· فماذا يكون موقفى وقد تأكدت من الخطاب ؟ ان دورى هو القواد لا أزيد ولا أقل ·· لقد مزقت الخطاب طبعا ـ انهم ناس رخاص ياعم مأمون ·· فى يدهم الأموال كأنها الجبال ·· ولا مانع لديهم من دفعها كلها مقابل ارضاء رغبة رخيصة منحطة ·· عليهم اللعنة » ··

يومذاك شعرت ان « ليم » ، أو عبد الحليم ـ هو أصدق نموذج يمكن أن تخلفه بيئة كهذه ، وانه يمكن أن يكون صديق فكاهة الفرج من خلاله

على أسوأ ما سوف يراه وادى الأزرق بعد ذلك من أجيال . وكنت أهدف من وراء تلبيتى لدعواه أن يدعو أخته باهى وصديقتهما « راندا » لتشريفى بالزيارة فى شقتى . للاستفادة بنفوذ راندا اذا ما حدثت أشياء غير سارة .. ولكننى بعد لقائى ذاك بليم قررت الا أدعوهم الى شيء على الاطلاق .

* * *

اكتظت الشقة عن آخرها بمجموعة سيف الماوردى وحدها ، القادمين معه من أتباع وعشاق وحامل عود ونافخ نار وحامل جوزة وحامل حشيش . قل ان مدخل العمارة كله قد انتهك تقريبا وامتلأ بالكراسى الاضافية المستعارة من البواب على مضض . وبقى باب الشقة مفتوحا . ثم لم يعجبنى ذلك المشهد فاعتذرت لصاحب العمارة وللبواب وزعمت انه حفل عيد ميلادى وكل سنة وهو طيب والعقبى للأنجال ، ففتل شاربه من الانبساط وجاء ليجلس معه قليلا على سبيل التحية . فوجد ان الشقة قد انقلبت الى غرزة غريبة تمتلىء بناس من كل لون يتناحرون على الشرب والتوليع ونوع التعميرة ويثيرون ضجيجا فارغا ، والجو يمتلىء بعواصف من الدخان الأزرق الكثيف تحجب الكثير جدا من الملامح والوجوه .. وسيف الماوردى يتقافز فى جلسته مع العود مغنيا والجمع من الحفظة يردد خلفه ويشيع كل ذلك جوا من البهجة المحفوفة بالخطر . ثم أن صراخ الكلمات فى الأغانى صار أوضح من الألحان وأكثر طغيانا فتجسد الخطر . هم يغنون أى نغم ، ولكن عبارات خطيرة تفرقع لاعنة حكاما ومسئولين ومنددة بأوضاع وهكذا ، وأجهزة تسجيل تعمل بلا انقطاع ، لو فرغنا شرائطها لوجدنا غابة من الأصوات البوهيمية تختلط فيها الكلمات بالصخب الطائش بالنكت البذيئة بالتعليقات الجارحة بكركرة الجوزة بكل ما فى اللحظة من تفكك وتدن ..

استأذن صاحب العمارة ومضى لينام . وبعد خروجه بنصف ساعة أو أقل قليلا فوجئنا بطائفة من أمناء الشرطة والضباط يقتحموننا ثم يطوقوننا

بحزام حديدى ويتم تفتيشنا بكل غلظة . حتى البنات الحاضرات تم تفتيشها ببذاءة وتم تجريحهن عن عمد ، وتم التحفظ على أجهزة التسجيل والشرائط والجوزة والحجارة وقطع الحشيش الموجودة . ثم تم شحننا فى عربة البوليس . وفى القسم وجهت لى تهمة مذهلة : « أنت متهم باقتحام شقة الغير واقامة حفل غير مشروع بها ، تبغى من ورائه التآمر على النظام ومحاولة قلب نظام الحكم » ..

صحت من ذهول :

ـ « كيف يا سعادة البيك ؟ .. لقد كنت أحتفل بعيد ميلادى فى قلب شقتى .. وكل هؤلاء الأصدقاء حضروا للتهنئة .. كونهم بالغوا فى اظهار الفرح « لا يعنى هذا الاتهام » ..

قال المحقق :

ـ « لقد كذبت فى نقطتين هامتين كذبا صريحا .. الأولى انك احتفلت هذا اليوم فى حين ان تاريخ ميلادك المدون فى بطاقتك يرجع الى قبل يوم الاحتفال بشهور طويلة .. فهل تحتفل بأثر رجعى ؟ .. النقطة الثانية انك أدعيت انها شقتك » ..

رحت . وقعت من طولى . تجاهلت حكاية تاريخ الميلاد وشبطت فى النقطة الثانية قائلا :

ـ « لست أدعى .. هى شقتى .. باسمى » ..

قال المحقق :

ـ « معك عقد ؟ » ..

قلت : « أينعم » . قال : « أرنيه » . فبحثت فى جيوبى وذاكرتى ثم حط الذهول على ، اذ تذكرت اننى رميت بالعقد فى سيارة الآنسة راندا ولم أسترده لسذاجتى . فقلت له ببساطة : « آسف .. العقد مع الآنسة

راندا ابنة شقيقه عبد الجبار .. كنت معها فى سيارتها الخاصة ونسيته فيها » .

قال المحقق :

ـ « لا يا أستاذ .. العقد انت تنازلت عنه فى يوم كذا .. وتم تمزيقه مع المالك ، واسترد المالك شقته .. لكنه تركها لك أياما حتى تدبر شأنك .. ولكنك لم تدبر .. واقتحمت الشقة عنوة وادعيت انك لازلت تملكها .. ثم انك بكل بجاحة أقمت حفلك فيها .. ثم ان الحفل مشبوه اذ يقوم باحيائه شلة ، من الخارجين على النظام الذين سبق اتهامهم فى عشرات القضايا المشابهة .. ثم ان ما ضبط على الشرائط يثبت ان الحفل كان لغرض واحد فقط هو التشهير بالنظام ورجاله والتنديد بحياتهم الخاصة وتجريحهم بعبارات يعاقب عليها القانون » .

الحقيقة لم أجد ثمة جدوى من مراجعته فى هذا الكلام . لكننى بكل صدق حكيت له قصة الشقة من أساسها ، واعترفت له اننى ضد كل ما حاولت هذه الشرائط أن تذيعه وضد حتى أسلوب وطريقة اذاعته . ووقعت بامضائى على اننى برىء حتى من عزومة سيف الماوردى وأن صاحب الدعوة هو أحد أصدقائى واننى قبلت دعوته ورحبت بحضور الماوردى ، واننى رغم كل ذلك لا أكون متهما بشىء ، لأننى لم أتفق مع المغنى على الغناء وان رحبت بغنائه ، ولا على كلام معين يغنيه وان علمت ان غناءه معارض . فكل واحد له رأيه ويتحمل مسـئوليته وطريقة اذاعته . الخ ..

المهم اننى لخبطت لخبطة كبيرة فى كل شىء ، وخلطت من فرط الخوف بين أشياء كثيرة لا جامع بينها ولا رابط . فقد كنت حتى وقت القبض على فى شقتى أتصور ان مسألة ابداء الرأى هذه عمل محترم ، وان المواطنين خاصة المثقفين يعاملون معاملة خاصة حين التعرض لهم ، وان ثمة فرق بينهم وبين المجرمين . اذ هم على الأقل أصحاب رأى ، أى على

أقل الأقل يعرفون الحد الأدنى من حقوقهم الدستورية تجاه الدولة . فضلا عن انهم أهل فضيلة ونزاهة .. كذلك كنت أظن ان ما يشاع عن معاملة المسجونين السياسيين وما قد قرأته من شهادات كتبها خريجو سجون ما قبل ثورة بشنس ـ فالثورات عندنا أحيانا تتعاقب بتعاقب الشهور ـ ان كل ذلك محض افتراء مبالغ فيه بهدف الاساءة الى النظام الذى سجنهم .. فاذا بى يا جدع أرانى يوم القبض على مربوطا من قميصى فى قميص الآخر فى فستان الأخرى وهكذا . وكنت طول عمرى يضطرب قلبى فزعا أن ترانى أمى أو أحد معارفى وأنا مقيد اليد بالكلبشات فى تهمة سرقة أو نحو . ولا أدرى لماذا كنت أخشى ذلك واقيم له حسابا ولكننى أظن انها راجعة لكثرة رؤيتى لأولاد متشردين مقبوض عليهم على هذا النحو ، وأعترف كذلك ان هذه الخشية من مثل هذا المنظر هى التى أيقظت اهتمامى على الدوام بأن أكون شيئا مهما فى المجتمع الأزرقى أتعلم وأحمل الشهادات العالية وأشتغل بالتعبير وهكذا .. ترى ما الذى كانت تفعله أمى لو رأتنى وأنا الطالب الجامعى المحترم مقيدا ليس فقط بقيد حديدى بل مربوطا من قميصى امعانا فى الهزء بى والتقليل من شأنى واشعارى بأننى أقل حتى من حرامى الغسيل ..

ثم اننا يومها دافعنا عن أنفسنا داخل التخشيبة بين المتشردين وأرباب السوابق . دافعنا قدر الامكان ولكن الضباط والمعاونون لم يتركوا لنا شيئا نعتز به أمامهم ، ابتداء من فروج أمهاتنا وانتهاء بمؤخراتنا التى أعلنوا لنا وللجميع اننا نستخدمها فى غير أغراضها الطبيعية . وبعد انغلاق الأبواب حدثت معركة دامية بيننا وبين أرباب السوابق والمتشردين لهذا السبب الأخير عينه ، استعملت فيه المدى والأمواس والجرادل وتحطمت الأجساد تماما . وقال الضابط الذى فتح الباب علينا ونحن جثث هامدة انه سيعرف أسماء الذين استنفروا نزلاء التخشيبة وأقاموا الشغب بينهم وسيرمى بهم فى جب . ثم أغلق الباب ثانية . وهنا تقدم ثلاثة ولدان من زملائنا المشهورين باللباقة والقدرة على جذب الأصدقاء عزموا على الموجودين

كلهم بالسجائر والود ، فاستجابوا جميعا للمبادرة · ولم يمض وقت طويل حتى كان الثلاثة قد اقنعوا الجميع أنهم أخوة لهم وأنهم جيء بهم الى هنا من اجل كذا وكيت ، فالتحموا جميعا فى لمح البصر وتبادلوا العناق والاحترام وصار المتشردون وأرباب السوابق ينوبون عنا فى الاحتجاج على المعاملة وسوء الطعام ، واكتشفنا ان لهم قدرة رهيبة فى ردع الشرطة بوسائل غريبة ··

على أية حال لقد فوجئنا بأن البعض قد صدر الأمر باستمرار حبسه أربعين يوما آخرين · وكنت أنا من بين الذين أفرج عنهم · وقيل ان الآنسة راندا هى التى توسطت بنفوذها للافراج عنى ولكننى لم أتصل بها حتى لأشكرها ، ويوم الافراج عنى كان يوم عيد وبداية عذاب جديد ، اذ فوجئت بأننى مفصول من العمل لتجاوز نسبة الغياب فكان على أن أقدم التبريرات اللازمة لالغاء قرار الفصل · ولم يكن فى جيبى مليم واحد أتحرك به ، فاقترضت من جدتى معزوزة عشر جنيهات · ولم يكن هذا هو مصدر العذاب، انما العذاب الحق هو شعورى بالمهانة ، شعورى بأننى لم أعد ولن أكون — محترما بعد ذلك أبدا ، لقد انكسرت بداخلى أشياء وقيم وتدهورت مسائل كثيرة ، وباختصار لم أعد أنا هو أنا قبل القبض على ·· لكننى أيقنت بعد ذلك ان ذلك العذاب كان ارهاصا بميلاد شخصيتى الجديدة التى أصبحتها الآن ، وأعنى بها شخصية الرأى الحر الذى لابد أن أعتنقه وأدافع عنه وأفسره بعشرات الأدوات والأشكال الفنية ·· اخترت أن أقف فى جوار العدالة فى مواجهة الطغيان والظلم بجميع أنواعها وأشكالهما ، مقتنعا بأن الخوف من بطش الطغيان هو مساهمة فى الطغيان ، وان مواجهة الطغيان هى أولى محاولات هدم الطغيان وايقاف بطشه ·

بـــاب الســـــيد

★ كيف يمكن أن تتصالح الدماء فى العروق ؟

١

انتبهت فاذا « بمأمون » قد أشرف بنا على منطقة فسيحة تميزت عن بقية الأرض بوجود كثير من الأجهزة المرتفعة الغامضة ، والأبراج الحديدية العالية ؟ وأرتال من السيارات المتنوعة الأشكال والألوان والماركات ، من فناطيس الى ملاكى وجيب وما الى ذلك ، تقف متناثرة هنا وهناك ، وثمة سور من الأسلاك الشائكة تبدو أطراف حديدة من بعيد جدا حيث ينتهى البصر ، وثمة أيضا أبنية صغيرة جميلة مزركشة بالألوان يسكنها — لاشك — مهندسون وخبراء ··

وكان منظرى قد أصبح غير سار أبدا ، اذ حزمت وراء « مأمون » من أراض زراعية مروية حديثا ، وعبر قنوات صغيرة ، وبجوار مستنقعات مليئة بالزفارة الجيبة فلما توقفنا بعد سير طويل أمام هذه المساحة المميزة فوجئت بأن كل المستنقعات والأوحال التى خوضت فيها قد علقت بجسدى وبطنى وكل فروتى ، حتى صرت مقززا جدا ، ورحت مع ذلك ألحس فروتى بخجل وأدعك بوزى فى عنقى وأخلص قدمى من متعلقات سخيفة رذلة ، وصرت ألهث ولسانى ممتد أمامى كضابط الايقاع ··

« مأمون » ولد جدع كما حدست وأى جدع ، ولد يستاهل السلامة بحق وهو من فضل الله على وكرمه ·· فمن فى عصرنا هذا يضيع وقته مع

كلب مثلى محشو بالمعلومات أى نعم وملم بجحافل من الأسرار هذا صحيح ويعرف عن ماضى قضية « مأمون » مالو أبرز منه كلمة واحدة لانحلت كل العقد فى حياة « مأمون » ووصلت قضية مقتل خالته بسيمة الى حلول هذا مؤكد ، لكننى فى النهاية كلب بمعنى اننى لا أملك بله أستطيع قول شىء أو تفسير شىء أو توضيح شىء · اسمحوا لى فأنا لا أدرى ـ والله ـ ان كانت هذه صفة كلبية أصيلة أم اننا معشر الكلاب قد اكتسبناها بطول عشرتنا مع بنى البشر بوجه عام وبنى الأزرق منهم على وجه خاص · وعهدنا بالأسرار والمعارف انها كلما انفضت أمام الفعل دفعته الى الأمام وبصرته ونورته الا بين جنس الكلاب ·

وباعتبارى من جنس الكلاب القارئين فاننى أصبحت أومن برأى تكون فى داخلى عمليا طوال خبرتى العمرية والحياتية ، هو أن جنس الكلاب تنحصر كل قدراته العقلية فى المعارف الوجدانية ، ان ذاكرة الكلاب ليست فى رءوسهم بل فى قلوبهم انها ذاكرة وجدانية خالصة ولذلك فان الكلب منا لايقطع صلته الانسانية بأحد من البشر أبدا ، الا اذا بادر البشر بافقادنا هذه الذاكرة ، لكننا مع ذلك نظل أرفع مستوى منه وأعمق انسانية وأعرق حضارة ، اذ أننا حتى اذا فعل بنا صاحبنا ذلك لا نرتد عليه غدرا أو تمزيقا بل اننا قد نكتفى بأن ندير له ظهرنا وننطلق عنه الى غير رجعة · وذاكرة القلوب أو الذاكرة الوجدانية تختلف عن الذاكرة الذهنية فى شىء جميل غاية الجمال ، ذلك هو أن الذاكرة الوجدانية لايعلق بها أثر لجرح أو فعل غادر ، اذ انها سرعان ما تلتئم صلتها كأن ما حدث لم يحدث ، بمعنى أننى لو طردنى صاحبى مهانا مثخنا بالجراح وغبت عنه شهورا أو حتى سنوات ورأيته من جديد فاننى لابد أن أرتمى عليه بالأحضان وتسقط فى الحال تلك الفترة الزمنية التى غبتها عنه مهما كان طولها كأنها لم تكن ··

دون جنس الكلاب أرانى مهموما بهذه القضية الخطيرة : قضية علاقتنا بالأسرار التى نعرفها ونراها ، والمعارف التى نحصلها بكثافة ، ثم لانستفيد

بها · واذا كان قد قضى علينا بأن نعجز عن الاستفادة بها فنظل الى الأبد الابد ·· فهل يا ترى بامكاننا أن نفيد بها أسيادنا من بنى البشر ؟ · الهم ـ بنو البشر ـ يستفيدون كثيرا جدا بذاكرتنا الوجدانية وينظمون فعلية استخدامهم لها بدربة فائقة ، ابتداء من التعرف على المجرمين والقتلة وكشف آثارهم وانتهاء بتربيتى كمثـــل للوفاء وحفظ العشرة · وان ما استطيع الجزم به اننى كلب رأيت وعشت من الأحداث والأسرار ما يكاد يخرج بى عن كلبيتى · اننا معشر الكلاب حين نذوق دم العدوان بلساننا فقد ذاكرتنا تماما ، ونصاب بما يسمونه السعار اذ ربما هبرنا لحم من يطعموننا . وسر ذلك أن الكلب منا جبل على اســـتعذاب طعم العدوان والتهامه فى أى عروق جرى ، وربما كان صاحبى وسيدى الذى يطعمنى اذ انبرت نفسه على فجرت فى أمعائه جراثيم الخوف منى والعدوان على فأشم رائحتها فيصيبنى الهياج تماما ويظل يصيبنى متصاعدا كلما سخنت الدماء أمامى بجراثيم الخوف والعدوان ، فان بادر بالهجوم على بآلة حادة أو بأى شىء كنت أسرع منه فى رد العدوان بشراسة قد تسيل دمه ، وهنا تقع الكارثة ، وتكون محققة اذا ما طال دمه طرف لسانى وذقت فيه طعم العدوان ، اذ استحل لحمه على الفور ولحم بنى جنسه من كل من يعترض طريقى الهارب بعدوان ، ولقد تصيبنى رصاصة أو أقع فى حصار داهم يودى بحياتى ويحولنى الى جيفة تصلح طعاما مستساغا لبنى جنس ، ولكن والله لن يكون مؤلما لى بعد ذلك بالتأكيد ، لأننى استجيب لجبلتى الطبيعية أى وتحولت الى طعام يتغذى به بعض بنى جنس فلم أذهب هباء على أى سؤال ··

لم تطل وحدتى ، اذ أقبل « مأمون » نحوى بعد ما لف ودار حول احدى البنايات · وكان مهموما ، لكنه نظر فى نظرة شملتنى بعطفها ، ثم فحملنى من عنقى ومضى محنى القامة تجاه ساقية على مبعدة · ثم رفعنى وغطسنى فى القناة المنسربة من الساقية ، وبكتلة من الأوراق والأعشاب العفنة صار يدعك جسدى ورأسى وقدمى حتى فهمت لأول مرة معنى الكلمة

الأجنبية التى يرددها بنو الأزرق دائما بعد الاستحمام : « رفرش » · واذ أمرنى « مأمون » باشارة منه قفزت فوق طارة الساقية وجلست فى قلب شعاع الشمس المنصب على الساقية · أحسست أن غشاوات كثيرة قد انزاحت عن عينى ، وعم الصفاء كل شىء ، ونظرت كأننى أقول : « أين ذهبت بنا يا مأمون ؟ » · فجلس « مأمون » بجوارى قائلا اننا فى المنطقة التى سيشرفها عبد الجبار اليوم بالزيارة · فأعدت النظر حولى ، فرأيت ان كثيرا من الأشجار والنخيل قد تحولت بقدرة قادر الى صفوف من العساكر يسمونها فى بنى الأزرق عساكر الهجوم الفركشى نسبة الى انها منوطة بفركشة أى تجمع وأى تكتل وأى عصلجة ·

أشار اليهم « مأمون » وهو يتسم فى سخرية مريرة ويقول :

ـ « يقولون فى قريتنا على سبيل التنكيت ، والتبكيت عند بنى الأزرق يعنى التنكيد والتبكيت ، أن فرقة من هذه العساكر كلفت بفض اى تجمع فى البلدة ، فاذا بها تقتحم مجلس أسرة كبيرة معروفة فى البلدة بكثرة شبانها ورجالها وأولادها ونسائها أيضا ·· وتصر الفرقة على فضها بالقوة ·· يقال ان رب الأسرة كان رجلا حكيما ساخرا ·· أراد أن يساعد الفرقة على أداء واجبها دون عصلجة أو غباوة ·· لكن الفرقة لاتنى تهاجم مجلس الأسرة فى حملات تصدر صيحات همجية يقلدها الأطفال ضاحكين بغطيان الحلل والعصى القصيرة ·· فما كان من رب الأسرة الا أن استدعى مندوبين منهم وأجلسهما معه على باب بيته وجىء لهم بالشاى لا رشوة بل تعبيرا عن الواجب تجاههم ·· وباتفاق مع المندوبين صنع ثلاثتهم مكتب أمن فرعى خاص لا شبهة فيه ولا خيانة ·· وتعين على كل من يدخل داره ان يبرز بطاقته الشخصية فان كان لا يحمل لقب الاسرة يمنع من الدخول نهائيا ·· وقد حدث ·· وفى ظرف ساعات قليلة كانت الدار قد امتلأت وصارت تعج بالصبيان والشبان والرجال ومع ذلك لايزال الليل يحمل أبناء لم تعد بعد ·· وكان أحد المندوبين قد انساق وراء ما فى الموقف من طابع مسرحى فأصابه الشعور بالعظمة والاهمية ونتيجة لكل هذا الترحيب ··

فاذا به ينظر فى الدار نظرة تشكك غريب ، ويقول لرب الدار فى استرابه : اوائق أنت ان كل هؤلاء أولادك وأحفادك قال رب الدار : ألم تر بعينك بطاقاتهم وشهادات ميلادهم ؟ ·· فعاد المندوب يهز رأسه متشككا ويقول : ولكن كيف سمحت لنفسك بالتكاثر هكذا الى حد هذا التجمع الكبير المخيف ؟ لابد انك تتآمر ضد النظام ·· فتعال ·· وأصر على اقتياده الى المخفر ليضع بنفسه حدا ·· فابتسم ضابط المخفر وضحك حتى استلقى على قفاه ·· وكان من المفروض أن يوبخ مندوبه ويعتذر للرجل ، لكنه بسرعة ادار منطق المندوب فى رأسه · فخيل اليه أنه يحمل بعض الوجاهة فانطلق يضحك من جديد ، وفى غضب مصطنع صاح فى مندوبه أن : عيب مالكوش دعوة ببيوت الناس فاهم ولا لأ ؟ ، وصاح فى رب الدار أن : وانت يا راجل مفيش داعى للتجمهر محبكتش يعنى تتجمعوا كلكم كل يوم في ساعة واحدة ·· ثم حولها الى نكتة تدعو الى الابتسام قائلا : مش خايفين تتحسدوا ؟ » ··

ثم اندفع « مأمون » فى ضحك مكتوم · فواكبته بمجموعة من الحركات المبتهجة لكنها مبطنة بالخوف من تواجدنا ها هنا حيث نصير هدفا لفرق الهجوم الفركشى · اننى ككلب أصيل أرى من واجبى الانصراف عن هذه المنطقة برمتها والا فاننى كمن يقف أمام القطار السريع · وهكذا أخذت أتمسح فى « مأمون » راجيا اياه أن ينهض لنغادر هذا المكان · فأخذ يربت على ، ويجفف ما بقى مبتلا فى فروتى وذيلى ، ويقول فى صوت دافىء أنه لابد أن يقابل حضرة المأمور أو أحدا من المسئولين اليوم لاستصدار أمر بايقاف دفن جثة خالته فى مقابر الصدقة ، والدعوة الى فتح محضر واجراء تحقيق وتحريات حول ظروف موتها وعودتها على هذا النحو ، وقال انه بعد قليل سوف يأتى عبد الجبار ـ ليفتتح هاهنا مشروع حفر للبحث عن بترول تأكد وجوده فى هذه البقعة من قرى بنى الأزرق ، ويعلم الله ان كان ذلك حقيقيا أو هو مجرد وهم بالثراء المعاصر ؟ ولكن الذى يعنينا الآن ان عبد الجبار سيجىء ويمضى بعد ســـاعة أو ساعات ، ومن حسن الحظ ـ لا تخف ـ فانه سيجىء ويمضى من طريق آخر بعيد ، ونحن الآن فى

السَّاحة التي لا أهمية لها بالنسبة لأى شىء ، وان وجودنا نفسه لا أهمية له من قريب أو بعيد . كل ما فى الأمر اننا بعد انتهاء الموكب سنتسرب الى احد ضباط المركز الكبار ، ونستحلفه بانسانيته أن يسمع شكوانا ويقدر ظروفنا ، ورجاءنا وأن يتفضل مشكورا بمساعدتنا قدر الامكان ، ولابد أن خطورة الظرف الذى نحن فيه ستشفع لنا ما نفعل ، ذلك والا فانهم جميعا سينصرفون من هنا الى بيوتهم فتضيع علينا ساعات قد تنقذ فيها جثمان خالتى ٠٠

لا أعرف ان كانت الطمأنينة قد داخلتنى عن اقتناع أو بمجرد لمسات يد « مأمون » على جلدى وأعصابى ، وكان الوقت يمضى ببطء وحرارة الشمس لاسعة فى الصميم ٠ وكان مأمون يتزحزح بى شيئا فشيئا نحو بقعة ظليلة فى حوض الساقية الذى يشبه حوض البانيو الى حد كبير ٠ فاضطجع فيه متمددا ، كأنه نائم فى البانيو ، نفس الضجعة التى كانت عليها جثة خالته بسيمة يوم اكتشفت فى بئر ساقية كهذه ، وكان مستوحدا تماما ، يشعر بكثير من الكآبة ويقاومها بكثير من الابتسام والبهجة المصطنعة ويحاول نسيان الوقت حتى لا يتعذب بالانتظار ٠ وقفزت أنا فوق جسده فنزلت باركا على صدره بالعرض فلم أشعر بأنى فى حاجة الى الاعتدال ، فبقيت مستجيبا لمداعباته وصوته الذى راح ينساب فى أذنى بغرائب مدهشة يقشعر لها بدنى ، اذ اكتشف من خلالها كيف يكاد « مأمون » يمضى الى ذاكرة الكلاب شيئا فشيئا دون أن يدرى ، اذ ها هو ذا بكل ما يحكيه يثبت بما لا يدع مجالا للشك انه عرف كثيرا من جوهر الأسرار ، بل عرف نواة كثير من الملغزات ، لقد انكشفت أمامه أسرار خاصة ليس فقط بقضية خالته بسيمة ولا بقضيته هو فحسب بل بقضية كل بنى الأزرق برمتهم ، ولكن كل ما عرفه من أسرار ومعلومات وأحداث يظل مجرد معلومات ومحض احداث عارة طالما بقى مأمون عاجزا عن ربط بعض الأزمنة ببعض الأمكنة ٠ ان نجاتك يا مأمون ، أو بمعنى أصح نجاحك فى ربط أوراق قضيتك هذه مرهون بتخليصك من الذاكرة الكلبية ، لتصبح قادرا على رؤية الزمان

الماضى فى الزمن الحالى ، تصبح قادرا على رؤية الزمان فى المكان والمكان فى الزمان ٠٠

اننى ليسعدنى أن أقوم بدور نحوه يتفوق بى فوق ذاكرتى الكلبية وينجو بمأمون من شرك الذاكرة الكلبية التى ربى عليها بمنهج الفترات الزمنية المتسلطة ، منهج أن كل فترة تستهدف أول ما تستهدف تلك الفترة التى سبقتها ، محاولة مسحها من الوجود والغائها من حساب الزمن ٠٠ فتنطبع شخصيات الأولاد بطابع غريب فادح هو التعود على التنكر للماضى والتخلص من مسئوليته على الدوام ، فكل ماض ملعون بالضرورة وعليه وحده تقع مسئوليات كافة الكوارث ، والشاب ما يكاد يشب حتى يكون مدربا على أن يعمل بمعزل عن الماضى حتى ولو كان ماضيا مجيدا ، اذ ما أسهل ما يتغير وينس ، بمعنى أصح لا يصبح لديهم اى احساس بالتاريخ أو بالأصالة ومن ثم يفقدون الاحساس بما يسمى الوطن ٠ وسر حبى لمأمون انه معنى بالبحث فى ماضيه رغم انه ماض مبعثر مجزأ مرغم علمه ما فيه من تقزز وعار بمجرد بحثه فيه ، لأن البحث شرف وعلو ، أما التنكر للماضى فهو العار بعينه ، وهو تكريس للعار أبد الدهر ، وربما يكون قد شاع فى صورة عار ما ليس بعار فحينئذ ينقلب وجه العار ، وربما يكون العار الحقيقى ما كان دائما هو الأخفى ٠ كذلك من أسباب حبى لمأمون ايمانه بأن اتصال التاريخ على عاره أكثر شرفا بكثير جدا من الفصل بين فتراته لتعتيم فترة وتزييف أخرى لحساب الحاضر وهكذا مما يحدث كثيرا فى مناهج بنى الأزرق ٠٠

على أن عمق المأساة فى قضية مأمون انها غير متصلة الحلقات تكاد تصبح بلا تاريخ على الاطلاق فى حوزته ٠ كل ما يعرفه عن حياة خالته بسيمة مجرد حكايا وحواديت أو وقائع تشبه الأساطير حدثت فى أزمنة متعددة فى أمكنة متعددة ومعظمها مجهولة الأماكن أو مجهولة الأزمنة ٠ لقد ورث باختياره قضية بلا أوراق وبلا مستندات لأنها بلا تاريخ موثق بين يديه ٠ لكن مأمون قد بدأ يقول أشياء تكشف لى ايمانه بكثير من حقائق

تبدو كالأساطير هى الاخرى ، هى حقائق فى نظره ، اذ يقول انه منذ أصيب بشبه المرحومة لم يعد له خيار ، ان التشابه بينه وبين خالته يثبت ان دماء الأجناس البشرية تكون عبقرية فى وضع بصمتها الدامغة على وجوه قادمة بعد ازمنة طويلة تكرر بها أشكالا ووجوها بنصها وظلالها عاشت قبل ذلك بسنوات طويلة ، ليس غراما بالتكرار ـ فى حد ذاته فليس من ثراء الطبيعة التكرار ، بل لكى ترشد بصمة الشكل الى بقايا دمائها خلف أشكال طبق الاصل منها كانت الأزمنة قد بعثرتها فى أماكن عدة وحجبت بينها الأحداث والمشاحنات ورخيص الرغبات ؟ واذ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : تخيروا لنطفكم فان العرق دساس ، واذا يقول العامة أن العرق يمد الى سابع جد . واذ نكتشف نحن حقيقة ذلك على مدى الأجيال .. أفليس من المحتمل ان تكون فصائل بعينها من الأجناس البشرية أو جميع الفصائل فى جميع الأجناس ، تحتوى على اشعاعات وذبذبات تنادى بها بقاياها وأصولها المتبددة فى أماكن متباينة فى أزمنة عدة ؟ ..

ان طلبتم رأيى ككلب فاننى أجزم أنا الآخر بذلك ، اذ أن صلتى بجميع البشر والأجناس انما تقوم على حاسة الشم ، كل صداقاتى وعلاقاتى تقوم على قدرة أنفى على اختيار نوعية الدماء وما يجرى بداخلها من أنواع الجراثيم والخلايا والمكونات . وعموما فان قدرة بنى البشر لاتزال تكشف عن كثير من الأسرار والمعلومات الكونية المذهلة . لقد قرأت ان آلة تصوير حديثة تستطيع أن تصور أثرك على الكرسى بعد أن تقوم انت من عليه وتمضى . ولو نظرت فى الصورة لوجدت هيكلا ضوئيا يتشكل بشكل جلستك قبل أن تقوم مباشرة ، ذلك هو الاشعاع الضوئى الذى يتركه جسم الانسان فى أى مكان يحل به ، ويقال ان ذلك الاشعاع يبقى فى المكان مدة طويلة . وتجرى الأبحاث لمعرفة أين يذهب ، وتميل بعض الآراء الى انه لا يذهب بل يمكث فى نفس المكان .. ورأيى أن ذلك قد يفسر اشتياق الانسان لزيارة أماكن سبق أن زارها ، انه فى الواقع يزور اشعاعه الذى تركه فيها من قبل . ان اشعاعه يناديه ، واذا لم يكن الانسان

قد زار مكانا من قبل واشتاق لزيارته فلابد أن يكون له فيه بقايا اشعاع أو أصول اشعاع لدماء من أهله المجهولين هذا وحده ما يجعلنى أظن ان مثل هذا الاشعاع يكون بعض الأسباب التى يتحرك بها مأمون مدفوعا للتردد على أمكنة بعينها .

٢

قال « مأمون » :

ـ منذ شهور قليلة كنت قد اقتنعت بأن جدى خليل يتمنى من أعماقه لو اننى سافرت ذات يوم وبحثت عن خالى فى المدينة الكبيرة الواسعة التى أتعلم فى جامعتها . هو لم يقل لى ذلك أبدا ، ولكنه كان دائما كلما انفرد بى فى لحظة صفاء يستدرجنى فى الحديث عن المدينة ، فاكتشفت من فرط شغفه بالمدينة انه يحبها لدرجة التقديس ، فلما بحثت فى تفسير منطقى يجعل جدى خليل يحب المدينة الى هذا الحد رغم انها تستتاب كل شىء ، لم أجد تفسيرا واحدا معقولا سوى أن ابنه هريدى يعيش فيها لامعا تحت اسم سيف الماوردى ويحارب الحكومة وتحاربه الحكومة ، كانت المدينة فى نظره تعنى سيف وصـــوته القاطع للرقاب تلتمع عين جدى وتسبحان فى بحيرة صافية جدا من دموع الفرح ، ويلتمع فيهما ضوء مزهو فيه ذكاء عميق وثقة لا حدود لها حين ينطق كلمة : سيف . ودائما أبدا وبدون مناسبة يضع يده على اذنه صائحا تجاهك : ماذا ؟ .. أقلت سيف ؟ ظننتك تقول سيف » . أبدا اذا جاءت سيرة المدينة أمامه بأخبار سوء يصبح هو فى ذعر وسيف ؟ ـ كأن فناء المدينة سيكون « سيف » ونماؤها يكون « سيف » ـ .

صراحة كنت أحس بالخجل من نفسى ـ كيف أعيش فى نفس المدينة مع خالى سيف ولا أحاول الاتصال به أو زيارته والتقرب اليه والعيش فى

كنفه ؟ · صحيح ما الذى منعنى من ذلك طوال السنوات الفائتة ؟ بل ما الذى جدد قلبى ونشفه الى حد أن يدعى هو الى شقتى ثم لا أتعرف عليه بنفسى ؟ ·· أية قسوة هذه بل أى عبث هذا ؟ ·· هل كتب على بطاقات دمائنا المسماة عمليا بالجنيات أن تظل بذورنا مغتربة حتى داخل الجسد الواحد ؟ حتى وان تلاقت وتعارفت ؟ أيكون الاغتراب صفة موروثة فى الدم حتى ان أبناءه بعلم أو بغير علم يساهمون فى تهتك العلاقات وعدم التآمها أبدا ؟ ·· انه اذن يكون دما ملعونا ·· ولكن كيف يستوى هذا مع كونه دم ذكى شفاف ومن شفافيته يتعرف على بقاياه وأصوله فى ناس معينين ، لا ليقيم أواصر الود بل ليمنعه من أى تلاحم انسانى ·· يا الهى أيكون هناك مثل هذا النوع من الدماء وأكون أنا منتسبا اليه ؟ ··

أعترف بأننى كنت أحب أغانى خالى سيف أول ما سمعتها ، بل لقد بهرتنى كما بهرت الكثيرين · وكنت دائما أحب ماضيه الممثل فى شخصية هريدى خليل هريدى ، وأعتبرها لم تغترب كثيرا ، وانها ربما امتدت طبيعيا فى شخصية سيف الماوردى ، لكننى لا أدرى لماذا كلما كبرت قليلا وعرفت نذرا يسيرا انقطعت بداخلى عروق انسانية يتضح انها كانت فى الأصل واهية ، وأصابنى الاحتقار لجوانب كثيرة من تراثى العائلى والشخصى من بين ما احتقرته بشدة ودون قصد منى خالى بشخصيته : هريدى وسيف ، أى اننى كرهت هريدى واحتقرت سيف ·· ربما بسبب خالتى بسيمة وما أحسه من حقد عليه لنذالته تجاهها · اعترف اننى حين علمت انه تخلى عنها فى أول مفترق طرق نقمت عليه نقمة شديدة واعتبرته أول مجرم فى حياة خالتى بسيمة · هو مجرم بدون شك أراد أو لم يرد ، سيان عندى ان كان قد مارس جرمه بوعى أو بغير وعى ، بارادة أو بدون ارادة ، كل ذلك لا يعفيه من جرمه · أليس من الطريف المحزن أن يصبح هذا الشخص علما على الوطنية فى أنظار فئة لا بأس بها من المجتمع ؟ · ما يزيدنى احتقارا له انه ليس علما ولا يحزنون ، انه مجرد لافتة لا حول لها ولا قوة تحملها الأيدى المتركبة وهو نفسه لا يعتبر نفسه بطلا قوميا والعياذ بالله ،

انما هو باعترافه وجد نفسه فى قلب الدور مرتديا ثيابا والملقن أمامه جاهز، فلعب الدور فصفق له الجمهور فركب فوق أكتاف الجمهور وأصبح مسرحا قائما بذاته تستأجره عقول أكثر ذكاء واستنارة ·

ويوم أن قبض علينا جميعا فى شقتى كان هو يردد اسمى بطلاقة وقد حفظه عن ظهر قلب باعتبارى صاحب الشقة الداعى : الطالب الجامعى الأستاذ مأمون عكاشة ·· وهكذا فى كل تحقيق · وكان الجبن المتأصل فى نفسه لايزال متأصلا وان اتخذ مظهرا من صلابة المثقفين أهل الرأى الذين لا يتذللون ولا يترخصون فى الاداء بالأقوال ، وكنت أضحك من أعماقى ، وابحث عن أصل القناع الذى استعاره ووجده على مقاس وجهه وهيكله بالضبط فوجدته رجلا محترما من أقطاب الوفد فى قريتنا ، اذ تفتحت طفولتنا على وقفاته الحادة مع العمدة والمأمور والحكام ، كان فلاحا مستنيرا فصيحا وذا شخصية ، وهكذا كان خالى سيف وهو يقف فى التحقيق متكلما ، ولكن لأن بى بعض دمائه فقد لمحت الرعشة فى ساقيه عنيفة سريعة الى حد الاختفاء · أما وهو يغنى فى شقتى فاننى لم أتح لنفسى فرصة الانفراد به أبدا حتى لا أضعف وأعرفه بنفسى قبل أن أتفهم أبعاد شخصيته ، فشغلت نفسى بمراقبة الجو ــ وما كان أغبانى بالطبع ــ ومتابعة المطالب العاجلة ، وكنت أندمج معه أحيانا اندماجا كاملا لدقائق معدودة مع شعورى بأن كثيرا من النصب والاحتيال فى تلحينه ، بمعنى أن ما يجب أن يقال بصوت جهير ولهجة خشنة يقوله هو برقة واستياء وتذلل كأنه يبكى · ولأن جمهور بنى الأزرق يصفق لكل من يبكيه فانه كان يصفق ، ولم تكن بالطبع أنغامه الا لكونه أخذها من تراث قريتنا الغنائى ، وكنت أعجب لمجرد انه تذكره واستفاد به فى نقل كلمات سياسية من هذا القبيل ، الا انه كان يلوى عنق اللحن الشعبى فجأة ويدخل به فى حودة مفاجئة يراها ختاما مناسبا لجملة أو كلمة · فيزداد اعجابى لذكائه فى التصرف بغير دراسة منهجية ، ولكن لا أعطيه احترامى أبدا ، لأنه غير خلاق وغير أصيل ، انه كائن طفيلى يعيش على حياة فن أصيل ··

ليكن كل هذا صحيحا أو مجرد أحقاد مبالغ فيها الا أننى أتعجب الآن كيف يمكن لأى سبب فى الدنيا أيا كانت نوعيته أن يجعل الانسان يلفظ دماءه ويحتقرها ؟ ·· ان أية أسباب فى الوجود لا ينبغى أن تكون قائمة بينى وبين اى أحد من اقاربى حتى ولو رفعوا هم جسور الود عنى · فليكن فى حوزتى جسر صناعى أمده أنا عبر البحور والمسافات الفاصلة بيننا حتى أصل الى أحد أقاربى قائلا : « ازى الصحة أمال » ·· فيقول بكل برود وتقل دم : أهلا أهلا عاش من شافك · ليكن ، فلو أن جسور الود كانت قائمة بيننا الآن لوجدت جثة خالتى بسيمة من يدفنها فى اكرام ويقيم على روحها الصلوات · والأحرى بى ان أقول : لو كانت جسور الود قائمة بيننا لما عادت جثة خالتى بسيمة على هذا النحو بل لما اغتربت أبدا ولا اغتربت دماؤنا · لنفرض ان جدى خليل مات الآن ؟ أيموت ويدفن كخرقة بالية وابنه علم من أعلام عاصمة بنى الأزرق الملاعيب ؟ · أليس من الأفضل أن يكون ابنه على علم بالأمور حتى لو تصرف حيالها بنذالة ؟ · ان عدم الاتصال به يعتبر نذالة من جانبى لأنه سيحتج بأنه مشغول وفى ظروف بالغة الحساسية · ومع يقينى انه سيظل ينصب علينا بهذه الحجة الرخيصة الى ما لا نهاية طالما أنه أمعن فى التنكر لأبيه ونسيان بلدته · لكننى مع ذلك لابد أن أنفى عن دمائى تهمة المروق والصد والاغتراب · سأحاول ان أثبت ان الدم الذى يجرى فى عروقى دم ذكى وغير منحط أبدا · لقد انتسبت الى هذا الدم بأى سبب ، ولن يكون لى دور فى الحياة الا بأن أتشرف بانتسابى اليه ، وسوف أتشرف بانتسابى اليه بأن أنتسب اليه ، فبى سوف أعلو به وبغيرى قد انحط قدره فهذا ليس من شأنه ، انه فى النهاية دمى ، دمى أنا ، يجرى فى عروقى وفى عروق أشخاص آخرين ، هو دمى حتى وان عاشت به نفوس كريهة وضيعة ، ولا يسمم الدم ويحرقه سوى وضاعة النوس ··

حقيقة لقد اكتشفت ـ بعد لأى كما يقولون ـ أن ميراث الدم وحده هو الذى يضع فى صفحة وجهى قليلا من الحياء ، ويرغمنى على الابقاء على

اماى وعشيرتى والتنازل عن كل شئ فى سبيل ان نكون ـ فى أسوأ الأحوال ـ صافين على البعد ، فى سبيل ان يظل هيكل الأسرة قائما · فانى كثرة ما عانيت برغم صغر سنى تيقنت تماما من ان انسانا بلا أسرة انما هو شئ مهمل تماما مهما حقق من نجاح وارتفاع شأن فى الحياة وعلو مركز وما شئت من ذلك · أترى لو تحقق لواحد منا كل هذه الاملة واكتشف انه فى النهاية مجرد فرع فى الهواء ، مجرد لوح من قارب أو سفينة تحطمت على متن أمواج هوجاء ، فدفعه الريح السريح المخادع الى ذرى عالية فى أمواج فائقة ثم اذ به يصل من العلو والرشاقة والتفرد ما لا يستطيع الوصول اليه أعظم القوارب ، مع ذلك اذا بنفس الرياح الهوج تهبط به فى منحدر يلقى به على شاطئ أو فى ممر عميق ··

لايصعد ولايبقى فى ضمير الأمم على مدى الأجيال سوى من كانت الأسرة فى دمائهم · لو فتشت فى حياة عظماء التاريخ بحثا عن سر عظمتهم الخارقة فستجد ان الذى وضع بذور العظمة فى نفوس العظماء هو حبهم لعائلاتهم الذى تتكون منه الأسرة الصغيرة ثم الكبيرة · كل العظماء كانوا يحاولون فى الأصل خلق شئ تنتفع به الأسرة ، وأسرته ليست أهل بيته فحسب ، بل لناس يرون أنفسهم على أشكالهم ويسمعون فى الليل صرخات اللاتى كانت فى بيتهم ·· ولقد فعلوا أشياء عظيمة لأنهم أحبوا أمهاتهم وخالاتهم وآبائهم وأعمامهم وأولاد الشقيقات ·

اننى وقد تأكدت من ان اخفاء التاريخ ودفن الفترات وكتمان الذكريات هو اول وأكبر جرم يقع فى حق الانسان ، وان أفظع ميراث يمكن أن يرثه انسان هو قضية ليس فى حوزته من أوراقها قصاصة واحدة ·· كان على ان ابادر باقامة الصلات مع كافة الأطراف وعلى رأسها خالى سيف أو هريدى خليل هريدى ·· انه أول مصدر من مصادر التاريخ يجب أن أبحثه : متى انقطعت الصلة بينه وبين خالتى بسيمة ؟ وهل انقطعت ؟ وهل انقطعت ثم سعى هو بعد ذلك الى لقائها ؟ وما الأمر على وجه اليقين ؟ ··

وهكذا دخلت وحدى الى ذلك الحى المملوكى العجيب ، الذى هو خليط عجيب من أزمنة متعددة متباعدة ، ومن حوارى وخرائب وعمائر ومساجد ومحلات شهيرة فى الأطعمة وحمامات نادرة ووكالات عظيمة البنيان يحتلها الصياع وقطاع الطرق . بيوت متلاحمة تميل على بعضها البعض بكل همومها . فى المواجهة خرابة ، وبجوارها من البشر على مختلف الأشكال والالوان بعربات فارهة وحناطير وكارو ، وصخب وعرق وهياج وعنف ..

فى مطعم السلامة طيبت جراح نفسى بنصف كيلو كباب دفعة واحدة ، ودفعت نصف أجرى فى أسبوع فانثال العرق الساخن على وجهى كأنه ينوح على ما ضاع منه بلا أمل فى عائد مواز . جلست على مقهى قريب وطلبت قهوة وشيشة ثم قرأت الجرائد كلها بامعان . ولاحظت اننى لم أنظر فى ساعتى ولم أشعر بأى ملل ، بل أحس أننى سوف أجلس على هذا المقهى طويلا وسأجىء له كثيرا ، بالتحديد هذا المكان المثلث الأضلاع من المقهى حيث تصبح الجلسة على الرصيف والطراوة شيئا كالحلم ، كل سكان هذه البيوت رائحون غادرون أمامى فى مواجهة مطعم الكباب الذى يطلق مهرجان رائحة كبابية صارخة ، والأطفال يحملون أطباق الفـول المدمس ووضعوا فوقها الأرغفة البلدية كأنها قطع من خدود الشمس هبطت فوق الأطباق مظلة بحزم الفجل والبقدونس والبصل ، موكب لا ينتهى من نساء تتعارك طول النهار مع الباعة حول قرش تعريفة فوق سعر « الأوطه » ، وحول استكراد المكوجى لها فى قرشين ، وحول استنكارها لحجم الشىء المباع ، وهكذا دوشة لا تنتهى ولكنها تفجر فى البشر طاقات هائلة من الابداع والامتاع ..

كانت هذه أول مرة أقعد فيها . ثم لما تكررت زياراتى للحى نفسه بررت ذلك باستحسانى للكبابجى رغم سوء أخلاق عماله وسوء النقود فى يدى . ثم اننى بعد اعتياد طويل للزيارات اكتشفت ان خالى سيف الماوردى يسكن فى هذه المنطقة بل فى هذه البقعة على وجه التحديد . وحين تذكرت

ذلك ضحكت ساخرا وقلت لنفسى : ألم تكن تعلم انه يسكن هنا ؟ . ثم أجبت على نفسى قائلا نعم ولكن هذا لم يدر بخلدى يوم انجذبت لهذا المكان . ثم اننى وجدتنى أتلهف على العودة الى الحى كأننى أحد سكانه الأصليين ، فأجلس على نفس المقهى وأقرأ الكتب وحـــدى مع الجرائد والمجلات ، أو أكتب بعض الخواطر . ومع ذلك لم اتصل بسيف الماوردى رغم اننى صرت تقريبا معروفا فى المقهى والحى ورغم اننى كنت أرى وجوها كثيرة معروفة متخذة طريقها الى مسكنه ؟ ..

الى أن دأب على الجلوس قبالتى فى المقهى شاب مثل سنى خيل الى انه مخبر سرى من مخبرى الطلاب مدفوع لمتابعتى . فاردت ان أتحداه باقامة الود معه حتى يريحنى من القلق ويأخذ ما يشاء من معلومات . لكنه فى الحق سعى الى التعرف على ، اذ شرعت مرة أدفع حساب القهوة فقال الجرسون : « الحساب وصل .. دفعه الأستاذ طارق وبيقول لك كما تشرب أيه ؟ » . فنظرت اليه شاكرا . فانتقل وجاء نحوى باسما يقول : « أظن مش عارفنى » . نهضت واقفا وسلمت عليه : « شكلك مش غريب على » . قال على الفور : « احنا زملاء فى نفس القسم فى الكلية » . قلت : « أهلا وسهلا .. تشرب أيه ؟ » . قال معترضا : « لا .. دى قهوتنا » . قلت له : « انت جاى لسيف الماوردى ؟ » . قال باسما : « أنا ساكن هنا .. بيتنا على الناصية دى » . قلت فى بعض تشكك : « أهلا وسهلا فرصة سعيدة » . قال : « أهلا بيك .. انت جاى لقريبتك ؟ .. على فكرة احنا ساكنين معاها فى نفس البيت » . قلت من خوف : « قريبتى مين خير يارب ؟ » . قال : « اوعى ماتكونش قريبها » . عاودتنى العقد القديمة . قلت فى شحوب : « أنا عارف .. لابد حاطلع شبه واحدة ثانية .. ما أنا موعود .. دايما يتضح انى شبه حد .. ولازم تكون واحدة ست .. حاجة غريبة والله » ..

فنظر « طارق » فى وجهى نظرة اندهاش واستنكار : « حاجة غريبة صحيح .. اللى يعرفها ويشوفها لازم يقول انك قريبها قرابة جامدة ..

لدرجة انى توقعت تكون بتجيلها ٠٠ من أول ما بدأت أشوفك هنا مالقتش أى مبرر غير كده » ٠ قلت له مندهشا : « هى مين ياطارق ؟ » ٠ قال طارق : « ست بتعة ٠٠ ربنا يخليها ويديها كمان وكمان ٠٠ ست طيبة قوى ٠٠ عايشة معانا هنا سنين طويلة ، كانت اتجوزت واحد كبير وعاشت معاه فى الخارج طلع مش ولابد سابته وجت على شقتها القديمة وبدأت حياتها لوحدها من أول وجديد » ٠ قلت فى تعجل وتوتر : « شغلتها ايه ولا ظروفهــا ايه هى روخره ؟ » ٠ قال طــارق : « انا مايهمنيش شغلها ٠٠ أنا بقى ٠٠ اسمح لى فى النقطة دى ٠٠ كل واحد حر يشتغل زى ما هو عايز ٠٠ محدتش عارف مين اللى ربنا راضى عنه ٠٠ لكن احنا نعرف ان فيه ناس سيرتها كويسة ومع ذلك معندهاش انسانية ولا ايمان أى رحمة ٠٠ لكن ست بتعة » ٠ قلت بضيق صدر حاولت اخفاءه : « بتشتغل أيه يعنى ؟ » ٠ قال طارق : « بيقولوا بتبيع حشيش وبتهرب مخدرات ٠٠ وساعات يقولوا بتهرب نسوان ٠٠ وربنا يستر على ولايانا ٠٠ لكن احنا الحق لله ماشفناش منها حاجة وحشة ٠٠ انما يظهر سيرتها كده لأنها متزوجة راجل غرزجى أصله صايع قديم ٠٠ اسمه كحكوح ٠٠ طول عمره لبط فى لبط ٠٠ هو اللى سوء سمعتها ٠٠ لكن الناس وكل جيرانها بيحترموها وهى بتعمل خير كتير قوى » ٠٠

تفكرت قليلا وقلت : « هيه » ٠ ويبدو أن لهجتى كانت تحمل قدرا كبيرا من الأسى ، اذ أن « طارق » نظر نحوى نظرة ذات معنى ثم قال : « أظن دلوقت تقدر تعترف بالقرابة اللى بينك وبينها ٠٠ ان كنت لمؤاخذة مستعر منها ٠٠ احنا ناس نعجبك قوى ٠٠ سيبك من وسط الجامعة والمجتمعات اياها ٠٠ الخير كله هنا والحلاوة كلها هنا والأصل كله هنا ٠٠ قريبتك باسم الله ما شاء الله خيرها على أهل الحتة كلهم ٠٠ فيه عيال هنا من أهل الحتة بتتعلم على حسابها ٠٠ وأسر عايشة على حسابها ٠٠ ربنا يديها ويديك ٠٠ لو ماكانش راضى عليها مكانش خلاها مبسوطة كده » ٠٠

فى ذلك اليوم اكتفيت بهذا القدر ٠ وقررت عدم المجىء مرة أخرى هربا مما يمكن ان أتورط فيه من مشاكل بسبب هذا الشبه الغريب

العجيب ، ذلك أن كل من ظهر أننى أشبهه اتضح انه محاط بمخاطر لا قبل لى بها ٠ فمن يحمينى من خطر هذه البتعة لو ظللت ارتاد الحى ؟ أليس من المحتمل ان تجيئنى بلوى بسببها ؟ كل شىء محتمل بالطبع ولهذا يجب ان ابتعد ٠٠

لكننى رغما عنى عدت فى اليوم التالى ، بل وسألت الجرسون عن « طارق » وكان الجرسون يقول انه يسأل عنى هو الآخر ٠ أحسست ان طارق يحبنى بنفس القدر الذى يحب به شخصية البتعة ، هل لمجرد اننى أشبهها ؟ أم لأننى كما يقول شخصية مريحة وجذابة ولبقة ؟ ٠ أيا ما كان الأمر فاننى قد قبلت عزومته على الغداء فى بيته حيث تعرفت على أهله ٠٠ البتعة ٠٠ ست بتعة ٠

●●●

كانت جميلة جمالا أقوى من ان يتركها فى مثل هذه البيئة أو مثل هذه السيرة أو مثل هذه الأعمال ٠ وكانت هى قد صعدت الى الشقة العليا بدعوة من أم طارق لتسهر معهم قليلا حتى يعود زوجها المعلم كحكوح آخر الليل ، ترتدى فستانا بسيطا فاخرا جدا لا يليق الا بسيدة مجتمع من الطراز الأول ، لكنها تلتف مع ذلك بملاءة لف وكلما تهدلت الملاءة عن رأسها او كتفها أو صدرها سارعت بعدلها واحكامها من جديد ، وتعصب رأسها بمنديل بأويه وشعرها مسرح تسريحة أولاد البلد كأنه شعر لم يذهب الى الكوافير أبدا ٠ وكانت بسيطة ، تخفى صفحة وجهها توترا أبديا ، وتنظر عينها فى الانسان بتمعن كأنها تدرسه قبل أن تتبادل معه كلمة ، وتنظر وراءها باستمرار ، وتنزعج من أى نقر غير مهذب على الباب ٠٠

حين جلست معنا فى صالة صديقى سألت بعض أسئلة عن أشياء فهمت منها أن ست بتعة كثيرا ما تعطف على جيرانها بهدايا مثل راديو صغير او فستان أو قطعة قماش أو بعض نقود ٠ تمعنت فيها جيدا ، فوجدتها

كبيرة الشبه بالفنانة رشا الخضرى ، لولا غلظة فى وجهها قليلا ، وفى الطبع وفى بعض اختلافات جانبية ، واللهجة أيضا بما فيها من تطجين بلدى • وقالت هى بشىء كثير من التدلل الحلو : « بتبص فى كده ليه ياد ؟ » • قلت : « باتشبه على حضرتك •• فيكى شبه من الفنانة رشـا الخضرى » • قالت باسمة كأنها سمعت هذا التشبيه آلاف المرات : « وانت فيك شبه من أمى •• ها •• » • ثم ضحكت ضحكة فى ايقاع ضحكة الحشاشين فقط • وضحكت أنا بصـوت عال وصحت فى غاية الألم : « برضـه فى شبه من واحدة ست ؟ » • فقالت : « يخلق من الشبه أربعين » • قلت : « فعلا •• هذا صحيح مائة فى المائة » : وأردفت هى : « الا بالمناسبة •• هى فين دلوقت •• ماعادلهاش حس ولا خبر ؟ » • قلت : « صحيح • بقى لها مـدة مختفية تمـاما » • وقال طارق : « الله أعلم •• اصلها اتجوزت واحـد كبير من رجال الثـورة الأزرقية ومنعها من شغل الفن » • وقالت البتعة : « غلطانة •• لو كنت منها كنت رفضت •• حد يبيع فنه بالجواز ؟ » ••

حينئذ مال « طارق » على أذنى وهمس قائلا : « يقولون أنها هى الأخرى •• ست بتعة •• كانت تشتغل بالفن » • صحت قائلا : « صحيح يا ست بتعة •• لسة بتشتغلى بالفن ؟ » • قالت مشوحة بيديها الممتلئتين بالغوايش الذهب كأنها معرض جواهرجى ثرى : « ماتفكرناش بقى » • وكانت مثل طفلة جبيه تنعى عروستها الضائعة : « كنت غاوية •• بس طلعت لى مقصوفة الرقبة رشا الخضرى دى فى البخت •• قلت مابدهاش •• اللى قلدوا عبد الحليم كلهم سقطوا حتى اللى صوتهم أحلى من صوته – ثم ضحكت – وأنا كمان صوتى على قدى » • أحسست أنها بريئة وطيبة الى حد كبير ، وصافية الى حد لايمكن الشك فيه ، الى حد يقنعك ان مثلها لايصلح للشهرة وأنها لاتملك عهر رشا الخضرى ولاعلاقاتها ولامواهبها الشخصية • كانت الى الطابع البلدى أقرب • شكلها شكل مارلين مونرو مضافا اليه خفة الدم الأزرقى ، لكن طبعها وسلوكها طبع وسلوك معلمة ان سلطت فيك عينيها أرغمتك على الخضوع المطلق • لهجتها خليط من

عالمه أهل الفن ورقة أهل البيوتات الكبيرة وتطجين أهل الحوارى والأزقة • هو خليط فذ قد لايجتمع ولكنه فى شخصيتها متسق وباعث على احساس بالطرافة اللامعة والاثارة الجامحة • ، لكأنك أمام تمثال يعبر عن الجنس بأجمل وأجلى معانيه ، وانه ثمين الصنع وليس حوله من يفهم قيمته ، وهنا يتسلل اليك وحدك الغرور ، متصورا أن بامكانك الاستحواذ عليه • ان الانسان أول ما يرى هذه الست لابد أن يقع ضحية الاغراء بأن يكون هو المنقذ لها من الضلال • ولابد أن جميع من عذبتهم وعذبوها فى الحياة اللاتى تدفعهم واحدة من رغبتين باطنيتين تجاهها : الوهم بانقاذها من الضلال أو الرغبة فى اختلاس لحسة أو لحستين من هذا الطعام المراق •• والا كان من نفسه فى ضلال ••

سألت صديقى « طارق » فيما نقف فى بلكونة شقتهم : « كم رجلا فى حياة ست بتعة ؟ » • قال طارق كأنه يدافع عن أمه : « اثنان فقط لاغير •• وعلى سنة الله ورسوله •• أحدهما عذبها فعذبته حتى طلقها غيابيا خارج البلاد •• والثانى مات فى السجن من فترة قليلة » • ثم استدرك ضاحكا : « هم فى الواقع ثلاثة •• الثالث هو كحكوح •• وهو الذى سوف يميتها فى سجنه هو » • ثم أضاف موضحا أن كحكوح شخصية كاريكاتيرية قاسية فارغة من كل المحتويات العاطفية والانسانية وما الى ذلك ، وأنه ثور هائج لا يكف عن اعتلائها ليل نهار متوهما أنه بهذا الأمر وحده يهزم جسدها ويمنعه اشتهاء أحد آخر ، ولأنه خسيس وست بتعة أصيلة ، مجرم وهى خيرة ، فؤاد وهى مصون ، فان العلاقة بينهما دائما ليست على ما يرام ••

وأشار طارق بأصبعه نحو الأرض قائلا : أنظر • فنظرت فوجدت عربة مرسيدس فاخرة مركونة تحت بلكونة ست بتعة • قال طارق : « هذه سيارتها •• ويوم نراها مركونة هكذا باحكام تحت البلكونة نعرف ان العلاقة ساءت بين الزوجين فسحبت هى سيارتها الخاصة وتركته يتحرك بسيارته الفيات » • سألته : « ولكن ما الذى يكرهها على العيش مع رجل كهذا ؟ » • شوح طارق وقال ان هذه هى حكمة الله التى لاينبغى أن

نراجعه فيها ، وأن أقوالا كثيرة تتناثر فى الحارة والحى كله تشبه الأساطير، عن علاقة ست بتعة بكحكوح ، وعلاقة كحكوح بناس معينين من جميع فئات المجتمع ، يقولون انه هو الذى التقط ست بتعة ذات يوم من طريق الضلال وجعلها تتوب وتحج الى بيت الله ، أما كيف يجعل منها مؤمنة تقية هكذا فى حين نخاعه فهذه أيضا حكمة يعلمها الله ، يقولون أيضا أن زوجها الذى مات فى السجن كان أحد صبيانه وأنهما معا كانا يعملان كصبيين فى بعض مشاريع المهندس المقاول الكبير عبد الجبار ، وأن هذه النقطة هى الوحيدة التى يرشحها أهل المدينة سببا للثروة التى تهبط على هؤلاء الناس باستمرار ، لكننى – هكذا يستطرد طارق – سألتها ذات يوم فى قليل من الخبث عن مدى صلتها بالمهندس عبد الجبار ففوجئت بأنها لاتعرف من هو المهندس عبد الجبار ولاتعرف شيئا عن مدى قوته أو سطوته أو علاقاته · ولما كنت قد تربيت معظم سنى طفولتى فى حجر الست بتعة فى أول عهدها بالسكنى فى بيتنا ، فاننى خير من يفهمها ، وقد فهمت أنها بالفعل صادقة وأنها لاتعرفه ، فى حين أننى تأكدت ومن قبلى تأكد أبى وأصدقاؤه أن زوجها المرحوم وزوجها الحالى يعرفان عبد الجبار معرفة وثيقة ويعملان لحسابه فى كثير من المشروعات ··

ثم دخلت أم طارق بالشاى لنا · فسألها طارق عن زائر الست بتعة الذى تجلس معه فى الحجرة المجاورة · فقالت فى غموض : « لا ·· لا أحد » · فاهتم طارق أكثر وقال يستحثها على التصريح : « قولى ·· فربما كانت محتاجة الى مساعدة » · ونظر لى مفسرا قوله بأنه هو واخوته تعودوا منذ طفولتهم أن يقوموا بخدمات للست بتعة ، وأنها حتى الآن لاتتورع أن ترسل أباه نفسه فى طلب من الدكان ، اذ أن خيرها بلا حدود · لكن أم طارق ترددت فى الافصاح عن زائر الست بتعة ولكن فى شىء من الاثارة اللطيفة · فأشار طارق نحوى قائلا : « الأستاذ مأمون مش غريب » · فقالت مؤيدة : « أيوه دا باين عليه زى ما يكون ابنها » ثم ابتسمت : دى واحدة ست يمكن انت عارفها » · صاح طارق مستوضحا كأنه عرفها :

« سمراء يا حلم الطفولة ؟ » · ابتسمت أمه قائلة : « النبى انت فايق » · ثم خرجت ·

قال طارق : « سمراء يا حلم الطولة هذه هى ست وسيلة ·· هى الأخرى من أساطين النساء فى هذا الحى كله ، وشخصيتها قوية الى حد لايهزم أبدا ·· ولو تعرض أعتى الرجال لما تعرضت له لانقلب الى أنثى فى اول شوط ، أما هى فلا يطرف لها جفن ·· يكفى أنها كانت زوجة لكحكوح » ··

هتفت قائلا كأننى لدغت : « كحكوح زوج الست بتعة ؟ » ··

قال طارق : « نعم ·· كانت هى الرجل الذى فى شخصيته ، الذى خدع به الناس طويلا بحركات شهمة وكريمة ونبيلة كان يفعلها فى الواقع ليعلو بها فى نظرها ·· فلما غدر بها – الله يغدره – حزن عليها الناس كلهم ونقموا على كحكوح أكبر نقمة ، لأنهم عرفوا خسته » ·

قلت لطارق : « فكيف يغدر بها وهى مسند شخصيته ؟ » ··

قال طارق : « كان يريد أن يتخلص منها ، لأنها كانت تحب الحاج فتحات ابى شافية حبا عميقا صادقا وهو أحد صبيانه ·· وكان يريد ان يتخلص من أبى شافية ، لأنه كان يحب البتعة ويموت فى هواها ·· ففكر انه لو تخلص من الاثنين فى ضربة واحدة يكون قد أصبح متوحدا فى الساحة ويتلقف البتعة على حجره ·· وفعلا ·· تمكن من ذلك بخطة جهنمية اودت بست وسيلة وأبى شافية معا الى المؤبد ·· فمات ابو شافية ·· وبقيت الست وسيلة حتى نفذت حكمها الا قليلا حيث افرج عنها بعفو صدر من رئيس الجمهورية عن ذوى الأخلاق المثالية فى السجون » ··

خيل الى أن « طارق » يروى أساطير من ألف ليلة وليلة ، وتعجبت من ان يعيش فى هذه العاصمة عدة عصور فى زمن واحد فى نفس المكان · ان زمن النتيجة الورقية المعلقة على الحائط ليس يجرى وحده

بل انه مجرد وعاء تعيش فيه أزمنة عديدة من عصور سابقة وربما أخرى لاحقة .

وقال « طَارق » :

.. « الناس طول هذه السنين كانوا يزورون الست وسيلة فى السجن كل اسبوع ويقدمون لها العطايا .. بل ان معلمين كبارا من تجار الحشيش والخردة كانوا يزورونها فى السجن ويعشمونها بأنهم فى انتظارها حتى تخرج ليتم الزواج .. لكنها .. تصور يا مأمون .. لم تقبل أى عطية من أى واحد اشتمت رائحة الوغد فيه .. ولم تكن تقبل العطية الا من فقراء الناس وأنزههم عن الغرض .. ربما تندهش يا مأمون حين أقول لك شيئا سوف تراه كالسينما .. هل قرأت رواية أو دخلت فيلما يتحدث عن أم فى روسيا كانت تشجع الأولاد كلهم على الثورة دون أن تدرى من أمر ذلك شيئا الا غريزة الأمومة الطاغية ؟ .. لكنك لو سمعت عن الست وسيلة ما سمعنا ورأيت ما رأينا لاعتبرت ان تلك الأم شيئا ساذجا جدا بالقياس الى ست وسيلة .. لقد كان الشبان والرجال يذهبون لزيارة أقاربهم فيجدونها عمدة السجن ، ويجدون أنفسهم مدفوعين للسؤال عنها وقضاء الوقت المخصص للزيارة كله معها هى دون أن يشعروا .. وكانوا يعتذرون عن ذلك لأهلهم وأنفسهم قائلين أن فيها شيئا يشجعهم على حب الحياة وتسهيلها .. لذلك لم يكن ثمة من أوامر السجن يسرى عليها ، ولم يحدث أن اعترضها حارس أو ضابط أو مأمور ، بل كانوا جميعا ينزلون عند رغبتها ويخدمونها طائعين اذ أنها خلقت لهم من سجن النساء واحة ظليلة . وأنشأت مصلى وأقامت حفلات غنى فيها سجينات .. كل شاب جلس معها تحول بعد الزيارة الرابعة الى زوج مستقيم أو شخص ناجح .. فان سألت أحدهم : ماذا كانت تقول لك بالضبط من كلام أو تصبه فيك من شعور .. يعجز عن قول شىء محدد .. ان شبانا كثيرين جدا فى هذا الحى العريض لم يكن عندهم أى مانع من أن يتزوجوا من الست وسيلة اذا لم يكن ثمة مانع لديها .. ذلك انها يا مأمون رغم انها على مشارف الخمسين من

العمر لا تزال تحمل قوام وصدر وخصر فتاة فى العشرين أو أكثر قليلا . شكلها شكل أميرة حتى وهى فى الملاءة اللف .. فان تركت الملاءة فى البيت خرجت من قمقمها سمراء فى حمراء كأنها وهج الذهب .. أما عقلها فيزن رجالا ورجالا » ..

ثم ضحكنا بصوت عال لا ندرى لم . وهمس « طارق » فى أذنى : « على فكرة .. يقال ان بعض المسئولين عن سجن النساء عرض عليها الزواج العرفى .. فرفضت بشدة ، وامعانا فى تأديبه قالت له : ولا حتى الرسمى » . ثم ضحكنا ثانية وقهقة طارق بصوته الأجوف اللطيف . وهمس مرة أخرى فى أذنى بكثير من دفء شبق : « أنا شخصيا لا أمانع فى الزواج منها لو رضيت هى » . لكننى كنت مشغولا بأمر آخر . فسألت طارق : « ولكن ماكنه العلاقة الحالية بين الست وسيلة زوجة الكحكوح سابقا ، والست بتعة زوجة كحكوح حاليا ؟ » . فقال طارق أن الست بتعة بصرف النظر عن كونها زوجة كحكوح فهى صديقة قديمة للست وسيلة ، وان الست وسيلة والست بتعة كلاهما قد عرف انه وقع ضحية مجرم واحد عبقرى فى الاجرام هو كحكوح .. لكن كلاهما ـ بتعة ووسيلة ـ لا تملكان القدرة على الكره أو الغدر أبدا ، هذه مأساتهما فى هذه الدنيا ، ولذلك فان كل منهما تعرف أن غدرا من جانبها لن يقع وان الله وحده سوف يتدخل بعدالته لنفصل فى هذا المقدر عليهما ..

ثم استطرد طارق :

ـ « الست بتعة رجل يعجبك .. لقد عيشت وسيلة خلال سجنها حياة كأنها جنات النعيم .. الهدايا الكبيرة والأموال والكيوف لكل من له على وسيلة سيطرة ولو من بعيد .. غير أن هذا لم يحدث الا مؤخرا جدا بعد أن اكتشفت الست بتعة مؤامرة كحكوح العميقة .. وها هى ذى الست وسيلة قد خرجت من السجن على غير توقع .. ومنذ أن طلقها الكحكوح فى سجنها وهى تعرف أن الست بتعة سوف تكون حصنا أمينا لها .. وبالفعل تحقق لها ذلك .. فالست بتعة هى التى استقبلتها يوم

خروجها من السجن ·· وجهزت لها غرفة مفروشة فى شقة فى أحد الأحياء التى تعرفَ فيها ناسا أمناء ·· وصارت تمد الست وسيلة بالنقود لتنفق على نفسها بكل ارتياح ·· شهور طويلة مرت ولم يحدث أن ضجرت الست بتعة من الانفاق على وسيلة واعطائها ثيابها القديمة وشراء جديدة اضافية وهكذا » ··

ودخلت أم طارق مرة أخرى ونبهت علينا هامسة بفحيح ، ان علينا أن نخفض من صوتنا لأنه يصل الى الحجرة الجانبية حيث تجلس الست بتعة مع الست وسـيلة · ثم ونظرت الى ابنها فى تأنيب وتحقير مرير قائلة : « انحنا قلنا كلام فى الموضوع ده لأ ؟ » · فأشاح عنها قائلا : « يا ماما أنا مش عيل صغير ·· ثم ده صاحبى » · فشوحت هى الأخرى نحوه فى تهديد ثم خرجت · فقال : « أمى تخشى أن نتحدث معا ، أنا وأنت ، عن فعل الخير الذى تنوى الست بتعـــة أن تفعله » · قلت : « كيف ؟ » · قال : « أمى ، كأم ، تعرف انك كزميل لى فى الجامعة ، فهناك اذن حساسية لو تحدثنا فيه » ·

ازداد الأمر غموضا واستغلاقا · كدت أشاركه فى شرب سيجارة الحشيش التى يدخنها بشراهة ، ولكننى أحجمت ، وقلت له : « ان كنت تخشى شيئا فلا تقل شيئا » · الا انه نظر فى وجهى قائلا :

– « ست بتعـة تسـعى لفعل خير كبير جدا ، لو انكشف فربما يستثير ضدها ما لا قبل لها باحتماله ·· اذ انها قد بدأت تسعى فى تنسيق حياة سيف الماوردى وانتشاله من وهدة الانحطاط التىيعيشها ·· وقد اختارت له عروسا بالفعل ·· وهذه العروس هى الست وسيلة خريجة السجن وزوجة كحكوح سابقا ·· تصور ·· هذه لا يستطيع اقامتها سوى شيطان أو ملاك ·· هل يداخلك الآن شك فى أن الست بتعة تريد أن تلفق لسيف الماوردى امرأة من أرباب السوابق ، خدمة لصديقتها واعفاء لنفسها من النفقات ؟ ·· ولكن لا ·· الواقع ينفى ذلك تماما ·· لقد استطاعت الست بتعة أن تهدى سيف الماوردى هدية عظيمة

جدا جدا ·· انها خير من فهم سيف الماوردى فى الحى ·· كل الناس ها هنا من أول ما جىء به ساكنا لاحدى الغرف القديمة الآيلة للسقوط وهم يستنكرون صوته ولا يستسيغون غناءه ويتعجبون من هؤلاء الذين يضيعون وقتهم فى الاحتفال به ·· لكن الست بتعة حين سمعت عنه من خارج الحى وعلمت بأنه يسكن فى الحى سعت الى الاستماع اليه · فجىء لها ببعض شرائط خاصة سجلها بعض أصدقائه ·· وكان ذلك متأخرا جدا بعد أن كان سيف الماوردى قد أصبح نجما لامعا يذكر اسمه فى خطب رسمية ضمن من يشكلون عدوانا على النظام ·· حتى هذه الخطبة وهذه المعلومة لم تكن قد علمت بها الست بتعة ·· لقد عرفت سيف الماوردى حين أصبح يعيش فى الخفاء بلا زاد ، بعد أكثر من عشرين عام على شهرته ، وبعد ان استثمره المستثمرون وزيفه المزيفون وكسبوا من ورائه ما كسبوا ، كان هو قد بدأ يعى دوره ويقتنع انه بالفعل يجب أن يكون معارضا للنظام على الدوام ، بالغناء ، ليس لقضايا اجتماعية او انسانية محددة بل لمجرد المعارضة والانتقام – على الأقل – لما لحق به من اهانات ، لكنه مع ذلك ظل أغنية جميلة لمن يريد أن يعلن تمرده ووعيه الثقافى من أهل الأحياء الشعبية التى يسمونها عادة بالأحياء الوطنية الا انه منذ سكن ها هنا فى هذه الحجرة التى لم تكن مؤهلة للسكنى أصـــلا كان قد نبت من يهتمون به من جديد ويعطفون عليه ويدعـونه للاحتفالات السرية مقـــابل أجر مقنع ، ومن ينفق على تنظيف حجرته افراح الطلاب أو المثقفين المقيمين خارج البلاد ·· وفى هذه السنوات وتجميلها بعض الشىء ، على أسوأ الأحوال فانه يدعى للغناء فى بعض الأخيرة فى السبعينات عرفته الست بتعة ·· ألم أقل لك انهـا طيبة ومنعزلة بقدر ما هى متألقة وثرية ؟ » ··

·· « ولقد عزمته فى شقتها ·· ويومها ثار كحكوح وهدر بالغضب الأهوج فى عرض الحارة أمام الجميع كأنه يعلن للحـكومة ذات العيون المجهولة براءته من هذه الخطيئة ·· الست بتعة أرجل منه ·· تركته فى الحارة يهذى وتحدته بدعوة سيف الماوردى وبعض الأصدقاء من فئات

عجيبة لا تدرى كيف اجتمعوا ·· يا لها من ليلة ·· العمارة كلها كانت تخدم فى الحفل ·· وسيف الماوردى بصوته الأجش غير المدرب كان مع ذلك جذابا مذهلا ملعلعا ، مشعشعا على آخر الطاقة ، كأنه يغنى فى فرحة ، وترك عند الست بتعة أنقى وأجمل تسجيلاته ·· حوالى أربع شرائط بأربع ساعات غنى فيها منتخبا كبيرا من مراحل حياته الفنية التى مثلته وشهرته طوال هذه السنين ·· أما أنا ·· فقد اشتغلت فى تلك الليلة غرزجيا من أجل عيون الحفل والجمع السعيد ·· وواقع الأمر انني كنت أنا الآخر قد عشقت أغانى سيف الماوردى وبدأت أحفظها وأغنيها فى المناسبات ·· وكانت الست بتعة تروح وتجىء فى ابتهاج عظيم ، ومن حين الى حين تدخل الى مجلس الصحبة وتقول كأنها طه حسين أو سهير القلماوى : « يا سلام يا سلام ·· يا لها من عظمة ·· أنت فنان كبير والله يا أستاذ سيف » ·· فيحنى سيف قامته باسما فى امتنان سعيد « متشكر قوى يا ست هانم ·· ربنا مايحرمناش منك ·· وانتى وطنية قوى يا ست هانم دا ايه الحلاوة الشعبية دى » ·· سيف أيضا كان نكته ·· ثم انها سألته : « يا ترى حضرتك من أنهو بلد يا أستاذ سيف ؟ » ·· فقال انه من العاصمة نفسها ·· ولد هو وأبوه وجده فى نفس هذه العاصمة ولا يعرف من أى جنس هو بين الأجناس العديدة التى استوطنت العاصمة ولكنه يرجح انه من أصل كردى جاء مع صلاح الدين الأيوبى ·· وفى نهـاية الحفل وقف سيف الماوردى أمام الست بتعة كتلميذ نجيب خجل من فرط اعجاب أمه به ·· وقالت الست بتعة وهى تنظر اليه فى تقدير : « دى أسعد ليلة عندى يا سيف ·· ومن هنا ورايح اعتبرنى أختك ·· أى طلبات أى خدمات أنا موجودة ·· مايهمكش من كحكوح ·· دا جدع فالصو متاكلش من كلامه » ·· فانحنى سيف شاكرا وهو غير متصور أن هذه الست البلدى المشهورة فى الحى يمكن أن تكون حساسة الى هذا الحد ، ذلك انها ـ فتك فى الكلام ـ كانت فى كل دخلة عليه تبدى اعجابا بالنغمة واللازمة وتستخدم كل مصطلحات الفنانين العارفين فيالها من معجبة لقطه سخى بها الزمن عليه ·· فتك

فى الكلام أيضا ـ لقد غنى لها سيف من بين أغنياته هزا فيها برشا الخضرى وفضـح الذين تحمسوا لها وقدموها وفرضـوها مطربة على الجماهير . ولا تسل عن سعادة الست بتعة بهذه الأغنية ، الوحيدة التى استعادته اياها أكثر من ثلاث مرات ، وكانت تخرج الى الصالة وتضبطها ملبسة بهز وسطها مع النغمة فى ابتهاج باسم ، فابتهجنا نحن الآخرون وعرفنا أن سيف قد انتقم لها من شخصية رشا الخضرى التى أحبطت آمالها الفنية واعترضت طريقها ·· المهم انها فى النهاية سلمت عليه وفى جوف كفها عشر ورقات من فئة العشرين مطبقة ·· فقبض عليها وصار يبعث عبارات الشكر والامتنان طوال نزوله من درجات السلم » ··

·· « منذ ذلك اليوم استنام سيف الماوردى لعطف الست بتعة هو الآخر ·· ولما كان معظمهم قد انفضوا من حوله فى السنوات الأخيرة فإن المسكين فى حال لا يحسد عليها ·· كان يبعث المراسيل الى الست بتهمة بطلبات فلا تردهم خائبين ·· الى أن خرجت الست وسـيلة من السجن وتلقفتها الست بتعة فى حضنها من وراء ظهر كحكوح ·· فعزمته الى حفل فى شقة أحد أصدقائها المهربين الذين ادعت له أنهم من رجال المجتمع ·· وأخذت معها ست وسيلة ·· وتركتها تقوم الحفل وتسهر على راحته ·· كنت فى هذا الحفل أيضا ·· فأنا على وجه التقريب أتحرك وراء الست بتعة كظلها الا اذا هى أومأت الى بأنها اليوم غير محتاجة الى ·· نوع من الوفاء فلولاها ما دخلت الجامعة ·· لا تسلنى عما فعلته الست وسـيلة بأدمغة المحتفلين على الاطلاق ·· ما أن دخلت بفستانها المسبط الثمين حاملة صوانى الأطعمة حتى بدت كملكة فرعونية تنازلت عن عرشها لتخدم حبيبها ·· وظلت هى رهن الاشارة لكل من طلب ماء مثلجا أو قهوة أو ليمونا ·· فما تكاد تظهر حتى ينتعش الجميع ويدب فيهم نشاط وحيوية ·· كان ذلك الحفل أروع حفل أقامه سيف الماوردى فى حياته ·· أتدرى لماذا ؟ ·· لأنه لأول مرة فى حياته لا يغنى أغنيات السياسية ولا انتقادية ، بل شرد فى حدائـق العشق بمواويله الحمراء وآهاته المعذبة الأبدية ، حتى لقد اهتز من نشيجه الحلو كافة ما فى

الشقة من اثاث وستائر وجدران .. تسجيلات هذا الحفل ـ للعلم ـ تجدها عند واحد بعينه فى حارة القللية .. والست بتعة لم تكلف نفسها مشقة عرض الامر على سيف .. انما هو الذى بادر بالاتصال بها وقال انه يرجوها السعى فى زواجه من الفاتنة السمراء .. فحكت له قصتها بالتفصيل فلم يعن بالاستماع اليها .. فوعدت بالتفكير فى ذلك » ..

وقدم لى « طارق » ذبالة بقيت فى السيجارة قائلا : « نفس » ..

فاخذتهـا وجذبت بقاياها وأطفأتها . ولمحت حركة غير عادية فى الصـالة الصغيرة الضيقة . وتناهت الى روائح عذبة . لكن « طارق » جذبنى من جديد قائلا : « لو فهمت قصد الست بتعة من تزويج ست وسيلة لسيف الماوردى لعرفت أنها خطة جهنمية جدا » ..

قلت بلهفة : « كيف ؟ » ..

أشعل « طارق » سيجارة ثم قال :

ـ « ان ست بتعة تريد لسيف الماوردى أن يقلع عن الغناء السياسى ضد الحكومة نهائيا .. هذا أمر تعجز عنه الحكومة نفسها .. لكن ست وسيلة سوف تخلق من سيف الماوردى انسانا آخر تماما .. هى لن تمنعه من الغنـاء ضـد الحكومة فى الواقع بل ستنظم له شخصيته وترتبها .. تسقيه معنى الاستقرار كزوج ينبغى أن يعود لزوجـه فى المساء كل يوم ، وكرجل يستخسر انقضاء ساعة خلف أسوار السجن بل فى اى مكان ليس فيه الست وسيلة .. ان الست وسيلة سوف يهدأ سيف بالحياة ربطا وتسقيه معنى الحرص عليها .. حينئذ سوف يهدأ كثيرا ، اذ تتوفر له أشياء كثيرة مفتقرة فى حياته ، ويتوفرهـا سوف تلتمع مواهبه وتغير صيغتها ، وربما تضع ألحانا وطنية أيضا ولكن بشكل لا يأخذ صيغة المعارضة .. تريد له الست بتعة أن يصبح فنانا لا مهيجا جماهيريا ولا داعية سياسيا .. ليس هذا من تصـوراتى ، بل هكذا سمعت ست بتعة تقول له ذات حفل صـغير على الضيق .. أتعرف

يا مأمون .. لقد أحسسنا كلنا ان الست بتعة تحب الاثنين حبا كبيرا جدا : وسيلة وسيف .. ولذا فهى سوف تنفق أموالا كبيرة فى تهيأة عش لهما » ..

وصمت « طارق » ، وانشغل فى تقليب أوراقه بحثا عن شىء ثم قال ان جوابا وصـله من البنت التى يحبها وسوف يقرأه على ، لكى أساعده ـ بما لدى من عبارات جميلة وأسلوب جميل ـ فى كتابة رد يسجدها . تمنيت ألا يجد الخطاب ، لأننى لن أقوم بهذه المهمة أبدا . من حسن الحظ دخلت أمه ووجهت الى نظرة حرجة فيما تقول لابنها :

ـ « وبعدين يا ولد .. ست بتعة عايزاك فى مشوار » ..

قال طارق : « عينى » ، ثم نهض قائلا : « عن أذنك » . وغاب مع أمه فى الداخل برهة طويلة ثم اذا بصوته ينادينى : « اذا سمحت يا أستاذ مأمون » فقمت على استحياء ودلفت الى الصـالة ، فقال : « تعال » . فرفعت بصرى فاذا بى محتاج لقوة هائلة أحتمل بها ما أرى من ضوء واشعاع : أميرتان من أعرق أمراء العالم القديم الحديث ، لا أحد فى الأرض يحمل هذه الكمية من الجمال والكبرياء الطبيعى الجارف القاصم : الست بتعة والست وسيلة امرأتان على مشـارف الخمسين كأنهما فى مقتبل العمر ، كأن الكرة الأرضـية يجب أن تقسم بينهما بعـدالة وقسطاس ..

اقتربت منهما فى خجل . بالله ، هل كانت هذه زوجة لكحكوح ؟ وبالله هل هذه الأخرى زوجة كحكوح ؟ . مدت الست بتعة يدها وسلمت على ، فسلمت بحرارة ، وتمنيت لو بقيت يدى فى يدها طويلا . فلما سلمت على ست وسيلة انتابنى نفس الاحساس ونفس الشعور . وقال طارق يقدمنى : « زميلى وصديقى الأستاذ مأمون » ، ثم يقدمها : « الست بتعة .. الست وسيلة » ، واحتوتنى وسيلة فى صدر كأنه وجه الرغيف يرتفع فى قلب الفرن ، واحتوتنى بتعة بنظرة قادمة تسبح من أعالى

البحار . وقالت الست بتعة : « طارق بيثق فيك .. وأنا كما ما أعرفش ليه حبيتك ووثقت فيك .. عشان كده وافقت على انك تبقى صديقى » . قلت لها صاغرا : « دا شىء يشرفنى يا ست بتعة » . فنظرت فى ساعتها وقالت : « طب يلا بينا بسرعة عشان نيجى بسرعة » . وانتزعت الملاءة اللف وألقت بها الى وسيلة ، وأخذت هى « روبا » سترت به كل جسدها ثم أشارت لنا ، فنزلنا طارق وأنا نسبقها الى سيارتها المركونة تحت شرفة شقتها .

بدربة فائقة لم أكن أتوقعها من الست بتعة خرجت السيارة الفارهة المصقولة من بين حوار وأزقة ضيقة ، ثم زاغت بين زحام الشـوارع العمومية ثم استقلت الطريق العمومى الى منشأة جديدة متاخمة لميدان المشهد الأزرقى ..

نزلنا أمام عمارة عالية ، ثم دخلناها وركبنا الأسانسير حتى آخر دور ثم صعدنا على أقدامنا الى السطح فاذا بشقة جميلة جدا ومفتوحة على سطح العمارة وقالت الست بتعة لوسـيلة : ما رأيك ؟ . وقالت وسيلة : فل خالص آخر حلاوة . ثم اننا طرقنا باب الشقة فانفتحت فاذا بهـا من الداخل جميلة ومجهزة بعفش وأثاث لائق جدا ، وبعض أتباع من مقاطيع سيف الماوردى ، ثم سيف الماوردى نفسه ثم المأذون ..

سلمنا عليهم جميعا . وأطلقت ست بتعة زغرودة بلدية ريفيـة رائعة رائقة . ثم جلسنا وسـط مظاهر فرحة نشأت فجأة كأنهم غير مصدقين قبل حضورنا . ثم همس صديقى طارق فى أذنى قائلا ان الست بتعة هى التى استأجرت هذه الشقة لسيف من نفسها اذ أن العمارة ملكها والله أعلم . ثم استقامت جلسة ضمتنا كعائلة واحدة : سيف الماوردى وست بتعة وست وسيلة والمأذون وصديقى طارق ، وأتبـاع الماوردى منغمسون فى المطبخ يعدون طعاما وشرابا . ثم اذا بهـا جلسـة لعقد القران . ثم اذا بعقد القران يتم ، واذا بى أنا وصديقى طارق نشهد عليه دون كافة الموجودين . وكنت وأنا أوقع عقد زواج خالى سيف الماوردى

أحس بشعور وهزة داخلية تمنعنى من التصريح له بأن أباه خليل هريدى بعد هربه وموت أمه حزنا عليه تزوج من جدتى أم بسيمة زوجته السابقة فأنجبت له أمى كل ذلك دون أن يعلم سيف وبناء عليه فهو خالى دون أن يعلم . العجيب اننى يومهـا لم أجد رغبة قوية فى التعرف عليـه والكشف عن شخصيتى ، احساسا منى بأنه طالما رفضنى ورفض الانتماء الى أهله أهلى فاننى يجب على الأقل الا أرحب بانتمائى اليه . وهكذا تماديت فى استغفال نفسى تاركا انكشاف الأمر للمجهول . على اننى كنت أوقن من أن الست وسيلة هى أكبر هدية أعطيت لخالى سيف وانها سوف تغير مسار شخصيته لا بد ، أوقن من ذلك لمجرد رؤيتها واكتشاف ما فى وجهها من نبالة ..

ليلتهـــا احتفلنا أعظم احتفال بدخلة سـيف الماوردى على الست وسيلة . غنى سيف وغنت الست بتعة مقلدة مها صبرى تارة وشريفة فاضل تارة أخرى ووردة تارة ثالثة . وأكلنا وشربنـا وفرحنـا حتى النخاع ، ثم عدنا فى بداية النصف الأول من اليوم التالى فى سـيارة الست بتعة . ونزلنا عند بيتها وقالت لى : « أنا عاوزاك يا مأمون » . فقلت كأننى طارق أو أحد أخـوته : « تحت أمرك يا ست هانم » . وانصعت اليها . ورأيتها تفتح حقيبة يدها فمددت يدى بسرعة غاضبة وأوقفت حركة يدها قائلا : « فيه حاجة ؟ » . قالت : « عايزه أعطيك هدية » . قلت : « أرجوك .. بلاش اهانة » . قالت : « مش فلوس » . قلت : « ولا أى حاجة » . فقالت باسمه : « اوعى ياد يا شبه أمى ياد .. باقول لك انت شبه أمى .. والمصحف شبهها .. مش هزار » . ثم أزاحت يدى بغضب رقيق قائلة : « اوعى » ، ثم أخرجت من الحقيبة ولاعة رونسن ثمينة غالية تساوى عشرين جنيهـا . فتقبلتهـا شاكرا . ثم أوصتنى بأننى يجب أن أكون على اتصال دائم بها سواء مع طارق أو وحدى ..

غير أننى لم أكن أستطيع الاستقرار تماما فى العاصمـة فورائى وظيفة وقرية وأهل أعنى بهم . لكننى كنت قد قررت بينى وبين نفسى

أن أعاود الاتصال بالست بتعة هانم فى فرص أخرى كثيرة . ولم يمنعنى من ذلك سوى اقتراب الامتحانات وهروبى من جو سيف ومنطقته برمتها . وبعد اجتياز الامتحان عاودنى الحنين الى المنطقة من جديد . وانجذبت الى بيت صديقى طارق بعد شهور طويلة لم أره خلالها ..

وجدت جوا من الحزن والخطر يخيم على البيت ، ولا أثر للسيارة هناك . فحدست أن تكون الست بتعة فى مشوار أو على سفر ، حتى صديقى طارق نفسه لم يكن موجودا بالبيت لعدة مرات وبشكل يدعو للريبة . وأخيرا تربصت به فتصيدته على المقهى . فاحتضننى وجلس جوارى كالمهزوم قائلا :

ــ « مش الست بتعة مقبوض عليها ؟ » ..

قلت مذعورا : « كيف ؟ لماذا ؟ » ..

قال « طارق » :

ــ « لا نعرف .. ولكننا صحونا ذات يوم فلم نجدها ولم نجد السيارة .. وكان زوجها النطع كحكوح قد قطع صلته بها وقيل انهما انفصلا .. لكن لم تمض بضعة أيام ــ وكنا لا نزال ساهرين نتدارس فيما بيننا أخبار الست بتعة وهل يمكن أن تكون قد اختطفت مثلا ؟ ــ اذا بنا نفاجأ بمجموعة من الرجال يفتحون شقتها فى الهزيع الأخير من الليل .. فنزلنا نستوضحهم الأمر .. فقالوا أنهم من مباحث أمن الدولة ، وأبرزوا بطاقاتهم .. ونزل أبى وقطع الشارع وخرجت أمى وأخوتى الى البلكونة لاستجلاء الأمر فتبين لنا ان عربة الهجوم الفركشى المكتظة بالفرق ترابط عند مدخل الشارع .. فانزوينا جميعا فى الأركان .. ولم نسأل بعد ذلك أبدا عن أى شيء .. الا ان الاشاعات أكدت أن الست بتعة قد انكشف المستور وراءها فظهر انها كانت على علاقة مريبة ببعض الشخصيات السياسية والاجرامية المعروفة والمراقبة ، وبأنها متهمة فى كذا وكيت من عشرات التهم التى تكفى الواحدة منها

لوضع كل ممتلكاتها تحت الحراسة ووضعها هى نفسها فى حبل المشنقة .. وكنا نظن ان انقلاب الحكومة عليها هكذا يرجع الى علمهم بتشجيعها لواحد يعارضهم ويعمل على فضحهم .. لكننا اكتشفنا أكبر من ذلك بكثير جدا وانهم يدخرون لها عشرات التهم المخفية من قديم » ..

ولاحظت ان صديقى « طارق » يريد أن ينهى الحديث بأى شكل لكى ينصرف الى حال سبيله من شدة الخوف . فسألته : « وأين توجد الست بتعة ؟ » . قال « طارق » كأنه يستهجلنى : « فى السجن طبعا » . قلت له : « أى سجن ؟ » . قال : « سجن الاستقبال .. المعتقل السياسى » . ثم سلم على وانصرف ، فأحسست بحزن كثيف . ورأيت الحزن يتكاثف على الشارع كله حتى أولئك الذين يهبرون الكباب فى شراهة على رأس الشارع . فتركت الحى كله ضائق الصدر معتكر المزاج . لم أجد مكانا آخر يصلح للانتماء اليه فى هذه اللحظة ، فكل مكان قد احتله ناس فى يدهم نفقات باهظة . جميع الأماكن تزدحم بزخم كريه مهين ساحق للانسانية ، لا يملك الانسان ان يختار أى شيء أو يميل الى أى شيء أو يتمنى أى شيء أو ينتظر أى شيء أو يؤمل فى الوصول الى شيء بل حتى لا يثق فى امكانية انتقاله من هذا الحى وسط هذا الزحام الهمجى الى حى آخر بله أن يكون له حى ..

واذ وقف سائق الأجرة مستجيبا لتذللى قال انه ذاهب الى المكان الفلانى . فتذكرت ان لى بعض شأن فى هذه المنطقة التى ذكرها . وأمام فرحتى بوجود المواصلة ركبت بجوار السائق فاستأنف السير فى صمت .. فلما استرحت قليلا فكرت فيما يقودنى الى هذه المنطقة رغم ثقتى فى استحالة العودة منها بسهولة ؟ . على اننى حين أعطيت ما طلبه دون مناقشة ومضيت أدب فى المنطقة السكنية الجديدة . جلست على أول مقهى وطلبت الشاى والشيشة ثم رحت أفكر : هل جئت الى هذه المنطقة فى حقيقة الأمر مدفوعا برغبة أصيلة وملحة فى الكشف عن شخصيتى لسيف الماوردى ؟ لأطمئن عليه مثلا هل قبض عليه مع الست بتعة ؟ أم لأطلعه على جلية أمرى معتذرا بأنى لم أكن أعرف أو لم أكن

أريد وقد أردت فليغفر لى ؟ ٠ ان الرغبة فى صلة الرحم والدم شيء أصـيل وجميل ولا موجب للاعتذار عنها بأى سبب ٠ ان جدى خليل هريدى يجب أن يشعر بابنه فى أواخر سنى وعمره لعل شخصيته تعتدل وتستقيم ، وسيف يجب أن يعود الى رشـده فيتذكر أباه ويرتد اليه صاغرا ٠٠

ووجدتنى أمام البيت الذى يسـكنه سيف ٠٠ فتحت لى الفاتنة السمراء ٠ أبدا ليست هذه زوجة رجل بسيط ، انما هى زوجة ملك ، يقول لك قوامها الملفوف ومظهرها الفائق الكبرياء ان قف مكانك مؤدبا مهذبا قبل ان تمثل بين يدى زوجها سيدك وتاج رأسك ٠ أبدا لا يمكن ان تكون هذه الرصانة والسلاسة قد عاشت مع حثالة المجرمين فى الحياة والسجن على السواء ٠٠ انها لم تغادر قصر الملكة برهة واحدة ولم تكف عن الأمر والنهى برهة واحدة ٠ واذ تمعنت قليلا فى وجهى ابتسمت فكأنما الدنيا كلها قد رضيت عنى ، وهزت رأسها أن تفضل ٠ فدخلت ، فاذا بأريج حياة كاملة يكاد يعصف برأسى من النشوة ، رائحة الاستقرار والتوقد والاشتعال العاطفى ، والنظافة الشفافة ٠ العود قابع فى أحد الأركان ، والستائر الجميلة تداعبه ٠ سيف بيك الماوردى ــ ما أسعده ــ يضطجع فى حجرة النوم ، وهى سوف تبلغه حالا ٠ وككل من يبلغ لها زوارهم فى السرير جاء الشاى طليعته ، ثم مضت برهة طويلة دخلت لها الست وسيلة ــ أقصد الامبراطورة وسيلة وسرحت شعرها فى وقار واحترام ثم جلست قبـالتى قائلة : « أهلا وسـهلا أيه الأخبـار ؟ » يا للطرافه ، هى الأخرى تسأل عن الأخبار ٠ ثم جاء سيف مرتديا الروب دى شامبر الفزدقى ، ودعائم الصحة بادية على وجهه ، فسلم على بحرارة وجلس بجوارى ٠ ومضت وسيلة ٠ وقال سيف انه كان يتصـورنى ــ يوم القبض علينا معا فى شقتى ــ من عائلة الفنانة رشا الخضرى فاذا بى من عائلة الست بتعة فيا للتوافق العجيب وأهلا بى وسهلا ٠ فلم يعجبنى منظر خدوده المتوردة ولا غلظة احساسه ، فقلت له اننى كنت مسافرا الى البلد فلما عدت ذهبت لزيارة صديقى طارق فعلمت ان السيدة

بتعة قد قبضت عليها مباحث أمن الدولة فهل لديه أخبار تصحح هذه الأخبار المزعجة ؟ ٠ فقال فيما يشبه الجملة الاعتراضية : « ولكن هل معرفتك من أقارب الست بتعة ؟ » ٠ قلت : « لا فى الواقع ، ولا من أقارب رشا الخضرى ، لكننى تعرفت على الست بتعة مؤخرا بواسطة زميل الدراسة طارق مرزوق » ٠ فقال وهو يشعل سيجارة أجنبية : « اذا كان يهمك أمرها فاننى قرأت اسمها بالفعل فى كشوف المقبوض عليهم مؤخرا ٠٠ وكنت أخشى أن يكون ذلك بسببى ٠٠ لكننى تحريت فعلمت ان فى الأمر قضايا أخرى كثيرة تتعلق باتصالاتها بشخصيات كبيرة ضخمة ٠٠ وهى مسائل غامضة لم تتضح الى الآن ، ولا أظن انها ستتضح بسهولة ٠٠ وربنا يستر علينا جميعا » ٠

ثم دخلت الملكة الفرعونية النوبية حاملة صينية القهوة كأننى فى حضرة الزعيم سعد زغلول ٠ شربت القهوة كأننى ألتهم الست وسيلة مدارية فيها ٠ وجلست هى قبالتى مدارية ركبتها بطرف الفستان كفتاة خجولة ما تزال ٠ كان فى عينيها حزن عميق جدا تكشفته شيئا فشيئا ٠ وكانت تغيب فى شرود ويرتسم على صفحة وجهها تعبيرات مخيفة ، ثم اذا بها تهدر قائلة : «آه لو كنت أعرف أين هى الآن ست بتعة ٠٠ لكان الاتصال بها أمرا ميسورا ٠٠ ولو اتصلت بها لعرفت حقيقة السبب ٠ واذا عرفت فلابد أن أقف معها حتى تنجو من الكارثة بعون الله ٠٠ لكن آه لو اعرف ٠٠ مصيبتنا جميعا اننا لا نعرف كثيرا من الأشياء ، ولو عرفناها فربما انقلب كل شيء رأسا على عقب » ٠٠

وقال سيف وهو يشرب القهوة فى شيء قريب من الانذار الضاحك : « بلاش الكلام ده يا وسيلة ٠٠ خليكى عاقله شويه » ٠

فبدا على الملكة ما يشبه التوتر والخوف من شيء غامض ، وصارت تلوح بيدها حول رأسها فى استفهام مبهم ، وسيف يترجم حركتها قائلا : « انا معاكى أنا قلت المسألة غامضة ٠٠ ومسيرنا نعرف ٠٠ احنا يعنى نسيبها لوحدها ؟ » ٠ ونطق صوت فى داخلى : « وفيه حد ينسى أبوه

السنين دى كلها يا هريدى ؟ فيه حد كان ينسى مراته فى المولد فى الزحمة ويجيله قلب يقعد من غيرها من غير ما يعرف هى راحت فين عامله أيه ؟ فيه حد يعمل كده الا أنت يا هريدى ؟ .. لكن مين عارف .. يمكن سيف الماورى يصلح غلطة هريدى .. الانسان بتخلقه الثقافة والمعرفة .. وينقيه الفن ويصفيه .. لكن » ..

وجاءنى صوت الملكة يقول : « ان عشت يا أخ مأمون فاننى سوف أعرف كل شىء عن الست بتعة .. سوف تكون شغلتى الآن هى البحث عن مكانها والاتصال بها وزيارتها بأى ثمن .. وسوف أساعدها بكل ما أستطيع اذا ما كان فى الأمر محاكمة أو قضاء » . فأحسست أن هذا كلام الملكة ، وانها لن تنقضه أبدا ، ان العظمة والسلوك العظيم كلاهما ليس ينبع من اطار المنصب أو المركز أو العلم أو الثقافة الجوفاء ، انما هو سلوك تحدده الشخصية نفسها بارادتها ، وارادتها هى شخصيتها . وهنا داخلنى الاطمئنان وأشعلت سيجارة ونهضت ـ أقصد فوجئت بنهوضى واقفا أقول : « طيب .. استأذن » . فلما فوجئت بأننى قد استأذنت بالفعل داهمنى شعور غريب بأننى ربما أكون شخصيتين مختلفتين ، لكننى متأكد من اننى مشطور الشعور ، فحيث جئت للالتحام بدمى ها أنذا أتجه نحو الباب خارجا وفى داخلى شعور مرتفع بأن دمائى نافرة الى الخروج خوف الاجتراء على حرمة ناس غرباء عنى تماما ..

كان ذلك منذ بضعة أسابيع . وعدت من العاصمة ضائقا لأحضر فرح « جميل » وأبقى بالبلدة أياما . وكنت ألوم كثيرا من أقاربى مثل جميل وأخوته وغيرهم على كونهم لا يسألون عنى ولا يهتمون بوجودى فى البلدة ، لكننى فى لحظة الوصول الى الغضب منهم تذكرت اننى شهدت عقد زواج خالى سيف وعزمته فى شقتى وقبض علينا معا والتقينا كثيرا ولم أشأ أن أكشف له عن صلة القربى بينى وبينه .. فأتمزق من شعورى بالوضاعة ، وأزداد اشفاقا على الناس أجمعين ، فكل الدماء مسمومة على ما يبدو ..

لكن آه لو تدرى ما طرأ على الآن وجعلنى أحس بالحاجة العاطفية لأن يكون معى رجلا كسيف الماوردى . اننى مصمم على المضى فى طريق ربما كان فيه حتفى ، وأعرف أنه محفوف بالمخاطر لكننى أحب مخاطره واطلبها لتكشف لى عن سر جوهرى ومدى أصالته . هذا دور قد اخترته لنفسى بمحض ارادتى : أن أفتح ملف خالتى بسيمة وأبحث فى تاريخها ووثائق حياتها لأصل الى مصدر قتلها وعودتها على هذا النحو الى قريتها . هودور اعرفه ولن أطلب أحدا يحارب معى ، انما أنا محتاج فقط الى روافد من المعرفة . وهنا سوف أتخلى لأول مرة عن ذاتى وعن ارادتها الشخصية ، سأنهار وأعترف بانتمائى لسيف لا لشىء الا لكى أحصل منه او عن طريقه على بعض الحقائق ، أليس زوجها ؟ انه فى حقيقة الأمر اول طرف يجب أن يكون مسئولا ومعينا فى هذه القضية .

ـ ٣ ـ

.. وانتفض « مأمون » قاعدا فى حوض الساقية وهو يشعر بالنشاط المفاجىء والرغبة فى الوجود . أما أنا فقد أخذت أحمحم حوله معبرا عن شعورى بأصالة العلاقة بيننا . فها هو ذا « مأمون » يكشف ان صلته بى قديمة وأنه سبق أن رآنى على الأقل مرة فى صحبة سيدتى . وليست صلته بى وحدها هى القديمة ، بل ان صلته بالموضوع كله اقدم ، بل وأكثر أصالة بطبيعة الحال . ولكن هل يكفى أن يكون المرء طرفا أصيلا فى القضية لكى تقام القضية ؟ . لا بالقطع . لأن تفاصيل الجريمة فى قضية مأمون هى تفاصيله هو نفسه التى تمزقت من قبل ان يولد والقى بكل منها فى سلة مهملات بعيدة . هكذا أصبحت افهم « مأمون » ولكن فهمى له يشكل مأساة خاصة بالنسبة لى فوق مأساته هو الشخصية . فمأساة مأمون هى كيفية تعرفه على أشلائه المبعثرة فى وادى بنى الأزرق . أما مأساتى أنا فهى أنى ككلب أمين وفى على أن أساعده فى التعرف على أشلائه ومعالم حقوقه التى أعرفها . أليس فيه

بعض ما فى ؟ أليست مأساته تشبه بعض مأساتى ؟ أنا نفسى لا أذكر من طفولتى كلها سوى مشهد أمى وهى تهرع صارخة مشجوجة الرأس بنبوت عدوانى همجى حقير بدون أى ذنب جنته ثم تهوى فى المستنقع النتن بين أعشاب الحلفاء . أنا الآخر رأيت أشلائى وهى تتمزق بالفعل وتنحدر الى مستنقع الجيف .. هو كذلك قدر له أن يرى أشلاءه وهى منحدرة بالفعل كذلك فى مستنقع الجيف ..

واذا كان قد قدر على أن أجىء الى هذا الوجود كلبا مفتت الذاكرة لا يملك الحق أو القدرة على موهبة التعبير ، فاننى وفاء لكلبيتى فقط وليس لأن ادعاءات أخرى ، سوى أحاول مساعدة مأمون بقدر الامكان على التعرف على تاريخه المجهول ..

لكننى فجأة وجدت الدنيا قد انقلبت . صحيح ان فرق الهجوم الفركشى لم تكن ظاهرة لنا ، والا ان وفودا كبيرة من الأفندية والضباط قد زحفوا نحونا يتحدثون فى لغط مرتفع . رفعت رأسى فوق الساقية فعرفت ان « مأمون » قد خدعنى ، اذ وضعنى فى قلب المنطقة المحظورة وادعى اننا خارجها . نهض « مأمون » واقفا يعدل نفسه ويبتسم قائلا : « أهلا وسهلا » ، ثم معتذرا : « لمؤاخذه راحت على نومه » . ونظر له ضابط الشرطة فى ريبة واستنكار ، وسكت على مضض . اذ أن أفنديا شابا متحذلقا يرتدى بذلة كاملة تقدم نحو « مأمون » مسلما : « أهلا أستاذ مأمون » ، ثم نظر الى الوفد الذى معه : « مأمون عكاشة طالب جامعى من خيرة شباب البلد .. هو اللى ساعدنى فى مصادر الدكتوراه بتاعتى .. أهلا يا أستاذ مأمون بتعمل أيه هنا ؟ » .

قال مأمون : « أبدا يا دكتور على .. الواقع أنا فى ظروف مش كويسه ومشيت أنفس عن نفسى من كتر الهم » . قال ضابط الشرطة فى لهجة ذات معنى : « وما لقتش مكان تتنفس فيه غير هنا .. اشمعنى هنا يعنى ؟ » . دهش مأمون ، وقال الدكتور على : « معلهش يا حضرة الضابط .. مأمون أخ مش بتاع كده ولا كده .. ولد شريف وبيحب

بلده .. بس لازم ميعرفش ان المنطقة عليها ظروف استثنائية وممنوع القاطنين فيها » . أسرع مأمون قائلا : « فعلا والله يا دكتور .. ولو حضرة الضابط عرف ظروفى يمكن يقدرها .. الواقع أنا تايه مش دارى بأى حاجة .. اعذرونى .. جثة خالتى وصلت من يومين ثلاثة وحيدفنوها فى مقابر الصدقة .. وأنا الوحيد من عائلتها أريد أن أستلم جثتها وأفتح محضر ولا أجد أحدا يتعاون معى .. يقول لى ماذا أفعل » . وهنا خف بعض الجفاف على الوجوه ، وقال الضابط مدافعا عن نفسه فى لهجة تأنيب متذاكية : « طب وايش عرفك بقى يا خويا ان المحضر حيتقيد ضد مجهول ؟ » ..

وهنا ارتفعت موجة الحركة مصحوبة برعب وخوف وتذلل ، حيث ان موكب عبد الجبار نفسه قد اقتحمهم ومعه الخبراء والمهندسون يشرحون له خواص المنطقة ويشرح لهم مميزاتها . وكانت يد عبد الجبار تشير الى وجود الساقية كاحدى المعالم المطلوب ازالتها ، حين برز له وجه مأمون مباشرة ، لحظتها تعلقت نظرته بمأمون لبرهة طويلة وكاد يبتسم له كأنه تعرف عليه ، لكنه اعتقل ابتسامته وتجاهله . وتقدم ضابط أكبر صائحا : « فيه أيه ؟ أيه الجدع ده ؟ . بتشتغل أيه يا أخ ؟ بيعمل أيه هنا ده ؟ » . وهنا توقف الموكب فى قليل من الخوف والتشكك . فقال الضابط الكبير : « اتفضلوا انتوا سعادتكم » . فقال عبد الجبار مبتسما : « مش مهم بس فيه أيه ؟ » . قال الدكتور على ناظرا الى مأمون كأنه يقدم له أكبر خدمة فى حياته : « الموضوع وما فيه يا أفندم .. مفيش حاجة .. حصل لبس صغير .. الأستاذ مأمون طالب فى كلية الآداب وأديب ومتطور ومثقف » . قال عبد الجبار بشىء يشبه الخوف مع التقدير المزيف : « طالب فى الجامعة ؟ » . قال الدكتور على : « ايوه بس هو فى ظرف قاسى » . قال عبد الجبار وقد أستعد لشىء منهم : « خير يا مأمون يا ابنى .. قول ما يهمكش .. انت بلدياتى .. يعنى اخويا الصغير .. أنا تحت أمرك فى كل اللى انت عايزه » .

قال مامون وهو على وشك البكاء : « لا يا أفندم العفو أنا مش عايز اى حاجة » . قال عبد الجبار فى اهتمام : « أمال أيه الحكاية ؟ » . قال الدكتور على : « من يومين تلاته يا أفندم ·· جثة خالته وصلت البلد بشكل غريب ·· وفى ظروف أغرب ··والبلد كلها عارفه ·· وهو الوحيد من اهلها وعايز يستلمها ·· وخايف أحسن خلاص حيدفنوها فى مدافن الصدقة ·· فمش عارف يعمل أيه أو يتصل بمين ·· فانذهل ·· فضل ماشى من امبارح ·· لحد ما تعب نام هنا · ومكانش يعرف ان فيه زيارة ولا أى حاجة ·· هو كان ماشى فى الليل تايه ·· حتى ميعرفش دخل هنا ازاى ·· ده صاحبى وأنا عارفه كويس قوى ·· شخص شريف وصافى » ··

وأوشك الدكتور على أن يبكى من فرط التأثر ، أقصد من فرط مهارته فى تمثيل التأثر · وصار الضابط الكبير يركز بصره فى مأمون ويهم بانهاء الموقف ، لكن عبد الجبار قال له متأثرا :

ـ « لحظة من فضلك ·· الجثة دى ·· اعتبروها قطعة منى أنا ·· ارجوكم ·· عاملوها كانكم بتعاملونى أنا شخصيا ·· المرحومة دى ست طيبة من دون شك ·· تعرفوا ليه مع انى لسه ما أعرفش هى مين ولا اسمها أيه ؟ ·· لأن ربنا أراد يسترها فى مرواحها ·· ألهم الشاب اللطيف ده انه يمشى عشان يقابلنى ·· أنا يا مأمون يا ابنى ·· تقديرا لظروفك ·· حاعفيك من أى متاعب » ··

وهنا نظر الضابط الكبير الى ضابط صغير فامتطى سيارة نصف نقل وانطلق يجرى بها نحو البلدة · ثم ان عبد الجبار نظر فى شخص خلفه ، فتراجع ثم انفصل وامتطى سيارة انطلق بها خلف السيارة النصف نقل · ثم نظر عبد الجبار فى مأممون :

ـ « كن مطمئنا غاية الاطمئنان ·· من هذه اللحظة سوف يبدأ رجال فى بناء مقبرة فخيمة تليق بالمرحومة خالتك ·· يشيع جثمانها من مسجدى فى البلدة ، ويقام عليها العزاء فى أفخم سرادق بجوار

المسجد ، حيث يقرأ القرآن مشاهير القراء ·· أليس هذا ما يرضيك يا مأمون ؟ ·· اذهب انت الآن وشاركهم فى أى شىء تراه أو فاجلس فى السرادق لاستقبال المعزين ·· لعلك فى الجامعة سمعت عنى اقوالا ما انزل الله بها من سلطان ، وربما كنت فى احدى الجماعات أو الجمعيات أو المنظمات وحينئذ يكون تراثك حافلا بالأكاذيب عنى ·· أعرف هذا ·· لكننى يا ولدى لست سفاحا ولست لصا ولا تاجرا ·· أنا رجل يعمل ليستفيد الآخرون ويفيدون ·· لست أعبد المال ·· انما أعبد بلادى ، وأتمنى لها الازدهار والنماء ·· ولم أرد أحدا طرق بابى ·· لسوف اعتبر ان هذه الكلمة وهذا اللقاء القدرى غير المقصود بيننا جزءا من خطبتى فى هذه المناسبة ·· نعم ليكن ما حدث الآن جزءا من زيارتى لا نفرط فيه ·· هكذا أراد الله وأنا لم أسع الى المنظرة أو الدعاية انما أنا وضعت فجأة أمام محك يفضح حقيقة شخصيتى ·· وأنا أنتهز هذه الفرصة وأقول لكل من يهاجمنى بدوافع سياسية أو بأحقاد طبقية : أنا مستعد لانفاق كل أموالى فى وجوه الخير ·· ان أعمالى كلها تتسم بالقومية والوطنية الخالصة ·· و ·· خالتك هذه الغريبة العائدة يا مامون ليست تدفن معززة مكرمة فحسب بل انها ستكون سببا فى انشاء مسجد جديد أقيمه فى البلدة على نفقتى بجوار البقعة التى يدفن فيها جثمان خالتك ·· ولنسمه جامع العائدة ، لنكون بذلك قد حققنا مصلحة قومية جماعية . وفى نفس الوقت يظل المسجد قائما لأجيال طويلة يذكرها بأن كل عائدة الى وطنها شريفة طيبة سوف تجد نفسها مثل هذا التكريم » ·

ووجد « **مامون** » نفسه فى دوامة : آلات تصوير تحاصره بين الجميع ، أضواء متوهجة ، قفزات وحركات بهلوانية وناس تكتب وآخرون يحملون الميكرفونات · حاول هو أن يعترض ، فلم يجد للاعتراض سبيلا · حاول أن يشكر سيادته على فعله ويتحفظ على مسالة دفنها هذه ، فمسألة أن يقام حولها مسجد ومقبرة فاخرة وما الى ذلك هذه مسالة غير مقبولة من أساسها اذ أن خالته تكون بذلك تكون قد دفنت فى مدافن الصدقة ، اى تكون قد تحققت المأساة بالفعل فما الذى سعى اليه اذن ؟ أكان يسعى

لدفنها فى مقابر الصدقة محاطة بكل هذه الفضيحة العالمية ؟ ليته اذن تركها تدفن فى السر ٠٠ كان يريد أن يقول ان دفنها فى غير مدفن أسرتها لن يشفى غليله مدى الحياة ، وأى تفخيم لدفنها ان هو الا مساومة رخيصة او مزايدة على جسد ، فكيف وهو الذى لم يقبل دفنها فى مقابر الصدقة يقبل ان تقام على جسدها المزايدات ؟ ٠٠

لكنه لم يجد نفسه فى الدوامة الجارفة ٠ سرعان ما حملته الدوامة الى عربة فاخرة واختفى الموكب خلف ظهره وهو بين مجموعة من الرجال العتاة كالمقبوض عليه معززا مكرما ، حتى أنا سمحوا لى بالركوب معه لكى يوافق ويكون مبسوطا ٠ وفى الطريق هم بالصياح عدة مرات قائلا فى تذمر : « أرجوكم ٠٠ أنا مش عايز الجمايل دى ٠٠ أنا حاتصرف أنا ٠٠ معايه فلوس ٠٠ معايا على الأقل دفنها وخرجتها وقرآنها ٠٠ فأرجوكم ساعدونى بس على استلام الجثة والتصريح بالدفن ومالكوش دعوة » ٠ ولكن أحدا لم يعطه الفرصة فى الكلام أبدا ، وبشكل فكاهى غريب ، فمن قائل بعشم كبير : « يا أخى ما تسكت » ، ومن قائل فى عتاب : « يا أخى خلاص الراجل سـجل على نفسه » ، ومن قائل : « مفيهاش حاجة ياخونا » ٠ ومأمون يتابع كل ذلك ويكاد يبتسم من فرط الشعور بالغيظ الدفين ٠ أخيرا استسلم مأمون للقوى الضاغطة واسترخى فى مقعده كأنما ليفكر فى حل للخلاص ٠ وزحفت أنا فوق صدره وتسلقت كتفيه كأننى أواسيه ٠ فأحسست انه يستريح قليلا ويضع يده على ظهرى ٠٠ فسمعت صوته فى أعماقه يسرى وكان كأنه موجه الى : ٠٠

قال مأمون :

« الجميع ٠٠ بلا استثناء ٠٠ طول عمرى أحتقرهم ٠٠ لم اكن أحب ان يرونى أبدا فى هذا الموقف ٠٠ هم يركبون معى الآن باعتبارهم من اهل متكلفين بى وبفض أحزانى ٠٠ هم الذين سيتولون الانفاق على الجنازة من جنيه لالف ٠ هم الذين سيشرعون من غد فى حفر أساس المسجد

بجوار المقبرة التى سيقيمونها اليوم على عجل ٠٠ وهم الذين سيستفيدون من المقـاومة كلهـا ٠٠ انهم أولئك الذين أصـبحوا فجأة من رجال عبد الجبـار ٠٠ لعله وجـد فيهم والدانا تحب المكسب ولغير المكسب لا ينحنون ٠٠ لعله وجد فيهم أعوانا خلصاء له فأغدق عليهم وأتاح لهم فرص المكسب واسعة ٠٠ أما الدكتور على فحدث عنه ولا حرج ٠٠ هو الآن من جملة الوفد الطليعى الذى يتقدم الموكب لتذليل ما يعترضه من مفاجآت مثلى ٠٠ لقد أصبح دكتورا وذا عدة مناصب ومهـام فى البلدة ويريد امتطاء العمل السياسى لتحقيق طموحات شـاهقة ٠٠ انه شخص نافع ومفيد جدا لكل من يريد استخدامه ٠٠ انه مرشح لأن يكون موضوعا لواحدة من أجمل الروايات التى سأكتبها يوما ٠٠ يكفى انه حصل على شهادة الماجستير والدكتوراه من جامعة السلحفاة أكبر جامعات بنى الأزرق طرا فى موضوعين عميقين جدا ٠٠ فباعتباره طالبا فى قسم اللغة الأزرقية فانه تقدم لنيل درجة الماجستير ببحث فى الغاء كلمة « ليه » ٠ أو لماذا باللغة العربية الفصحى ٠٠ وموجز بحثه ان اللغة كائن حى كالجسد يستغنى عن كثير من الحروف والألفاظ والتعابير التى لم يعد لها وجودا فى الحياة المعاصرة وأصبح تقريبا لا محل لها من الأعراب ٠٠ اذ ما معنى كلمة ليه ؟ أو لماذا ؟ ٠٠ نعم ما معنى ان تقول لماذا ؟ انك حتى لم تعد تقولها لأنك لم تعد محتاجا لقولها أصلا ، ليس لأنك لن تجد لها جوابا بل لأنها لم تعد متداولة فى القاموس اليومى أصـلا ٠٠ وقد نوقشت الرسالة فى احتفال ٠٠ وحصل بموجبها على درجة جيد جدا ٠٠ فما كان منه الا أن سـجل « الدكتوراه » فى موضـوع أغرب يعتبر فى نظره ـ أكاديميا ـ استكمالا للبحث السابق ٠٠ وكان البحث فى الغاء الجملة الاعتراضية من الأساليب الكتابية المعاصرة ، اذ انها هى الأخرى دخيلة على الأساليب ، أليس اسمها اعتراضية ؟ نعم انها كاللقمة فى الزور تقطع استرسال الجملة بشرطة قليلة الذوق مغيظة ، لتقول كلمة أو جملة لا طلعت ولا نزلت ، ثم تعود فتسبك بنفس الشرطة ٠٠ ان سماحة اللغة الأزرقية لا تقبل هذا النوع من الدخولات تحت أى سبب ، فهى لغة تنبو

بنفسها دائما عن الهوى ، كما وأن الأسلوب الأزرقى بطبيعة تكوينه ضد أى اعتراض بجملة صغرت أو كبرت ‥ ونوقشت الرسالة أيضا وحصل بموجبها على درجة الامتياز مع مرتبة الشرف الأولى ‥ فبالله وسط نماذج كهذه كيف يمكن لمثلى ان يوجد ؟ » ‥

توقفت السيارة عند مبنى المشرحة • ونزلوا • وكانت الأوراق قد سبقتهم الى التجهيز • وتقدم جماعة وطلبوا أن يذهب مأمون معهم للاطمئنان على المقبرة • فقال مأمون : لا ‥ سأبقى هنا لحين خروجها من هذا المكان • ثم ظل يروح ويجىء فى توتر ، ويختفى خلسة فى الشوارع الجانبية ليميل على عربة أجرة ، ويعود خائبا • لحق بهم وهم يخرجون بالجثمان الى السيارة • فاندفع نحوهم بكل قوة وتصدى لحاملى الجثمان قائلا وقد انتصب فى جسده مارد قوى :

ـ « خلاص ‥ لحد هنا انتهت مهمتكم ‥ متشكر جدا ‥ أنا صاحب اللحم وأنا اللى حالمه واستره ‥ كتر خيركم » ‥

فاستاءوا جميعا • وربت عليه بعضهم ، ودفعه آخرون ، وصاح أحدهم فى استنكار : « شيلوه من هنا ‥ دا حرام ‥ ما تقفش فى طريق ميت » • وأخذ بعضهم يدفعه بشدة • فانتفض كالأسد الذبيح ولطش فى الجميع بيديه صائحا من أعماقه :

ـ « مالكوش دعوه ‥ ادونى جثتى ‥ هو بالعافية ‥ أما برود ‥ محدش يعترض طريقى باقول لكم ‥ يا بوليس ‥ يا مخابرات ‥ يا عالم ‥ أنا مش عايز حد غيرى يدفن لحمى فى مدافن الصدقة ‥ أنا عايش على وش الدنيا ، ولحمى لازم أدفنه فى مدفن أهلى » ‥

فوجدوا أنه قد أساء التصرف ، فاندفع بعضهم وحمله عنوة وهو يفلفص ويضربهم برجليه وذراعيه وأنا أنبح من أعماقى وأهبش وأخربش • تقدم أقواهم ولوى ذراعه فاستدار اليه مأمون وضربه بالبونية فى وجهه • فطوقه الولد الأقوى وظل يضربه بالدماغ فى أرسه وأنفه وبالركبة فى أماكن حساسة حتى فقد مأمون الوعى وتجندل على الأرض • فاندفع نحوه

ان حمله بسرعة الى سيارة جرت به الى المستشفى الأميرى وأنا فى أثرها • وهناك سمعت من الأطباء أنه مصاب بحالة هياج عصبى خطير وأنهم يحقنونه بمخدر ثم ان حالة قلبه غير مطمئنة ‥

ولما توصلت الى سريره فى المستشفى رأيته مريضا بالفعل • ولا ادرى كم يوما مر على بقاء مأمون فى المستشفى ‥ ولكننى بعد وقت طويل فوجئت به ينظر الى فى بشاشة كأنه يرانى لأول مرة • بعد قليل غادرنا المستشفى الى البلدة ولكننا فوجئنا بأن مأمون يجب أن يمر على مركز الشرطة ليدلى بأقوال ، فمكثنا ساعات هناك • ثم انطلق مأمون يجرى الى حيث دفنت جثة خالته ، فوجد مكانا فى مدخل البلدة فيما بين المقابر والبلدة ، وكان فى هذه البقعة بقايا بناء كنيسة متهدمة ، كان ثمة من يعمل فى ترميمها ، وعلى مبعدة نحو المقابر ، كانت ثمة مقبرة مقبرة قد أقيمت وامتد حولها سور كبير ، وثمة من يقوم بالبناء فى المسجد المقترح • توقف مأمون عند المقبرة وقرأ الفاتحة فى خشوع وصفاء مشوب بالدموع ، ثم عاد فقرأ بعض آيات كريمات • ثم مشينا ، وعدنا الى مركز الشرطة من جديد حيث جلس مأمون مع محقق مدنى لفترة طويلة سرعان ما انضم اليه محققون آخرون انهالوا على مأمون بالأسئلة واقتراح الأجوبة كأنه المتهم • وقال المحقق : « سوف نصل الى الفاعل الحقيقى بأسرع مما تتصور » • فنظر مأمون فى عينيه فرأى ثقة كبيرة فيما يقول •

باب القرافة

★ مأمون ينقذ القضية من مدافن الصدقة

— ١ —

أمضى مأمون فى القرية عدة أيام أخرى مهزولا منبوذا مرذولا ، ولم يجىء ليعزيه أحد ، بل ان جميع أقاربه وأصدقائهم كانوا اذا رأوه حولوا وجوههم الى الأرض تعففا من وجهه أن تقع عليه نظراتهم ، حتى جدته معزوزة الطيبة معه دخل عليها الدكان صدفة ليشترى سجائر فصاحت فيه بكل غلظة كأنها لبؤة شرسة « مفيش ·· معندناش » ، وحتى جده خليل ، كان مقبلا عليه فى الليل وهو جالس وحده فوق المصطبة يجفف دمعه فلم يلق عليه السلام ، فدخل وراءه الى القاعة ، فلم يعبأ به أبدا ولم يعرض عينيه لعينيه أبدا ، وكان محمر الوجه فى غضب مكبوت أسيف لا ينطق · فتركه « مأمون » ودخل الى جدته ، فرآها مندمجة فى صلاتها فى تمتمة حماسية غير واضحة ، وكانت تنظر اليه ولكن كأنها لا تراه مطلقا · فتركها ومضى نحو جده مرة أخرى يريد أن يحدثه ، فاذا بجده قد استغرق فى النوم مغطيا وجهه باللحاف · فرجع مأمون الى المصطبة ساهرا طوال الليل ··

وكنت أريد أن أنبهه الى أن الرحيل أمر واجب وضرورة ، وعلاج فورى ، لكننى كنت أراه مشغولا بمسألة مسيطرة عليه تماما · كان صوتا فى أعماقه يهدر وأسمعه ·· يقول :

— « لسوف أنبذكم أنا الآخر ·· ولكن لن أنصرف من هذا البلدة قبل ان أنقل خالتى الى مدافن أهلها ·· مزيدا من الاهانة لكم أيها القوم الغامضون القساة ·· تنبذوننى ، تعتبروننى مرذولا ·· الا اننى رضيت بدفن لحمى فى مقابر الصدقة وعلى نفقة رجل غريب ؟ ولكى يتخذ من جثمانها مناسبة دعائية ؟ أم لأننى تسببت فى ايقاظ جراحكم القديمة ؟ المرجح عندى أيها القوم القساة أنكم تنقمون على فضحكم ·· وهذه نذالة ·· حسن ·· فاليكم المزيد من الفضائح ان كنتم لا تحبون ·· ان ما هو فضائح فى نظركم هو قمة الشرف والرجولة فى نظرى ·· سوى أنقل جثمان خالتى الى مقابر أهلها فى مهرجان أقيمه وحدى ، وأقدم فيه العزاء لنفسى بنفسى ، لسوف أكسر القاعدة التى سارت على نهجها دماؤكم منذ أجيال طويلة ·· لسوف أثبت ولو لمرة واحدة انها دماء متآلفة ، وانها يمكن أن تنادى بعضها فتجيب ·· ان الدماء الذكية لا ترتبط بأصل الانسان أو طبقته انما يتمثل ذكاؤها فى نبل نفوسها حتى ولو كانت لشخصيات فقيرة عادية ·· ان كان نقل جثمانها الى مقبرة أهلها فيه فضيحة ثانية لكم فاعذرونى ·· فلست مغرما بتعذيبكم ولست ساديا أغرم بتعذيب نفسى ·· انما أنا مضطر ·· فلو تركتها مدفونة فى مقابر الصدقة فسوف أجدنى مساقا الى دفن قضيتها برمتها وراء حاجز العار وستار النسيان ·· وهذا ما لن يكون » ··

بعدها انغلق الصوت فى صدره تماما وآب الى شخير وشحير ، فأمنت عليه وجلست متيقظا فوق المصطبة اقتصد فى النباح قدر الامكان ، وأكثر من الحركة والوثب ومعالجة الطوارىء بانقضاض مفاجىء صامت وحمحمة · الى أن أصبح الصباح وفتح مأمون عينيه ثم تمطع ودخل فغسل وجهه وغير ثيابه وبدأ رغم هزاله فى منتهى النضارة والحيوية والشباب · ثم أخذ من الصندوق الكبير قرقوشة مضغها ، ثم أخذ واحدة أخرى وأخرى يقضم · ثم تذكر فعاد وأخذ ثلاث أخرى ورمى بواحدة تجاهى فنزلت بين فكى · ومضيت أقرقشها وهو يرسل الى بالثانية ثم الثالثة وكانت طرية لدنة لذيذة ، أليست من قمح بنى الأزرق الجميل ؟ · ثم مضينا

فاخترقنا القرية القديمة الى القرية الأسمنتية الجديدة ثم وقفنا بين جمع تحت ظل جدار عرفت أنه مبنى المدرسة الجديدة · وجاءت عربة الأتوبيس التى ركبناها جميعا الى البندر · ·

★★★

تقع مدينة البندر على ضفاف فرع كبير من النهر الأزرقى العظيم · جميلة محندقة · يسكنها قطب كبير من أقطاب الصوفية · هى على التحديد المدينة التى ضاعت فيها خالته بسيمة فى المولد · وأشار لى مأمون الى ميدان الجامع الذى يقام فيه المولد ، والمكان الذى لا تزال تقام فيه السرادقات والسيركات · ثم توجه مأمون الى مبنى كلاسيكى جميل عرفت لأول وهلة انه المكتبة التى يعمل بها · ·

دخل من فوره على رجل فى مكتبه منفرد ، فغاب عنده قليلا ثم خرج باسما ، والتقى ببعض الزملاء وانتحى بهم جانبا · وكتب وريقات ودار بها فى عدة حجرات بين عديد من الموظفين يؤشرون عليها ثم اتجه بها الى الصراف فقبض ما أظن انه سلفة شهرين أو أكثر · ·

ثم اننا عدنا الى نفس القرية ثانية فى نفس اليوم ، حيث قصد « مأمون » الى دار يعرفها ثم اتفق مع رجل يسكنها ودفع له مبلغا معينا ، وقصد الى دار أخرى واتفق مع رجل فيها ودفع له مبلغا · ثم انه اندفع بعد ذلك الى موقف السيارات فاستقل منها واحدة الى البند من جديد حيث ذهب الى مركز الشرطة ، وقدم عريضة للنيابة يستصدرها تصريحا له بنقل جثمان خالته الى مقابر أهلها ارضاء لمشاعرهم التى هاجت وهددت بتفاقم الأمر وما الى ذلك وأن هذا الأمل يظل عارا وسبة فى أنظار الأسر من القرويين · قرأها المأمور ونصحه بعدم قلقلة الموتى ، وبعدم فتح المقابر عليهم مرة أخرى ، وان الأمر لن يتم بسهولة · فأصر مأمون وهدد بفضيحة وبنقل الجثمان عنوة · فتركه المأمور وشأنه : فلما قرأها رجل النيابة وافق على الطلب منعا للمشاكل وفضا للمنازعات · ووعده « مأمون » أن يتم ذلك فى هدوء · ·

ثم عدنا الى القرية فى صبيحة اليوم التالى حيث اتجه « مأمون » مباشرة الى مقابر القرية · خرمنا فيها طويلا حتى وصلنا الى مقبرة عائلتهم فوجدنا الرجل الذى قابلناه من قبل يعمل فى ترميمها بالأسمنت والجير والطوب ، ويستعد عماله للحفر ، فطمأنه مأمون بأن كل شىء على ما يرام · ثم اندفع خارج المقابر حيث توجه الى مسكن الرجل الثانى وأبلغه ان يأخذ عماله ويذهب لاستخراج الجثمان من المقبرة وحمله الى مقبرة العائلة ، ثم انطلق مأمون جريا الى مبنى نقطة الشرطة الخاصة بالقرية حيث قابل المعاون وعرض عليه موافقة النيابة واستصدر منه اذنا بفتح المقبرة تحت اشراف الشرطة · وخرجنا بصحبة شاويش طويل الشاربين · ·

استسمحه « مأمون » فى الطريق عدة مرات حود خلالها على ناس وسلم عليهم وتكلم بدون مناسبة لمجرد اعلامهم بما يحدث · وكانوا جميعا يعجبون كيف تمكن هذا الولد الجرىء من فعل هذا الشىء الجنونى وكيف سمحوا له بذلك وهكذا · ولهذا فقد كان مأمون يمشى فى زهو كبير كأنه يريد أن يتحدى كل أجهزة التصوير التى سبق أن صورت الحديث · وكان على الشرطى أن يواصل معه السير الى المقبرة ارضاء للضمير على الأقل ، وهو فى الواقع سينصرف اذا ما قبضت يده على الورقة المالية أم ربع جنيه ، التى أمسك مأمون عن دفعها له حتى يصل الى هناك ويراه الناس ويعرفوا ان الأمر رسمى · مع أول ضربة فأس هرش الشرطى يده وتثاءب وطلب الاتكال على الله ، فعلى مغض أعطاه مأمون الورقة الماليه مطبقة فى هيئة سلام · ومضى العمال يفتحون ·

ظهر باب الفسقية · فتقدم الحانوتى وانحنى داخلا يتحسس مكانه ، ثم اذا به يرتد صائحا فى ذعر : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم · · بسم الله الرحمن الرحيم · · لا اله الا الله » ثم وقف بالباب يرتعش من رعدة قوية ، حتى تسمر الجميع حوله ، وتصلب مأمون فى قرفصته وداخ وكاد يقع فى الحفرة ، وقالوا جميعا بعد برهة طويلة جدا : « ايه · · فيه ايه ؟ » · فقال الحانوتى وهو لا يزال يرتجف : « مفيش جثة هنا · · الطربة فاضية خالص » · قالوا جميعا : « ازاى ؟ » · قال الحانوتى :

« تعالوا شوفوا » . وانتقلت الرجفة الى مأمون وصار ينتفض باكيا حتى وقع بالفعل فى الحفرة . لكنهم ساندوه فتماسك واقفا غارقا فى التراب الناعم ، وقد أحس بخنجر ينفذ فى قلبه ، لقد وقع فى خديعة اذن . انه لم ير لحظة الدفن ، فهل يكون قد عاش فى وهم ؟ . غير انه كان لا يزال يتشبث بتشككه فى الحانوتى ، فوقف بباب الفسقية يرتجف بل ينتفض ، ويقول : « بتكلم جد ؟ » قال الحانوتى ببساطة : « ادخل شوف .. ادخل متخافش » . أهى مؤامرة عليه ليدخل المقبرة فيهيلون عليه التراب ؟ . أهو قدر أن يدفن حيا بجوار جثمان خالته التى تلبسته كأنها لعنة أصابته ؟ .

وقال الحانوتى : « أرجوك تدخل .. ادخل شـــوف » . يدخل ؟ كيف ؟ . ثم انه مال ونظر فى داخـــل الفسقية . فشجعه الحانوتى بأن يدخل أمامه وغاب فى الفسقية وناداه من الداخـــل صائحـــا : « تعال .. تعالوا انتوا يا اخوانا شوفوا » ورقبـــة مأمون تميل شـــيئا فشيئا وتندفن داخل الفسقية شيئا فشيئا . ورغم أن عينيه ألمتا بكل الفراغ الذى فيها الا أنه تشجع دفعة واحدة ودخل محنى القامة يبحث فى الأرض بيديه فلا يجد أثرا لأى شئ فيها على الاطلاق . فانفجر يبكى بصوت عالى ملئ بالنواح والعجز والضغط على الأنياب ..

وقال الحانوتى وهو يدفعه : « لا .. مش هنا .. تعال بس » . وأخرجه . ثم وقفوا جميعا يتباحثون فى هدوء ويطلبون من مأمون أن يكف عن اثارة فضيحة حتى يتمكنوا من معرفة السر . وضاقت به دائرتهم ثم تركوا التراب كما هو تمهيدا لابلاغ الشرطة والمعاينـــة . وبقى العمال جالسين حـــائرين فى انتظـــار أن تجئ الشرطة وتأخذ أقوالهم ، ومأمون منهار فوق كومة التراب يبكى وينتفض فى صمت ..

واذا به بعد برهة طويلة وفى قمـــة حـــيرته وانعـــدام قدرته على التحرك ، يرى رجلا مقبلا نحوه تبين فيه الرجل المكلف ببناء المقبرة ، وكان شاحب الوجه يجمع فى عينيه شئ يشبه الذهول أو الجنون .

ثم القى على الجميع نظرة كأنه يخرجهم بها من حيرتهم ولكنها مع ذلك غامضة . وتقدم من مأمون وجلس بجـــواره ، ثم مال على أذنه وهمس فيها . وظل يهمس لوقت طويل ، ووجه مأمون يهدأ شيئا فشيئا وأعصابه تنشد ، حتى استطاع أن يقف ويمشى خطوتين ملتقطا أنفاسه . واذا به يشير الى العمال الواقفين قائلا : « خلاص ياجماعة » وراح يدفع بقدمه التراب : « رجعوا كل حاجة زى ماكانت اللى عمله ربنا هو اللى كان .. دى حكمته .. الله أعلم بالغيب » . ثم مضى . وراح العمـــال يهيلون التراب من جديد كما كان . وعلى مبعدة منهم كان ثمة عمال آخرين يواصلون البناء فى المسجد لا علاقة لهم بأى شئ آخـــر حولهم ، كأن كلا منهم قائما بذاته لم يكتشف الآخر بعد ..

ثم ان مأمون مضى مع الرجل البناء حتى وصلنـــا الى المقابر وهو صامت لا يقوى على الكلام . حتى اذا وصلا سحبه البناء من ذراعه برفق وميل كتفه ومال معه ونظرا معا على ضوء ولاعة البناء ، فرأينا صندوقا خشبيا مزركشا ملفوفا بالملاءة الخضراء ينام مستريحا فى الفسقية ، مع أن مقبرتهم لم تكن قد استقبلت أحدا قبل سنوات بعيدة ، وكان مكتوبا على الصندوق بالبوية الملونة : « الله أكبر .. هذه جثة بسيمة أحمد ربيع زوجة هريدى خليل هريدى » . فأمر « مأمون » باغلاق الفسقية والانتهاء من كل شئ على ما يرام .. ودفع كافة النفقات عن طيب خاطر ومضى معتمدا على الله . وكان من فرط الدهشـــة والانبهار بما يمشى دون أن يرى أحدا . ولو أنه تلفت حواليه قليلا لرأى جـــده « خليل » يختبئ فى منحدر الحلفاء حتى لا يراه أحد . فلما وقعت عينى فى عينى الجد خليل صدفة استرحمنى بنظرة ضارعة ألا أنبح ، فاستجبت لضراعته ومضيت أنا الآخر لا ألوى على شئ ..

★★★

وكنت أظن أن « مأمون » سيتخذ طريقه الى المدينـــة مباشرة بعد انتهائه من هذه المهمة . لكننى فوجئت به يتجه الى بعض البيوت وينفق

بصوت أعلى تصور أننى أدعوه لمقاطعة أسباب المواصلات اذا كانت على عرجهـــا تكلفه كرامتـــه وتهـــدد انسانيته · وكان يناديني قائلا : « طب بس ماتزعلش دلوقت ربنا يحلها ونلاقى مواصلة بأى شكل ·· ولا عايز تغدر بى وترجع لوحدك ؟ ·· خلاص بطل ازعاج » · وأنا لا أكف عن النباح تجاهه فى هوهوة بلهاء مبهمة ترتفع ثم تنخفض ثم ترتفع · فتركنى وشأنى فى استسلام حذر ، وانصرف لشأنه ويالها من شئون فى شئون من داخل شئون ·· كان الله فى عونك يا مأمون ، انك داخـل شرنقة من الهموم تتوقف فيها على محطـــات لم تكن تريدها وتركب مواصلات لم تكن تحبها ، ويرمى بك فى بؤرة فتجاهد للخلاص منهـــا حتى تصل الى المستنقع الذى يليها ·· مأساتك هذه يا مأمون أمامك فانظر اليها بدلا من الاستغراق فيها ، نعم فها أنت ذا قد صرت فى بؤرة مأساتك على وجه الحقيقة ، مأساتك انك ممزق المواصلات : ان رق بك الاحساس أو حدى بك الهوى أو كابدك الشوق الى الوصال فان ذلك مستحيل وأى مستحيل ·· ان بينك وبين نفسك فواصل لا حصر لها ، ابتداء من محو فترات كاملة من تاريخ أهلك وماضيك ، وانتهاء بشوارع صاخبة الضجيج والعنف والاستهتار واللامبالاة ·· فكيف بك يا مأمون تريد أن تصل الى لب الحقيقة فى قضية ليس فى حوزتك من أوراقهـــا قصاصة واحدة أو معلومة حقيقية واحدة ·· كيف تحلم بالوصول الى هذا وأنت عاجز عن الوصول الى مكان ثمة يأويك ؟ ·· هذا قد أصبح أمرا محققا ·· فان تلتقى حتى بنفسك مع نفسك هذا محال ، انك بالكاد تصير على الدوام مجندا للدفاع عن حياتك ضد مختلف الأخطار الداهمة بلا وعى أو تفاهم أو رحمة ·· أتريد بعد ذلك يامأمون أن توصـل بين أشلاء لحم قضيتك لتعيد ضمه حتى تدب فيه الحياة من جديد ؟ · انك تحلم بالمستحيل ·· ان أشلاء لحـــم قضيتك موزعة بين مجموعة عصور وأزمنة مختلفة وأمكنة بعينها وناس بعينها ، بدول قامت ثم دالت وأخرى وثبت ثم ضعفت وغيرها اعتلت ثم ضلت ، فكيف تتعرف على ابرتك وسط كل هذا الركام المترب ؟ ·· العجيب العجيب انك غارق

فى لحم قضيتك تماما ، بين وثائقه ، لكنك لا تعرف ، لأنك مثل دودة صغيرة نشأت من هذا الركام وظلت تسعى بينه عمياء لا تدرى ··

كل هذا كان يتضمنه نباحى أى نعم ، ولكننى كنت أقصـــد به ان ينزل مأمون عن فكرة سيارة الأجرة بل أن يعدل عن كل مشوار فى دماغه ويأتى معى ، يمضى خلفى أنا حيث أقوده الى ما أشاء أن يعزف عنه شيئا · لكن ·· هب ·· تحققت المعجزة وتوقفت سيارة فركبناها ·

اذا بمأمون يقتادنى الى المكان الذى أريد أن أقتاده اليه · فى الواقع لم اكن أتوقع منه هذا · كنت أتوقع أن يبحث عن مكان يأويه ليبدأ فى تدبير أموره ، أما أن يتجه من باب الحديد مباشرة الى الحى الذى تسكن فيه الست بتعة فهذا مالم يخطر لى على بال ·· كانما هو حيه الذى فيه بيته وأهله ·

صرت أجرى أمامه بتؤدة وأنظر خلفى لأتابعه فأجده يتابع السير خلفى · ثم اننى حودت فى حارة فحود ورائى وكان قد شرع يحود فى غيرها تمويها على · فما أن صرت فى مدخل الحارة حتى اندفعت أجرى لاهثا من الفرح منجذبا الى رائحة البيت القديم الذى شهدت بنفسى أيام عزه ، بيت الست بتعة · ثم اننى وقفت على عتبة البيت وصرت أنبح ، ثم استدرت فوجدت مأمون يقف ناظرا الى فاغر الفـــم من الدهشـــة والذهول · ثم اذا به يقترب منى وعلى وجهه تعبير منبهر مستضاء بأشياء ومعان لا حصر لها · وبدأ على ملامحه أنه يقول : « حلو الكلام ده ·· شئ مذهل صـــحيح لكن دى حـــلاوته ·· بقى انت تعرف البيت ده بالتحديد ؟ ·· هيـــه ·· يارب ·· مش معقول ·· ده يبقى لغز ·· او اللمحة اللى طرأت على مخى دلوقت تطلع صحيحة أبقى وقعت فى أكبر لغز فى حياتى ·· أبقى وقعت فى أسطورة الكنز ·· أبقى فى منطق السينما الأزرقية وتمثيليات التليفزيون » ··

ثم بقى مسمرا فى مكانه كالمصلوب ، نبحث فيه كأننى أقول : « مالك » . فنظر فى قائلا : « مائة عام من السينما على هذا النحــو المعروف وما تقدمه من محتويات متشابهة ، يليها ثلاثون عاما من التليفزيون يقوم بانضاجها ونشرها فى كافة البيوت الأزرقية حتى كفورها وعزبها ، كل هذا لابد أن يقيم واقعا على هذا النحو نفسه فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين الميلادى وأوائل الخامس عشر الهجرى .. لن أستغرب شيئا فى هذا .. سأصدق أى بادرة وأى لمحة يشى بهـــا الواقع حتى ينقضها واقع جديد ولا أقول يحتويها .. ان ما أراه على شاشة السينما عبر شاشة التليفزيون فى أى مكان وأرفضه بشدة وأسـخر منه مرير السخرية .. أفاجأ بأنه ليس فقط واقعا فى الشارع الأزرقى والحياة الأزرقية بل هو واقعى أنا شخصيا ؟ .. انه لشىء عجيب حقا .. أواقع تنقله تمثيليات وأفلام ميلودرامية ســمجة ؟ أم تمثيليـــات وأفلام ميلودرامية سمجة قد أنشأت ورسخت واقعـــا ميلودراميا ســـخيفا سمجا ؟ .. ليكن .. لابد أن يكون عقلى مرنا كالواقع ، ميلودراميــا كالواقع ، وربما سمجا وسخيفا أيضا كالواقع » ..

ولما رأيت « مأمون يهم بالمضى سبقته جريا على الســـلم الذى طالما قفزت عليه ونمت فوق بلاطه وشمشمت فى صفائح زبالته . السلم هو نفسه والرائحة هى نفسها وكل شىء هاهنا لا يزال هو نفسه ، الا رائحة الست بتعة ، ولهذا فعند باب شقتها وقفت أخمش بابه بأظافرى وأعوى ، ويعلو صوت بكائى ونواحى على نباحى . ثم ان الذكرى كانت تتسرب الى خياشيمى شيئا فشيئا فيصيبنى الهياج شوقا الى الماضى الجميل ، وأحاول تذكير الذكريات بنفسى ، وبما كنا نفعله من حركات فرحة مرحة على هذه الدرجات فى سنى الازدهار حيث كل يوم فراخ ورومى وبط وماعز فى شقة سيدتى بتعة وزوجها كحكوح .. لم يكونوا يستخدمون الثلاجة فى مسألة اللحوم هذه ، كله صابح بصابح وطازة ، ما كان أحـــلاها مـــن أيام ، انها الفترة الوحيدة التى عرفت فيها فى حيـــاتى معنى التعفف لكثرة الفيض ، الآن لا أحد يريد أن يفتح لى ، بل ان كلابا من أجيال

جديدة كادت تستغربنى فى الطريق على السلم ، لكننى أخذتهم فى عشرة أونطه واحتويتهم بحركاتى العجوزة وأفهمتهم أن الضيف هم لا أنـــا ، ما أذكاهم وأشقاهم ، ذكاء دود الأزقة ، يسألوننى مظهريا لا يهامى بأن الدار لم يعد فيها خير يستاهل القتال وخسران الود ، صحيح أن جو البيت كله قد أصبح يخلو تماما من رائحة اللحوم والمقليات والمشويات ، وصفائح الزبالة قد تغير محتواها وصار أوراقا نظيفة مكورة وعلبا فارغة بدون نكهة ، لكنه لايزال فى نظرى عامرا بالذكريات الحلوة ، انهم أغبياء سذج ، فما أبحث عنه هو زادى الحقيقى ، هو ذكرياتى هاهنا ، ولحظات الكوم التى عشتها ، حتى ان لم أجدها فان كرمها الباقى بداخلى سوف يقوم بالواجب ..

نسيت « مأمون » طوال هذه البرهة .. طالما تذكرته بحثت عن رائحته التى تاهت بين روائح حشد من الذكريات .. فوجدته قد واصل صعود السلم نحو شقة صديقه « طارق » وقد وقف فى منتصف الدرج يتابعنى فى تأمل ذاهل وقد غاب من ذهوله عن كل وعى . نبحث فى تنبيهه . فنظر الى ، ثم نادانى باشارة فقفزت نحوه وواصل صعوده حتى شقة صديقه طارق . طرق بابها فى رقة مرتين ، ثم هبط ثانيـــة عدة درجات ، وانتظر . انفتح الباب وأطلت منه الأم قائلة : « أهلا يا ابنى فينك من زمان » ، فقال مأمون : « طارق موجود ؟ » . قالت : « حظك حلو كان بيلبس ونازل .. كلم ياطارق صاحبك الأســـتاذ مأمون » . فأخذت أصيح بقوة ابتهاجى كأننى أصيح به قائلا : «ها ــ طارق ياويكا » . وجاء صوت طارق الذى أعرفه جيدا : « مأمون ؟ مش معقول » . فصرت أهو هو . فقالت الأم وطارق معا فى نفس واحـــد : « غريبـــة .. الكلب أهه » . وأضافت الأم : « كلبها القـديم .. ياحـــرام .. ايه اللى رجعك الساعة دى .. حكمتك يارب » . وكان طارق يكمل ارتداء القميص حين خطا متحرجا خارج الباب مصفقا بالسلام على مأمون فى نصف ترحيب لكنه عالى النبرة : « ده كلام ؟ .. نسيتنا خالص ؟ » .

وجذب مأمون فدخل معه فقفزت خلفه تلقائيا ودخلت . نفس الشـقة المطابقة لشقة سيدتى ، ونفس الجو ونفس الناس ..

وقفوا ثلاثتهم ذاهلين حولى : الأم وابنها ومأمون ، وعلى وجوههم نفس التعبير ، نفس الشعور بشىء خارج شارخ قد حدث . قالت الأم مصفقة بكفيها فى عجب : « هو كلبهـا .. حاتوه عنه ؟ .. ياتـرى كنت فين وهى غايبه ؟ » . وقال طـارق وهو يفكر فى عمق شرير : « الكلب ده بقى له حوالى شهر غايب .. اشمعنى ميجيش الا النهاردة ؟ .. ويبقى أكيد كان معاها يوم بيوم » . ونظر الى مأمون : « أنت قابلت الكلب ده فين ؟ » . أحس مأمون أنه وقع فى ورطة ، قال بكل اهتمام وبراءة : « انتوا تعرفوا الكلب ده قبل كده ؟ » . قالت الأم فى استنكار متراجعة بذقنهـا : « ايـه .. كله الا ده .. دا الكلب ده بالذات عشرة عمر » . وقال طارق فى شقاوة خطيرة : « تعـرفه انت كمـان يا مأمون ؟ » . قال مأمون : « هو كلب مين بالضبط ؟ » . صاح طارق بشىء من الخشونة : « تعرفه قبل كده ؟ » قال مأمون فى لجاجة أحزنتنى: « الحقيقة هو كلب لطيف قوى .. بصيت فى يوم لقيتـه جنبى فى البلد » . صاحت الأم وابنها فى اهتمام شـديد : « بلدكم ؟ » . قال مأمون : « ايوه » . غابت الأم فى شرود طيب ، وشوح طارق بيده حول فمه مرددا : « الله ؟ » ، ثم لمعت فى عينيه شقاوة ذكية ، قال : « بس .. بس .. بس .. يبقى هو ولف عليك يوم ماكنت بتيجى عندنا .. حاكم الكلاب دى عشرية قوى .. ومش أى واحد تحبه أو ترمى نفسها عليه .. لا .. الى تستطيبه بس .. الى تحب ريحته .. شوف انت بقى الى راح وراك البلد من غير ما تشعر .. كلب أصيل والله .. شوفى له حاجة ياكلها يا امه » . وسحب مأمون الى غرفته قائلا : « دا ياسيدى كلب المرحومة » ..

قال « مأمون مصعوقا » مرحومة مين ؟ » ..

قال طارق فى تأثر شديد جدا : « ست بتعة » ..

صاح مأمون : « ماتت ؟ » ..

ثم كاد يبكى ، فبكى طارق بدلا منه وقال : « نعم .. ماتت فى المعتقل .. ماتت المسكينة بالسكتة القلبية » ..

وشـهق مأمـون قائلا : « لا حـول ولا قوة الا بالله .. الله يرحمها » ..

فقال طارق وهو يعدل ثيابه : « تصور .. اتضح انهـا كانت مسكينة .. معندهاش أى حاجة .. كل حاجة كانت متباعة لشركات استثمارية أجنبية .. رصيدها فى البنك لقوه صفر .. النهاردة الخبر وصل مع ان جثتها لسه ما اندفنتش .. راح فين ماتعرفش .. الله أعلم .. بيقولوا كان عليها حجوزات قديمة .. وديون قديمة .. والحكومة صادرت الى صادرته .. وهى كمان الله يرحمها كانت ايدها فرطه ، كانت بتصرف من غير حساب .. كل الى سابته حاجات بسيطة ما تذكرش بالنسبة لثروتهـا .. آنت للمخفى كحكوح .. بمـا فيهـا العربيـه المرسيدس والشقة ومحل آثار صغير وشقة تانية صغيرة .. كل ده ورثه كحكوح خلاص » ..

غرق « مأمون » فى ذهول . ثم صاح فجأة : « الكلب ده .. كلب الست بتعة ؟ » . قال طارق مؤكدا : « أى نعم .. داحنا متربيين سوا هنا » . وراح مأمون ينظر فى ملامحى مدققا لعلنى أكون قد تغيرت فى الطريق بكلب آخر . وكانت الدنيا تدور فى عينيه ، وصوت فى صدره يهدر : « مش ممكن .. دى معتولة .. ودى معقولة .. يكون كلب خالتى بسيمة .. وكلب الست بتعة .. دى جايزه ودى جايزه .. لو كلب الست بتعة يبقى صحيح ولف على وسافر ورايا البلد مرة من غير ما أشعر .. مع ان ده صعب .. لكن الأصعب منه أن يكون كلب خالتى بسيمة » ..

ورفع مأمون صوته يسأل : « وأين ستدفن جثة الست بتعة ؟ » . قال طارق : « فى مقبرتها ها هنا .. لقد كانت المرحومة تقيم المقابر

للناس على نفقتها وكان حريا بهـــا أن تبنى لنفسها واحدة ·· كانت المرحومة مشغولة البال دائما بمسألة دفنها وخرجتها ·· وتتحدث عنها كثيرا » ··

وصاح مأمون : « متى سنشيع جنازتها ؟ » ··

صاح طارق بنفس الحماس : « ولكن كيف جاء الكلب هذه اللحظة بالذات ؟ ألم يكن معك فى البلد ؟ يعنى جاء معك ·· فهل تكون الأقدار قد دفعته الى المجىء ليودع صاحبته الوداع الاخير ؟ ·· أم أن صلة خفية بين الأرواح وبعضها سيان فى الكلاب أو فى البشر وأنها لا تنقطع حتى على البعد ؟ ·· هذا جائز وهذا جائز ·· لكنه لشىء جميل بالفعـــل أن يتواجد ذكر الست بتعة وتعم الحى رائحتها وسيرتها فيكتمل كل شىء حتى بكلبها الغائب عنها ·· انها لسيدة طيبة بكل تأكيـد » · ثم هز كتفيه كأنه ليس مقتنعا تماما بما قال ··

ثم ان طارق لبس السترة فصار أفنديا مسمسما محبوك المظهر يدعو للاحترام وقال لمأمون : « تحب أن تحضر الجنازة بالطبع » · قال مأمون : « بكل تأكيد » · ونهض متقدما وراء طارق ··

نزلت أجرى فى المقدمة حتى عتبة البـــاب ، حيث تركت القيادة لطارق الذى حود بنا فى الحارة الجانبية الخلفية فاذا هى على اتساعها قد سدت من آخرها وتحولت الى سرادق ممتلىء بالكراسى فى صفوف متراصة ، وثمة فراشين يدورون بالقهوة المرفوضة مقدما ، ورجال فى زى محترم يقفون فى المدخل لتلقى العزاء كلما أقبل أحد ، وفقيه يقرأ · تقدم « طارق » ودخل فسلم على الجميع وفعل مأمون مثله ثم جلسا معا فى عمق السرادق صامتين واجمين · فلما اطمأننت ارتددت عائدا الى البيت من جديد أتقافز فى ضيق مزاج ، اذ بدأت رائحة كحكوح تنفذ الى خياشيمى بزخمها المقرز المريب · مع ذلك ما أن لمحته يدخل الشقة حتى قفزت نحوه وداعبته فلم يعبـــأ بى ، وكان باب الشـقة قد انفتح

واندفعت منه تلال من الســـواد الرادح بالصـــوت الحيانى متفجعا : « يا دعوتى ·· ى ·· ماكانش يومك يا اختى ·· ياحبة عينى ·· ى ·· يامؤمنة ومصلية ·· يافاتحة بيوت يتامى ياست بتعة ·· يا أميرة » · وثمـــة صبيات وولدان يتباكون ويمسكون المناديل ويرددون عبارات الترحم على الست بتعة · ثم اذا بالضـــجة ترتفع فجأة الى أعلى درجة ، يعقبها خروج أربع رجال يحملون جسدا متخشبا ملفوفا بكوفرته خضراء ويمشون به على حذر ، وفى جلال مهيب نزلوا به الدرجات ثم تقدموا الى خشبة النعش فوضعوه فيهـــا وطرحوا على النعش ملاءة كبيرة طوقتـــه وربطوها من جميع الجهات · ثم تقدم الرجال فحملوا النعش ومضوا به · ثم توقفوا عند السرادق برهة حيث تجمع الرجال وأدوا الصـــلاة على النعش · ثم استأنفوا حمله من جديد ومضوا ، فمضينا خلفهم جميعا فى صفوف متحاذية متخاشعة متزاحمة ··

• سرنا على هذا النحو حتى وصلنـــا الشـــارع العومى فاخترقناه وبعد مسيرة طويلة بين مرتفعات جبليـــة مخيفة أشرفنا على القرافة التى تحفل ببيوت ومدائن وقباب ثمينة · اخترق موكب الجناز هذه المقـــابر فوصل الى مقبرة أنيقة جـدا عبـــارة عن بيت مدهون بالزيت بألوان اردوازية كابية ، مكون من غـــرفتين يفصـــل بينهما حوش كبير ملىء بالأشجار العتيقة · حجرة فيها الأرائك والكراسى وحجرة فيها الدفن · تراجع الجميع كثيرا · وجلسوا متناثرين هنا وهنـــاك · أما كحكوح وصحابه وبعض النساء فقد جلسوا فى الحجرة · وكنت واقفا فى الحوش أرقبهم · وكانت حجرة الدفن قد تجهزت وتم فحت الأرض · كذلك جاء الطربى وأخذ تصريح الدفن · ثم ان الجثة دخلت أمام الجميع الى مثواها الأخير وتم الردم عليها ثم خرج كحكوح وسلم على البعض ، وبدأ الجميع فى الانصراف ، وسمعت طارق يقول لمأمـون : « متخافش على ركس حيرجع لوحده » ·

لم يبق من الجميع ســـوى كحكوح وسيدتين وبعض الشبان من حاملى المطاوى والناضورجية الذين أعرف شخصياتهم · ودخل كحكوح

الى الحوش واقترب منى وأعاد النظر فى ذاهلا ، ثم هم يرفع رجله ليضربنى بها فى مؤخرتى ، لكنه تراجع وتركنى فى حالى ثم دخل الى حجرة الدفن فتسربلت وراءه ، فرأيته يلف حول المقبرة ويتوقف خلفها فى شىء كالتلصص ، ثم يتقرفص ويرفع عن الأرض بلاطتين متجاورتين ، فاذا تحتها فجوة عميقة مظلمة ، نظر خلالها مشعلا ولاعته ، ثم زام ، ودمدم بصوت خفيض مسلوخ يائس : « برضه معنديش ثقة فيكم ياولاد .... لازم أشوف وأتأكد بنفسى » . ثم رفع أربع بلاطات أخرى فاذا تحتها أرض ، فمد أصبعه ونزع بظفره طرف هذه الأرض فاذا هى مربع من الحديد الصلب أخذ شكل الأرض ، ما أن ارتفع حتى ظهر تحته فجوة كمحطات التقوية الكهربائية فى شوارع العاصمة ، ثم اذا بكحكوح يهبط فيها نازل بل ويمشى فى الغبب داخلها . فجئت أنا أتلصص ومددت بوزى برقبتى كلها فى الفجوة الكبيرة فرأيتها سردابا ينتهى بعد أمتار طويلة بشكل فسقية دفن . ورأيت كحنوح يفك عن الجثمان الملاءة الخضراء فاذا هى ليست تضم جثمانا ، بل تضم تابوتا على شكل قامه الجسم البشرى ، رفع غطاءه المستطيل فاذا بطرب الحشيش مرتصة بجوار بعضها فى ترتيب دقيق . صار يعدها فوق السطح طولا وعرضا ثم بالعمق ثم يجمع ويضرب ويطرح ويشرد مفكرا . فيفاجأ برأس مدلاة من الفجوة فينفزع صائحا فى حقد : « امشى داهيه تخرب بيتك .. انت ايه اللى جابك دلوقت .. ماتروح فى داهية بعيد عننا . احنا ناقصينك ؟ » فرفعت بوزى عن الفجوة ، واستدرت أهو هو فى فروغ بال خوفا من انفجار شرايين مخى :

باب السلطنه

★ من دخل غرزة كحكوح فهو آمن !

فى اليوم التالى مباشرة لم يطق مأمون صبرا . كان قد أمضى الليل كله فى صحبة صديقه « طارق » . وكنت قد لحقت بهما آخر الليل حينما عاد كحكوح الى السرادق لينهى سردقته بربع أخير من القرآن ، بينما يتحاسب مع بعض القائمين بالأمر ، وسلم على الجميع وطيب خاطر الجميع . وسلم على « طارق » . وأراد أن يحتويه كما كانت المرحومه تحتويه . فقال له : « رايح فين ؟ » . فنظر طارق الى مأمون قائلا : « معايا واحد صاحبى ضيف عندى » . فزام كحكوح بصوت كظيم عفتان : « هـ .. م .. طب اسبقونى على القهوة .. خلى دى معاك » وغمز طارق بقطعة حشيش صغيرة كبيرة ، طواها طارق فى كفه وجذب مأمون فى فىء من الابتهاج قائلا : « شوف بقى .. انت لازم تخرج من الحالة دى .. تعالى نفرفش بقى بقية الليل .. انت معزوم على حسابى » ..

لم يعتذر مأمون ، فأسلس قياده لطارق ، الذى مضى به فى نفس الطريق الذى أعرفه ، حيث لا تزال غرزة صاحبى كحكوح قائمة فى مكانها نفسه . سمعت طارق يقول لمأمون ان هذه الغرزة هى الشىء الوحيد الباقى من ممتلكات كحكوح . وكان قد باعه عدة مرات فلا يستطيع المشترى وضع يده أبدا فيلجأ الى عشرات المحاولات الودية والقضائية فلا يفلح

لانه يتوه في مغارة من الاوراق وتعدد المسئوليات عدم وضوح الملكية الحقيقية وما الى ذلك من مشاكل يعرفهـا كحكوح ويسلطها عليهم حتى يفقدوا الامل فيطلبون التنازل عن الشراء ولو نقصت نقودهم النصف ، والواقع ان نقودهم تنقص كلها اذ تضيع عليهم ولا يعرفون كيفية التصرف معه ·· لكنها الآن ـ الغرزة ـ قد استقرت بين يديه وقام بكل جـــرأة فأنفق عليها حوالى ثلاثين أو أربعين ألف باكو ··

فانطلقت أجرى تجاهها · فاذا بى اكتشف اننى لم أكن قد جئت الى هذا المكان منذ نقمت على صاحبى الأصلى كحكوح وانتميت الى سيدتى وسيلة ثم الى سيدتى بتعة · فهل حدث كل هذا التغيير فى هذه الفترة البسيطة ؟ · أهى شرعة الشركات الاستثمارية ؟ أم هى قدرة رأس المال الأجنبى ؟ ··

وقال طارق :

ـ « لقد بيعت المنطقة كلها لشركة استثمارية قررت أن تبنيهـــا ناطحات سحاب ·· وتم تسريح أهلها جميعا بالقوة الى أماكن فى منشآت جديدة من تلك التى يسمونها الايواء ·· الا كحكوح ·· لا تدرى هل صدفة أم بتـــدبير ، حسن حظ أم قوة نفوذ ·· ولكن الجميع سرحوا الا كحكوح ظل محتفظـــا بغرزته ·· وهى بالطبع ليست مدونة فى أى أوراق رسمية كغرزة ·· انما هى مجرد ربوة عالية تأخذ الطابع الأثرى العتيق ·· يقول كحكوح متفاخـــرا انه أقنع الشركة أن تبقى على هذه الربوة كمظهر سياحى ، فالكلورى ، أمال يا سيد ·· وهكذا ساق الهبل على الشيطنة ، فكان يقيم شعارا من المشمع والكتان حول كراســـيه وترابيزاته ليحجب العملية كلها عن الأنظار بعد أن هدمت المبانى القديمة كلها من حولها ، وبقيت هى فى الهواء الطلق مكشوفة لكل العابرين ·· ما رأيك يا مأمون فى أنها تحولت الى شىء ساحر ·· حتى الذين يثورون على وجودها ، حتى المنوطين بمهمة ازالتها رسميا بالقوة حين يجســـون فيها يرون ان التفريط فيها خطل كبير ، وانهـــا قعدة تمنع الهـــدوء

والسكينة بهواء خرافى رطب ·· كحكوح يا مأمون يا أخى ليس وحده النصاب المحتال ·· بل ان الشركة الكبرى نفسها نصابة مثله وأكثـــر احتيالا ·· ولكن على من ؟ على كحكوح ؟ يــاخى دهده ·· لقـــد نصبت الشركة على الدولة واتضح ان المدينة السكينة المزعومة ـ والتى أخليت من أجلها المنطقة ـ لم تكن سوى مشروع فندق كبير جدا فى قلب العاصمة يتمتع بمزايا عديدة تتيح زوارا بسيارات لا حصر لها · ومجموعة المبانى التى أقيمت حول الفندق السياحى الكبير ان هى الا محلات على طراز معين تخدم الفندق وزواره ، وتؤجرها الشركة للمواطنين الذين يفرض عليهم نوع المحل وبضائعه ونظام البيع فيه ، أى أن الشركة تستأجر لمحلاتها عمالا من الأزارقة الغلابة يدفعون ثمن بنائها وهم فى الحق لا يملكون ·· كحكوح ســـيدهم فى هذا المضـــمار ·· كان الفندق يبنى أمام غرزته مباشرة ، فشرع هو الآخر يبنى ·· كان مشهدا طريفا جدا يا مأمون ·· الفندق بكل هاله وهيلمانه فى جانب ·· وكحكوح بربوته العالية فى جانب آخر ·· طريقـــة المبانى سابقة التجهيز سرعان ما رفعت القوام وركبت الجدران ·· كحكوح هو الآخر ما أسرع ما أقام مبنى صغير من دور واحد ، وأحاطه بحديقة غناء فعلا ·· وضع للربوة مطالع مسفلتة فى عدة اتجاهات ·· وأنت تجىء من أى ناحيـــة فتصعد على راحتك هكذا وتدخل فاذا بك فى كازينو غارق فى غابة ناشئة من الأشجار والأزاهر والورود ·· يقوم على تشغيله بضعة ولدان فى غير صخب ولا ضجيج ، اذ هم يقدمون لك البيرة المثلجة والجيلاتى والشاى والقهوة ، وأطباق الاسكالوب والبوفتيك والدجاج المشوى والكباب ·· المكان ذو وضـــع خاص لا يؤمه العائلات الازرقية ، لكن لا بأس من خواجاية سائحـــة ولا بأس من شبان أزارقة يصطحبون بعض الفتيات ·· ولذا فلا زحام ، اذ أن الأسعار هنا سياحية فوق السياحية بأضعاف مضاعفة ·· انك تحتجز نفسك ـ وأنت فى قلب العاصمة ـ فى غابة حقيقية تفصلك عن الوجود كله وتوهمك بالتوحد فى الحياة ·· وان دخلت وجلست فانك تجد أعدادا كبيرة من الشبان ذوى المزاج الخاص يتخذون طريقهم عبر

سرداب ضيق يقف عليه فتوة حيث ينفذون من باب سحرى الى حيث يختفون تماما .. من هذا السرداب سندخل يا مأمون .. لا شـــأن لنا بالكازينو طبعا .. أم انك تحب الجلوس فيه قليلا ؟ .. رأيى أن ندخل على الشرب فورا ، الى الغرزة ، فقد خرب دماغى من كثرة البكاء » .

وهكذا فان طارق ـ اقتادنا الى البناية من الخلف . فتجاوزنا مدخل الكازينو ودخلنا من باب العمـــال ، الذين تعرفوا على طارق فتركوه . وبينما نحن نسير عبر السرداب الضيق الذى بنى بالقيشانى قال طارق :

ـ « كل من يدخلون هاهنا معروفون لهم بحكم التقادم والخبرة .. هكذا يسمحون لهم » .

هذه اذن هى القعدة الداخليـــة السرية ؟ . وجدت كأننى دخلت دائرة أنيقة مبنية من الرخام . تتوسطها دائرة رخامية مزروعة بالزهور والورود وبها نافورة ثمة كراسى خيزران وترابيزات رخاميـــة بحوامل حديدية ، ومنصة فى ركن بعيد عليها أكوام وأكوام من حجارة الجوزة والقطع الخشبية ذات المســـامير . خلفهـــا أولاد يقومون بتحصيتها وتغسيلها . ولأننا أصـحاب مطرح فقد أهملونا قليلا . أما الذين كانوا يدخلون من الزبائن فكان الولد يلحق بهم فيطلب الزبون منـــه قائلا : « نص قرش » ، أو : « قرش » ، أو « ربع أوقية » . ويجاب طلبه فى الحال . أما ان طلب أقة فما أكثر يأكل من ورائها عيشا فعليه بانتظار المعلم كحكوح فى لحظة مناسبة ..

وجاء الولد بالمعسل وشرع « طارق » يوقع بامضاء الحشيش على الحجارة وبدأنا نشرب ، أقصد أنهما يشربان وأنا أشم الدخان فأبتهج مثلهما . ثم أن القعدة كلها سرعان ما امتلأت عن آخرها بمجموعة من شلل صار من الواضح انهم جميعا يعوفون بعضهم ، وانهم زبائن دائمون يجتمعون هاهنا كثيرا فى الهزيع الأخير من الليل . وأربع ولدان بالجوزة يسهرون على السقيا والمجاميع تتبادل التعليقات الساخرة اللاســـعة .

والضحكات العالية ترتفع الى عنان جدران الفندق السياحى الكبير الذى يطل مباشرة على قعدتهم الصيفية الشتوية الساحرة ذات الأضواء الخافتة والتليفزيون الملون يعرض شرائط الفيديو المتنوعة ..

لم تمض أكثر من ســـاعة حتى كان مأمون قد عرفهم جميعا عبر الأنفاس المتبادلة والتعارف السريع ، وعبر طارق والولد الذى يسقى هو نجوم القعدة اللامعين الذين من الواضح أنهم مصدر الانفاق على المجاميع بسخاء ، كانوا هكذا على الترتيب ابتداء من الترابيزة المجاورة لترابيزة طارق ومأمون : ولد أزرقى ابن حرام يعمل مرشدا سياحيا بدون مؤهلات وقد تصيد جماعة من السياح اليهود وجاء يحشش على حسابهم ويأخذ تموينه .. نجم الترابيزة الثانية رجل شكله شكل بواب وطبعه وحواره ولهجته فى الحديث لا تدل اطلاقا عن هذا النمط ، لكنك تشعر بأهميته حين تعلم انه تاجر عملة ولديه كشك صغير ولديه حظيرة مواشى حلابة وهو الى ذلك بواب بالفعل فى احدى العمارات الكبيرة التى يضع كشكه على بابها .. نجم الترابيزة الثالثة الولد « توتو » ، يعمل مع أحد أمراء الجزيرة العربية ، اما ما نوع العمـــل وتفاصيله فليس من حقك أن تعرفه ، انما لأنك مش غريب فانه شبه وكيل للأمير فى البلاد الأزرقيه يقوم بتخليص خدمات له ومصالح ومهام ، وهو يصرف عن سعة باذخة جدا جدا .. نجم الترابيزة الرابعـة رجل تاجـــر خردة لديه عمارات سكنية . . الخ ..

فى طلعة الصبح سأل مأمون : لماذا لم يأت كحكوح كما وعد ؟ . فأخبره طارق بأنه ليس من المهم أن يعود وانه حسنا ما فعل ، أحيـــانا يحلو له أن ينكد على الســـاهرين بدون أى سبب الا ارضـــاء لمزاجه الشيطانى . ثم أشار طارق الى لافتة مكتوبة على رأس السرداب بالبلاط القيشانى الملون ، قرأها مأمون فاذا هى : (من دخـــل غرزة كحكوح فهو آمن) . فضحك مأمون حتى دمعت عيناه . وقال طارق :

ـ « مع هذه اللافتة الواثقة من نفسها .. فانه كثيرا ما يصيح : يلا يا أفندى انت وهو أحسن الجو مش كويس .. الحكومة بتمر ..

فيقول له أحدهم : وهذه اللافتة أين سرها ؟ فيشوح قائلا : واحنا برضه يكون عندنا نظر .. العجيب انه لا أحد يجـــرؤ على دخول هذا المكان الا برغبة كحكوح ورضائه » ..

وقال مأمون :

ـ « شيء فى منتهى الجنون .. مجتمع كحكوح » ..

وكان الأسى قد عاد يغلف وجهـه حين شرع ينزل عن الربوة مع صديقه طارق ..

وقال مأمون :

ـ « عايزين نشترى الجرايد » .

فقال طارق :

ـ « ونفطر فول وطعمية » ..

فقال مأمون :

ـ « وآخد بعضى وأسافر » ..

ومضيا معا فى اتجاه المشهد الأزرقى .

مأمون لا يطيق الصفحات الأولى فى جرائد بنى الأزرق القومية .. لكن طارق يقرأها . واذا به يطبق على الجرنال فى دهشة كبيرة ويصيح جاحظ العينين :

ـ « ايه .. معقولة ؟ .. مش ممكن .. يا نهار أسود ؟ » .

قال مأمون فزعا :

ـ « الحرب قامت ؟ » ..

فعرض عليه الجرنان ذاهلا يشير الى خبر كبير فى الصفحة الأولى حول صـــورة لسيف الماوردى . انعقد جبين مأمون وتحول الى جمرة ملتهبة بمجرد وقوع بصره على المانشتات الكبيرة التى تقول :

(القبض على سيف الماوردى فى جريمة غامضة) .

(سيف الماوردى متهم بقتل زوجته الفلاحة بسيمة أحمد ربيع) .

(سيف الماوردى ليس اسـمه سيف ولا ماوردى .. بل اسـمه هريدى خليل هريدى) .

(المتهم يدبر للجريمة تدبيرا محكما يكشف عن شخصية مجـــرم اصيل متأصل) .

ثم ان مأمون لم يشأ قراءة الموضـــوع . بل طوى الجرنان فى شعور شـــديد بالتقزز والقرف واليأس . ونهض متوترا يرتعش من الغضب المكتوم والقهر والذهول والمفاجأة . وودع طارق على عجل . ونظر خلفه فعرفت أنه يطلبنى فاندفعت وراءه أجرى ..

أتاح لنا الصباح المبكر سيارة أقلتنا الى شـقة سيف الماوردى . وانفتح بابها عن الست وسيلة بوجه ملفوف بالطرحة السـوداء ولكنه بارز القوة والتصميم والشجاعة . قالت باسمه فى حزن : « اتفضل » . فدخلنا . وقال مأمون : « منذ متى قبض على خالى سيف ؟ ـ ثم استدرك فى فزع ـ الأستاذ سيف أقصد ؟ » . فثقبته بنظرة ذات معنى كأنها كشفت أحد أسراره الكامنة . ثم جلست قائلة : « منذ بضعة أيام .. ولم أتمكن من الاتصال به .. لكننى سوف أتصل به .. لن تستطيع جدران أو قوة أن تمنعنى عنه » . وقال مأمون فى حذر : « هل علمت شيئا عن زوجته هذه المزعومة ؟ » . قالت وسيلة : « لقد لفقوها له .. نعم لفقوها له » . قال مأمون : « ألم يحك لك شيئا عن زوجة سـابقة فى حياته ؟ » . قالت : « لا .. لم يحدثنى عن شيء . وهى قصـــة من اختراعهم » ..

ثم حط عليهما صمت عميق مؤسف مؤلم ، قطعه مأمون بنسيج حاد . ثم مضى وأبدى الرغبة فى الانصراف . لكنها احتوته فى حضنها وقبلت رأسه . فاستسلم لها . فقالت : « عايز تقول حاجة ؟ أنا حاسة انك عايز تتكلم » . قال مأمون فى ضعف حقيقى : « نعم .. عايز أتكلم .. عايز واحد صديق يحبنى واحبـــه عشان أفرغ اللى ف قلبى كله قدامه » . فربتت على ظهره قائلة : « أنا يا حبيبى .. أنا صـــديقك الوحيد .. خليك معايه .. أنا برضه عايز أتكلم معـــاك .. اعتبرنى والدتك .. اسمع .. تعالى ننزل سوا .. نتمشى .. نشم هوا .. نتفسح » . فمضى مأمون وراءها كطفلهـــا الصغير . وكان يحس كأنه يمشى بجوار فتاته التى داعبت أحلامه وخياله ، فكان ينتفض من الفرح . وكان السياح يملكون شوارع العاصمة ويحتلون كل أماكنها ومرافقها ، فاختارت وسيلة أن يكون مشيهم بين شعاب الجبل . وكان الجو جميلا حقا والهدوء ســائد . وكان مأمـون قد بدأ يحكى لها ـ وبكل صراحة وصفاء ـ عن خالته بسيمة وخاله هريدى .. وهى تستمع اليه بكل دقة ..

وكان من حقى عند هذه اللحظة أن أشعر بغاية الاطمئنان ، ولكننى كنت قد بدأت أشعر من جديد بالحنق والغضب . فمبدئيا ، لو من أن اجتماع مأمون بالست وسيلة هو البداية الصحيحة المبشرة بتجميع خيوط القضية كلها ، وعلى يديهما معا قد تتجمع أشلاء المأساة .. ولكن المؤكد أن ذلك سيستغرق وقتا ربما يطول ويطول . بل وربمـــا أدى تراكم الأسرار فى الصدور الى مزيد من الأسرار كما يحدث دائمـــا فى تاريخ بنى الأزرق بوجه عام ..

وكان بامكانى ـ لو لم أكن كلبا ـ أن أختصر عليهما كل الوقت والجهد وأحكى لهما التفاصيل التى تتجمع بنـــاء عليها خيوط القضية وأشلاء المأساة . لكننى مع الأسف كلب نشأت لا أملك القدرة على القول حتى وان تعلمتها ، ولا اجرؤ على التصريح بشىء حتى وان عرفت الكثير .

ولا على البـــوح وان أمرت به . فى اعتقادى ان الكثيرين غيرى قد رأوا هذه التفاصيل نفسها ألموا بها وبكل شىء .. فمن كان منكم يعرفهـــا ولا يكشف له عنها فانه يكون كلبـــا مثلى .. أما أنا فلم أعد قادرا على ممارسة هذه المشاعر الضاربة فى نخاعى ، لم أعد أطيق القـــدرة على الاختزان . وهذا هو السر فى أن مأمون والست وسيلة أصبحا فى اليوم التالى فلم يجدانى . أشعر انهما سيحسان بكثير من الأسف لفقدى . ولكنى أشعر ان مأمون ســـيحدثها كثيرا عنى ، وستحدثه كثيرا عنى ، وستتصل الخواطر وتلمع الأفكار .. وستنفتح كل أبواب هذه التغريبة المدهشة على بعضها ، وتصبح مكشوفة لهما وللجميع ان عاجلا أو آجلا . ولكننى من نفس هذه الأبواب قد ودعتهم فى الفجر وانطلقت الى حيث يشدنى شوق عارم لمكان ما ورائحة ما . فما ان وصلته حتى تبينت انه تلك الربوة المرتفعة التى لازلت أذكرها فى طفولتى يوم انضربت فوقها امى بالنبوت وهوت الى قاع المستنقع الملىء بالحلفاء ، ها أنذا أجرى وأجرى فوق القمة نفســـها ثم انداح فى المنحدر هاويا الى قاع المستنقع نفس المستنقع . لست متحققا مما اذا كنت مندفعا باشعاع أمى حيث ذابت هنا ذات عام بعيد ، أم اننى وجدت رائحة المستنقع أقل كثافة من مستنقع الحياة بين بنى الأزرق الملاعيب ، ولدرجة الجذب ؟ .. أغلب الظن انه كذلك .

ختـــــام .

(المعادى ـ ١٩٨٠)